
المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
العرافة
تأليف: مرجريت آتوود
ترجمة وتقديم: مصطفى عز
مراجعة: محمد رشدى
1226
الإبداع
القصصى

العرّافة

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٢٢٦
- العرّافة
- مرجريت أتوود
- مصطفى عز
- محمد رشدى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:

Lady Oracle

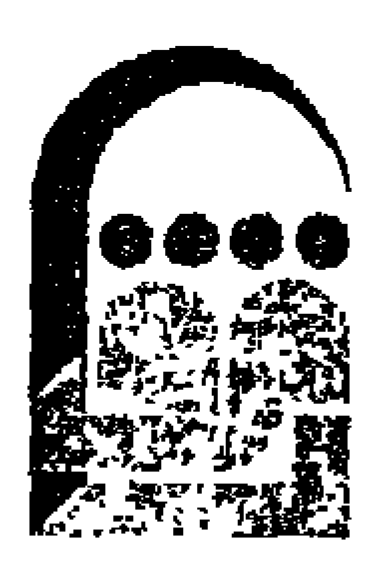
By: Margaret Atwood

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 - 27354526.
Fax: 27354554

العرّافة

تألـيـــــف: مرجريت أتوود
ترجمة وتقديم: مصطفى عـز
مراجعــــــة: محمد رشدى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

أتوود، مرجريت.
العرافة: تأليف: مرجريت أتوود؛ ترجمة وتقديم: مصطفى عــز؛ مراجعة: محمد رشدى - القاهرة: المركز القــومى للترجمــة، ٢٠٠٨.
٦٠٠ ص؛ ٢٠ سم
١- القصص الإنجليزية
أ- عز، مصطفى (مترجم ومقدم)
ب- رشدى، محمد (مراجعة) ٨٢٣
ج - العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٣٥٦٣
الترقيم الدولى: 4 -797 - 437 -977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتوى

مقدمة المترجم

"خططت لموتي بعناية؛ على عكس حياتي، التي تقلبت من حال إلى حال، على الرغم من محاولاتي الواهية للتحكم فيها. اشتملت حياتي على نزعة إلى الانتشار والترهل، والتزخرف والتزين، مثل إطار مرآة مزخرفة بدقة تدعو للتعجب".

هكذا تبدأ مارجريت أتوود روايتها، بفقرة مليئة بالغموض، تجمع في ثناياها البداية والنهاية، الحزن والسخرية، الصمت والضجيج، الوعي والثبات، وقلة الحيلة، كل ذلك في وقت واحد.

ويكاد القارئ يلمس منذ بداية الرواية تمكن المؤلفة من الدخول إلى الواقع، حيث تعرض في أحداثها بأسلوب بسيط شيق قصة حياة امرأة قد تصل في واقعيتها لدرجة أن يظن القارئ أنها تتحدث عن نفسها.

استطاعت الكاتبة ببراعة أيضًا أن تضفّر ثلاثة خطوط مختلفة ومتشعبة لحياة بطلتها، ثم تجمعها في النهاية بذكاء وأسلوب فني متميز.

وتمس الكاتبة في القصة مجموعة من القضايا الاجتماعية المعاصرة والمشكلات التي تمس المرأة الأوروبية والمجتمع الغربي بشكل عام، ساخرة أحيانًا سخرية لاذعة، ولا تخلو من الإثارة المتعلقة

بتطور الأحداث، ففى أحيان كثيرة يفاجأ القارئ بما لم يكن يتوقع، مما يضفى على القراءة عنصر التشويق بالإضافة إلى خفة الظل التى تتمتع بها الكاتبة.

وسوف نلمس سخريتها اللاذعة فى تناولها لموضوع ما يُسمى "بالكتابة الأوتوماتيكية"، حيث يزعم البعض أن فى إمكان بعض الأشخاص كتابة جمل وكلمات بلا وعى أو علم من كاتبها، وهو فى حالة غشية. وهذا النوع من الكتابة لجأ إليه بعض المشعوذين والدجالين خاصة فى العالم الغربي، وقد استخدمته أيضًا جماعة من المتطرفين اللاهوتيين، وادَّعوا أنه يصلح نوعًا من العلاج النفسي، وهو أمر يحيطه الكثير من الشك، فليس ثمة دليل علمى على فائدته فى هذا المضمار. كما أن الريبة تحيط بفكرة أنه يمكن عن طريق الكتابة الأوتوماتيكية استحضار بعض الذكريات المكبوتة. هذا بالإضافة إلى أن الكثيرين يثيرون الشكوك فى أن الكتابة الأوتوماتيكية لها علاقة بالروحانيات من الأصل، فليس هناك أى دليل مادى أو حتى منطقى يؤكد هذه العلاقة.

ونستطيع أن نستكشف أبعاد القضية الرئيسية التى تتناولها الكاتبة فى هذه الرواية من السطور القليلة جدًّا التى بدأت بها الرواية والمذكورة فى بداية هذه المقدمة. تدور الرواية حول قصة حياة امرأة عانت منذ طفولتها من علاقة معقدة بأمها، ظلت تؤثر فى نفسها وتهيمن على حياتها منذ الطفولة ثم فى مرحلة المراهقة المتشعبة

والمتغيرة، وحتى حدوث نوع من الانهيار التام خلال مرحلة النضج نتيجة الضعف وقلة الحيلة وعدم سبر أغوار تلك النفس البشرية النزّاعة إلى إشباع الرغبات.

وتأخذنا الكاتبة خلال تسلسل الأحداث فى مجموعة من الأزمنة المتغيرة التى تتنقل خلالها ببراعة وبحرفية بالغة، فهى تتحدث عن تاريخ وأحداث متصلة وقعت لها منذ طفولتها (فى الزمن الماضى)، وفى نفس الوقت تنتقل إلى قصة تؤلفها كخيط منفصل وإن كان له علاقة دائمًا فى تطوره بحياتها نفسها (وهذه القصة لها زمنها الخاص المنفصل)، ثم إنها تعيش فى الوقت الحاضر (زمن الرواية)، الذى تعيشه بعد الانهيار التام لحياتها الزوجية.

وسوف يضطر القارئ فى نهاية القصة إلى الدخول فى تخمينات حول المصير النهائى للبطلة، إذ تفاجئنا بنهاية مفتوحة تقريبًا، وإن حوت بعض الإشارات إلى المستقبل.

وعلى أية حال فإنه مهما كانت النهاية، فإن ذلك لا ينتقص على الإطلاق من المستوى الأدبى والفنى الراقى لرواية "العرافة"، وكاتبتها المتميزة مارجريت أتوود.

ولا شك عزيزى القارئ أنك سوف تشعر بالحرفية التى تتمتع بها الكاتبة فى الرواية، وخاصة ما يتعلق بالغوص فى أعماق النفس البشرية ومحاولة تحليلها، رغم البساطة الواضحة فى العرض.

الجزء الأول

الفصل الأول

خططت لموتى بعناية؛ على عكس حياتي، التى تقلبت من حال إلى حال، على الرغم من محاولاتى الواهية للتحكم فيها. اشتملت حياتى على نزعة إلى الانتشار والترهل، والتزخرف والتزين، مثل إطار مرآة مزخرفة بدقة تدعو للتعجب، وهذه الحياة نتجت عن اتباع خط أقل مقاومة ممكنة. وعلى النقيض من ذلك، رغبت أن يكون موتى نظيفًا وبسيطًا، ويتم على نحو أقل مما تقتضيه العادات والتقاليد، بل وقاسيًا إلى حد ما، مثل صلاة صامتة أو ثوب أسود بسيط به صف واحد من اللآلئ كثيرًا ما امتدحته مجلات الموضة عندما كنت في الخامسة عشرة. لا صرخات مدوية، ولا أبواق ولا ترتر فى الثوب ولا نهايات مفتوحة به هذه المرة. كانت اللعبة أو الحيلة فى أن أختفى بلا أى أثر، تاركة ورائى خيال جثة، خيالاً يظنه الجميع حقيقة مادية ملموسة. فى البداية اعتقدت أنى دبرت الأمر بإحكام.

بعد يوم واحد من وصولى إلى تيريموتو **Terremoto**، كنت جالسة فى الشرفة. كنت أنوى من قبل أن آخذ حمامًا شمسيا، وكنت أتخيل نفسى كإحدى روائع جمال البحر الأبيض المتوسط، وقد اكتسبت اللون البنى الذهبي، وأنا أخطو خطوات واسعة بأسنان ضاحكة فى مياه البحر، خالية من الهموم أخيرًا، وقد نبذت الماضي؛

ولكن سرعان ما تذكرت أنه ليس لدى كريم " الوقاية التامة" الملطف للبشرة (بدونه سوف أحترق وأصاب بالنمش)، لذلك فقد غطيت كتفى وفخذى بالعديد من فوط الحمام الصغيرة الخاصة بصاحب البيت. لم أحضر معى رداء استحمام فى البحر؛ الملابس الداخلية وصديرية الثديين ستقوم بالغرض، اعتقدت ذلك، حيث أن الشرفة كانت غير مرئية للسائر فى الطريق.

كنت دائمًا مغرمة بالشرفات، شعرت أنى لو كنت أستطيع فقط أن أنجح فى الوقوف بإحدى الشرفات الطويلة، والمناسبة، مرتدية عباءة بيضاء طويلة متدلية، ويُستحسن أن يكون ذلك خلال الربع الأول من القمر، فإن شيئًا ما سوف يحدث: سوف تصدح الموسيقى، ويظهر شبح شخص أسفل الشرفة غير واضح المعالم، ويشق طريقه نحوى بينما أتكئ أنا فى مزيج من الخوف والأمل والرشاقة على حافة السور الحديدي، وأرتعش. ولكن هذه لم تكن شرفة شديدة الرومانسية، حيث إن لها سورًا هندسيًا مشابهًا لتلك الأسوار الملحقة بشقق بنايات ذوى الدخل المتوسط فى الخمسينيات. وكانت الأرضية مصنوعة من الخرسانة الأسمنتية المصبوبة، وقد بدأت بالفعل فى التآكل، لم تكن من نوع الشرفات التى يقف الرجل أسفلها عازفًا على آلة العود يملؤه الحنين أو متسلقًا يحمل وردةً بين أسنانه أو خنجرًا فى كُمّه. إلى جانب ذلك كانت الشرفة تبعد خمسة أقدام فقط عن الأرض. إنّ الزائر المجهول الذى يمكن أن أحظى به يصل فى الغالب عبر

الممر السفلى غير الممهد المؤدى من الشارع إلى المنزل، أقدامه تحدث جلبة فوق الحصى، والورد أو الخنجر لا وجود لهما إلا فى خياله فقط.

وفكرت أن هذا على أية حال هو أسلوب آرثر، الأرجح أنه سوف يحدث جلبة ولن يتسلق الشرفة. ليتنا نستطيع أن نعود إلى الأسلوب الذى كان عليه فيما مضى، قبل أن يتغير...... تخيلته قادمًا ليستردني، شاقًا طريقه الملتوى وهو يصعد التل فى سيارة فيات مؤجرة بها عيب ما سوف يحدثنى عنه لاحقًا بعد أن يكون كل منا قد ارتمى بين ذراعى أخيه. ويوقف سيارته أقرب ما يكون إلى الحائط، وقبل أن يخرج منها يفحص وجهه فى مرآة السيارة ليضبط تعبيره ويُعدّل منه: فهو لا يحب أبدًا أن يكون فى موضع سخرية، ولن يتأكد مطلقا ما إذا كان سيتعرض لذلك أم لا. بعد ذلك يفك حزام الأمان ويخرج من السيارة، ويغلقها بإحكام، حتى لا تتعرض أمتعته الضئيلة للسرقة، ثم يضع المفاتيح فى أحد جيوب سترته الجانبية، ويلتفت يمينًا ويسارًا، ثم، وبنفس حركة انحناءة الرأس الفضولية، وكأنه يتفادى حجرًا ملقى على الأرض أو سقف مدخل منخفض، يتسلل عبر البوابة الصدئة، ويبدأ السير بحذر على الممر. كانوا عادة يوقفونه عند الحدود الدولية. لأنه كان يبدو كتومًا شديد الغموض، غامضًا ولكن مستقيمًا وتصرفاته كلها صحيحة، مثله مثل الجاسوس.

ولدى رؤيتى لأيانكى آرثر وهو يتقدم نحوى ، بوجه غامض خالٍ من التعبير، عاقدًا النية على إنقاذى واستردادى بالقوة، وهو يرتدى حذاء غير مريح، وملابس داخلية قطنية قديمة، ولا يعلم حقيقة ما إذا كنت هناك أو لم أكن، بدأت فى النحيب. أغمضت عينىّ : تخيلت أمامى عبر امتداد هائل من المياه الزرقاء، التى أدركت أنها مياه المحيط الأطلسي، كل شخص تركته على الجانب الآخر من المحيط. كنت قد شاهدت كثيرًا من أفلام فيللينى، على الشاطئ بالطبع. موَّجت الرياح شعورهم، وابتسموا ولوحوا لي، ونادوا علىّ، ولو أنى بالطبع لم أستطع سماع الكلمات. كان آرثر هو الأقرب، وكان خلفه الفنان الكوميدى العبقرى الذى لُقّب برويال بوركوباين (أى الشيهم" حيوان شائك كالقنفذ " الملكى) وكان غير ذلك يُعرف بلقب شاك بروار (أى من يقوم بتخمير أنواع من الطعام) ، وهو يزهو بالرداء الخارجى الطويل بلا كُمّين الذى كان يطرحه على كتفيه المتباهية، ثم جاء بعد ذلك سام ومارلين والآخرون. ارتعشت ليدا سبروت، ومالت إلى جانب واحد مثل ملاءة السرير، واستطعت أن أرى مرفق فريزر بانتشانان المُرقَّع بالجلد المدبوغ باديًا من حيث كان يختبئ خلف شجيرة بجوار البحر. وكانت أمى وراءه مرتدية طقم بحرى أزرق اللون وقبعة بيضاء، وكان أبى بجانبها غير واضحٍ، وعمتى لو. وكانت عمتى لو هى الوحيدة التى لم تنظر إلىّ، كانت تمشى بطول الشاطئ وهى تتنفس بعمق، وتبدى إعجابها بالأمواج،

وتقف بين الحين والآخر لتفرغ حذاءها من الرمال، وفى النهاية خلعته واستمرت فى سيرها مرتدية فراء ثعلب وقبعة مكسوة بالريش، وجورب فى قدميها واتجهت نحو كشك بعيد لبيع المقانق وعصير برتقال لفت نظرها من الأفق وكأنّه سراب لزج لم يجف بعد.

ولكنى كنت مخطئة فيما يتعلق ببقيتهم. كانوا يبتسمون ويلوّحون لبعضهم البعض وليس لي. هل يمكن أن يكون الروحانيون مخطئين، وألا يكون الموتى مهتمين بالأحياء فى النهاية ؟ وعلى الرغم من أن بعضهم كان لا يزال حيًّا، وكنت أنا الشخص الذى من المفترض أن يكون قد مات، وكان يجب أن يكونوا فى حالة حداد، لكنهم بدلاً من ذلك بدوا وكأنهم مبتهجون تمامًا. لم يكن ذلك من العدل. حاولت أن أدعو بحدوث شىء يثير التشاؤم على شاطئهم ـــ كوجود تمثال لرأس ضخم، أو سقوط جواد _ ولكن دعائى لم يُستجب إليه. فى الحقيقة كان ذلك أقل من أن يشبه أحد أفلام فيللينى، عن ذلك الفيلم الذى شاهدته لوالت ديزنى عندما كنت فى الثامنة من عمري، وكان حول حوت أراد أن يغنى فى حفل فى دار أوبرا متروبوليتان. اقترب من سفينة وغنى ألحانًا فردية، ولكن البحارة طعنوه برماح صيد الحيتان. وترك كل صوت لفظ به جسده فى روح مختلفة الألوان، وتصاعدت نحو الشمس، وهى لا تزال تغنى. أظن أنّ الأغنية كانت تُسمى : الحوت الذى أراد أن يغنى فى متروبوليتان. وفى ذلك الوقت بكيت بشدة.

كانت تلك الذكريات هى التى أطلقتنى حقيقة فى البكاء. لم أتعلم أبدًا أن أبكى بأناقة، بصمت، تنساب الدموع على وجنتىّ فى صورة لآلئ من عيون واسعة مضيئة غير تاركة أية أثار أو لطخات، كما على أغلفة مجلات "الحب الحقيقي" الكوميدية. تمنيت لو كنت كذلك، إذا لاستطعت أن أبكى أمام الناس بدلاً من البكاء فى الحمامات، وفى دور العرض السينمائية المظلمة، أو فى الأراضى التى تكسوها الشجيرات أو حجرات النوم الفارغة، وسط سترات الحزب الملقاة على الفراش. لو استطعت البكاء بصمت فإن الناس سيشعرون بالأسف من أجلك. لكنى فى الواقع كنت أشخّر وتتحول عيناى إلى لون وشكل الطماطم المطبوخة، ويسيل أنفي، وأكور قبضتيّ، ويرتفع أنيني وعويلي، كنت أثير الحرج، وفى النهاية أصبح مسلية، وموضع سخرية. كان الحزن دائمًا حقيقيًّا، ولكنه كان يبدو كتقليد ساخر للحزن، محاكاة مفرطة، مثل الوردة المرسومة بضوء النيون فى محطات بنزين "الوردة البيضاء"، التى ذهبت الآن بلا رجعة.... كان البكاء المحتشم واحد من تلك الفنون التى لم أتقنها أبدًا، مثله مثل وضع الرموش الصناعية. كان يجب أن تكون لى مربية أطفال، كان يجب أن أذهب إلى مدرسة بنات خاصة تدربهن فى الأساس على الأمور الاجتماعية والثقافية، وأحصل على لوحة تُحزّم على ظهرى وأتعلم الرسم بالألوان المائية وضبط النفس.

"لا يمكنك تغيير الماضى"، تعودت العمة لو أن تقول ذلك. أوه، ولكنى رغبت فى تغييره، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذى أردت حقيقة أن أفعله، هزّنى الحنين. كانت السماء زرقاء والشمس مشرقة، وعلى اليسار كانت بركة صغيرة موحلة من شظايا زجاج تومض مثل المياه، ووقفت سحلية صغيرة خضراء ذات عيون قزحية زرقاء تدفئ دمها البارد على الدرابزين، ومن الوادى جاء صوت كالرنين، وخوار هادئ، وهدهدة أصوات غريبة. كنت آمنة، يمكننى أن أبدأ من جديد، ولكن بدلاً من ذلك جلست فى شرفتي، بجوار بقايا نافذة مطبخ كانت قد كُسرت قبل أن أحضر إلى هنا، على مقعد مصنوع من أنابيب ألومونيوم وعيدان بلاستيكية صفراء تصدر ضجيجا خانقا.

المقعد يملكه السيد فيترونى صاحب البيت، الذى كان مغرمًا بأقلام ذات حافة من اللبادة وبأحبار مختلفة الألوان: أحمر، وردى، قرنفلي، برتقالي، ذوقه هذا شاركته أنا فيه، كان يستخدمها ليعرف الآخرون فى المدينة أنه يستطيع أن يكتب، بينما كنت أستخدمها أنا لكتابة قوائم ورسائل غرامية، وأحيانًا كليهما فى وقت واحد: *ذهبت لتناول بعض القهوة، XXX*. كان التفكير فى رحلات التسوق التى تخليت عنها يزيد من شجوني.... لن يتم شراء ثمار الكريب فروت، مُقطّع نصفين لشخصين مع كرز أحمر برّى شبيه بكتلة صخرية بحرية ناتئة، اعتاد آرثر أن يزيحه إلى جانب الطبق؛ كما لن يتم شراء عصيدة الشوفان المجروش، التى أحتقرها ويطرى آرثر عليها

بشدة، وهى متكتلة ومحترقة لأنى لم آخذ بنصيحته وأعددتها على موقد له شعلتين... سنوات طويلة من إعداد وجبات إفطار رديئة الطهي، ولا يقبل أحد عليها، لن تعود أبدًا.. سنوات من وجبات إفطار فاسدة، لماذا كنت أُعدّها ؟

أدركت أنى جئت إلى أسوأ مكان فى العالم بأسره. كان يجب أن أذهب إلى مكان نقى ونظيف، مكان لم أذهب إليه من قبل. بدلاً من ذلك عدت إلى نفس المدينة، حتى نفس البيت الذى قضينا فيه الصيف فى العام قبل الماضي، ولم يتغير شيء، كان على أن أطهو على نفس موقد الغاز ذى الشعلتين وأسطوانة الغاز (بومبولا بالإيطالية) التى دائمًا ما تفرغ فى منتصف إعداد وجبة الغداء، وأن أتناول الطعام على نفس المنضدة التى لا يزال يوجد على طلائها دوائر بيضاء نتيجة إهمالى السابق بوضع الأكواب الساخنة عليها، وأنام على نفس الفراش، الملاءة مجعدة بسبب قِدَمها، وهناك عصبية العديد من النزلاء. شبح آرثر سوف يطاردني؛ تمكنت بالفعل من سماع ضوضاء غرغرة خافتة صادرة من الحمام، صوت تهشم زجاج، كما لو كان يحرك مقعده إلى الخلف محدثًا جلبة فى الشرفة، ينتظرنى حتى أناوله فنجان القهوة من خلال نافذة المطبخ. إذا فتحت عينى وأدرت رأسي، بالتأكيد سوف يكون هناك، ممسكًا بالجريدة على بعد ست بوصات من وجهه، وقاموس جيب على إحدى ركبتيه

وربما تاركًا سبابته داخل أذنه، وهى حركة كان يقوم بها بلا وعى وينكر أنّه يفعلها.

كان ذلك غباء منى، خطئى أنا، كان يجب أن أذهب إلى تونس، أو جزر الكناري، أو حتى شاطئ ميامى بأتوبيس شركة جرايهاوند، فى رحلة شاملة الإقامة بالفندق، ولكن لم تكن لدى قوة إرادة كافية، كنت فى حاجة إلى شيء ما أكثر ألفة، مكان ليس به قيود، ولا علامات على الأرض تحدد خطواتي، ولا تفكير فى الماضى مطلقًا، لأن ذلك يصبح أقرب شبهًا بالموت.

فى هذا الوقت كنت أنتحب نحيبًا متقطعًا، مستخدمة إحدى فوط حمام صاحب البيت. وقد ألقيت فوطة أخرى فوق رأسي، عادة قديمة، فقد تعودت أن أبكى تحت وسادة كى لا يكتشف أحد بكائي. ولكنى من خلال الفوطة استطعت الآن أن أسمع صوت نقر غريب، لابد أنه كان مستمرًا منذ وقت ما، أصغيت ولكن الصوت توقف، رفعت الفوطة، وفجأة هناك، وفى مستوى كاحلى وعلى بعد ثلاثة أقدام فقط مني، برزت رأس، رأس رجل عجوز، تعلوها قبعة من القش المتشابك. حملقتْ نحوى العينان الضاربتان إلى البياض، معبرتين عن تحذير أو استنكار؛ كان فمه غائرًا حول لثتيه، ومفتوحًا من أحد جانبيه. من المؤكد أنه سمعني، ربما اعتقد أنى كنت أقوم بهجوم من نوع معين، بملابسى الداخلية، والفوط التى تغطينى فى الشرفة، وربما اعتقد أنى ثملة.

ابتسمت بكآبة لطمأنته، وأحكمت الفوط حول جسدي، وحاولت أن أخرج من الكرسى الألمنيوم، متذكرة بعد فوات الأوان أنه ينطوى فجأة إذا قاومته، فقدت العديد من الفوط قبل أن أتمكن من العودة للداخل.

عرفت ذلك الرجل العجوز. كان نفس الرجل الذى اعتاد المجيء عصر يوم أو يومين كل أسبوع ليرعى نبات الخرشوف المزروع بالحديقة الجدباء الموجودة أسفل المنزل، وذلك بقطع الأعشاب الضارة الكبيرة بمقص صدئ ويجنى رءوس الخرشوف القوية التى تم نضجها. وعلى عكس الآخرين فى المدينة، كان العجوز لا يتحدث أبدًا إلىّ، أو يرد بكلمة ترحيب. لقد أصابنى بشعور من الخوف والبغض. ارتديت ملابسى (خلف الباب وبعيدًا عن مرأى النافذة الكبيرة ذات اللوح الزجاجى الكبير الذى يسمح لك برؤية أشمل لما هو خارج المبنى)، وذهبت إلى الحمام لأمسح وجهى بقطعة قماش رطبة لغسل الوجه وأتمخط ببعض ورق المرحاض الخشن الذى يضعه السيد فيترونى صاحب البيت، ثم إلى المطبخ لإعداد كوب من الشاي.

ولأول مرة منذ وصولي، بدأت أشعر بالخوف، كانت عودتى إلى هذه البلدة مثيرة لما هو أكثر من الاكتئاب، كانت خطرة. لا خير فى الاعتقاد بأنك محجوب عن أعين الناس إذا لم تكن كذلك، وكانت

المشكلة: إذا كنت قد تعرفت على الرجل العجوز، فربما يكون هو أيضًا قد تعرف عليّ.

الفصل الثانى

جلست إلى المنضدة لشرب الشاى. كان الشاى حينئذ يريحنى ويواسيني، ويمكن أن يساعدنى على التفكير، ولو أن هذا الشاى لم يكن ذا جودة عالية، فقد كان فى أكياس وتنبعث منه رائحة الشرائط الطبية اللاصقة. كنت قد اشتريته من محل البقالة الرئيسي، مع عبوة من بسكويت "بيك فرين" الذى يتم استيراده من إنجلترا. احتفظ المحل بمخزون ضخم من تلك العبوات متوقعًا قدوم موجة من السائحين الإنجليز الذين لم يحضروا حتى ذلك الوقت، وقد كُتب على العبوة: صنع بإذن خاص من جلالة الملكة، (توقيع) منتجو البسكويت؛ وقد وجدت ذلك نوعًا من رفع الروح المعنوية. الملكة لن يسيل أنفها: لن ينفع الندم. وقال صوت ملكى جهورى صارم،" استجمعى قوتك ورباطة جأشك." اعتدلت فى مقعدى وفكرت مليًّا فيما يجب عمله.

كان علىّ اتخاذ إجراءات وقائية، بالطبع. كنت أستخدم اسمى الآخر، وعندما ذهبت لرؤية ما إذا كانت شقة السيد فيترونى مناسبة، ارتديت نظارتى الشمسية، وغطيت رأسى بوشاح كنت قد اشتريته فى مطار تورنتو، مرسوم عليه باللون القرنفلى رجال شرطة يمتطون الخيل ويقومون باستعراض مهارات الفروسية قبالة خلفية لجبال روكى الأرجوانية، ومكتوب عليه" صُنع فى اليابان ". غطيت جسدى بثوب من النوع الشبيه بالجوال، قرنفلى اللون أيضًا، ومطبوع عليه

ورد أزرق صغير، كنت قد اشتريته من أحد بائعى شوارع روما. لو كان الأمر بيدى لفضلت الورد الأحمر الكبير، أو زهور الداليا البرتقالية: هذا الرداء جعلنى شبيهة بمساحة معينة من ورق الحائط. ولكنى أردت شيئًا ما لا يلفت النظر. لم يتذكرنى السيد فيترونى، كنت متأكدة من ذلك. على أية حال فإن الرجل العجوز رآنى بدون ماكياج ولا قناع، وما كان أسوأ من ذلك هو شكل شعري: شعر أحمر طويل حتى الخصر كان ملحوظًا جدًّا فى هذا الجزء من البلاد.

كان البسكويت صلبًا مثل الجبس، وبطعم صخرة مسطحة. أكلت القطعة الأخيرة بعد أن غمستها فى الشاي، وأخذت أمضغها تلقائيًّا قبل أن أكتشف أننى تناولت العبوة بأكملها. كان هذا مؤشرًا سيئًا، وكان علىّ أن ألاحظ ذلك.

قررت أنه كان من المفروض أن أفعل شيئًا فيما يتعلق بشعري، فقد كان أمارة وشاهدًا على شخصيتي، فطوله كان قد أصبح نوعا من العلامة التجارية المسجلة. وكل قصاصة من صحيفة، صديقة أو معادية، ذكرت ذلك عنى وكُرست له فيها حقيقة مساحات كبيرة: الشعر عند الأنثى ينظر إليه على أنه أكثر أهمية من وجود الموهبة أو من عدم وجودها. الكاتبة المشهورة جوان فوستر، مؤلفة قصة *المرأة العرافة*، التى تشبه أحدى لوحات روسيتى الشهيرة، فى قوة تأثيرها المتألق ، أنامت جمهور القراء مغناطيسيا، بشعرها الساحر. ... هكذا كتبت جريدة [نجم تورنتو]، الشاعرة النثرية جوان

فوستر هذه كانت تبدو ذات جمال مهيب بشكل يثير إعجاب الجميع بشعرها الأحمر المناسب والثوب الأخضر، ولسوء الحظ لم تكن شهرتها مُدوّية على نطاق واسع ... هكذا ذكرت صحيفة(جلوب آند ميل) ". كان بإمكانهم اقتفاء أثر شعرى بسهولة أكثر من اقتفاء أثرى أنا. كان ينبغى على أن أقصه وأصبغ الجزء الباقي، ولو أنى لم أكن متأكدة من أين يمكننى الحصول على صبغة للشعر، بالتأكيد ليس فى هذه البلدة، سيكون لزامًا على أن أعود إلى روما لأحصل عليها، كان يجب أن أشترى باروكة، فكرت أن ذلك كان سهواً منى.

ذهبت إلى الحمام، وأخرجت مقص الأظافر من حقيبة الماكياج. كان صغيرًا جدًّا، ولكنّ الخيار الذى كان أمامى هو أن أستخدمه هو أو إحدى سكاكين التقشير غير الحادة الخاصة بالسيد فيترونى. واستغرقت عملية قص شعرى جديلة بجديلة وقتا طويلا... حاولت تشكيل الجزء الباقى منه، لكنه كان يزداد قصرًا، ورغم ذلك لم ينتظم، حتى رأيت أنى حصدت رأسى لتصبح مثل رأس نزيل أحد معسكرات اعتقال الأسرى أو المعتقلين السياسيين. ورغم ذلك بدا وجهى مختلفًا تمامًا: وكان من الممكن أن يعتقد الناس هناك أننى سكرتيرة أقضى أجازتى فى بلدهم.

وبقى الشعر راقدًا فى أكوام ودوائر داخل حوض الحمام، وأردت أن أحتفظ به؛ وفكرت لوهلة فى ترتيبه وحفظه فى أحد أدراج المكتب، ولكن كيف أشرح سبب وجوده إذا ما وُجد هناك؟ سوف

يبدأون فى البحث عن الذراعين والأقدام وبقية الجسد. يجب أن أتخلص منه. فكرت فى إلقائه فى المرحاض وإغراقه فى مائه المنهمر عليه، ولكنه كان أكثر من اللازم، وكان صهريج الماء المتعفن قد بدأ يعمل بطريقة شاذة غير متوقعة، لافظًا رائحة غاز مستنقع وقطع صغيرة من ورق المرحاض المتعفن.

أخذت الشعر إلى المطبخ، وأشعلت إحدى عيون الموقد، ثم بدأت التضحية بشعرى جديلة بجديلة، كانت تتكمش وتسود وتتطوى مثل حفنة من الدود الخيطى الصغير، وتنصهر ثم تحترق أخيرًا، وهى تحدث طقطقة مثل سلك الانصهار. كانت الرائحة المنبعثة تشبه رائحة ديك رومى شائط فوق اللهب تطغى على المكان بشكل لا يُقاوم.

انهمرت الدموع على وجنتيّ، كنت عاطفية بلا شك، من النوع المفرط فى الحساسية. المسألة كانت أن آرثر كان يحب أن يمشط لى شعرى وكان لتلك الصورة الصغيرة تأثيرها البالغ عليّ، ولو أنه لم يتعلم أبدًا أن يجذب الشعر المتشابك برفق لتسليكه، وكان ذلك يؤلم كالجحيم. فات الأوان، فات الأوان.... لم أتمكن أبدًا من التحكم فى انفعالاتى فى الوقت المناسب، بمعنى أن أغضب عندما يجب أن أكون غاضبة، وأذرف الدموع عندما تقتضى الحالة أن أبكى، كان كل شيء يتزاوج بشكل غير ملائم.

عندما كنت فى منتصف الطريق لإلقاء كومة الشعر المحترقة، سمعت وقع أقدام على الممر السفلى الممهد بالحصى، انتفض قلبي، وتسمرت فى مكاني: الممر لا يؤدى إلا إلى المنزل، ولم يكن أحد بالمنزل غيرى أنا، الشقتان الأخريان كانتا خاليتين. كيف يستطيع آرثر أن يعثر عليّ بهذه السرعة، ربما كنت على حق فيما يتعلق به قبل كل شيء. أو أنه لم يكن آرثر، كان شخصًا آخر... الرعب الذى لم أسمح لنفسى أن أشعر به طوال الأسبوع الماضى تدفق فى موجة جعلت شعرى يشيب فوق رأسي، حاملاً معه مختلف أشكال خوفي، حيوان ميت، التليفون يهمس بتهديدي، ملاحظات قاتل قطعت من الصحف الصفراء، مسدس، غضب... تشكلت وجوه وتفككت فى رأسي، لم أعرف من أتوقع، وماذا كانوا يريدون، ذلك هو السؤال الذى لم أستطع أبدًا الإجابة عليه. شعرت برغبة فى الصراخ والاندفاع نحو الحمام. كانت هناك نافذة مربعة عالية ربما أستطيع أن أحشر نفسى فيها وأخرج من خلالها ثم أنطلق جريًا إلى التل، لأفر فى سيارتى الموجودة هناك، فرار سريع آخر. حاولت أن أتذكر أين وضعت مفاتيح السيارة.

كان هناك طرق على الباب، طرق واثق أبله، ونادى صوت: هالو... هل أنت بالداخل؟

استطعت التنفس مرة أخرى، لم يكن إلا السيد فيترونى. سنيور فيترونى، رينو فيترونى، صاحب الابتسامة العريضة، فى زيارة

لمعاينة ممتلكاته. كانت هذه هى البناية الوحيدة التى يمتلكها على قدر علمي، ومع ذلك كان من المفترض أن يكون واحدًا من أكثر رجال المدينة ثراءً. ماذا لو أراد فحص المطبخ، ماذا سوف يظن عندما يرى الشعر الذى ضحيت به؟ أطفأت الموقد، ولممت الشعر المحترق فى إحدى الأكياس الورقية التى أستخدمها لجمع القمامة.

صحت بصوت عال: "أنا قادمة، دقيقة واحدة". لم أُرد أن يدخل، ففراشى غير مرتب، وملابسى الخارجية والداخلية منشورة على مساند الكراسى ومبعثرة على الأرض، كما أن هناك أطباقًا متسخة على المنضدة وفى الحوض. غطيت نفسى بإحدى الفوط وانتزعت نظارتى السوداء من فوق المنضدة حينما مررت بجانبها.

قلت له عندما فتحت الباب: "كنت فقط أغسل شعرى".

كان متحيرًا بعض الشيء بسبب النظارة السوداء. كل ما يعرفه عن النساء الأجنبيات أن لهن طقوس جمال غريبة. ابتسم بإيماءة خفيفة من وجهه، ومد يده فمددت يدي. رفعها كما لو كان سيقبلها، ثم هزها بدلاً من ذلك.

"إننى مسرور للغاية لرؤيتك"، قال ذلك ضامًّا كعبيه معًا، فى انحناءة عسكرية لافتة للنظر. كانت الأقلام الملونة المصنوعة من اللبادة مصفوفة على صدره مثل النياشين. لقد صنع ثروته بطريقة ما فى فترة الحرب، ولم يعد أحد يسأل عن تلك الأشياء الآن، وقد انتهت

وأصبحت أمرا واقعا. فى نفس الوقت، فقد تعلم قليلاً من الإنجليزية، وكذلك عبارات من لغات أخرى متعددة. لماذا جاء إلى شقتى فى ساعة متأخرة من المساء؟ بالتأكيد ليس الوقت مناسبًا بالنسبة له لزيارة امرأة أجنبية صغيرة، هذا الرجل المحترم الذى يبلغ منتصف العمر، وله زوجة شبيهة تمامًا بالبرميل، وعدد ضخم من الأطفال الأحفاد؟ كان يحمل شيئًا ما تحت إبطه، نظر خلف كتفى وكأنه يريد أن يدخل.

قال: "إنك فى الغالب تُعدّين طعام الغداء"، قال ذلك بعد أن اشتم رائحة الشعر المحترق. تأكدت حينئذ أنه يقول فى خاطره: يعلم الله ماذا يأكل هؤلاء الناس. "آمل ألا أكون مزعجًا؟"

قلت بإخلاص: "أبدًا، على الإطلاق".

وقفت مباشرة أمام الباب، قال: "هل يسير كل شيء معك على ما يرام؟ هل عاد التيار الكهربائى مرة أخرى؟"

قلت بإيماءة مبالغ فيها: "نعم، نعم". لم يكن هناك تيار كهربائى عندما جئت، حيث أن آخر مستأجر للمكان لم يدفع الفاتورة، ولكن السيد فيترونى شد الأسلاك لإعادة التيار.

قال: "الشمس مشرقة جدًّا هنا، أليس كذلك؟"

"جدًّا، جدًّا" قلت ذلك محاولة ألا أبدى نفاد الصبر. كان يقف قريبًا جدًّا منى.

"هذا شيء طيب"، والآن بدأ يدخل فى الموضوع، "معى هنا شيء لك، وسوف تجدين نفسك أكثر.."، رفع يده التى لم تكن تحمل شيئا، باسطا كفها لأعلي، مُرحّبًا بي، ومشيرا لى بالدخول: "وبهذا سوف تشعرين بأنك فى بيتك معنا".

يا له من إحراج، هكذا فكّرت، أنه سيقدم لى هدية بمناسبة بدء إقامتى فى هذا البيت، هل كان هذا من عاداتهم؟ ماذا يجب أن أقول؟"هذا لطف وعطف كبير منك، ولكن....".

قاطع السيد فيترونى امتنانى بتلويحة من يده، وأخرج من تحت إبطه لفافة مربعة الشكل وضعها على الكرسى البلاستيك، وبدأ فى فك أربطتها، ثم توقف عند آخر عقدة للتشويق، كما يفعل الساحر، ثم سقط الغطاء الورقى البنى كاشفًا عن خمس أو ست لوحات بالألوان الزيتية، على قماش ــ ويا للعجب ــ من القطيفة السوداء، بإطار لاصق مطلى بالذهب، ورفع هذه الصور عارضًا إياها الواحدة تلو الأخرى. كانت كلها لمواقع تاريخية فى روما، وكل واحدة تم عملها بدرجات لون واحد، فكانت المدرجات الرومانية ملونة بالأحمر القاني، وهيكل البانثيوم بلون بنفسجي، وقوس قسطنطين باللون الأصفر البخاري، وسانت بيتر باللون القرنفلى مثل الكيك. تجهمت أمام تلك الصور مثل القاضى وهو ينطق بالحكم.

"أتحبين؟" سأل بصورة آمرة. كنت أجنبية، وكان هذا من نوعية الأشياء التى من المفترض أن أحبها. وقد أحضرها كهدية ليسرني. أبديت سرورًا كنوع من الواجب، فلم أكن أتحمل إيذاء مشاعره. "جميل جدًّا"، قلت ذلك، ولم أعنى اللوحات، ولكنى كنت أعنى البادرة.

"فى الواقع لا أعرف الكلمة بالإنجليزية... ابن أخي، يتمتع بعبقرية".

نظر كلانا فى صمت إلى اللوحات، التى كان قد صفّها فوق حافة النافذة، وكانت تتوهج مثل علامات الطريق السريع فى ضوء الشمس الذهبية حال الغروب. وبمجرد أن حدقت فيها، بدأت فى إطلاق، أو سحب، طاقة فظيعة مثل الأبواب المغلقة للأفران أو القبور.

لم تكن الأمور تسير بسرعة بالنسبة له، قال: "أى واحدة تحبين؟.... هذه؟"

كيف أختار بدون معرفة ماذا يعنى الاختيار؟

كانت اللغة إحدى المشكلات؛ وكانت هناك أيضًا تلك اللغة الأخرى، ماذا حدث وماذا لم يحدث، إذا أنا قبلت صورة منهم، هل سوف أصبح عشيقته؟ أكان اختيار لوحة له معنى معين، أكان ذلك اختبارا ؟

"حسناً"، قلت مترددة، مشيرة إلى لوحة مدرج روما القديم المضاء بالنيون.

قال فورًا: "مائتان وخمسون ألف ليرة".

شعرت بارتياح على الفور: إنها مجرد صفقة نقدية، لا تحمل أى غموض، ومن السهل التعامل مع الصفقات التجارية. طبعًا اللوحات لم يرسمها ابن أخيه على الإطلاق، أعتقد أنه لابد قد اشتراها من بائع متجول فى روما، ويعيد بيعها لتحقيق ربح.

قلت: "جميل"، أنا لا أستطيع تحمل ثمنها، ولكنى لم أتعلم أبدًا أن أساوم، وعلى أية حال كنت خائفة من إهانته. لم أرغب فى انقطاع الكهرباء مرة أخرى. ذهبت لإحضار محفظتي.

عندما طوى المال ووضعه فى جيبه، بدأ فى جمع اللوحات قائلاً: "ربما تريدين لوحتين؟ لإرسال واحدة إلى عائلتك. "

"لا، شكرًا، هذه اللوحة جميلة جدًّا"

"وهل سيحضر زوجك قريبًا أيضا؟ "

ابتسمت وأومأت بشكل مبهم. كان هذا الانطباع الذى أعطيته عندما قمت بتأجير الشقة. أردت أن يكون معروفًا فى المدينة أن لى زوجًا، لم أكن أريد أى مشكلة.

"سوف يحب هؤلاء الصورة"، قال كما لو كان يعرف الإنجليزية الصحيحة.

بدأت أتعجب، هل تعرف على برغم كل شيء؟ على الرغم من النظارة السوداء، والفوطة، والاسم المختلف؟ كان غنيًّا بكل معنى الكلمة، ومن المؤكد أنه لم يكن بحاجة للذهاب للبيوت لبيع لوحات السائحين الرخيصة، ربما كان الأمر كله لتبرير شيء آخر، ولكن من أجل ماذا ؟ كان لدى إحساس أن هناك ما حدث فى المحادثة بيننا ما هو أكبر بكثير مما استطعت فهمه. ولو كان الأمر كذلك لما كان غريبًا، فقد اعتاد آرثر أن يقول لى أننى غبية.

وعندما ابتعد السيد فيترونى عن الشرفة بصورة تدعو إلى الاطمئنان أخذت اللوحة إلى الداخل، ونظرت حولى بحثًا عن مكان لتعليقها. يجب أن يكون المكان مناسبا: لسنوات احتجت أن تكون الأشياء الأساسية فى حجرتى مرتبة فى حالة انسجام مع بعضها، بسبب أمي، وسواء أحببت ذلك أم لا، فقد كان ذلك من الأهداف الرئيسية. كانت اللوحة شديدة الاحمرار، فعلقتها فى النهاية على مسمار على يسار الباب، وبهذه الطريقة كنت أستطيع أن أجلس معطية لها ظهري. كانت عادتى المتعلقة بإعادة ترتيب الأثاث بدون إنذار غالبًا ما تزعج آرثر. لم يفهم أبدًا لماذا كنت أفعل ذلك. قال،" لا ينبغى أن تعطى كل هذا الاهتمام للأشياء المحيطة بك."

ولكن السيد فيتروني كان مخطئًا: آرثر لم يكن أبدًا ليحب تلك الصورة. لم تكن من نوعية الأشياء التي يحبها. رغم أنها كانت من الأشياء التي يعتقد أني أحبها. سوف يقول أنها ملائمة، مدرج روما القديم أحمر بلون الدم على قطيفة سوداء خشنة، بإطار ذهبي، ضوضاء، فتنة واضطراب، وجماهير تهتف وتصيح، وموت على الرمال، حيوانات برية تتذمر، وتزمجر، صراخ، وشهداء يبكون على الجانبين، يستعدون للتضحية، وفوق كل ذلك انفعالات، خوف، غضب، ضحك ودموع، أداء من النوع الذي يرضي الجمهور. هذا ما كنت أشك في أنه وجهة نظره عن حياتي الداخلية، رغم أنه لم يقل ذلك أبدًا، وأين كان هو وسط كل هذا الضجيج؟ جالسًا في منتصف الصف الأول، لا يتحرك، بالكاد يبتسم. لقد تطلب الأمر مني الكثير لإرضائه، ومن حين لآخر، تصدر عنه إشارة خفيفة قد تصون وقد تدمر: بالإبهام لأعلى أو لأسفل، وفكرت، عليك أن تجري استعراضك الخاص الآن، وتكون لك انفعالاتك الخاصة. وأنا أقوم الآن بلعب هذا الدور. لقد أصبح الدم حقيقة واقعة.

في هذا الوقت كنت مستشيطة غضبًا منه، ولم يكن هناك شيء يمكن أن ألقيه سوى أطباق السيد فيتروني، كما أنه ليس هناك أحد يمكن إلقاؤها عليه سوى السيد فيتروني نفسه، والذي يتهادى الآن في أغلب الظن صاعدًا التل، لاهثًا قليلاً بسبب ساقيه القصيرتين، وكرشه الشبيه بالوسادة، ماذا يظن لو جئت وراءه مهتاجة أقذفه بالأطباق؟

سوف يستدعى رجل شرطة، وسوف يقبضون عليّ، وسيفتشون الشقة، ويجدون الكيس الورقى المليء بالشعر، حقيبة ملابسي...

أصبحت إنسانة عملية مرة أخرى بسرعة. كانت الحقيبة أسفل خزانة أدراج مزخرفة بصورة مبالغ فيها، بقشرة خارجية مطعمة بتصميم من الصدف، جذبتها وفتحتها، بالداخل كانت ملابسى المبتلة فى كيس بلاستيك أخضر اللون تفوح منه رائحة موتى أنا، ورائحة بحيرة أونتاريو، وبقعة الزيت، والنوارس الميتة، وأسماك فضية صغيرة متجمعة على الشاطئ ومتعفنة، والبنطلون الجينز والكنزة الثائية (التى شيرت) الأزرق بلون البحر، رداء جنازتي، شخصيتى السابقة، رطبة ومنهارة، وطارت منها الكثير من الأرواح الملونة. لم يكن بإمكانى أن أرتدى هذه الملابس أبدًا فى تريموتو، حتى ولو لم تكن دليلا على شخصيتيً. فكرت فى وضعها فى القمامة. ولكنى علمت من قبل أن الأطفال يفتشون القمامة من أجل العلب، خاصة تلك التى يلقيها الأجانب. لم يكن هناك مكان للتخلص منها على الطريق المأهول جيدًا المؤدى إلى تريموتو، كان يجب أن أتخلص منها فى مطار تورنتو أو فى مطار روما، على أية حال، كانت الملابس المنبوذة فى المطارات تثير الريبة.

ورغم الغسق، فقد كان لا يزال هناك ضوء كافٍ لأرى من خلاله. قررت أن أدفنهما. كبست الكيس البلاستيك ووضعته تحت إبطي، كانت الملابس تخصني، وأنا لم أرتكب خطأ، ولكنى كنت

أشعر وكأنى أتخلص من جسد، جثة شخص ما قتلته. هرولت على الممر المجاور للبيت، ونعلى المصنوع من الجلد ينزلق على الأحجار حتى وصلت إلى وسط نبات الخرشوف المزروع بعد المدخل مباشرة. كانت الأرضية صلبة مثل الحجر الصوان وليس معى جاروف، ولم يكن هناك أمل فى حفر حفرة. كما أن الرجل العجوز سوف يلاحظ إذا أنى أفسدت حديقته.

تفحصت أساس البيت. لحسن الحظ كان رديء البناء، وكانت الخرسانة الأسمنتية متصدعة فى أماكن عدة. عثرت على قطعة أسمنتية غير ثابتة، خلعتها مستخدمة حجرًا مسطحًا، وخلف القطعة لم يكن هناك سوى التراب، فقد كان المنزل مبنيًّا على الجانب الأيمن من التل. حفرت فيه فجوة، وحشرت الكيس بداخلها بقدر الإمكان، ثم أعدت تثبيت قطعة الأسمنت فى مكانها فوق الكيس. ربما بعد مئات السنين من الآن سوف يستخرج شخص ما ردائى الجينز، وكنزتي، ويستنتج أن ذلك كان نتيجة أحد الطقوس المنسية، أو جريمة قتل طفل، أو نوع من الدفن الوقائي. سرتنى الفكرة. محوت بقدمى آثار التربة الناتجة عن الحفر حول المكان، وبذلك لن يلاحظها أحد.

تسلقت عائدة إلى الشرفة، وأنا أشعر بارتياح. وصبغت شعرى فى الحال، كل الدلائل الواضحة تم محوها، ويمكننى الآن أن أبدأ فى أن أكون شخصية أخرى، شخصية مختلفة بكل معنى الكلمة.

ذهبت إلى المطبخ، وأنهيت حرق الشعر، ثم أخرجت زجاجة سينزانو التى كنت أخبئها فى دولاب المطبخ، خلف الأطباق. لم أرد أن يعرف هنا أننى كنت سكيرة فى الخفاء، ولم أكن كذلك فى الواقع، فقط لم يكن هناك أى مكان أستطيع أن أشرب فيه. فهنا، لم يكن من المفترض أن تشرب المرأة بمفردها وحدها فى البار. ملأت لنفسى كأسًا صغيرًا، وشربت نخب نفسي. قلت: "نخب الحياة". وبعد ذلك بدأ يقلقنى أننى تحدثت بصوت عالٍ. لم أود أن أبدأ فى التحدث مع نفسي.

كان النمل قد وصل إلى السبانخ التى اشتريتها أمس الأول، كان على الجانب الخارجي، وكانت السبانخ واللحم هى فقط الأشياء التى يطاردها النمل بنشاط. أى شيء آخر كان يتجاهله طالما أنك وضعت له صحن سكر وماء، وبالفعل كنت قد فعلت ذلك، وعثر عليه، وكان يسير جيئة وذهابًا بين الصحن وعشه، نحيفًا فى طريق الذهاب، ممتلئًا فى طريق العودة مثل خزانات مصغرة. وكان قد كوّن دائرة هناك حول حافة الماء، بينما ذهب القليل إلى أبعد من ذلك وغرق.

صببت لنفسى كأسًا آخر، ثم غمست إصبعى فى الصحن، وكتبت الحروف الأولى لاسمى السابق بالماء المسكر على عتبة النافذة وانتظرت لأرى حروف اسمي مكتوبة بالنمل : أسطورة حية.

الفصل الثالث

عندما استيقظت فى الصباح التالي، كانت حالة الاهتياج والإثارة الناتجة عن شرب الخمر قد ذهبت. لم أكن أعانى بالتحديد من الصداع الناتج عن الكحول، ولكنى لم يكن لدى رغبة فى الاستيقاظ بصورة مفاجئة. كانت زجاجة السينزانو الفارغة لا تزال على المنضدة، وما وجدته يدعو للتشاؤم فى ذلك هو أننى لم أستطع أن أتذكر أننى احتسيتها بالكامل. اعتاد آرثر أن يقول لى ألا أشرب كثيرًا. هو نفسه لم يكن سكيرًا بطبعه، ولكن كانت له عادة أن يحضر زجاجة إلى المنزل من وقت إلى آخر، ويتركها فى مكان حيث أراها. وأظن أننى كنت بالنسبة له مثل لعبة الأطفال الكيميائية: كان يحب بينه وبين نفسه أن يجعلنى مشوشة الذهن بسبب الخمر، كان يعلم أن ذلك ستكون له نتيجة مثيرة. رغم أنه لم يكن متأكدًا أبدًا ماذا تكون تلك النتيجة، أو ماذا يريد؛ لو كنت أعرف ذلك لكان الأمر أسهل.

كان هناك مطر خفيف بالخارج، لم يكن عندى معطف مطر، لم أستطع شراء واحد فى روما، ولكنى تذكرت المناخ هناك حيث أشعة الشمس التى لا تغيب، والليالى الدافئة. لم أحضر معطف المطر الخاص بي، أو مظلتي، أو أيًا من متعلقاتى الشخصية على الإطلاق. لم أرد أن أترك أى علامات تدل على مكاني. الآن بدأت أشعر بالأسف على عزلتي، على شالى الأحمر والذهبي، وقفطانى المطرز،

وردائى القطيفة المشمشى ذى الحاشية الممزقة، ومع ذلك فأين أستطيع أن أرتدى تلك الملابس هنا؟ على الرغم من ذلك رقدت فى الفراش، متشوقة إلى مروحتى المصنوعة من ريش الطاووس، والتى فُقدت منها ريشة واحدة فقط، وكذلك حقيبة يدى المسائية المطعمة بالخرز الأزرق، تحفة حقيقية.

كان لآرثر علاقة غريبة مع ملابسي، لم يكن يحب أن أنفق نقودًا عليها، لأنه كان يعتقد أننا لن نستطيع تحمل نفقاتها، لذلك فقد قال فى بداية الأمر أن هذه الملابس لا تتواءم مع شعرى أو تجعلنى أبدو سمينة جدًّا. فيما بعد، عندما تبنى قضية تحرير المرأة من أجل أغراض دعائية، حاول أن يؤكد لى أننى يجب ألا أرغب فى اقتناء مثل هذه الملابس، فقد كنت أتصرف بطريقة تضعنى فى أيدى المستغلين. ولكن الأمور تطورت إلى أبعد من ذلك. فقد اعتبر أن هذه الملابس تمثل إهانة من نوع ما، إهانة شخصية، وفى نفس الوقت كان مفتونًا بها، مثلما كان مفتونا بكل ما يتعلق بى من أشياء لا يوافق عليها. كنت أرتاب فى أنه يعتبرها مثيرة، وغضب من نفسه بسببها.

فى النهاية جعلنى شديدة الخجل، حتى وجدت أنه من الصعوبة أن أرتدى ملابس طويلة علانية. وبدلاً من ذلك، كنت أغلق باب حجرة النوم، وألف نفسى بالحرير أو القطيفة، وأرتدى كل ما أملك من أقراط مدلاة وسلاسل وأساور ذهبية، ثم أعطر نفسي، وأخلع نعلى، وأرقص أمام المرآة، أدور ببطء حول نفسى فى رقصة مع

شريك غير مرئي، رجل طويل فى حُلة مسائية، بعباءة أوبرالية، وعيون تتحرق شوقًا. يعتصرنى فى رقصات دائرية (مرتطمين من حين إلى آخر بالتسريحة أو بطرف السرير). ويهمس فى أذنى "دعينى آخذك بعيدًا، سوف نرقص سويًّا دائمًا". كان ذلك إغراءً عظيمًا رغم أن هذا الشخص كان من وحى خيالي.

آرثر لم يرقص معى أبدًا، حتى فى المناسبات الخاصة، قال إنه لم يتعلم الرقص أبدًا.

رقدت فى سريرى أراقب هطول المطر، من مكان ما فى المدينة سمعت صوت خوار كئيب، أجش ورنان، مثل بقرة مقيدة، شعرت بالحزن، ولم يكن هناك بالشقة ما يبهجني. كانت كلمة شقة مناسبة جدًّا لوصف هذا المكان. رغم أنه لو أعلن عنها فى الصفحة الأخيرة من إحدى الصحف البريطانية لقال الإعلان أنها "فيلا". ولكنها كانت مكونة فقط من حجرتين ومطبخ ضيق، وكانت الحوائط مغطاة بورق لاصق غير ملون، ولكنه ملطخ ومُرقش نتيجة نشع مياه الرطوبة. ومن خلال عوارض الخشب العارى المنتشر فى السقف ــ لابد أن السيد فيترونى كان يعتقد أنه طراز ريفى رائع ــ وهذا الخشب كان يأوى حشرات أم أربعة وأربعين التى تسقط منه أحيانًا، عادة فى الليل. ومن الشقوق بين الحوائط والأرضية، ومن حين إلى آخر فى حوض الاستحمام الصغير جدًّا، كانت هناك عقارب بُنّية متوسطة الحجم، من المفترض أنها لم تكن مميتة. كان الظلام دامسًا

والجو باردًا بسبب هطول الأمطار فى الخارج، وكانت قطرات المياه تتساقط فى مكان ما، فيبدو لها صدى مثل الكهوف، ربما لأن الشقتين العلويتين كانتا لا تزالان خاويتين. قبل ذلك كانت هناك عائلة من أمريكا الجنوبية تقطن فوقنا، وكانوا يعزفون على قيثاراتهم حتى وقت متأخر من المساء، يعولون ويدبون بأقدامهم، حتى أن قشور من المصيص كانت تسقط علينا مثل المطر. أردت أن أصعد أعلى الدرج وأصيح وأحدث دبيبًا بقدمى أيضًا، ولكن آرثر اعتقد أن هذا يعنى عدم احترام الآخرين. لقد ترعرع فى فريدريكتون، فى نيو برونسويك.

تقلبت على الفراش، وقد نال الفراش من عمودى الفقري، حيث كانت إحدى شُعب الفراش ناتئة لأعلى، بالضبط في المنتصف. ولكنى علمت أننى لو قلبت الفراش، سيكون هناك أربع شُعب ناتئة. كان هذا هو نفس الفراش، بفجواته ونتوئه وغدره، لم يتغير بعد عام طويل استخدمه خلاله آخرون. كنا نمارس الحب عليه باستعجال يُذكرك بغرف الموتيلات. كان آرثر متحفزًا بسبب أم أربعة وأربعين التى كانت تحيط بها هالة من الإحساس بالخطر (من المعروف أن وباء الطاعون يصاحبه رغبة شديدة فى الجنس). أيضًا فقد أحب الحياة بعيدًا عن حقائب السفر، لابد أنها كانت تجعله يشعر بأنه مثل اللاجئ السياسي، وربما كان اللاجئ السياسى أحد أحلامه، رغم أنه لم يقل ذلك أبدًا.

بالإضافة إلى ذلك، فقد هداه تفكيره إلى أننا كنا ذاهبين إلى مكان ما، مكان ما أفضل، والواقع أننا حيثما توجهنا، كان يدرك أن المكان الجديد أفضل، لفترة ما، وبعد ذلك كان يرى أنه مجرد تغيير، وبعد ذلك يرى أنه نفس الشيء بلا أى تغيير. ولكنه كان يقيِّم وهم التنقل تقييما أرقى من وهم البقاء الدائم فى مكان معيشة واحد، وقد تم زواجنا بكامله فى نوع من محطة قطار روحانية. ربما كان لذلك علاقة بالطريقة التى تقابلنا بها لأننا بدأنا بقول "الوداع"، فاعتدنا على ذلك، حتى عندما كان يذهب فقط إلى الناصية لشراء علبة سجائر، كنت أنظر إليه وكأنى لن أراه أبدًا مرة أخرى. والآن بالفعل يبدو أنى لن أراه مرة أخرى.

انفجرت فى البكاء، ودفعت رأسى تحت الوسادة. ثم قررت أن ذلك الوضع لابد ألا يستمر. لم أستطع ترك آرثر يستمر فى التحكم فى حياتي، خاصة وهو بعيدا عنى بمثل تلك المسافة. كنت قد أصبحت شخصًا آخر الآن، كنت قد أصبحت تقريبًا شخصًا آخر. تعود الناس أن يقولوا لى "إنك لا تشبهين صورك الفوتوغرافية على الإطلاق"، وكان قولهم صحيحا؛ إذا، ومع قليل من التعديلات، يمكن أن أمر أمامه يومًا فى الطريق، ولا يستطيع حتى التعرف علىّ. فككت نفسى من الملاءات ـــ ملاءات السيد فيترونى رقيقة ومرتوقة بعناية ـــ وذهبت إلى الحمام، وفتحت المياه الباردة على قطعة قماش لتنظيف وجهي، ولاحظت فى الوقت المناسب العقرب البنى الصغير

المختبئ في ثناياها. كان من الصعب على أن أعتاد على تلك الكمائن. لو كان آرثر هنا لصرخت بأعلى صوتي، وبما أنى كنت وحدي، ألقيت قماشة تنظيف الوجه المبللة على أرضية الحمام، وسحقت العقرب بقاع علبة مسحوق التنظيف الذى أمدنى به أيضًا السيد فيترونى. كان قد جهز الشقة جيدًا بمنتجات مساحيق التنظيف ـ صابون، مطهر المرحاض، فُرش التنظيف ـ ولكن بالنسبة لأغراض الطهى لم يكن هناك سوى مقلاة واحدة، وحلتين إحداهما بلا يد. خرجت متثاقلة إلى المطبخ وأشعلت الموقد، لم أكن أبدًا أشعر أننى فى حالة طيبة قبل أن أحتسى القهوة. احتجت شيئًا دافئًا فى فمى يجعلنى أشعر بالأمان. كانت هناك قهوة محمصة مُصفّاة، ولبن فى الوعاء الكرتون الموضوع على عتبة النافذة. لم تكن هناك ثلاجة، ولكن اللبن لم يكن قد فسد، غير أننى كان يجب أن أغليه على أية حال، كل شيء يجب أن يتم غليه.

جلست على المائدة بفنجان القهوة الساخن، مضيفة دائرة أخرى بيضاء على طلائها، وأخذت آكل باكو من البقسماط، وأحاول أن أرتب حياتي. قلت لنفسي: خطوة واحدة كل مرة. لحسن الحظ كنت قد أحضرت بعض الأقلام المصنوعة من اللبادة، يجب أن أضع قائمة. كتبت على رأس القائمة بقلم أخضر بلون التفاح: صبغة شعر، يجب أن أذهب إلى تيفولى، أو ربما روما للحصول عليها، الأسرع والأفضل. بصبغ شعرى لن يكون هناك شيء يربطنى بالجانب

الآخر، فيما عدا بصمات أصابعي، ولن ينزعج أحد من بصمات أصابع امرأة أُعلن رسميًا أنها قد توفيت.

كتبت كلمة مال، ووضعت تحتها خطين. المال كان مهمًا، معى ما يكفى لنحو شهر إذا اقتصدت فى الإنفاق. لكن فى الواقع، معى ما يكفى لحوالى أسبوعين. لقد أعادتنى لوحة مدرج روما القديم ذات القطيفة السوداء إلى الوراء. لم أكن قادرة على أن أقتطع كثيرًا من حسابى المصرفى حيث أن سحبى لمبلغ كبير فى اليوم السابق لوفاتى لابد أن يبدو مضحكًا، لو كان عندى المزيد من الوقت لكنت قد رتبت ذلك من خلال حسابى المصرفى الآخر، حسابى المهني. لو كان فيه أى رصيد. لسوء الحظ فقط اعتدت أن أحول معظمه إلى الحساب الخاص بى بمجرد أن يصل المال، ترى من سوف يحصل على هذا المال؟ من المحتمل أنه آرثر.

كتبت بطاقة بريدية إلى سام. كنت قد اشتريت البطاقة بالفعل فى مطار روما. كانت تحمل صورة برج بيزا المائل، طبعت الرسالة المتفق عليها بحروف استهلالية سوداء.

أقضى وقتًا رائعًا، مدينة القديس بطرس مدهشة، أراك قريبًا، مع حبي، ميتزى وفرد.

وبذلك فسوف يبلغه أننى وصلت بالسلامة، ولو كنت قد صادفت مشاكل وتعقيدات لكتبت له قائلة: *الطقس بارد، فريد يعانى*

من الديزنطاريا. الحمد لله على دواء الإنتروفيفورم، مع حبي، ميتزي وفرد".

قررت أن أرسل البطاقة أولاً، ثم أنشغل بمسألة المال وصبغة الشعر فيما بعد. أنهيت قهوتي، أكلت آخر كعكة، ثم انتقلت إلى البند الثاني من ملابسي الجديدة المتهدلة، الرداء الأبيض المرسوم عليه معينات رمادية وبنفسجية، لاحظت أن قميص نومي به تمزق في منتصف الطريق للفقة قماشه عند مستوى الفخذين. وحيث أنّه لا يوجد من يشاهدني، وأنا أبحث عن مثل تلك العيوب والتجاوزات، هل من الممكن أن أصبح فاسقة؟ سمعت صوتًا يقول: "لماذا لا تعتنين بنفسك بصورة أفضل؟ ألا ترغبين في أن تفعلي بنفسك شيئًا ذا قيمة؟" أضفت إلى القائمة إبر وخيط.

لففت رأسي بوشاح تعلوه زينة وردية اللون، ولبست نظارتي السوداء. لم يعد الجو ممطرًا، ولكن السماء لا تزال ملبدة بالغيوم. سوف تبدو النظارة شاذة ولكني لم أستطع إلا أن أفعل ذلك. مشيت في الشارع المنعطف المرصوف نحو ميدان السوق، مجتازة النظرات المتحدية للنساء العجائز اللائي يجلسن كل يوم على عتبات بيوتهن الحجرية التاريخية الخشنة، وأجسادهن الضخمة المهملة محشورة في أرديتهن السوداء وكأنهن في حالة حداد، وأرجلهن تشبه المقانق المنتفخة المغلفة بالصوف. كانت هي نفس النسوة اللائي تفحصنني

فى عصر الأمس، ونفس النسوة اللائى كن هناك منذ عام مضى، وألفى عام مضى، لم يتغيرن.

"بونجيورنو" (أى صباح الخير)، كانت كل واحدة تقول هذه الكلمة عندما أمر بها، وكنت أومئ برأسي مبتسمة ومرددة نفس الكلمة. لم يبدُ عليهن أنهن فضوليات جدًّا فيما يخصنى من أمور. كانت كل واحدة منهن تعلم بالفعل أين أقيم، وشكل سيارتي، وأنى أجنبية، كما كانت تعرف ما كنت أشتريه فى كل مرة من الميدان. فما هو الشيء الآخر الذى يمكن أن يعرفنه عن شخص أجنبى؟ كان الشىء الوحيد الذى يحتمل أن يزعجهن أنى كنت أعيش بمفردي. لم يبدُ ذلك طبيعيًّا بالنسبة لهن، ولكنه لم يكن طبيعيًّا بالنسبة لى أيضًا.

كان مكتب البريد فى الجزء المواجه لأحد المنازل التاريخية الكئيبة، لم يكن يحتوى إلا على دكة أو قل مقعد طويل لشخصين أو أكثر وطاولة استقبال، ولوحة نشرات معلقة، مع بعض الصور الملتقطة والتى تشبه ملصقات "ابحث مع الشرطة"، لأوجه مكفهرة مأخوذة لرجال من الجانب والأمام. وكان يجلس على الدكة اثنان من رجال الشرطة أو الجنود متكاسلين فى لباسهما العسكري، الذى يعد من بقايا عهد موسوليني: ويرتديان أحذية ثقيلة طويلة الرقبة، وأشرطة أرجل، وحزم قمح على حواشى جيوبهما، شعرت بآلام تشبه الوخز خلف رقبتى وأنا واقفة على طاولة الاستقبال، محاولة إفهام المرأة أنى أرغب فى شراء طابع بريد جوي، كل ما استطعت

أن أفكر فيه هو كلمة **par avion**، (التى تعنى بالبريد الجوى بالفرنسية)، وهى اللغة غير الصحيحة، خفقت ذراعى لأجعلهما كجناحى طائر، وأنا أحس بأننى بلهاء وأنا أفعل ذلك، ولكنها فهمت. وضحك رجلا الشرطة من خلفي. من المؤكد أنهما سيتقصيان بيانات جواز سفرى الذى كان يتوهج من خلال جانبى حقيبتى الجلدية كالحديد المصهور، مثل صفارة الإنذار. بالتأكيد سيطلبان منى أن يتفحصاه، ويتوليان استجوابي، ويبلغان السلطات... وماذا عسى أن تفعل السلطات؟

أخذت المرأة الواقفة خلف المنضدة البطاقة من خلال شباكها المشقوب. بمجرد أن يحصل سام على البطاقة سيتمكن من إخبارى كم حققنا من نجاح. خرجت من المكتب تتبعنى عيون رجُلىّ الشرطة الحادة اللامعة.

كانت خطة جيدة، هكذا اعتقدت، وكنت راضية عن نفسى لأنى استطعت أن أضع ترتيباتها. وددت فجأة لو يعرف آرثر كم كنت ذكية. كان يعتقد دائمًا أنى أفتقد القدرة على التخطيط حتى لمجرد تدبير طريقى عبر أرضية الشقة والخروج من الباب، وأقل من ذلك كثيرًا فيما يتعلق بالخروج من البلدة. كنت الشخص الذى لا يستطيع تحمل مسئولية التسوق لقائمة مشتريات اقترح آرثر معظم عناصرها بعناية؛ أنسى حقيبة يدى وأعود لأخذها، وأنسى مفاتيح السيارة، أتجاوز فى قيادتى المكان المطلوب، أنسى القائمة، أو أعود بعلبتين

من كافيار فاخر أو علبة بسكويت فاخرة، ونصف زجاجة شمبانيا، ثم أحاول أن أبرر هذا الإسراف بأن أقول أنها كانت فى إطار عرض شرائي. كل مرة كذبة، ما عدا المرة الأولى. كنت أحب أن يعرف أننى فعلت شيئًا معقدًا وخطيرًا دون ارتكاب خطأ واحد. كنت دائمًا أريد أن أفعل شيئًا يبدى إعجابه به.

شعرت بالجوع عندما تذكرت الكافيار، عبرت شارع السوق إلى دكان البقالة الرئيسي، حيث يمكن أن تحصل على معلبات وعبوات، اشتريت علبة بسكويت أخرى، وبعض الجبن ومكرونة. وبالخارج، بالقرب من المقهى، كانت هناك شاحنة خضروات قديمة؛ لابد أن تكون هى التى سمعت صوت نفيرها فى ساعة مبكرة. كانت محاطة بمجموعة من ربات البيوت يرتدين ملابس الصباح القطيفة، أرجلهن مكشوفة، ينادين بطلباتهن وهنّ يُشوّحن بحزم من الأوراق المالية.

كان بائع الخضروات صغيرًا، شعره خشن مدهون بالزيت، وكان واقفًا خلف الشاحنة يملأ سلالاً ويمازح النساء. عندما اقتربت ابتسم لي، وهتف بكلمة جعلت النسوة يضحكن ويصرخن. ثم قدم لى عنقودًا من العنب ملوحًا به بشكل غير محتشم. ولكنى لم أكن مشغولة به، كانت حصيلتى من اللغة محدودة، لذلك فقد ذهبت بدلاً من ذلك إلى نصبة الخضروات المعتادة، لم يكن المنتج طازجًا، ولكن الرجل كان كبير السن وودودًا، ويمكن التفاهم معه بالإشارة.

فى محل الجزارة، اشتريت شريحتين غاليتين من لحم البقر، رفيعتين كالورق، كنت أعلم أن لها طعما غير مميز. كانت لحيوان عمره سنة واحدة، لأنه لم يكن هناك من يستطيع تحمل رعاية بقرة مدة أطول من ذلك. كما أنى لم أتعلم أبدًا أن أطهوها بشكل صحيح، كانت دائمًا ما تخرج من المطبخ مثل البلاستيك القابل للانثناء.

مشيت عائدة إلى أسفل التل، حاملة مشترياتي. كانت سيارتى الحمراء المؤجرة من محل " رد هيرتز" لتأجير السيارات تقف فى مواجهة البوابة الحديدية التى تؤدى إلى الممر. كنت قد حصلت على السيارة من المطار، وكان هناك خدوش عليها بالفعل، بسبب السير فى أحد شوارع روما الذى اكتشفت أن المرور فيه كان فى عكس اتجاهي. كان بعض أطفال المدينة يتجمعون حول السيارة يرسمون صورًا على طبقة الأتربة التى تغطيها، ناظرين من نوافذ السيارة تقريبًا فى خوف، ويسحبون أيديهم على حاجزى الاصطدام. وعندما رأونى ابتعدوا عن السيارة وتجمعوا يتهامسون.

ابتسمت لهم وأنا أفكر... ما أجملهم، بعيونهم الدائرية بنية اللون المتيقظة كعينى السنجاب، العديد منهم أشقر الشعر، بالتناقض مع بشرتهم الداكنة، تذكرت ما قيل لى أن البرابرة تعودوا أن يجيئوا إلى هذا الطريق منذ عشرة أو خمسة عشر قرنًا مضى، وذلك يبرر لماذا كانت كل المدن قائمة فوق المرتفعات.

"بونجيورنو"، قلت لهم ذلك، فضحكوا باستحياء. انعطفت ودخلت من بوابة المنزل، محدثة جلبة بقدمّى فوق الممر الحجري، فى الوقت الذى فرت فيه من طريقى دجاجتان صغيرتان جدًا بلون الكرتون الممزق. وفى منتصف الطريق توقفت، كنت أحاول أن أتذكر ما إذا كنت قد أغلقت الباب بالمفتاح أم لا. ورغم هدوئى الظاهرى لم أستطع أن أتحمل أن أصبح مهملة أو كسولة، كان ذلك شيء غير عقلاني. ولكن كان لدى إحساس بأن هناك شخصًا داخل الشقة. جالسًا على الكرسى ينتظرنى بجانب النافذة.

الفصل الرابع

ولكن لم يكن فى الشقة أحد. والشيء الوحيد الذى وجدته هو أنها أكثر فراغًا من أى وقت مضى. طهوت وجبة الغداء بلا حادث مؤسف. لم ينفجر شيء أو يفور أكثر من اللازم من شدة الغليان. وتناولت الطعام على المنضدة. وفكرت، سرعان ما سوف أغير هذه الطريقة، سوف آكل فى المطبخ وأنا واقفة، مباشرة من الحلل والطاسات. كان هذا ما يفعله البشر عندما يعيشون بمفردهم. شعرت أنى يجب أن أحاول وضع نوع من الروتين الذى أسير عليه فى التعامل مع مفردات الحياة.

بعد الغداء عددت نقودي، كان بعضها نقدًا، والبعض الآخر فى صورة شيكات سياحية، ولكنها كانت كالعادة أقل مما كنت أظن. سوف اضطر أن أبحث عن عمل، وأكسب المزيد من المال. ذهبت إلى الخزانة الخفيضة ذات المرآة وأدراج للملابس، وفتحت درج الملابس الداخلية، وأخذت أقلب فى محتوياتها، وأنا أتساءل ما الذى دفعنى لشراء طقم بكينى أحمر منقوش عليه كلمة "يوم الأحد" بتطريز أسود. كان هذا الطقم من ماركة رويال بوركوباين، ذلك الفنان الكوميدى العبقري، الذى كان، بجانب أشياء أخرى بالطبع، شخص غريب تسيطر عليه نزوة الملابس الداخلية. كان ذلك الطقم جزءا من مجموعة أطقم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع؛ فقد كان عندى طقمين

آخرين ليومى الجمعة والسبت، كلاهما ثنائى اللغات. أخرجتهما من رزمة السيلوفان وقرأت على طقم الرويال بوركوباين، "ارتديه يوم الأحد (باللغتين الإنجليزية والفرنسية)؛ فقد كان يحب خلق صور معينة للفضيلة وهى تُنتهك. وفعلت ذلك أنا أيضا". ديناميت، "هكذا قرأت على الطقم بعد أن ارتديته". والآن لفى حولك. "وطاف نحوى خلسة وانتهينا بأن أصبحنا كتلة شهوانية متشابكة على وسادته. وكان هناك أيضا صديرية للثديين بلون البشرة يتم ربطه من على الصدر". للعشاق فقط، "هكذا قال الإعلان، لذا اشتريته كى يعجب به حبيبي. لقد كنت عاشقة للإعلانات، لاسيما التى تعدك بالسعادة".

أحضرت تلك الملابس الداخلية المحرمة معي، لأننى كنت خائفة أن يكتشفها آرثر بعد موتى، ويدرك أنه لم يكن قد رآها أبدًا من قبل. وخلال حياتى لم يكن ليرغب أبدًا فى إلقاء نظرة على هذا الدرج بالذات. كان يخجل من رؤية الملابس الداخلية، كان يحب أن يشغل تفكيره بأشياء أرقى من ذلك، وكان ذلك، ولكى أعطيه حقه، يحدث معظم الوقت. لذا فقد استخدمت درج ملابسى الداخلية كمكان للإخفاء، وبحكم طغيان العادة فى حياة الإنسان، كنت لا أزال أفعل ذلك.

أخرجت كراسة فريزر بونتشانان السوداء، وتحتها، فى القاع، داخل أحد قمصانى الداخلية، كانت المخطوطة التى كنت أسطرها عندما حانت منيتى.

وقفت شارلوت فى الغرفة التى تركته فيها، وكانت يدها لا تزال قابضة بلا وعى على علبة المجوهرات. كانت النار تطقطق فى المدفأة الكبيرة، وتومض انعكاساتها بدفء على الخوذ الرخامية للعائلة التى تزين رف الموقد المنقوش بأناقة، ومع ذلك، شعرت ببرودة شديدة. وفى نفس الوقت، كانت وجنتاها ملتهبتين. كانت لا تزال ترى تحرك شفتيه بطريقة لولبية، وإمالة حاجبيه الساخرين فى ذلك الوجه الآسر وإن كان أسمر اللون، فمه القاسي، شفته النحيلة الطامعة.... تذكرت الطريقة التى كانت عيناه تتفحصانها بها، وتُقَيّم التفاف جسدها الصغير الثابت الذى كانت تخفى جزءًا منه بردائها الرخيص السيئ التفصيل المصنوع من نسيج الكريب الأسود المجعد. كانت خبرتها مع طبقة النبلاء تكفى لتعرف كيف ينظرون إلى النسوة اللائى على شاكلتها، واللائى لم يرتكبن خطأ سوى أنهن يردن كسب أقواتهن. ولم يكن هو مختلفًا عن هؤلاء. تحرك صدرها بعنفوان تحت القماش الكريب الأسود وهى تفكر فى الإذلال الذى عانت منه. كلهم كذابون ومنافقون.كلهم. وكانت قد بدأت تبغضه بالفعل.

كان عليها أن تنتهى من إعادة أحجار الزمرد إلى مكانها، وتترك ردموند جرينج بأسرع ما يمكن. فهناك احتمال وجود خطر كامن، كانت تشعر به، فى مكان ما فى البيت الواسع، كانت تكاد تشم رائحته. تذكرت الكلمات المحيرة لسائق الحافلة، توم، عندما أخذ بيدها بطريقة غير مهذبة لتنزل من الحافلة: "نصيحتى لك يا آنسة ألا

تقتربى من المتاهة". كان رجلاً شريرًا شبيهًا بالفأر، ذا أسنان قبيحة وسلوك ماكر.

وسألته شارلوت: "أية متاهة؟"

"سوف تعرفين سريعًا"، قال ذلك، ثم أعقبها بضحكة مدوية. "العديد من البنات الصغيرات أصابهن الأسى فى المتاهة من قبلك." ولكنه رفض أن يشرح أكثر من ذلك.

ومن خارج النوافذ الفرنسية جاء صوت فضّى لضحكة رنانة، صوت امرأة. ... فى هذه الساعة، وفى نوفمبر، من يستطيع السير فى الشرفة السفلى للمنزل؟ ارتعشت شارلوت متذكرة تلك الخطوات الأخرى التى سمعتها الليلة قبل الماضية فى نفس المكان؛ ولكن عندما نظرت إلى الشرفة السفلى من شباك غرفة النوم لم تستطع أن ترى شيئًا سوى ضوء القمر وظلال الشجيرات تتحرك مع الريح.

اتجهت نحو الباب، وفى نيتها أن تصعد السلم إلى حجرتها الخاصة الصغيرة التى كانت فى نفس الدور مثل سكن الخادمات. فكرت بازدراء أن ذلك يعبر عن تقييم ردموند السامى لها. كان يمكنها أيضًا أن تكون مربية أطفال، أعلى درجة واحدة من شغالة الردهات، أو الطباخة، ولكن بالتحديد ليست سيدة ذات مكانة اجتماعية. إلا أنها كانت قد نالت تربية مثل التى نالها تمامًا، لو عرف الناس الحقيقة.

تسمرت شارلوت خارج باب حجرة الاستقبال، ففى أسفل السلم اعترضت طريقها سيدة طويلة تقف مرتدية عباءة سفر سوداء مصنوعة من فرو السمور، كان غطاء رأسها ملقى للوراء كاشفًا عن شعر أحمر متوهج، وكان الجزء العلوى من رداءها القرمزى الفاضح واسعًا، كاشفًا عن انتفاخ صدرها الأبيض. وظهر واضحًا على ثوبها مهارة أعظم مصممى الأزياء وصناع ملابس السيدات الغالية بشارع بوند. وحتى تحت هذه القشرة من التعقيد الحضارى تحرك جسدها بحسية شهوانية لحيوان مفترس. كانت ساحرة الجمال.

وحدقت فى شارلوت، كانت عيناها ذاتى اللون الأزرق تلمعان فى الضوء الصادر من الشمعدان الفضى المزخرف بتماثيل لكيوبيد وأكاليل العنب، الذى كانت تمسك به فى يدها اليسرى. "من أنت وماذا تفعلين فى هذا المنزل؟" سألت ذلك بصوت متجبر، وقبل أن تستطيع شارلوت الإجابة وقع نظر المرأة على علبة المجوهرات التى كانت تحملها، صاحت: "مجوهراتي"، وصفعت شارلوت على وجهها بيدها التى كانت ترتدى القفاز.

"بهدوء يا فيليشيا"، جاء صوت ريدموند وقد ظهر من الظلام "كنت أنوى إعادة مجوهراتك كمفاجأة للترحيب بك فى المنزل، ولكننى أنا الذى فوجئت، حيث أنك عدت قبل الوقت الذى توقعت عودتك فيه". وضحك ضحكة باهتة ساخرة.

حولت المرأة التى تدعى فيليشيا إليه عينيها اللامعتين، الدالتين على التملك، وهى تبتسم ابتسامة غاضبة كشفت عن أسنان بيضاء متسقة تمامًا. ورفع ريدموند يديها بقفازيهما برقة إلى شفتيه.

كانت هناك ثمان صفحات مفقودة، الصفحات الثمانية الأولى. اعتقدت للحظة أنى تركتها ورائي، فى الشقة، ومن المؤكد أن يعثر عليها آرثر. ولكنى لا يمكن أن أفعل ذلك، لا يمكن أن أكون الإنسانة المهملة لهذه الدرجة، لابد وأن يكون فريزر بوتشانان قد أخذها بالخطأ تحت كم سترته، ثم طواها وحشرها فى جيبه عندما كان فى حجرة النوم، قبل أن أتمكن من الوصول إليه. ورغم ذلك فأنا أخذت مفكرته السوداء، وكانت رهينتى أفضل.

لن يكون الأمر شديد الصعوبة لإعادة كتابة صفحات الافتتاحية. وسوف تكمل شارلوت الطريق الدائرى الخاص الواسع الذى تصطف أشجار الليمون على جانبيه بحافلة ريدموند، وهى ثانى أفضل عربة لديه، والتى تم إرسالها لإحضارها من المحطة. ستجدها تمسك شالها غير الملائم لصغر حجمه وتلفه حولها وهى قلقة بشأن ملابسها الرثة ورقبة حذائها الممزقة: هل تسخر الخادمات لدى رؤيتها بهذا الشكل؟ ثم سوف تلمح مقر الجمعية الزراعية نفسها، بحجمها الصغير وأبراجها الضخمة، وهوائها الذى ينتشر فيه الشر. وسوف يكون دليلها إلى المكتبة مرشدًا مزدرٍ لها. وبعد تركها تنتظر طويلاً فى أسلوب لا يراعى حقوق ومشاعر الآخرين، سيجرى لها

سيد المنزل مقابلة. ويعبر عن دهشته من أنّ من قاموا باسترداد الجوهرة وإعادتها لهم استخدموا امرأة لهذا الغرض، وسوف يلمح إلى أنها لم تكن أهلاً للوظيفة، وسترد عليه بحزم بل وربما بنوع من التمرد، وسيلاحظ التحدى فى عينيها الزرقاوين اللامعتين، ويعلق بأنها ربما كانت تتصرف باستقلالية أكثر من اللازم من أجل مصالحها.

وتجيب عليه بشيء من المرارة: "فى وضعى يا سيدي، يجبر المرء على أن يكون مستقلاً". كانت شارلوت بالطبع يتيمة، كان أبوها الابن الأصغر لعائلة من النبلاء، وقد تبرأت منه عائلته لزواجه من أمها، وكانت امرأة جميلة الطبع ترقص فى إحدى دور الأوبرا. وتوفى والداها فى وباء الجدري. وقد نجت هى نفسها من الموت مصابة بالقليل من بثور هذا المرض، مما أضفى حدة على أسلوبها فى التعبير. ونشأت وترعرعت مع خالها الذى كان غنيًّا، غير أنه كان بخيلا، وأجبرها على تعلم مهنتها الحالية قبل أن يموت بمرض الحمى الصفراء. لم يترك لها شيئًا، كان دائمًا يكرهها، ولم تكن لعائلة أبيها النبيلة أى علاقة بها. أرادت أن يعرف ريدموند أنها لم تكن فى منزله أو تحت سلطته بمحض اختيارها، ولكنها كانت مضطرة، فكل شخص لابد وأن يأكل.

كنت أحتاج عنوانًا مؤقتا للمخطوطة، فكرت فى : *اللورد ردموند جرانج*، أو الأفضل، *الرعب لدى ردموند جرانج*، كان الرعب

أحد تخصصاتي، الرعب والتفاصيل التاريخية، أو ربما شيء ما يحتوى على كلمة حب داخله. كان الحب سلعة كبيرة. وكنت أحاول لسنوات الجمع بين الحب والرعب فى نفس العنوان، ولكن ذلك كان صعبًا. *الحب والرعب عند ردموند جرانج*، سوف يكون عنوانًا طويلاً جدًّا، ويبدو كثيرًا جدًّا مثل "توأما بوبسى على شاطئ الغروب". وكان عنوان: *كان حبى رعبًا*... كذلك، *طريدة الغرام* من تأليف ميكى سبيلان، ، هذا العنوان قد استخدمه عند الضرورة.

وكنت أحتاج أيضًا إلى آلة كاتبة. كنت أكتب كل شيء بطريقة اللمس ، فهى أسرع من غيرها، وكانت السرعة مهمة فى عملي. كنت كاتبة جيدة بارعة على الآلة، وفى مدرستى العليا كانت الكتابة على الآلة ينظر إليها كصفة أنثوية مميزة لخريجات الثانوي، مثل صدورهن. ربما أتمكن من شراء آلة مستعملة فى روما ، ثم أستطيع بعد ذلك أن أضيف الصفحات الشاغرة، وأكتب ثمانية أو تسعة فصول أخرى، وأرسلها إلى دار هرمز للنشر مع رسالة فى ظرف مغلق أشرح فيها أننى انتقلت إلى إيطاليا لأسباب صحية. لم يحدث أنهم رأونى أبدًا من قبل، وكانوا يعرفوننى باسمى الآخر فقط ، ويعتقدون أننى فى منتصف العمر، أمينة مكتبة سابقًا، ذات وزن زائد وخجولة، منعزلة عمليًّا عن العالم، وعندى حساسية للأتربة والصوف والسمك ودخان السجائر والكحول، كما شرحت لهم عندما قمت برفض

الدعوات إلى الغداء. حاولت دائمًا وبقدر الإمكان أن أحتفظ بالفصل بين الاسمين والهويتين، كل منهما على حدة.

لم يكتشف آرثر أبدًا أنى كنت أكتب "قصصا خيالية غامضة ومثيرة ومرعبة. فى البداية كنت أكتبها فقط عندما يكون بالخارج. بعد ذلك كان على أن أذهب إلى حجرة النوم، وأغلق الباب، وأقول له إننى أدرس منهج جامعى إضافى أو غيره : الأوانى الصينية، أديان مقارنة، وكلها دراسات لم أنجح أبدًا فى استكمالها لسبب بسيط هو أننى لم أدرسها أبدًا فى الحقيقة.

لماذا لم أخبره أبدًا؟ كان الخوف هو السبب فى الغالب. عندما قابلته فى البداية تحدث كثيرًا عن رغبته فى امرأة لها عقل يمكن أن يحترمه، وعلمت أنه إذا اكتشف أننى كنت أكتب "سر مورجريف مانور" فسوف لا يحترم عقلي. رغبت بشدة فى أن يكون لدى عقلاً جديرًا بالاحترام. إن أصدقاء آرثر، والكتب التى قرأها، والتى دائمًا لها هوامش، والقضايا التى آمن بها، جعلتنى أشعر بالنقص، وبنوع من السخافة، أشعر أننى نوع من معتوه القرية من الناحية الذهنية، والبوح برأيى سيجعل الأمر أسوأ بالتأكيد، كتبى تلك التى تصور أغلفتها قلاعًا كئيبة منذرة بالشؤم، وعذارى خائفات، فى ملابس أشبه بملابس النوم، وشعورهن تطير فى الرياح، وأعين منتفخة مثل أعين ضحايا الغدة الدرقية، سوف تعتبر نفايات من أدنى أنواع الكتابة. أسوأ من القمامة، أليست هذه الكتب تستغل الجماهير، وتصرف

الأذهان، وتؤكد على الأفكار الشائعة التى تدنى من مكانة النساء باعتبارهن مضطهدات ولا حول لهن ولا قوة. إنها كذلك، وأنا أعرف هذا. لكنى لا أستطيع التوقف عن كتابتها.

"إنك امرأة ذكية"، سوف يقول آرثر ذلك. هو دائمًا يقول ذلك، قبل شرح أحد عيوبي. ولكنه أيضًا يصدقه فى الحقيقة، كان غضبه معى مثل غضب أب من أبنائه الصغار الأذكياء الذين حصلوا على تقارير سيئة عن حالتهم الدراسية.

ما كان يمكن أن يفهم. لم يكن قادرًا على أن يفهم أنه كلما قلت الرغبة لأدنى درجاتها، كلما ازدادت حاجة قارئاتى المثالية إلى الهروب، شيء أنا نفسى فهمته أكثر مما يجب. كانت الحياة صعبة بالنسبة لهن، ولم يقاتلن فى المقابل، انهرن مثل الفقاقيع فى الرياح العاصفة. ولم يكن الهروب ترفًا لهن، كان ضرورة لابد من الحصول عليها بطريقة ما، وعندما كن متعبات لدرجة أنهن لا يستطعن خلق فرص للهروب، كان هروبى متاحًا لهن فى صيدلية على الناصية، معبأة بعناية، مثل مضادات الألم الأخرى التى يمكن أن تؤخذ فى شكل كبسولة، بسرعة وبحذر، فى تلك اللحظات عندما كان مجفف الشعر يجفف الجدائل حول لفائفها البلاستيكية، أو حين كان كريم الاستحمام يحول بشرتهن إلى لون القطيفة الوردية، مع ترك دائرة فى حوض الاستحمام ليتم إزالتها فيما بعد بمنظفات سوف تجعل رائحة أيديهن مثل المستشفيات، وتجعل أزواجهن يعلقون بأن جاذبيتهن

الجنسية مثل ملابس الغسيل، عندئذ سوف يندبن نقص جمالهن، وشبابهن الراحل... لقد كنت أعرف كل ما يتعلق بالهروب، فقد تربيت عليه.

كانت بطلات كتبى مجرد بديلات: كانت وجوههن جميلة، ولكن ملامحهن لم تكن مميزة بوضوح أبدًا، مما يساعد كل قارئة على أن تعيد تشكيلها بما يتناسب مع وجهها هي، مع إضافة مسحة من الجمال. فى مئات الآلاف من البيوت تستيقظ تلك النفوس المخبأة فى الليل لتترك أجساد صاحباتها وتخرج فى مغامرات شديدة التعقيد والإغراء، والتى لا يستطعن الاعتراف بها لأى شخص، خاصة لأزواجهن الذين يغطون فى نومهم غطيطًا ساحرًا. كنت أعرف قارئاتى جيدًا، ذهبت معهن إلى المدرسة، كنت رياضية مثالية، وتطوعت للعمل بالمجان، زينت صالة الألعاب فى المدرسة بعلامات يمكن قراءتها، مثل "قفز"، و"رقص كرة الجليد"، ثم ذهبت بعد ذلك إلى المنزل وأكلت سندوتشات زبد بالفستق، وقرأت قصصًا رخيصة الطبعات، بينما كان الجميع يرقصون. كنت الفتاة ذات الشخصية المميزة، محل ثقة وصديق حقيقي، كلهم قالوا لى ذلك.

والآن، أستطيع أن ألعب دور الأم الروحية الخيالية بالنسبة لهن، على الرغم من عيوبهن الواضحة، وسيقانهن النحيلة جدًّا، وتلك الشعيرات المشوهة لشفاههن العليا، والتى تستهجنها الإعلانات المزدحمة على الأغلفة الخلفية لمجلات السينما، كيعانهن المدببة مثل

ركب الدجاج. كان لدى القدرة على تحويلهن من القرع إلى الذهب الخالص. حرب، سياسات، استكشافات في حوض الأمازون، وسائل الهروب العظيمة الأخرى، تلك كانت فى جملتها أشياء ترفضهن، ولم يكنّ مهتمات كثيرًا بكرة القدم أو الهوكي، فهى ألعاب لا يستطعن ممارستها، فلماذا ننكر عليهن الحلم بالقلاع والمضطهدين والأمراء، ومن هو آرثر لكى يتحدث عن صلة الأدب بالمجتمع؟ أحيانًا كانت نظرياته وعقائده تجعلنى أشعر بالغثيان، كانت الحقيقة أنى تعاملت مع الأمل، قدمت رؤية لعالم أفضل، رغم أنه غير معقول. أكان ذلك مزعجًا جدًّا ؟ لم أستطع أن أرى أنه كان مختلفًا كثيرًا عن الرؤى التى كان آرثر وأصدقاؤه يعرضونها، وكانت مماثلة تمامًا للواقع. كنت أقول له خلال تبريراتى الانفرادية مع نفسى فى منتصف الليل: إذن فأنت مهتم بالناس والعمال، حسنًا، ذلك ما يقرؤه الناس والعمال، الإناث منهم على أية حال عندما يجدن وقتًا للقراءة، على العموم فهن لا يستطعن مواجهة الواقعية الاشتراكية ذات "الاعترافات الحقيقية". ولكنهن يقرأن كتبي. كن مدركًا لذلك.

كان يمكن أن يصبح هذا مبالغة، تضغط على أصابع قدم آرثر الحساسة جدًّا والمقدسة. ومن الأفضل تناولها من زاوية مادية حتمية: "آرثر، الواقع أن هذا شيء يناسبنى وأجيده. لقد اكتشفته بالصدفة، ولكن بعد ذلك تعلقت به، وتحولت إلى محترفة. والآن يعد الوسيلة الوحيدة التى أعرفها لأتكسب منها. وكما تقول العاهرات، "ما الذى

يضطرنى للعمل كنادلة"؟ كنت دائمًا تقول لى أن النساء يجب أن يصبحن كاملات الأهلية من خلال عمل ذى مغزى، وكنت تزعجنى بصورة دائمة للحصول على مثل هذا العمل. حسنًا، هذا عملي، وأنا أجده ذا مغزى، وأنا بالكاد عاطلة متكاسلة، لقد كتبت خمسة عشر من هذه الأشياء.

لن يكون آرثر قد اشترى هذا على أى حال. مارلين، المثل الأعلى، عملت كاتبة على الآلة لثلاثة أشهر، ("أنت لا تستطيع فى الواقع أن تفهم العمال ما لم تكن من داخلك معهم")، وبالنسبة لآرثر، المتحذلق، لا ينفع أقل من هذا المستوى.

مسكين آرثر، فكرت فيه، لابد أنه وحيد تمامًا فى شقتنا، محاط بأنقاض زواجنا. ماذا كان يفعل فى تلك اللحظة؟ هل كان يحشو ثيابى الحمراء والبرتقالية داخل حقيبة "المدنيين المتقاعدين"، ويفرغ درج أدوات الزينة الخاصة بى فى القمامة؟ أكان يتصفح فى سجل صور وقصاصات كنت بدأت فى جمعها خلال تلك الأسابيع الأولى من الانفعال الطفولى بعد صدور *العرافة*. كما كان من السذاجة أن أعتقد أنهم أخيرًا يحترمونني... سيذهب سجل الملصقات إلى القمامة مع كل صورى الأخرى التى تركتها على الجانب الآخر، وبماذا سوف يحتفظ... قفاز ؟... حذاء؟

ربما كان يشعر بالأسف، كان هذا تفكيرًا جديدًا، كان يشعر بنزوع إلى الحزن، أو حتى بالحرمان، كما كنت أشعر. أصابنى ذلك بخوف من أن أكون قد أسأت تقديره، نفترض أنه لم يستمر طويلاً فى كراهيتي، ونفترض أنه تخلى عن فكرة الانتقام، ربما أكون قد فعلت شيئًا فظيعًا بالنسبة له، شيئًا نهائيًا. أكان يجب أن أرسل له بطاقة مجهولة الهوية من روما ــ جوان لم تمت، توقيع صديق ــ كى لا ييتئس؟

كان يجب أن أكون أكثر ثقة به، كان يجب أن أكون صادقة منذ البداية، معبرة عن شعوري، أخبره بكل شيء. (ولكنه لو كان قد علم ما كنت أريده حقيقة، أكان سيظل يحبني؟)

كانت المشكلة أننى أردت أن يحتفظ بأوهامه كما هي، وكان من السهل أن أفعل ذلك، كان كل ما يحتاجه الأمر قليلاً من ضبط النفس. ... ببساطة لم أخبره أبدًا بأى شيء ذى أهمية.

لكن لم يكن المزيد من الصدق لينقذني، فكرت فى أن ما ينقذنى فى الواقع هو المزيد من عدم الصدق. وحسب خبرتي، فالأمانة والتعبير الصادق عن الإحساس يمكن أن يؤديا إلى شيء واحد فقط.. كارثة.

الجزء الثانى

الفصل الخامس

إذا تركت دودة تخرج من صندوق الدود، فإن الدود الباقى كله سوف يحذو حذوها. اعتادت العمة لو أن تقول ذلك، كان فى جعبتها العديد من الحكم المفيدة، بعضها تقليدى معروف والبعض الآخر من اختراعها فى المناسبات التى تتطلب ذلك. لقد سمعت عن المثل القائل "اللسان هو عدو الرقبة" فى مكان ما، ولكنى لم أسمع أبدًا عن "هناك أكثر من قطة واحدة فى أى حقيبة "، أو "لا تُحصِ أرانبك قبل أن تخرجها من القبعة". وتؤمن العمة لو بالحكم والأمثال، ولو فى الأحداث المهمة على الأقل.

كان ذلك سببًا من الأسباب التى دفعتنى ألا أخبر آرثر بالكثير عن أمي، فلو كنت قد بدأت فى الحديث عنها، لعرف عنى ما يكفي. لقد اخترعت أمًّا من أجله خصيصًا، امرأة حنونة، رابطة الجأش، والتى ماتت نتيجة إصابتها بحالة نادرة من حالات داء الذئبة، أعتقد أن ذلك كان بعد وقت قصير من لقائى معه.

ولحسن الحظ أنه لم يكن أبدًا فضوليًّا فيما يتعلق بحياتى الماضية. كان مشغولاً جدًّا بأن يقص علىَّ ماضيه، سمعت كل ما يتعلق بأمه: كيف أنها علمت بحملها له فى نفس اللحظة التى حدث فيها الحمل، ووهبته لطائفة رجال الدين الأنجيليكان وهو لا يزال فى

بطنها، وكيف هددت بقطع إصبعي إبهامه عندما أمسكت به يلعب مع نفسه في الرابعة من عمره. كنت أعلم احتقاره لها ولإيمانها بالعمل الشاق والإنجاز، والغريب أن هذا ما يؤمن به هو أيضًا، وكنت أعلم خوفه من محافظتها على النظام، والتي تتمثل في صفوف الزهور المنتظمة والتي كان مجبرًا على إزالة الأعشاب الضارة منها. سمعت عن كراهيتها لاحتساء الخمر، كما علمت عن بار والده في حجرة الاستجمام بقصر القاضي فريدركتون والتي ادعى أنه تخلى عنها منذ زمن بعيد، وبرؤوس الاسكتلنديين الذهبية المصغرة فوق فوهات الزجاجات، بشكل منحرف كالحلمات، أو هكذا تخيلتهم أنا. وعرفت بالرسائل الهستيرية المختلفة التي كتبتها أمه تتبرأ منه بسبب هذا أو ذاك، السياسة، الدين، الجنس. جاءت إحدى هذه الرسائل عندما علمت أننا نقطن سويًّا، ولم تسامحني أبدًا.

لكل تلك التصرفات الشاذة والظالمة كنت أستمع بإخلاص، من ناحية على أمل أن أفهمه تدريجيًّا، ولكن بحكم العادة في الغالب الأعظم من ناحية أخرى. كنت مستمعة جيدة، كرست نفسي للاستماع، واعتبرت أنني سأكون بذلك أفضل، لأنني لم أكن أجيد أي شيء آخر إجادة تامة، تعودت أن أستمع لأي شخص وعن أي شيء، أتمتم وأهمس في لحظات مواتية، بدعوى أني أبث الطمأنينة، بكلام غير ذي معنى محدد أو واضح، متعاطفة كالوسادة. وشرعت حتى في التصنت من خلف الأبواب، وفي الأتوبيسات والمطاعم، ولكن كاد

ذلك أن يكون بنفس النتيجة، نظرًا لأنه كان من جانب واحد. لذلك كان من السهل أن أستمع لآرثر، وانتهيت إلى معرفة الكثير جدًا عن أمه، أكثر بكثير مما عرف هو عن أمي، رغم أن هذا لم يفدنى بشيء. فالمعرفة ليست قوة بالضرورة.

ومع ذلك قلت له شيئًا واحدًا كان لابد وأن يترك عليه انطباعًا أكثر مما حدث، وهو أن أمى أسمتنى على اسم جوان كراوفورد، وهذا من الأشياء التى حيرتنى كثيرًا بشأنها. هل أسمتنى على اسم جوان كراوفورد لأنها أرادتنى أن أكون مثل شخصيات السينما التى لعبت أدوارها ـــ جميلة، وطموحة، وقاسية، ومولعة بتحطيم الرجال ـــ أو لأنها أرادتنى أن أكون ناجحة؟ عملت جوان كراوفورد باجتهاد، كان لديها قوة إرادة، بَنت نفسها من لاشيء، وفقًا لما حكت أمى عنها، هل أعطتنى أمى اسم شخصية أخرى لأنها أرادت أن تحرمنى من أن يكون لى اسم خاص بى ؟ تحولت إلى التفكير فى ذلك، فجوان كراوفورد لم يكن هذا اسمها الحقيقى أيضًا، فقد كان اسمها الحقيقى لوسيل لوسيور، والذى كان يناسبنى أفضل بكثير. لوسى الحلوة. عندما كنت فى الثامنة أو التاسعة كان من عادة أمى أن تنظر إلىّ وتقول متأملة: "كلما فكرت أننى سميتك على اسم جوان كراوفورد.."، تتقلص بطنى وتتقبض ويسيطر على الخجل. عرفت بعد ذلك أننى كنت أشعر بتأنيب الضمير، ولكنى لا أستطيع أن أعرف لماذا. ربما لأنه كان هناك أكثر من وجه لجوان كراوفورد، كان لها عينان

كبيرتان، وفم غير سعيد، وعظام وجه بارزة، كما حدثت لها أشياء تعيسة، ربما كان ذلك. أو، وهذا أمر مهم، أن جوان كراوفورد كانت نحيفة.

وأنا لم أكن كذلك، وكان هذا من بين الأشياء الكثيرة التى لم تسامحنى أمى بسببها مطلقا. فى البداية كنت ممتلئة فحسب، حيث بدوت فى الصور الفوتوغرافية التى التقطت لى وأنا صغيرة، والموجودة فى ألبوم صور أمي، بدوت طفلة متمتعة بصحة جيدة، ولم أكن أكثر بدانة من معظم الأطفال، والشيء الغريب فقط إنى لم أكن أنظر إلى الكاميرا أبدًا. و بدلاً من ذلك كنت أحاول أن أضع شيئًا فى فمي: لعبة مثلا، أو أضع يدي، أو زجاجة. واستمر ذلك الحال بصورة جادة ومستمرة فى الصور الفوتوغرافية، ومع أننى لم أصبح أكثر بدانة، إلا أنى فشلت فى أن أفقد لقب "طفلة بدينة". وعندما بلغت السادسة من عمري، توقفت الصور فجأة. لابد أن هذا حدث عندما يئست منى أمي، نظرًا لأنها هى التى كانت تلتقطها، ربما لم تعد ترغب فى تسجيل نموي، كانت قد قررت أنه لا فائدة منى.

سرعان ما أصبحتُ مدركة لذلك. وألحقتنى أمى بمدرسة للرقص، حيث كانت هناك امرأة تدعى الآنسة فليج، وكانت ، مثلها مثل أمى تقريبا، نحيلة القوام ورافضة لكل شيء. تعلمت هناك الرقص الإيقاعى والباليه، وكانت الفصول الدراسية مقامة فى حجرة طويلة فوق محل جزارة، استطعت دائمًا أن أتذكر كيف أننى ـــ كلما

صعدت فوق درجات السلم التى يعلوها التراب ــ كنت أشعر برائحة نشارة الخشب واللحم النيئ تخفت وتغلب عليها رائحة الأقدام المنهكة، الرطبة والحارة، والمخلوطة بعطر ياردلى الذى تستخدمه الآنسة فليج. اتخذت أمى هذه الخطوة لأن تسجيل بنات السبع سنوات فى مدارس تعليم الرقص كانت من ناحية موضة فى ذلك الوقت ــ كانت مدارس هوليوود لتعليم الموسيقى لا تزال شعبية حينئذ، ومن ناحية أخرى، لأنها كانت تأمل إلى حد ما فى أن يجعلنى ذلك أقل امتلاءً، لم تقل لى هذا، قالته للآنسة فليج، فهى لم تكن بعد تدعونى بدينة.

عشقت مدرسة الرقص، بل إنى كنت ماهرة فى الرقص الواقعي، على الرغم من أن الآنسة فليج كانت تطرق الأرض بعنف بعصا الإشارة قائلة: "عزيزتى جوان، أرجو أن تتوقفى عن الطرق بقدميك بصوت مكتوم". ومثل معظم البنات الصغيرات فى هذا الوقت، كنت أعتبر راقصات الباليه مثلاً أعلي، كان الرقص شيئاً تستطيع البنات أن تفعله، وتعودت أن أرفع أنفى القصير الضخم إلى أعلى أمام واجهات محلات المجوهرات وأحملق فى تماثيل صندوق الموسيقى المصنوعة من الخزف الصينى لنساء لامعات، يرتدين تنورات هشة وردية اللون، وعلى رؤوسهن الخزفية الصلبة ورود، وأتخيل نفسى أقفز فى الهواء كطائرة ورقية، يرفعنى رجل نحيل برداء أسود مشدود، وقد ارتديت مفرش مائدة تم تعديله، وشعرى مليء بأحجار ماس زائفة، تتألق مثل الأمل. عملت بجد فى الفصول

الدراسية، كنت أركز، حتى أننى تعودت أن أتدرب فى المنزل وقد لففت نفسى بستارة حمام مزركشة مهملة كنت قد شحذتها من أمى عندما كانت على وشك أن تلقى بها فى صفيحة القمامة. ومع ذلك قمت بغسلها أولاً، فلم تكن تحب القذارة. كنت أتوق إلى زوج من أحذية الباليه الحريرية، ولكن الآنسة فليج كانت تقول إننا كنا صغارًا جدًّا، أصغر من أن نرتدى تلك الأحذية، فالعظام فى أقدامنا لم تتصلب بعد. لذلك كان على أن أتعود على المشى بحذاء أسود غير رومانسي، مزود بشريط مطاطى فوق مشط القدم.

كانت الآنسة فليج امرأة مبتكرة، تصورت فى تلك الأيام أنها ستدعى "المبدعة"، لم يكن لديها مجال واسع لممارسة قدرتها على الإبداع فى تعليم أطفال صغار الخطوات الأساسية، والذى كان بصورة عامة نوعًا من التدريب على المشي. ومع ذلك استمرت فى أداء بروفاتها لإقامة حفلة الربيع السنوية. كانت الحفلة تهدف فى المقام الأول إلى ترك انطباع قوى لدى الآباء، ولكنها كانت أيضًا للتأثير فى البنات الصغار أنفسهن، كى يطلبن من آبائهن السماح لهن بمواصلة دروس الرقص فى العام التالى.

قامت الآنسة فليج بتأليف جميع الرقصات فى برنامج الحفل، ووضعت أيضًا الألحان والديكورات، وصممت الأزياء، وسلمت نماذج وتصميمات هذه الأزياء إلى الأمهات، اللائى كان من المفترض أن يقمن بحياكة تلك الأزياء، ولم تكن أمى تحب الحياكة،

ولكن من أجل هذا الحدث انكبت على العمل، وقصت ووضعت الدبابيس مثل كل الأمهات الأخريات، ربما لم تكن يائسة منى على أية حال، وربما كانت لا تزال تبذل مجهودًا.

نظمت الآنسة فليج الحفلة الموسيقية إلى مجموعات عمرية، تمشيا مع عدد فصول الرقص فى مدرستها. كانت هناك خمس مجموعات... البنات من خمس سنوات فأكثر، والبنات الأطول قليلا منهن من (٦- ٧ سنوات)، ثم البنات (من ٧-٨ سنوات) اللائى يرقصن وهن حافيات، يليهم البنات من (١٠- ١٢ سنة)، وأخيرا البنات طويلات القامة من ١٣ سنة فأكثر. تحت مظهر جسد الآنسة فليج النحيل، ويديها ذات العظام الطويلة، وشعرها المرفوع على شكل كعكة، وحاجبيها العنكبوتيان يرتسمان فوق عينيها ــ واللذان أدركت فيما بعد أنهما يرسمان بقلم ــ كانت لديها طبقة من العواطف الرقيقة، كانت هى التى أضفت انسجامًا على إبداعاتها.

كنت ضمن مجموعة دون العاشرة، وهو الأمر الذى كان متناقضًا مع الفصل الدراسى الذى أنتمى إليه، لأنه بالإضافة إلى أننى كنت أثقل من كل الأخريات فى الفصل، فقد بدأت أيضًا فى أن أكون الأطول، ولكنى لم أعر التفاتًا لذلك، إننى حتى لم ألاحظ ذلك، والسبب أننى كنت كل يوم أكثر تعلقًا وانفعالاً بموضوع الحفل. تدربت لساعات طويلة فى البدروم، وهو المكان الوحيد الذى كان مسموحًا لى بالتدريب فيه، بعد أن اصطدمت خلال التمرين بالمصباح الأبيض

الذهبى فى حجرة معيشة أمي، مما أدى إلى تحطمه. وكان المصباح واحدًا من مجموعة على شكل ثمرة أناناس. كما استدرت حول نفسى خلال التمرين بجانب الغسالة الكهربائية وأنا أهمهم بموسيقى راقصة فى رأسي، وانحنيت أمام الفرن (الذى كان لا يزال يعمل بالفحم فى تلك الأيام)، وتأرجحت جيئة وذهابًا بين الملاءات المطوية على الحبل للتجفيف، وعندما تعبت صعدت على درجات القبو وقد انقطعت أنفاسى وغطانى غبار الفحم، لأجد أمى فى مواجهتي، وفمها مليء بالدبابيس. وبعد أن فركت جسمى فى الحمام، طلبت منى أن أقف على المقعد وأن ألف حول نفسى ببطء. كنت لا أستطيع أن أظل بلا حركة، حتى ولو كان ذلك ضروريا لتجربة زى الحفل الخاص بي.

كان صبر أمى ينفد بسرعة، مثلى أنا تمامًا، إلا أن نفاد صبرها كان من نوع آخر. ربما تكون قد بدأت تندم على إرسالى إلى مدرسة الرقص. وأحد الأسباب هو أننى لم أفقد أى شيء من وزنى، والآخر هو أننى كنت أتسبب فى المزيد من الضجيج المزعج عما كان قبل ذلك. وخصوصًا عندما كنت أتدرب على عدد الخطوات فى حذائى الجلدى المصقول، والذى له مقدمة وكعب معدنيان، على أرضية الصالة المصنوعة من الخشب، وهو الأمر الذى كنت قد نُهيت عن فعله؛ والسبب الثالث أنّ أمى كانت لديها مشكلات مع الملابس، فقد كانت تتبع التعليمات بدقة، ولكنها لم تستطع أبدًا أن تجعلها تبدو ملائمة.

كان هناك ثلاثة من تلك الأزياء، فبنات دون العاشرة كان عليهن أداء ثلاث رقصات فى البرنامج "أوان زهرة التيوليب"، وهو باليه هولندى كنا نصطف فيه مع شركاء، ونحرك أذرعنا أعلى وأسفل لنحاكى طواحين الهواء. ورقصة "رياح المراسى" (اللحن الخاص بالأسطول الأمريكى)، وهى رقصة إيقاعية بلفات سريعة، وتحيات للجمهور (كانت تبدأ مباشرة بعد نهاية عرض الرقصات الحربية والعسكرية، ولا تزال تلقى رواجًا)، ورقصة "مرح الفراشات"، التى تقوم بها مجموعة تتصف بالجمال والرشاقة. وكانت الحركات الرشيقة هى الأقرب فى تصورى عن كيف يجب أن يكون الرقص، كانت تلك رقصتى المفضلة، وكان بها أيضًا الزى الذى أفضله. ويقدم هذا إلى الجمهور فى صورة تنورة شفافة وشورت مثل تلك التى ترتديها الباليرينا أو راقصة الباليه الحقيقية، وصدرية مشدودة بأشرطة كتف، وقطعة للرأس لها أطراف أشبه بقرون الاستشعار عند الحشرات، وزوج من الأجنحة من ورق السيلوفان الملون، وإطاراتها بها مشابك لتعليقها، أمدتنا بها الآنسة فليج. تلك الأجنحة كانت هى ما أتوق إليه، ولم يكن مسموحًا لنا أن نضعها على أجسامنا قبل يوم الحفل، خشية أن تتحطم.

لكن هذا الزى هو الذى كان يزعج أمي. فالأزياء الأخرى كانت أسهل، كان الزى الهولندى مكونًا من تنورة طويلة، مع بلوزة سوداء بأكمام بيضاء، وعلى أية حال كنت أنا آخر راقصة فى

المجموعة، وكان لمجموعة "ارفعوا المراسي" زيًّا فضفاضًا، مزينًا بجديلة بحرية، وكان هذا ملائمًا تمامًا نظرًا لأنها كانت برقبة عالية وأكمام طويلة، وكانت فضفاضة حول الخصر. كنت أنا فى الصف الخلفى بسبب طولي، ولم يكن قد تم اختيارى كواحدة من النجوم الثلاثة، وكلهن يصففن شعورهن على طريقة شيرلى تمبل، واللاتى كن يؤدين رقصات منفردة على طبول مصنوعة من علب الجبن. ولكننى لم أهتم كثيرًا بعدم اختياري، وضعت عينى على دور زعيمة الفراشات، كان هناك ثنائى مع الولد الوحيد فى الفصل، كان اسمه روجر، وكنت أحبه قليلا. تمنيت لو أن الفتاة التى من المفترض أن تشاركه هذا الدور تمرض، وفى هذه الحالة سوف يطلبون منى القيام بالدور بدلاً منها. كنت قد حفظت دورها كما لو كان دورى أنا تقريبًا.

وقفت على الكرسي، وكانت أمى تشبك الدبابيس فى ثوبى ثم تتنهد، وطلبت منى أن أستدير ببطء، ثم قطبت جبينها وأخذت فى وضع المزيد من الدبابيس، المشكلة كانت بسيطة للغاية: كان شكلى غير متناسق وغريب وأنا أرتدى التنورة الوردية القصيرة، بينما وسطى وذراعى ورجلى مكشوفة، أنا الآن أعيد بناء هذا المشهد من جديد من وجهة نظر شخص كبير بالغ، فالشخصية كثيرة القلق، ومفرطة فى الاحتشام، مثل أمى أو الآنسة فليج، ولكن مع أفخاذى أنا المترجرجة، والترهلات الدهنية حيث سيتشكل الصدر فيما بعد، وأعلى ذراعىّ الممتلئتين، ووسطى المرن، لابد وأننى بدوت فاحشة

ومسنة وغير محتشمة، لابد وأن ذلك جعلني أشبه بالمنحلات اللائى يخلعن ثيابهن أمام النظارة على المسرح. وفى ذلك الوقت من عام ١٩٤٩، لابد أنهم كانوا يرونني طفلة من النوع الذى يجب ألا يُشاهد فى المناطق العامة مرتدية مثل هذه الملابس القليلة. ولا عجب أنني وقعت فى حب القرن التاسع عشر: ففى ذلك الوقت، حسب ما نراه فى البطاقات البريدية القذرة لذلك الزمن، فالجسد المكتنز كان فضيلة.

كافحت أمى مع الزى، حيث أطالته، فأضافت طبقة أخرى من الشاش لإخفاء الخطوط العامة للجسم، كما بطَّنت الصديرى، ولكن بلا فائدة. حتى أننى أُخذتُ عندما سمحت لى فى النهاية أن أنظر إلى نفسى أمام المرآة ذات الثلاثة أوجه الملحقة بتسريحتها الفاخرة. وعلى الرغم من إنى كنت أصغر من أن أنزعج بسبب جسمي، فإنه لم يكن بالفعل المظهر الذى كنت أبغيه. لم أكن أشبه الفراشة. ولكنى كنت أعلم أن إضافة الأجنحة سوف تجعله مختلفًا بالكلية. كنت آمل فى تحول سحرى يتم فى اللحظة التى أضعهما فيها.

كانت بروفة الرداء بعد ظهيرة نفس اليوم الذى ستقام فيه الحفلة فى المساء. كانت البروفة والحفلة قريبتين جدًّا من بعضهما لأن الحفلة لن تقام فى الحجرة الواقعة فوق الجزار، التى كانت ضيقة جدًّا بالنسبة لهذا الحدث، ولكن فى مسرح مدرسة عامة، تم تأجيره ليوم واحد. ذهبت أمى معي، تحمل ملابسى فى صندوق كرتون. كانت خشبة المسرح ضيقة، والصوت فيها مكتوم، ولكنها كانت

مجددة بستائر مخملية ناعمة أرجوانية اللون؛ تحسستها فى أول فرصة أُتيحت لي. وكانت الصالة الموجودة خلف الستائر تموج فى الإثارة، وكان فى هذه الصالة عدد كبير من الأمهات، تطوع بعضهن لعمل الماكياج لوجوه بناتهن والبنات الأخريات، كنّ يلونّ الشفاه بأحمر داكن اللون، والرموش بماسكرّا سوداء تجعلها صلبة كالمسامير. البنات اللائى انتهين من ذلك ومن ردائهن وقفن فى مواجهة الحائط بحيث لا يفسدن هذه الأردية وكأنها قرابين معبد. والطالبات الأكبر سنًا كن يتمشين ويدردشن؛ لم يكن العرض يشكل أهمية كبيرة بالنسبة لهن، حيث قمن به من قبل، كما أنهن سيؤدين بروفة على رقصاتهن فيما بعد.

مرت رقصتنا "أوان زهرة التيوليب" و"أرفعوا المراسي" دون أى مفاجآت. غيرنا ملابسنا خلف المسرح، كان المكان ضيقًا وتشابكت أذرعنا وأرجلنا، فضحكنا بعصبية، وساعدنا بعضنا البعض فى المشابك والسُستَ. كان هناك زحام حول المرآة الوحيدة فى المكان. طويلات القامة اللائى كن يتناوبن معنا، انتهين من رقصة "صغار القطة كيتي". بينما وقفت الآنسة فليج فى جانب من المسرح، تقيِّم الأداء، وتلوح بعصا الإشارة، صائحة من حين لآخر فى الطالبات، كانت منفعلة جدًّا. وبينما كنت أرتدى ملابس الفراشة، رأيت أمى تقف بجانبها.

كان المفروض أن تكون بالخارج، فى الصف الأمامى حيث تركتها هناك، جالسة على المقعد القابل للطي، قفازها فى حجرها، تدخن وهى تهز إحدى قدميها فى حذائها ذى الكعب العالى والمفتوح من الأمام. ولكنها الآن تتحدث مع الآنسة فليج. نظرت الآنسة فليج ناحيتي، ثم خطت نحوى تتبعها أمي. ثم وقفت تحملق فىّ وشفتاها مطبقتان.

قالت لأمي: "أفهم ما تعنين". كلما تذكرت بغيظ هذا المنظر فيما بعد، كنت أشعر أنه لو لم تكن أمى قد تدخلت لما كانت الآنسة فليج قد لاحظت شيئًا، ولكن من المحتمل أن هذا ليس صحيحًا. ما كانت تراه، ما كانت كلتاهما تراه، كان شذوذها، ولعها بالفن، "مرح الفراشة" الروحانى لديها، وقد هبط إلى شيء مثير للضحك وغير لائق بسبب وجود فتاة صغيرة بدينة هى أقرب إلى يرقة عملاقة منها إلى الفراشة، أكثر شبهًا بدودة بيضاء، إذا كنت حقًا تريد الدقة.

ما كانت الآنسة فليج تستطيع أن توقف هذا، فبالنسبة لها، كانت النتيجة النهائية تعنى كل شيء، فهى تود أن تنال الثناء، وبإخلاص، وليس بشفقة أو بابتسامات مكبوتة. إنى أتعاطف معها الآن، على الرغم من إنى لم أستطع هذا فى ذلك الحين. على أية حال لم تخذلها قدرتها على الإبداع، حيث مالت علي، ووضعت يدها على كتفى العاري، وسحبتنى إلى الركن. وهناك جثت على ركبتيها وحدقت فىّ بعينيها القويتين، وارتفعت رموشها الملطخة ثم انخفضت.

قالت: "جوان يا عزيزتي، أتحبين أن تكونى شيئًا خاصًّا؟

ابتسمت لها بنوع من الشك.

ثم استطردت بود: "هل تفعلين شيئًا من أجلى يا عزيزتى ؟"

أومأت بالإيجاب، فأنا أحب أن أساعد.

قالت: "لقد قررت أن أغير فى الرقصة قليلاً، قررت أن أضيف جزءًا جديدًا لها؛ ولأنك أكثر البنات تألقًا فى الفصل، فقد اخترتك لتكونى المتفردة في دور جديد، هل تعتقدين أنك تستطيعين القيام بذلك يا عزيزتى ؟"

كنت قد رأيت ما يكفى منها لأعرف أن هذا العطف مشكوك فيه، ولكنى أعجبت به على أية حال. أومأت برأسى مؤكدة قدرتي، وسعادتى لاختياري. فربما يكون قد تم انتقائى لأداء الرقصة الثنائية مع روجر، ربما كنت أرغب فى أن أكون أكبر، وأحصل على دور أكثر أهمية، كنت متحمسة جدًّا.

قالت الآنسة فليج وهى تشد بيدها على ذراعي: "والآن تعالى واقفزى إلى زيك الجديد".

سألتها وهى تقودنى جانبًا: "ماذا سوف أكون؟"

"كرة النفتالين يا عزيزتي"، أجابت بهدوء، وكأن هذا أكثر شيء يمكن أن ينجح فى العالم.

عقلها المبدع، وخبراتها التى من الجائز أن تكون قد اكتسبتها فى مرحلة مبكرة، أعطتها قدرة أساسية على التعامل مع حالات مثل هذه: إذا كنت مضطرًا لأن تبدو مضحكًا، وليس هناك سبيل للفكاك، فالأفضل أن تتظاهر بأنك تقصد ذلك. لم أتعلم هذه القاعدة حتى مر وقت طويل بعد هذه الواقعة، ليس عن وعى بذلك. كنت مجروحة، ومكتئبة فى الواقع، وعندما عادت الآنسة قليج أرادت أن أغير تنورتى الشفافة والترتر اللامع، وأرتدى أحد أزياء الدبة ــ تيدى البيضاء، التى تستخدمها مجموعة العشر سنوات فى "رحلة الدبة تيدى". أرادت أيضًا منى أن أعلق فى رقبتى لوحة كبيرة تقول "كرة النفتالين". "وهكذا سيفهمون جميعًا، يا عزيزتي، ما هو دورك المفترض". وهى بنفسها سوف تجهز اللوحة من أجلي، فى الفترة بين البروفة والمسرحية.

سألت: "هل أستطيع أن أرتدى أجنحتى ؟" كان قد بدأ يتسرب إلى داخلى هول التنازل الذى طلبت منى أن أقدمه.

"يا عزيزتي، هل سمع أحد على الإطلاق عن كرة نفتالين بأجنحة؟" قالت ذلك بأسلوب يفترض أن يكون نوعًا من المزاح، ولكن بطريقة عملية.

كانت فكرتها أنه فى اللحظة التى تنهى فيها الفراشات وثبها المرح، أبدأ أنا فى التحرك بينها بتثاقل بالبذلة البيضاء واللوحة،

ستكون الفراشات قد تدربت على أن تتفرق فى هذه الحالة، وسيكون المشهد لطيفًا، قالت لى ذلك.

قلت مترددة: "أحببت الرقصة بالطريقة التى كانت عليها... أريدها أن تكون بالطريقة التى كانت عليها"، كنت على وشك البكاء، ومن المحتمل أننى قد بدأت أبكى بالفعل.

تغير سلوك الآنسة فليج، حنت وجهها إلى أسفل بالقرب منى حتى أننى استطعت أن أرى التجاعيد حول عينيها، وشممت رائحة معجون الأسنان القوية من فمها، وقالت ببطء وبوضوح: "سوف تفعلين كما قلت أو لن تشاركى فى الرقصة نهائيًّا، هل تفهمين؟"

كان إبعادى تمامًا عن الحفلة أكثر مما أحتمل. فاستسلمت، ولكنى دفعت الثمن. كان على أن أقف فى بذلة كرة النفتالين، ويد الآنسة فليج على كتفي، بينما كانت تشرح لمجموعة ما دون العاشرة الرشيقات فى تنوراتهن الناعمة وأجنحتهن اللامعة، عن التغيير فى الخطط، وعن دورى البطولى الجديد. كن ينظرن إلىّ والازدراء على شفاههن الملونة، لم يكنّ مستوعبات.

عدت إلى المنزل مع أمي، رافضة أن أتحدث إليها لأنها غدرت بي. كان الجليد يتساقط خفيفًا على الرغم من أننا كنا فى شهر إبريل، وكنت مسرورة لأنها كانت ترتدى حذاءها المفتوح من الأمام، ولابد أن قدميها سوف تبتلان. ذهبت إلى الحمام وأغلقت الباب حتى

لا تستطيع أن تصل إلى، ثم انفجرت فى بكاء شديد، راقدة على الأرضية بوجهى أمام دواسة الحمام الوردية المنقوشة. فيما بعد جذبت سلة الغسيل حتى استطعت أن أقف فوقها وأنظر إلى مرآة الحمام. ضاع مسحوق الوجه الذى وضعته، كانت هناك شرائط سوداء أسفل وجنتى مثل دموع السخام، وكان فمى الأرجوانى ملطخًا ومنتفخًا. ما الخطأ الذى ارتكبته؟ لم يكن أبدًا أنى لم أستطع الرقص.

دافعت أمى عن نفسها بإيجاز من خلال باب الحمام المغلق، ثم هددت، فخرجت، ولكنى لم أرغب فى تناول أى طعام: فلن أعانى وحدي. مسحت أمى المساحيق عن وجهى بكريم بوندز المرطب، موبخة لي، لأنه لابد أن يعاد وضع الماكياج مرة أخرى، واتجهنا ثانية إلى قاعة المسرح. (أين كان أبى؟ لم يكن هناك.)

كان علىّ أن أقف يتملكنى الحسد فى جوانب المسرح، بوجه أحمر يتميز بالغضب فى الزى الكريه، أستمع إلى السعال التمهيدي، وتخبيط الكراسى المطوية، ثم مشاهدة الفراشات وهى تؤدى بمرونة الحركات التى كنت متأكدة إنى أحفظها عن ظهر قلب أفضل من أى منهن، كان أسوأ شيء إنى ما زلت لا أفهم تمامًا لماذا كان هذا يحدث لي، هذا الإذلال المتنكر فى صورة امتياز.

وفى اللحظة المناسبة، أعطتنى الآنسة فليج دفعة فترنحت فوق المسرح، محاولة أن أبدو بقدر الإمكان أشبه بكرة النفتالين، كما كانت

قد أرشدتني. ثم رقصت، لم تكن هناك خطوات لرقصي، فلم أكن قد تعلمت أى خطوات لهذا الدور، لذلك فقد ارتجلت الخطوات أثناء الرقص. أرجحت ذراعيّ، ورحت أرتطم بالفراشات، وأدور حول نفسى في دوائر، وأضرب بقدمى قدر ما أستطيع على ألواح المسرح الرقيقة، حتى اهتزت. ألقيت نفسى فى الرقصة، كانت رقصة الغضب والتدمير، انهمرت الدموع على وجنتى خلف الفراء الذى أرتديه، الفراشات يجب أن تموت، آلمتنى قدماى لعدة أيام فيما بعد. "هذه ليست أنا"، ظللت أقول ذلك لنفسي، "إنهم يجبروننى على ذلك". ورغم إنى كنت مختفية وراء زى الدبة تيدي، التى كانت ثقيلة وجعلتنى أعرق، فقد شعرت أننى عارية ومكشوفة، وكأن هذه الرقصة السخيفة كانت هى حقيقتي، واستطاع الجميع أن يروها.

تألقت الفراشات وهى تمرح بلا انقطاع على المسرح، وزاد من دهشتى إنى كنت قد تُركت فى منتصف المسرح، فى مواجهة الجمهور الذى لم يكن فقط يضحك، ولكنه يصفق بشدة، حتى عندما احتشدت الجميلات النحيلات جدًّا لتلقى الثناء استمر الضحك والتصفيق، وصاح العديد من المشاهدين الذين كانوا لابد آباء أكثر من أمهات "برافو كرة النفتالين"، حيرنى أن بعضهم بدا وكأنه يحب بذلتى الضخمة القبيحة أكثر من الأزياء الجميلة التى ارتدتها الأخريات.

بعد الحفلة كانت الآنسة فليج تتلقى التهنئة على لمستها الساحرة مع كرة النفتالين، حتى أمى بدت مسرورة، قالت لي: "لقد أجدت".

ولكنى ظللت أبكى تلك الليلة على أجنحتى المحبطة. سوف لن تتاح لى أبدًا فرصة استخدامها مرة أخرى، حيث أننى قررت أننى بقدر ما أحببت مدرسة الرقص كثيرًا، فلن أعود مرة أخرى فى الخريف. وصحيح أننى تلقيت اهتمامًا خاصًّا أكثر من الأخريات، ولكنى لم أكن متأكدة أنه من النوع الذى أحب. بالإضافة إلى ذلك، من سوف يفكر فى الزواج من كرة نفتالين؟ سؤال كانت أمى تضعه أمامى كثيرًا فيما بعد بأشكال أخرى.

الفصل السادس

في البداية، ما من مرة كررت هذه القصة لنفسي، تحت الوسادة أو داخل الحمام المغلق، إلا وتملؤنى بنفس الغضب والإحساس بالعجز ومعنى الخيانة التى شعرت بها فى ذلك الوقت. ولكنى بدأت أراها غير معقولة بشكل تجريدي، وخصوصًا عندما فكرت في أن أقصها على أى شخص آخر. فبدلاً من أن يتهموا أمي بالظلم، فربما يسخرون منى أنا. فمن الصعب أن تشعر بتعاطف تام مع فتاة فى السابعة، بدينة ومحشوة فى زى كرة نفتالين ومجبرة على الرقص، الصورة ببساطة سخيفة جدًّا. ولكن لو أننى وصفت نفسى بأننى ساحرة الجمال ونحيلة، لوجدوا الأمر كله مثيرًا للتعاطف وغير عادل بالكلية. أدركت هذا عندما بلغت العاشرة. فلو كانت ديدمونة بدينة، من كان يهتم إن كان عطيل قد خنقها أم لا ؟ لماذا تلقى صور الفتيات اللاتى تعرضن للتعذيب النازى والمنشورة على أغلفة مجلات الرجال الفاسدة ــ دائمًا إقبالاً ورواجًا؟ النتيجة سوف تختلف إلى حد بعيد إذا كانت الصور لنساء بدينات. فالرجال فى هذه الحالة سوف يجدون الأمر مرحًا وليس منافيًا للأخلاق، أو له جاذبيته. وعلى أية حال، كانت النساء الخاليات من الجاذبية معرضات للتعذيب تمامًا مثل النحيفات، وربما أكثر فى الواقع.

وفى العام التالى لمهزلة مدرسة الرقص، عندما كنت فى الثامنة من العمر، انتقلنا من المنزل الضيق المزدوج الذى كنا نعيش فيه إلى منزل أكبر منه قليلاً، من طابق واحد وله فاراندة أو شرفة بالقرب من أحد فروع سوبر ماركت "لوبلوز". لم يكن على الإطلاق من نوع المسكن الذى ترسمه أمى فى مخيلتها كمكان سكنى ملائم لها، ولكنه كان أفضل من أحياء الهاربين اللاجئين، أو الشقق المتهالكة، والطوابق المبنية على أسطح المنازل القديمة التى كان عليها أن تتحملها منذ زمن مبكر. كان ذلك يعنى مدرسة جديدة وجيرانًا جدد، أحست أمى أن الوسيلة المثلى كى تعيدنى إلى الانضباط، حسب تعبيرها، هى أن تلحقنى بإحدى جماعات رائدات الكشافة المخصصة للبنات من سن السابعة للعاشرة. وكان مما يتماشى مع طبيعة شخصيتها أنها لم تختر الجماعة الكشفية القريبة، التى كان معظم بنات فصلى قد التحقن بها فعلاً. وبدلاً من ذلك، اختارت واحدة أبعد، فى منطقة سكنية أرقى وأفضل، يلتحق بها أطفال من مدارس مختلفة تمامًا. وهكذا، لم تحقق حيلتها أى هدف من أهدافها، فلم تساعدنى على التعرف على البنات فى مدرستي، بل على العكس، حيث كان لابد وأن أترك مدرستى مبكرًا أيام الثلاثاء، التى كانت أيام الكشافة، لأصل إلى مقرها البعيد فى الميعاد، كما كنت وسط رائدات الكشافة نفسها أجنبية من وراء الحدود.

للوصول إلى هذه الجماعة الكشفية كان على أن أستقل الترام، ولكى أصل إلى محطة الترام كان لابد أن أعبر أحد الوديان العديدة شديدة الانحدار التى كانت تقطع المدينة. وكانت أمى خائفة بشدة من هذا الوادى شديد الانحدار والملىء بسيقان الأشجار والأعشاب النامية بينها، كان مليئًا بشجر الصفصاف وشجيرات أخرى، كانت تتخيل أنه يوجد خلف كل شجرة من تلك الأشجار شخص منحرف جنسيًّا يقف مترصدًا، أو عجوز مُهمل ومخبول أذهب الكحول عقله، أو مراهق متحرش، أو ما هو أسوأ من ذلك. (أحيانًا كانت تسمى مثل هؤلاء بالافتضاحيين أى المنحرفين الذين ينزعون إلى إظهار وعرض عوراتهم على الناس) الأمر الذى كان يتسبب فى أن أُكوّن أفكارا أخرى عن المعرض القومى الكندي. كل ثلاثاء كان لابد وأن تعطينى محاضرة عن هؤلاء المنحرفين حتى ولو فى الصباح الباكر قبل أن أشرع فى ارتداء زى المدرسة البنى والحذاء الذى بذلت جهدًا مضنيًا فى تلميعه الليلة الماضية. " لا تتحدثى مع أى رجال أشرار"، لابد أن تقول لى ذلك، وتستطرد "إذا رأيت أحدًا قادمًا نحوك فى الوادي، فاركضى بعيدًا بأسرع ما يمكنك".اعتادت أن تلقى هذا التحذير خلال تناولى طعام الإفطار، فى صوت يوحى بأنه بصرف النظر عن مقدار السرعة الذى أفر بها من أى منهم، فإننى لن أتمكن من الابتعاد أو الفرار. كنت أشعر بالإحباط بسبب هذا التحذير وأحس أنّ قدرى محتوم ومشئوم، فكانت عصيدة دقيق الشوفان التى كنت أتناولها

تتكور لتصبح كتلة تغوص فى قاع معدتي. لم توضح لى أبدًا ما هو شكل هؤلاء الرجال وماذا سيفعلون إذا أمسكوا بي، مما جعل هناك مجالا متسعًا لتخيلاتى، كما أن الأسلوب الذى استخدمته فى التعبير عن ذلك جعلنى مسئولة بشكل أو بآخر، وكأنى أنا نفسى زرعت الغابات فى الوادى وأخفيت الرجال الأشرار وراءها، وكأنى إذا ما أمسك أحدهم بى فإن ذلك سيكون من تدبيري.

لكى تعبر الوادى عليك أن تهبط واديًا مليئًا بالحصى، ثم تعبر قنطرة خشبية قديمة جدًا، فقد كانت مائلة وبعض ألواحها الخشبية تالفة ومنزوعة بحيث تستطيع أن ترى الأرض بعيدة جدًا تحت القنطرة، ثم عليك أن تصعد ممرًا على الجانب الآخر وسط أوراق وفروع الأشجار التى غالبًا ما تلامسك أثناء السير كأنها أصابع نباتية شريرة. كان على أن أهبط التل جريًا وأعبر القنطرة، بتثاقل وصعوبة وكأنى برميل ثقيل يتدحرج، ولكن عندما أصل جانب التل الصاعد، تكون أنفاسى قد انقطعت من شدة التعب فأجد نفسى مضطرة أن أسير، وكان هذا أسوأ جزء فى الطريق.

بعد أن ذهبت بمفردى عدة مرات، اكتشفت أمى حلاً بالمصادفة كان أسوأ وأشد وطئا من المشكلة ذاتها. كانت قد اكتشفت أن العديد من الأمهات الأخريات فى جانب القنطرة الذى كنا نقطن فيه لديهن تطلعات مثل تطلعاتها، أو أنهن قد قمن بتسجيل بناتهن فى نفس الجماعة الكشفية لسبب أو لآخر. وكنت أعرف ذلك منذ وقت

ولكنى لم أخبرها، لأن تلك الفتيات كن أكبر منى سنًا، وكن فى صفوف دراسية أعلي، وبدا كأنهن مرعبات بالنسبة لي، ومع أننا كنا نسلك نفس الطريق إلى المدرسة، فقد كنت أتأكد من احتفاظي بمسافة آمنة بعيدة عنهن إما أمامهن، أو خلفهن. وفى الترام حافظت على وجود أربعة مقاعد بيننا على الأقل.ولكن أمى كانت منظمة جيدة فى هذه الفترة من حياتها، فاتصلت هاتفيًّا بالأمهات الأخريات اللائى كن يعرفن بدورهن موضوع الرجال الأشرار، ورتبت ببساطة أن أسير إلى المجموعة الكشفية مع تلك الفتيات اللاتى أصبننى بالتوتر، ولكنى شعرت بأمان أكثر إلى حد ما وأنا أعبر الوادى معهن.

كانت المشكلة أنه برغم الرعب الذى أحاط بذهابنا إلى هناك، فقد عشقت الكشافة، حتى أكثر مما كنت أعشق فصول الرقص. فلدى الآنسة فليج كان من المفترض أن تحاول كل فتاة أن تصبح أفضل من أى فتاة أخرى، ولكن فى الكشافة كان من المفترض أن تحاول أن تكون مثلهن، وكنت قد بدأت أجد هذه الفكرة جذابة تمامًا، لذلك فقد أحببت ارتداء نفس الزى الفضفاض مع البيريه العسكرى الغريب الذى أضعه على رأسي، ورباط العنق، وتعلم نفس القوافى الشعائرية والمصافحة والتحيات والهتاف فى تآلف مع الآخرين

المرشدة تخدم كبار السن
المرشدة لا تستسلم لأهوائها

كان البرنامج يشتمل أيضًا على بعض الرقص. فى بداية كل حصة، عندما يوضع الفطر السام المُخرّب قليلا، والذى كان تعويذة أو شعار الجماعة، فى مكانه على حصيرة مصنوعة من اللبادة الخضراء، وتصيح المرأة ذات الشعر الرمادى فى زى المرشدات الأزرق وبريق فى عينيها: "هووت.. هووت"، فتندفع المرشدات من الأركان الأربعة للحجرة، فى مجموعات تضم كل منها ست فتيات، ويؤدين رقصة دائرية مسعورة، ويصرخن بكلمات الأغنية الجماعية بأعلى ما يستطعن من صوت، وكانت الكلمات التى تقولها مجموعتى هي:

هنا ترى الأقزام الخرافية الضاحكة التى تحرس كنوز باطن الأرض

تساعد الأمهات فى منازلنا

لم يكن هذا هو الواقع الفعلي: فأنا لم أكن أساعد أمي. لم يكن يُسمح لى بذلك. وفى المناسبات القليلة التى حاولت فيها ذلك، لم تسرها النتائج. كانت الوسيلة الوحيدة التى كان من الممكن بها أن أساعدها وأحقق رضاها هى أن أتغير وأصبح شخصا آخر، ولكنى لم أكن أعرف هذا بعد، فأمى لم توافق على أسلوبى المتحرر فى تجهيز الفراش للنوم، ولا فى تحطيم الأطباق وتناثر شظاياها عندما كنت أجففها. لم تحب كشط الفحم من قيعان القدور عندما حاولت أن أطهو (كانت "إحدى أنواع الحلوى التى يُختم بها الطعام"، إحدى مطالب

الاختبار المدرسى)، أو عندما أقوم بإعادة وضع المائدة فى مكانها الأصلى بعد أن أكون قد أعددتها بطريقة عكسية. فى البداية حاولت مفاجأتها بتغييرات طيبة، كما هو مقترح فى دليل الكشافة. فى أحد أيام الأحد أحضرت لها الإفطار على صينية إلى الفراش، وإذا بى تزل قدمى فغطيتها بالكورن فليكس المبلل باللبن. وقمت ذات مرة بتلميع حذائها الجلدى ذى اللون الأزرق البحرى الجميل بورنيش أحذية أسود اللون. ومرة أخرى حملت صفيحة القمامة الثقيلة جدًّا بالنسبة لي، فانقلبت منى على درجات السلم الخلفية. لم تكن أمى تتحلى بالصبر الجميل المطلوب؛ وسرعان ما قالت لى أنها تفضل عمل الأشياء بنفسها بصورة صحيحة من أول مرة عن أن تضطر إلى القيام بها مرة ثانية من أجلي. ووصفتنى بالخرقاء مما جعلنى أبكى، ولكنى كنت معفاة من الأعمال المنزلية الروتينية، وقد أدركت أن ذلك كان ميزة، ولكن بعد وقت طويل. رغم ذلك، كنت أنشد الكلمات بلا تردد مع المرشدات، كما كنت أضرب بقدمى بقوة حول الفطر السام، بينما تمسك يد القزم الخفى الرطبة بكلتا يديّ.

كانت السيدة التى تدير المجموعة تعرف باسم بروان أويل Brown Owl أى بالبومة البُنّية اللون، قيل لنا أن البوم رمز للحكمة. تذكرت دائمًا شكلها: وجه تفاحة مجففة، شعر فضى رمادي، عيون زرقاء خاطفة، سريعة الملاحظة لشائبة صغيرة على دبوس على شكل جنية نحاسية، أو ظفر متسخ، أو رباط حذاء مربوط بشكل

سيئ. وعلى النقيض من أمي، كانت إنسانة عطوفة وغير متحيزة، كانت تمنحنا درجات على النوايا الحسنة، وكنت مفتونة بها. كان من الصعب أن نصدق أن امرأة بالغة، أكبر حتى من أمي، تقبل أن تربض فعليًّا على الأرض، وتقول أشياء مثل "تو.. ويت... تو.. ووو"(صوت نعيب البوم)، وعندما تشكل المرشدات دائرة من الجنيات، يستطعن عندئذ سحر كل شيء. كانت بروان أويل تتظاهر كما لو كانت تؤمن بكل هذه الأشياء، وتعتقد أننا بدورنا كنا نؤمن بها أيضا. وكان هذا هو الشيء الجديد أو غير المألوف: وجود شخص أكثر سذاجة منى. كنت أرثى لحالها من حين لآخر، لأنى كنت أرى ما يحدث من خلف ظهرها من القرص والدفع والوكز ويستمر أثناء الوقت المستقطع للتركيز، وأرى الفتيات يتغامزن من خلف ظهرها ونحن نردد: "أعد أن أؤدى واجبى تجاه الله والملك، وأن أسعد الآخرين كل يوم، خاصة فى المنزل". كان لبراون أويل صديقة حميمة عُرفت باسم تونى أويل Tawny Oil ، أى البومة السمراء المُصفرّة، ومثل نواب المديرين فى كل مكان، كانت أقل قابلية للخداع، وأقل قدرة على اكتساب حب البنات.

كانت البنات الثلاث اللاتى كنت أعبر الوادى معهن فى كل يوم من أيام الكشافة يُسمون : إليزابيث، ومارلين، وليني. كن فى العاشرة من العمر وعلى استعداد تقريبًا للاشتراك فى مجموعة المرشدات التى كانت تسمى "الطيران عاليًا"وكان على من تود

الاشتراك فيها أن تحصل على فرقة "الأجنحة الذهبية"، وإلا فإن عليها أن تكون ضمن فريق "السير للأمام". كانت إليزابيث على وشك أن تطير لأعلى، لا شك فى ذلك: حيث كانت مليئة بالشارات الملصقة مثل شارة الحقيبة الدبلوماسية، وكان من المحتمل أن تصل مارلين لتلك المجموعة، لكن لم يكن من المحتمل أن تصل لينى إليها. كانت إليزابيث تحمل شارة الجمعية وعلقت شريطين على ذراعها لإثبات ذلك. كانت مارلين من جماعة " الجنية الصغيرة المرحة المؤذية "، ولا أذكر ماذا كانت ليني. أعجبت بإليزابيث، وكنت خائفة من الأخرتين اللتين تنافستا للفت انتباهها بأساليب أقل أو أكثر شرًا.

فى البداية تحملننى خلال تلك الطرق الطويلة الخطرة وحتى محطة الترام. كان على أن أسير إلى الوراء منهن قليلاً، ولكن على مسافة كافية لحمايتى من الرجال الأشرار المختبئين. واستمر ذلك خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر، بينما تحولت أوراق الأشجار إلى اللون الأصفر وتساقطت ثم تم إحراقها فى نيران كانت تشتعل على جانبى الطريق، كان إشعالها لم يصبح ممنوعًا قانونًا بعد. كما استمر خلال مرحلة إمكانية التزحلق على حذاء بعجلات والقفز، ثم ارتداء جوارب ما فوق الركبة، وحتى الجوارب الطويلة والمعاطف الشتوية. خلال هذا أصبحت الأيام أقصر، وأصبحنا نسير إلى المنزل فى الظلام عبر الجسر الذى كان لا يضيئه سوى مصباح واحد ضعيف فى كل ناحية. وعندما بدأ الجليد يسقط كان لابد أن نرتدى كسوة

الساق الجلدية، وبنطلونات ثقيلة مبطنة كنا نرتديها فوق تنوراتنا فتجعلها مُكوّمة فى منطقة الحوض والبنطلونات ممسوكة بحمالات فوق الكتف. فى تلك الأيام لم يكن مسموحًا للبنات بارتداء بنطلونات فضفاضة فى المدرسة.

ذكرى هذه الظلمة، وذلك الشتاء، والملابس الثقيلة، والجليد الناعم يثقل أغصان شجر الصفصاف فى الوادى حتى أنها تبدو على شكل قوس ضارب إلى الزرقة فوق الجسر، كان المشهد الأبيض الذى يُرى من حافة الجسر رائع الجمال، لكن ذلك ارتبط فى ذهنى بالشقاء. لأنه فى ذلك الوقت استطاعت إليزابيث ورفيقاتها اكتشاف سرى، لقد اكتشفن كم كان من السهل أن يجعلننى أبكى. فى مدرستنا لم تكن البنات الصغيرات من المفترض أن تؤذى بعضهن البعض الآخر أو يتشاجرن أو يضعن الجليد على وجوه بعضهن، ولم يكن ذلك يحدث. وخلال العطلة كنا نبقى فى فناء البنات حيث كان كل شيء همسات ومؤامرات. لم تكن الكلمات مقدمة لحرب، ولكنها كانت الحرب نفسها، حرب ملتوية وخفية وكانت لا تنتهي، لأنه لم تكن هناك أفعال حاسمة، لها ضربات تطرح أرضًا من الممكن تسديدها، ولا تعبير عن الاستسلام. التى تبكى أولاً هى الخاسرة.

كانت إليزابيث ومارلين ولينى فى مراحل دراسية أخرى، وإلا لاكتشفن سرى أسرع من ذلك. كنت لا أزال أبكى على الملأ وأنا فى الثامنة من العمر، كان من السهل جرح إحساسي، رغم أمي، التى

كانت فى هذا الوقت تقول لى بحزم أن أتصرف بما يناسب سني. هى نفسها كانت صارمة النظرة، متميزة، لا تضطرب أبدًا ولا تدمع. وقد ظلت لا تدمع، حتى استطعت أنا فيما بعد أن أدفعها إلى البكاء، كان انتصارًا حاسمًا عندما تمكنت فى النهاية من أن أجعلها تذرف الدموع.

كانت إليزابيث زعيمة الأقزام الخرافية، وكنت أنا خلال أيام الثلاثاء الغبراء تلك إحدى تابعاتها الخمس فى الطقوس والشارات وحياكة الأزرار. وأصابنى النكد بسبب العُقَد. كنا قد أتقنا عقدة الشراع، وقررت تاونى أويل التى كانت متخصصة فى العقد، أننا مؤهلات لتعلم عقد عقدة الوتد؛ هكذا كانت تشرح ذلك باستخدام حبلها ــ الذى علقت فى طرفه صفارة فضية رائعة تحسد عليها ــ وقد لفته حول ظهر مقعد. تداخلت عيناى من شدة التركيز، كنت ألاحظ بصعوبة شديدة، فلم أرَ شيئًا، وعندما جاء دورى لتطبيق العمل البطولى انزلق الحبل من بين أصابعى مثل الاسباجيتي، ولم أخرج بشيء إلا زمجرة. كررت البومة تاونى العقدة مرة أخرى، لكى أفهم، ولكن لم تخرج بنتيجة أفضل.

قالت تاونى أويل: "جوان، أنت لم تركزى كل انتباهك".

قلت بصدق: "ولكنى كنت منتبهة".

نفخت تاونى أويل فى الهواء بغضب. لم تكن مثل براون أويل، كانت تدرك ما يجرى خلف ظهرها، مما جعلها نزاعة للشك والارتياب، واعتبرت احتجاجى وقاحة. "إذا لم يكن هناك تعاون، أيها الأقزام، سوف يكون على أن أذهب فورًا وأعمل مع الجنيات (الرائدات). وأنا واثقة أنهن أكثر اهتمامًا بالتعلم". ثم سارت بعيدًا، آخذة صفارتها معها. وطبعًا فقد بدأت أنا فى الانتحاب فورًا. كرهت أن أكون متهمة خطأ. وكرهت أيضًا أن أكون متهمة عن حق، ولكن كان الظلم أسوأ.

ضيقت إليزابيث عينيها، كانت على وشك أن تقول شيئًا، ولكن براون أويل ، جاءت مهرولة، وقالت بتحذير غير مسبوق وبذكاء:

"والآن، الآن، جوان، نحن لا نحب أن نرى وجوهًا تعيسة فى المرشدات؛ نحن نحب أن نرى ابتهاجًا ومرحًا. تذكري، التجهم والعبوس يؤديان إلى القبح، أما الابتسام فيأتى بأجنحة الجنيات". لكن هذا جعلنى أشد بكاء، وكان لابد من عزلى فى حجرة المعاطف حتى لا أحرج كل شخص، وحتى أستعيد ابتسامة المرشدات مرة أخرى ــ وفقًا لوصف براون أويل. "يجب أن تتعلمى كيف تتحكمين فى نفسك"، قالت ذلك بعطف وهى تربت على البيريه بينما كنت ألهث وأختنق بالبكاء، لم تكن تعرف مدى تأثير هذه الأشياء فى نفسي.

في ذلك المساء الأزرق المظلم، عندما كان الجليد الهش يتهشم تحت وقع أقدامنا ونحن في الطريق إلى المنزل، توقفت إليزابيث تحت آخر عمود نور قبل الجسر، ونظرت إلى الأخريات. ثم، وبدون تحذير، انطلقن جميعًا جريًا أسفل التل في موجة من الضحك الصاخب، واختفين في ظلام الوادي قبل أن أعرف ماذا يحدث، صائحات وهن ينظرن إلى الخلف: "الرجل الشرير سيمسك بك". وتركنني عند قمة المرتفع لأعبر وحدي. في البداية ناديت، ثم جريت خلفهن، لكنهن كن قد أصبحن بعيدات عني. نهنهت فوق الجسر، ومسحت المخاط النازل من أنفي بظهري قفازي وأنا ألتفت خلفي بخوف، مع أنّه لم يكن هناك بالطبع أحد المتحرشين بالأطفال أو المحتالين المتخصصين في اعتراض الناس في الطريق يستطيع أن يخرج في طقس تقترب درجة حرارته من الصفر المئوي. وربما كان أمثال هؤلاء يتوارون في محطات السكك الحديدية أو خلف الكنائس، ولكني لم أكن أدرك ذلك حينئذ. جاهدت طريقي لصعود أعلى التل الأخير، كن ينتظرن جميعًا في كمين على القمة:

"أتظلين إلى الأبد طفلة بكاءة ؟" قالت إليزابيث ذلك بازدراء ومرح، وكان هذا الأسلوب نموذجًا لما جرى بقية العام.

كانت اللعبة بالنسبة لثلاثتهن هي التفكير في تنويعات مبتكرة. أحيانًا يجرين فجأة، وفي أحيان أخرى يهددن بالجري. وأحيانًا تدعي كل منهن أن الجري كان عقابًا لي على شيء فعلته أو لم أفعله في

ذلك اليوم. مثلاً إنى قفزت بثقل شديد فى دائرة الجنيات، أو لم أقف باعتدال تام، أو ربطة عنقى كانت مجعّدة، أو كانت أظافرى متسخة، أو أننى كنت بدينة. أحيانًا يقلن أنهن لن يجرين، أو يقسمن على العودة لأخذى إذا أديت أعمالاً معينة: كان على أن أزحف على الجليد، وأنا أنبح مثل الكلب، أو أرمى كرة ثلج على سيدة عجوز مارة، وعندما أفعل ذلك فإنهن يشرن إلى ساخرات: "إنها هي! هى التى فعلت ذلك!" وأحيانًا كن يسألنني: "ماذا سوف يفعل بك الرجل الشرير إذا أمسك بك؟" لم يكن كافيًا أن أقول لا أعرف؛ فسوف يلذن بالفرار، أو يقهقهن خلف أيديهن: "إنها لا تعرف، لا تعرف!" وفى إحدى الليالى وقفت نصف ساعة على قمة التل، أغنى مراراً وتكرارًا بصوت مرتجف، مائة مرة بالضبط: "نحن رائدات الكشافة، هذه أهدافنا، ساعدى الآخرين وقومى بأداء واجبكْ"، وذلك قبل أن أكتشف أنهن لن يلتزمن بوعدهن ويأتين لأخذى. ذات مرة طلبن منى أن ألصق لسانى بسياج حديدى على الطريق إلى الوادي، ولكنه لم يكن باردًا بما يكفى ليتجمد لسانى ويلتصق بالسياج كما كن يأملن.

كان الشيء المضحك أنه مع أن تلك الشروط والتعليمات والمطالب كانت تصدر عن إليزابيث، إلا أننى كنت أعرف أنها من بنات أفكار البنتين الأخريين، فلينى كانت مبتكرة بشكل خاص، كان وضعها حرجًا، لم تكن قوية الشخصية، كان من الممكن بسهولة أن تصبح مثلى، ولم أستطع إخبار أمى عن أى شيء من ذلك لأنى كنت

أشعر أن كل ما يمكن أن تقوله سوف يخفى تحته تعاطفها معهن. لابد أن تقول لى ناصحة: "دافعى عن نفسك". فكيف يمكن لابنة مثل هذه المرأة أن تصبح بالونة عرجاء؟

أحيانًا، عندما كن يتركننى بمفردى فى الظلام والبرد، كنت أقف هناك، تقريبًا على أمل أن يظهر الرجل الشرير بالفعل ويفعل أيًّا ما كان مقدرًا أن يفعله. وهكذا، بعد أن أكون قد سُرقت أو قتلت، فسوف يُعاقبن، وسوف يجبرن على الندم أخيرًا على ما فعلن. كنت أتخيله رجلاً طويلاً، طويلاً جدًّا، فى بذلة سوداء، يأتى صاعدًا على المنحدر الجليدى وكأنه انهيار جليدى عكسي، بوجه أزرق مغطى بالجليد، وعينين حمراوين، ورأس أشعث، وأسنان حادة طويلة مثل أسنان الثلج الحادة المتدلية أسفل السطوح. سوف يكون مخيفًا، ولكنه على الأقل سيضع نهاية لهذا البؤس الذى استمر وبدا أنه سوف يستمر للأبد. سوف يأخذنى بعيدًا، ولن يكون هناك أثر لي. حتى أمى سوف تشعر بالأسف. ذات مرة انتظرت قدومه بالفعل، وأنا أعدّ مع أنفاسى الثقيلة ـــ سوف يأتى بعد مائة، سوف يأتى بعد مائتين ـــ ولوقت طويل حتى أننى تأخرت نصف ساعة عن موعد العشاء، ووجدت أمى تتميز غيظًا.

تساءلت: "ماذا كنت تفعلين؟"

قلت: "كنت ألعب". قالت لى وقتها إنى أنانية وغير مبالية.

تغير الجليد فى النهاية إلى ثلوج نصف ذائبة ثم إلى مياه، تقاطرت أسفل التل فى جدولين، كل جدول على أحد جانبى الطريق، والطريق نفسه تحول إلى وحل. كان الجسر رطبًا، وتصاعدت منه رائحة العفونة، وتحولت أغصان الصفصاف إلى اللون الأصفر، وعدنا إلى اللعب بحبال القفز، وعاد الضوء مرة ثانية إلى فترات ما بعد الظهر، وفى أحد هذه الأوقات لم تجر إليزابيث كنوع من التغيير، وإنما كانت تناقش ما يمكن عمله مع الأخريين، وظهر رجل حقيقى بالفعل.

كان واقفًا على الناحية الأخرى من الجسر. على جانب الطريق، ممسكًا بباقة من أزهار النرجس البرى أمامه. كان رجلاً لطيف الهيئة، لم يكن عجوزًا ولا شابًا، يرتدى معطف مصنوع من نسيج صوفى خشن حسن المظهر، ليس رثًا على الإطلاق أو باليًا. ولم يكن يرتدى قبعة، وكان شعره المصبوغ يرتد إلى الوراء وتلمع أشعة الشمس على أعلى جبهته. كنت أسير فى الأمام، كما أُمرت (أردن مراقبتى من الخلف)، وكانت الأخريات منخرطات فى تدبير الخطط، لذلك فقد رأيته أولاً. ابتسم لي، فابتسمت له بدوري، فأزاح زهوره إلى أعلى ليكشف عن جزء من جسده من خلال معطفه المفتوح.

قلت للأخريات: "انظروا"، وكأنى اكتشفت شيئًا يدعو للاهتمام. نظرن، ثم بدأن على الفور فى الصراخ، وجرين إلى أعلى التل.

أصابني الذهول ــ بسببهن وليس بسببه ــ حتى أنني لم أتحرك من مكاني.

بدا الرجل خائفًا إلى حد ما. وبهتت ابتسامته واستدار مبتعدًا، وهو يشد معطفه ليغلقه، وبدأ يسير في الاتجاه المعاكس، عبر الجسر. ثم استدار عائدًا، وانحنى برأسه قليلاً، وأعطاني باقة أزهار النرجس.

كانت الأخريات ينتظرن أعلى الطريق في مكان آمن على جانب الشارع. تساءلن: "ماذا قال؟ ماذا فعل؟ ... ألا تعرفين أنه كان رجلاً شريرًا؟ أنت بالتأكيد قوية الأعصاب". قالت إليزابيث ذلك بغيظ. لأول مرة أترك فيهن أثرًا، رغم أني لم أكن متأكدة من السبب؛ لم يكن هناك ما يخيف بالنسبة للرجل، لقد ابتسم. كما أنني أحببت أزهار النرجس، على الرغم من أني ألقيتها في إحدى القنوات قبل أن أصل إلى البيت. كان لدي فطنة كافية لأدرك أني لن أكون قادرة على شرح من أين حصلت عليها بأسلوب تقتنع به أمي.

في طريق العودة إلى المنزل بعد حضور اجتماع رائدات الكشافة التالي، كانت البنات الثلاث في غاية اللطف معي، واعتقدت أنه الآن، وبعد إخضاعي لامتحان صارم طويل، أني كنت في طريقي لأصبح صديقة لهن. بدا ذلك أكيدًا، لأن إليزابيث قالت: "هل ترغبين في الانضمام إلى نادينا؟ لدينا ناد كما تعلمين". كانت هذه أول مرة أسمع عن هذا النادي، على الرغم من أن النوادي كانت شائعة في

المدرسة، ولكن نعم، طبعًا أرغب فى الانضمام. قالت مارلين: "يجب عليك أن تؤدى المراسم أولاً، ... ليست صعبة".

كنا نعلم كل شيء عن المراسم، كانت الكشافة مليئة بها، واعتقدت أنهن حصلن على بعض تفاصيل المراسم الخاصة بالالتحاق، من نوع تلك التى تعبر خلالها متخطيا أحجارًا إلى لوحات كرتونية مكتوب عليها: مرح، طاعة، صفات طيبة وابتسامات. وعليك عند ذلك أن تغلق عينيك وتلف حول نفسك ثلاث مرات، بينما تهتف المجموعة:

أدرنى والففنى وأرنى الجنى الصغير..

نظرت فى الماء ورأيت هناك ...

هنا كان من المفترض أن تفتح عينيك، وتنظر إلى البركة المسحورة، التى كانت عبارة عن مرآة يدوية محاطة بزهور بلاستيكية وسناجب خزفية، وتقول.. "نفسي"، الكلمة السحرية.

وهكذا، عندما قالت إليزابيث "أغمضى عينيك"، أغمضتهما. وأخذت كل من مارلين ولينى إحدى يديّ، وشعرت بشيء ناعم يربط على عيني. ثم اقتدننى أسفل التل، محاذرات من أن تزل قدمى فى حفرة أو صخرة. شعرت بالجسر تحت قدميّ، ثم درن بى حول نفس النقطة عدة مرات، ثم عدنا، وهكذا لم أعرف أبدًا أى طريق كنت أواجه، بدأت أخاف.

قلت: "لا أريد أن أنضم للنادي". ولكن إليزابيث قالت تطمئنني: "بالتأكيد أنت تريدين الانضمام، سوف تحبين ذلك"، ثم اقتدننى إلى أبعد من ذلك. قالت إليزابيث "قفى هنا"، شعرت بجسم صلب خلف ظهري. "والآن ضعى يديك بجانبيك". شعرت بشيء يلتف حول كل ذراع من ذراعيّ، ثم حول جسدي، وشد وثاقى بقوة.

قالت إليزابيث، وصوتها لا يزال ناعمًا: "والآن، سوف نتركك هنا للرجل الشرير". بدأت الفتاتان الأخريان فى الضحك بصوت عال وبلا قدرة على التحكم، واستطعت أن أسمع وقع أقدامهن تجرى بعيدًا. الآن أدركت أين كنت: لقد ربطننى بحبل القفز الخاص بإليزابيث فى عمود فى نهاية الجسر. تمامًا حيث رأينا الرجل الأسبوع قبل الماضي، وبدأت فى النحيب.

عندما توقفت عن البكاء، أدركت أنهن من المحتمل أن يكنّ واقفات يرقبننى حتى يرين ماذا سوف أفعل، لذلك قررت ألا أظهر أى رد فعل. وبدأت فى لى ذراعى خفية لأعرف ما إذا كنت أستطيع أن أطلق سراح نفسي. لكن الحبل كان مشدودًا بشكل يكفى لعدم الفكاك. إذن فإننى ببساطة سوف أنتظر حتى يشعرن بالضجر ويأتين لفك وثاقي. كنت أعلم أنهن لا يستطعن أن يتركننى هناك: ذلك سيكون احتمالاً بعيدًا، حيث إننى ما لم أظهر فإن أمى سوف تتصل تليفونيًا بأمهاتهن وسيصعدون إلى التل.

في البداية كنت أسمع أصواتهن بعيدة، يضحكن بين أنفسهن على قمة التل، ثم سمعتهن يصحن: "كم تحبين النادى الآن؟" لم أجب، وفى النهاية يئست منهن. ولكن بعد لحظة لم أعد أستطيع أن أسمع شيئًا سوى زقزقة العصافير من فوق شجر الوادي، ثم بدأ الطقس فى البرودة، لابد وأنهن ذهبن بعيدًا وبيّتن النية على العودة بعد ذلك، ثم نسينني.

كنت أبكى لنفسى وأكافح مع الأربطة مع تزايد اليأس من حلها، محاولة أن تصل إحدى يدى إلى الأخرى بحيث أتمكن من جعل إحدى اللفات تنزلق فينحل الحبل، وهنا سمعت وقع أقدام تقترب منى عبر الجسر، تجمدت أوصالي: ربما كان شخصًا شريرًا، ربما سوف يحدث لى شيء فظيع أخيرًا، على الرغم من أنى لم أكن أشكل هدفًا جنسيًّا مثيرًا، بالإضافة إلى أنى كنت فتاة بدينة فى الثامنة، أنفى يرشح، وأرتدى زى المرشدات. ولكن صوتًا قال: "ما هذا؟" وانزاحت العصابة عن عيني. (كان رباط الكشافة الخاص بمارلين).

لم يكن الرجل عجوزًا أو شابًا، كان مرتديًا معطفًا مصنوعًا من الصوف الخشن وحاملاً جريدة تحت ذراعه. ابتسم لي، ولم أستطع أن أؤكد على الإطلاق ما إذا كان أو لم يكن الرجل الذى رأيناه مسبقًا الأسبوع قبل الماضي، لأنه كان يرتدى قبعة. وكنت قد ركزت نظرى فى المرة السابقة على الرأس الأصلع وأزهار البنفسج. هذا الرجل لا يشبه الآخر، كان يدخن الغليون.

"إنك مقيدة بالكامل، هل أنت التى فعلت ذلك؟" سأل ذلك وأنا أنظر إليه بارتياب وعينين منتفختين، ثم انحنى وحل العُقد.

قال: "تلك العُقد جيدة". وسألنى أين أقيم، وقلت له. قال: "سآخذك إلى المنزل". قلت إن كل شيء على ما يرام، أنا أعرف أين أقيم، ولكنه قال إن الوقت يقترب من الظلام ولا يجب أن تسير البنات الصغيرات بمفردهن فى الظلام ثم أخذ يدى وبدأنا فى السير سويًّا إلى أعلى التل.

ولكن فجأة ظهرت أمى مهرولة فى اتجاهنا من أعلي. كان شعرها يتطاير، ولم تكن ترتدى قفازًا، وعندما اقتربت استطعت أن أرى أنها كانت غاضبة. لذت خلف معطف الرجل، ولكنها جذبتنى وصفعتنى على وجهي، لم تكن قد فعلت ذلك أبدًا من قبل.

"ما الذى كنت منهمكة فيه؟" لم أقل شيئًا، وقفت أحملق فيها، لم أبكِ، ودفعها ذلك إلى أن تخرج تمامًا عن طبيعتها. كنت قد قررت أنى انتهيت من البكاء على مرأى من الناس، على الرغم طبعًا من أننى لم أفعل.

فى هذه اللحظة تدخل الرجل. وشرح كيف وجدنى مربوطة وكيف حل وثاقي، وأبدى استعداده أن يرافقنى إلى المنزل. عند ذلك أصبحت أمى لطيفة جدًّا، كما كانت عادة مع الكبار. تصافحا، ثم أخذتنى ورحلت. اتصلت هاتفيًّا بالأمهات الأخريات، مستغرقة فى

سخطها الأخلاقى على الرائدات. كان ذلك سيئًا جدًّا، لأننى فى الحقيقة أحببت المدرسة، كانت البومة براون إحدى أعظم السيدات المرحات اللائى صادفتهن على مدى طويل، بالإضافة إلى العمة لو، وأنا أفتقدها.

استخدمت أمى هذه الحادثة كمثال لاستهتارى الشخصي، وافتقادى إلى الحكمة. قالت: "لقد كنت غبية أن تسمحى للبنات الأخريات باستغلالك هكذا". قلت: "كنت أظنهن صديقاتي".

"الأصدقاء ما كانوا ليقيدوكِ هكذا، هل كانوا يفعلون ذلك لو كن صديقات بالفعل؟ وفى هذا الوادي؟ من كان يعرف ماذا كان من الممكن أن يحدث لك. كان من الممكن أن تُقتلي. لقد كنت محظوظة تمامًا أن يأتى هذا الرجل الطيب ويحل وثاقك، هذا كل شيء".

"أمي،" قلت بجدية، وأنا متلهفة لتعويض نفسى بطريقة ما، ولكن غير متأكدة كيف أفعل ذلك ــ ربما بإظهار أنها كانت على خطأ؟ ــ "أعتقد أنه كان رجلاً شريرًا".

قالت: "لا تكونى بلهاء"، واستطردت: "إنه رجل طيب".

"أعتقد أنه كان نفس الشخص، رجل أزهار النرجس البرية".

سألت: "أى رجل أزهار؟ ماذا كنت تفعلين؟"

قلت متراجعة باهتياج شديد: "لا شيء". ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان، الدودة الأولى كانت خارج العلبة، والبقية لابد وأن تتبعها. كانت أمى غير مسرورة. وبالإضافة إلى كل شيء، كنت فى هذه اللحظة متهمة بأفعال غير مرضى عنها من ورائها: كان لابد أن أخبرها فورًا فى حينها.

مع ذلك، كنت ما أزال غير متأكدة: أكان رجل أزهار النرجس أم لا ؟ أكان الرجل الذى حل وثاقى منقذ أم وغد؟ أو .. هناك فكرة محيرة أيضًا: أكان من الممكن أن يكون الاثنين معًا؟

طرحت هذه الحيرة بعيدًا عن عقلى بمرور الوقت، محاولة أن أتذكر وأجمع بدقة ملامح رجل أزهار النرجس البرية. ولكنه كان مراوغًا، كان يذوب ويتغير شكله مثل الحلوى الاسكتلندية (مثل حلوى سد الحنك المصرية)، أو مثل لبان دافئ، ثم يتداخل فى شكل ضباب من الصوف الخشن، مرسلاً مجسمات جسدية منذرة وحبلاً معقودًا، ثم يتشكل من جديد كإشراق شمس مبهج لزهور صفراء.

الفصل السابع

أحد الأحلام السيئة التى تعودت أن أراها عن أمى كما يلي. كنت أرى نفسى أسير عبر الجسر، وهى واقفة فى ضوء الشمس على الجانب الآخر منه، تتحدث مع شخص آخر، رجل لا أستطيع رؤية وجهه. وبينما أنا فى منتصف الطريق عبر الجسر بدأ الجسر فى الانهيار، وهو ما كنت أخشى أن يحدث دائمًا فى الواقع. تلوَّت قضبانه الخشبية البالية وتشققت، ومال جانبًا وبدأ فى السقوط ببطء إلى الوادي. وأنا أحاول الجري، ولكن كان قد فات الأوان، فألقيت بنفسى ثم تشبثت بالحافة الأخرى وهى ترتفع لأعلي، محاولة أن أنزلق عليها. ناديت على أمي، التى كانت لا يزال بإمكانها أن تنقذني، كان يمكن أن تجرى بسرعة وتمد يدها، وتستطيع عندئذ أن تشدنى وتعيدنى إلى جوارها على الأرض الثابتة، ولكنها لم تفعل ذلك، واستمرت فى محادثتها، ولم تلاحظ أن أى شيء غير عادى كان يحدث. هى حتى لم تسمعني.

وفى الحلم الآخر كنت أرى نفسى جالسة فى أحد أركان غرفة نوم أمي، أراقبها وهى تضع مساحيق الوجه. كنت أفعل ذلك غالبًا وأنا طفلة صغيرة: وكان ذلك يعتبر، من جانب أمى ومن جانبي، متعة وامتيازًا، وكان أحد أساليب عقابها لى رفضها أن أراقبها وهى تتزين. كانت أمى تدرك أنى كنت منبهرة بمجموعتها من

مستحضرات وأدوات التجميل، أحمر الشفاه وأحمر الخدود، والعطور في زجاجات لطيفة المنظر، والتى طالما رغبت فى اقتنائها، وطلاء الأظافر الأحمر اللامع (أحيانًا كنوع من الرشوة الاستثنائية كان مسموحًا لى أن أطلى به أظافر قدمي، وليس أظافر يدى أبدًا (كانت تقول: "أنت لم تكبرى بعد")، والملاقط الصغيرة، ومبارد الأظافر، وأحجار الجلخ. كان محرمًا على أن ألمس أيًا من تلك الأشياء. وطبعًا كنت أفعل ذلك، عندما تكون بالخارج، ولكن تلك الأشياء كانت مرتبة فى صفوف شديدة الانتظام فى أعلى دولاب الملابس وفى الأدراج، ويجب أن أكون فى غاية الحرص على إعادتها تمامًا حيث وجدتها. كان لأمى عينا صقر، شديدة الملاحظة لأى شيء فى غير مكانه. وكنت قد توسعت مؤخرًا فى عادة التطفل تلك على أدراجها ودواليبها حتى عرفت كل شيء يحويه كل منها: وفى النهاية كنت أفعل ذلك ليس لأشبع فضولى ـ فقد كنت قد عرفت بالفعل كل شيء ـ ولكن من أجل الإحساس بالخطر. ولم أضبط إلا مرتين، وكان ذلك فى البداية: ذات مرة عندما أكلت أحمر شفاه (حتى فى ذلك الوقت، كنت فى الرابعة من عمري، فقد كنت حكيمة بما يكفى لإعادة الغطاء إلى القلم والقلم إلى الدرج، وأن أغسل فمى بعناية، كيف عرفت أننى أنا التى فعلت ذلك؟)، وذات مرة عندما لم أستطع مقاومة تغطية وجهى بالكامل بظل العين الأزرق، لأرى كيف سأبدو زرقاء. جعلنى ذلك فى منفى لأسابيع. وكدت أطرح هذه اللعبة بالكامل فى يوم وجدت فيه

شيئًا مثيرًا للفضول، جسم مطاطى أشبه بالدلو المصنوع على شكل محارة، معبأ بعناية فى صندوق. كنت أكاد أموت لأسألها ما هذا الشيء، ولكنى لم أجسر.

فى الأيام الطيبة كانت تقول: "اجلسى هناك بهدوء يا جوان، وراقبى أمك وهى تزين وجهها". بعد ذلك كانت تلف فوطة حول رقبتها وتبدأ العمل. بعض الأشياء التى كانت تفعلها بدت وكأنها مؤلمة؛ على سبيل المثال كانت تغطى المساحة بين حاجبيها بما يشبه الصمغ البني، والذى كانت تقوم بتسخينه فى إناء صغير، ثم تنزعه بسرعة، تاركة رقعة حمراء على الجلد؛ وأحيانًا كانت تمسح نفسها بطين وردى، وبعد قليل يتصلب ويتشقق. وكانت غالبًا تعبس، تهز رأسها تعبيرًا عن الاستياء؛ ومن حين إلى آخر تتحدث مع نفسها وكأنها نسيت إنى هناك. وبدلاً من أن تجعلها تلك الجلسات أكثر سعادة، كانت فيما يبدو تجعلها أشد حزنًا، وكأنها رأت خلف المرآة، أو من خلالها، صورة هاربة لا تستطيع الإمساك بها أو تكرارها. وعندما تنتهى كانت دائمًا ما تكون مقطبة الجبين قليلاً.

كنت أحدق فى هذه الأحداث وأنا منبهرة وصامتة. اعتقدت أن أمى كانت جميلة جدًا، وأكثر جمالاً عندما كانت تضع هذه الألوان. وكان هذا هو ما فعلته فى الحلم: جلست وحدقت. وعلى الرغم من أن موائد زينتها كانت تصبح أكثر فخامة كلما كان أبى يصير أكثر ثراء، كان لأمى دائمًا مرآة ذات ثلاثة أوجه، وهكذا كانت تستطيع أن ترى

وجهها من الجانبين كما تراه من الأمام. وفى الحلم، وأنا أراقبها، أدركت فجأة أنه بدلاً من وجود ثلاثة انعكاسات لصورة أمي، فقد كان لها ثلاثة رؤوس حقيقية، وكانت ترتفع فوق أكتاف عليها فوط تلتف حول ثلاث رقبات منفصلة. لم يخيفنى هذا، فقد بدا مجرد تأكيد لشيء كنت دائمًا أعرفه؛ ولكن خارج الباب كان هناك رجل، رجل كان على وشك أن يفتح الباب ويدخل. هل إذا رأي، وإذا اكتشف حقيقة أمى سيحدث شيء فظيع، ليس فقط لأمى ولكن لى أيضًا. أردت أن أقفز، وأجرى نحو الباب، وأوقفه، ولكنى لم أستطع الحركة، وتأرجح الباب ببطء نحو الداخل....

وكلما كنت أكبر، كان هذا الحلم يتغير. فبدلاً من الرغبة فى إيقاف الرجل الغامض، كنت أجلس هناك أتمنى أن يدخل. أردت أن يكتشف سرها، السر الذى أعرفه أنا وحدي: أن أمى وحش بشع الخلقة.

لا أستطيع مطلقًا أن أتذكر أنى دعوتها بأى شيء غير أمي، ولا بأى من تلك الألفاظ التى يستخدمها الأطفال أبدًا، لابد أنى فعلت، ولكن لابد أنها لم تشجع ذلك. كانت علاقتنا قد تشكلت مبكرًا بما يشبه العلاقات المهنية، كانت هى المدير والمبدع والموظف؛ وكنت أنا المُنتَج. أعتقد أن العرفان بالجميل كان من أهم الأشياء التى انتظرتها منى. أرادت منى أن أتصرف بشكل صحيح، ولكنها أرادت أن تكون مسئولة عن ذلك.

لم تكن خططها بالنسبة لى محددة. كانت مبهمة ولكنها كانت كبيرة، ولهذا فإن أى شيء كنت أحققه لم يكن أبدًا هو الشيء الصحيح، ولكنها لم تكن تستحثنى دائمًا، أحيانًا كانت تمر أيام أو حتى أسابيع يبدو خلالها أنها نسيتنى تمامًا. قد تنهمك فى بعض المشروعات الأخرى الخاصة بها، مثل إعادة تجديد حجرة نومها، أو إقامة حفلة. كما كانت تقوم ببعض الوظائف: فقد كانت تعمل كوكيل سفريات، مثلاً، وقد عملت ذات مرة كمهندسة ديكور، تبحث عن المصابيح الكهربائية والسجاجيد التى تنسجم مع التصميمات الملونة لغرفة معيشة. ولكن لم تستمر أى من تلك الوظائف طويلاً. كانت همتها تفتر، حيث لم تكن تلك الوظائف كافية بالنسبة لها، فكانت تتخلى عنها.

لم يكن السبب أنها كانت مغامرة وطموحة، على الرغم من أنها كانت كذلك فعلاً. ربما لم تكن مغامرة وطموحة بالقدر الكافي. لو كانت قد قررت فى أى وقت مضى ماذا تريد حقًا أن تفعل، ثم فعلت ما تريد، لما كانت وجدتنى مثيرة للخزي، أو تجسيدًا لفشلها وإحباطها، جسم هلامى ضخم بلا ملامح مكون من مادة مشوشة لا تصلح للتشكيل فى أى هيئة يمكن أن تفوز بجائزة عليها.

صورتها التى حملتها على مر السنوات، مدلاة من رقبتى كطوق حديدي، جالسة فيها أمام التسريحة، تطلى أظافرها بلون أحمر قان، وتتنهد. كانت شفتاها رقيقتين ولكنها رسمت فمًا كبيرًا بأحمر

الشفاه فوق شفتيها وحولهما، مثل بيتى ديفيز، وهو ما جعل فمها يبدو مزدوجًا ولافتًا للنظر، حيث يظهر فمها الحقيقى وسط الفم المرسوم كظل. كانت امرأة جذابة حتى فى أواخر الثلاثينيات من عمرها، فقد حافظت على قوامها، وكانت محبوبة فى شبابها. وفى ألبوم الصور الخاص بها توجد صور التقطت لها فى أزياء سهرة وملابس سباحة، مع العديد من الشباب، كانت هى تنظر للكاميرا، والشباب ينظرون إليها، أحد الشباب تكرر فى عدد من الصور، كان يرتدى ثيابًا رياضية بيضاء، ويركب سيارة فخمة. قالت أنها كانت مخطوبة إليه، تقريبًا.

لم تكن هناك صور لها وهى صغيرة، ولا لأى من والديها أو أخويها الاثنين أو أختها، وكنت قد اكتشفت تلك العائلة فيما بعد. فلم تكن تتحدث أبدًا عن عائلتها أو عن حياتها المبكرة، رغم أنى كنت قادرة على تجميع القليل من المعلومات. كان والداها صارمين ومتدينين جدًّا. ولم يكونا من الأغنياء؛ كان أبوها ناظر محطة بهيئة السكك الحديدية. وكانت أمها قد فعلت شيئًا أهانها ـــ لم أعرف أبدًا ما هو ـــ وهربت من المنزل وهى فى السادسة عشرة، ولم تعد إليه أبدًا. ثم عملت فى وظائف مختلفة، كالكتابة فى شركة كرسج، ونادلة، وعندما كانت فى الثامنة عشرة عملت نادلة فى أحد المنتجعات بمنطقة ماسكوكا، حيث التقت بأبى فيما بعد، كان الشباب الذين فى

الصورة ضيوفًا فى المنتجع، ولم يكن يمكنها ارتداء أزياء السهرة أو ملابس السباحة إلا فى أيام الأجازات.

لم يكن أبى مقيمًا فى المنتجع، لم تكن الإقامة فى مثل هذه الأماكن من الأشياء التى يقبل عليها، والتقى بأمى مصادفة، عندما مر بالمكان لزيارة صديق، كانت هناك صور قليلة لهما قبل الزفاف، يبدو والدى فيها مرتبكًا، كانت تمسك بذراعه وكأنها كانت تقوده، ثم صورة الزفاف، بعد ذلك بعض صور لأمى بمفردها، والتى لابد وأن أبى التقطها بنفسه. ثم لا شيء غيرى أنا، وأنا أحبو على السجاجيد، أضع قبضتى يدى أو الحيوانات المحشوة فى فمي؛ كان أبى قد ذهب إلى الحرب، تاركًا أمى وهى حامل بى، ولا أحد يمكن أن يلتقط لها صورًا.

لم يعد أبى حتى بلغت الخامسة من عمري، وقبل ذلك كان مجرد اسم فقط، القصة التى كانت أمى تقصها علىّ والتى تتنوع كثيرًا، فهو أحيانًا رجل لطيف سيعود إلينا سريعًا، ومعه كل أنواع الكماليات والمفاجآت المبهجة: سوف نعيش فى بيت أكبر، ونأكل أفضل، ويكون لدينا المزيد من الملابس، وسوف يقف المالك عند حده مرة وإلى الأبد. فى أوقات أخرى، عندما تكاد أمورى تخرج عن يدها، كان يتجسد فى صورة عقوبة ستحل بي، يوم الحساب سوف يأتى لى أخيرًا؛ أو (وأعتقد أن هذا كان أقرب إلى شعورها الحقيقي)، تصوره خسيسًا قاسى القلب، تخلى عنها، وتركها تجابه كل شيء

بنفسها. فى اليوم الذى عاد فيه أخيرًا كنت فى داخلى ممزقة بين الأمل والخوف. ماذا سوف يحضر لى معه، ماذا سوف يفعل بي؟ أكان رجلاً شريرًا أم طيبًا؟ (تصنيفان للرجال عند أمي: الرجال الطيبون يفعلون أشياء من أجلك، والرجال الأشرار يفعلون أشياء بك). ولكن عندما حان الوقت، دلف رجل غريب من الباب، قبل أمى ثم قبلني، وجلس إلى المنضدة، بدا متعبًا جدًّا، وتكلم قليلاً. لم يحضر شيئًا، ولم يفعل شيئًا، وظل هذا نموذجه فى ذهني.

معظم الوقت كان ببساطة غائبًا، رغم أنه كان من حين إلى آخر يتجول عائدًا إلى الواقع من حيث كان يجول بذهنه، وكانت لديه أيضًا لحظات من الدراما المتواضعة. كنت فى الثالثة عشرة، لابد أن ذلك كان عام ١٩٥٥. كان يوم أحد، وكنت جالسة فى المطبخ الصغير، آكل نصف كعكة برتقال، والتى تم توبيخى بسببها فيما بعد. ولكنى كنت قد أكلت بالفعل قطعة كبيرة، وكنت أعرف أن الكلمات التى سأتلقاها هى نفسها التى سأتلقاها لو أكلت نصف الكعكة، وهكذا استمررت فى الأكل، بسرعة، محاولة بلعها كلها قبل أن يتم ضبطي.

وكنت آنذاك معتادة أن آكل بثبات وإصرار، وعناد، أى طعام أستطيع الحصول عليه. كانت الحرب بينى وبين أمى مستمرة بلا هوادة، وكانت منطقة النزاع هى جسدي. لم أكن أعى ذلك جيدًا، لكنى كنت أشعر به بطريقة مخيفة، استجبت إلى كتيبات الريجيم التى كانت تتركها على وسادتي، وإلى إغرائها لى بملابس ومقتنيات سوف

تعطيها لى إذا استطعت إنقاص وزنى حتى أناسب مقاسها ــ فساتين رسمية، بطبقات من الحرير، وصديريات مزودة بالأسلاك، وفساتين أنيقة، وتنورات ذات خصر نحيل وتنورات تحتية خفيفة ــ واستجبت إلى تعليقاتها عن حجمي، وتوسلاتها من أجل صحتى (سأموت بالسكتة القلبية، أو أصاب بضغط الدم المرتفع)، والمتخصصين الذين أرسلتنى إليهم، والأقراص التى وصفوها لي، استجبت إلى كل تلك الأشياء، بقطعة شيكولاتة "مارس" أخرى، أو حصة مزدوجة من المقليات الفرنسية. كان وزنى يزيد بشراسة بصورة مستمرة أمام عينيها، وكنت أنتفخ مثل العجينة، ظل جسدى يتضخم بوصة بعد أخرى وهى توجه نظرها نحوى عبر مائدة الطعام. هذا هو الشيء الذى لم أُهزم فيه على الأقل. بلغ طولى خمسة أقدام وأربع بوصات، وكنت لا أزال أنمو، وبلغ وزنى مائة واثنين وثمانين رطلاً.

على أية حال، كنت جالسة فى المطبخ الصغير آكل نصف كيكة برتقال، فى أحد أيام الأحد عام ١٩٥٥، كان أبى فى حجرة المعيشة، جالسًا على كرسى مريح يقرأ لغز إحدى جرائم القتل، وهو أسلوبه المفضل للاسترخاء. وكانت أمى جالسة على الكنبة، متظاهرة بقراءة كتاب عن علم نفس الطفل ــ أمضت فترة معينة من الوقت معلنة أنها، وكان الله يعلم حقيقة الأمر، تبذل كل ما تستطيع لفهم محتوى ما كانت تقرؤه ــ ولكنها فى الواقع كانت تقرأ "الثعلب"، وهى رواية تاريخية عن البورجيين The Borgias، كنت قد انتهيت أنا

بالفعل من قراءتها فى السر، كان للكنبة الكبيرة وسادة صغيرة للغاية من الحرير الأرجوانى فى طرفيها، وتلك الوسادتان كانتا مقدستين إلى أبعد الحدود، من الأشياء المقرونة بالطقوس والشعائر، ولا ينبغى تحريكهما أبدًا، وكانت الكنبة نفسها ذات لون وردى قاتم، مبطنة بقماش خشن متموج بخطوط فضية، وكان لها غطاء من البلاستيك الشفاف يتم رفعه فى الاستقبالات، وكان البساط الذى يتناسق فى ألوانه مع اللون الأرجوانى للوسادتين يُغطى أيضًا بمفرش من البلاستيك، أثقل قوامًا، وكانت ستائر الأباجورات محمية بورق السوليفان، وكان أبى يرتدى فى قدميه نعلين من الجلد الأحمر الداكن. كما كانت قدما أمى وقدماى مغطاة بنفس الطريقة، إذ كانت أمى قد وضعت قاعدة فى ذلك الوقت بعدم السماح باستخدام الأحذية داخل المنزل. كان منزلاً جديدًا، وكانت قد انتهت لتوها من تهيئته؛ والآن وقد أصبح أخيرًا على صورة ملائمة جدًّا، فقد رغبت ألا يتعرض أى شيء حتى لمجرد اللمس، كانت تريده بلا أتربة، ومستقرًا على وضعه النهائي، وحتى تلك اللحظة، عندما كانت ترى خطأ ما، كانت تحضر عمال النقاشة أو تحريك الأثاث مرة أخرى، ناشرين الفوضى فى كل مكان.

(لم ترغب أمى أن تكون حجرات المعيشة فى بيتها مختلفة عنها فى بيوت الآخرين، ولا حتى أفضل كثيرًا، أرادتها مقبولة، مثل الحجرات التى يملكها الآخرون جميعًا، رغم أن فكرتها عن "الآخرين

جميعًا" كانت تتغير مع زيادة راتب أبى، ربما كان ذلك هو السبب فى أن حجرات المعيشة فى بيتها كانت أقرب إلى عروض المتاحف، أو على نحو أكثر دقة، مثل عروض واجهات محلات "إيتون وسمبسون"، تلك القصور السحرية فى وسط المدينة التى كنت أراها مع العمة "لو" فى شهر ديسمبر من كل عام، فى مشهد بطول خطوط الترام. ومع ذلك، لم نكن نذهب لنرى الأثاثات، ولكن لمشاهدة واجهات العرض الأخرى التى تعرض حيوانات وجنيات وأقزامًا حمر الخدود، تدور آليًا على صوت رنين أجراس. وعندما كبرت بالقدر الذى يسمح لى بالذهاب للتسوق بمناسبة الكريسماس، كانت العمة لو هى التى تأخذنى معها. فى أحد الأعوام أعلنت إنى لا أنوى إحضار هدية كريسماس لأمي. قالت العمة لو: "ولكن يا عزيزتى سوف تجرحين إحساسها". لكنى كنت أظنها بدون أى إحساس أصلاً، ولكنى استسلمت واشتريت لها صابون الاستحمام السائل، مغلفًا فى بجعة جميلة وردية اللون، قابلة للعصر. ولم تستخدمها أبدًا، ولكنى كنت أعلم مسبقًا أنها لن تفعل. وانتهيت بأن استهلكتها أنا بنفسى).

انتهيت من تناول آخر قطعة من نصف كيكة البرتقال، ونهضت بقدمى وارتطم بطنى بالمنضدة. كان نعلى كبيرًا ومكسوًا بالفراء مما جعل قدمى تبدوان ضعف حجمهما. مشيت بتثاقل محدثة ضوضاء طفيفة فى مشيتي، وبوجه متجهم توجهت من حجرة الطعام إلى حجرة المعيشة، ومررت بوالدىّ وكتبهما، دون أن أنطق بشيء.

كنت قد اكتسبت تدريجيًّا عادة المشى المتثاقل بهدوء الذى يرانى الموجودون من خلاله بوضوح داخل المنزل، ثم اتجه إلى الغرف التى كانت أمى تجلس فيها، كان ذلك نوعًا من استعراض للأزياء بشكل عكسي، كان عرضا أردت منه أن ترى أمى وتعترف بضعف تأثير محاولاتها وتوسلاتها لي.

اعتزمت أن أذهب إلى الصالة، ثم أصعد الدرج بخطوات تشبه وقع خطوات حيوان ثديى ضخم تهز الدرابزين وبطول الصالة إلى حجرتي، حيث كنت سأدير تسجيلاً لألفيس بريسلى وأرفع صوت التسجيل بدرجة تجعلها تكبح رغبتها فى الشكوى. كانت قد بدأت تقلق فيما يتعلق بقدرتها على التواصل معي، ولم يكن لدى أية خطط متعمدة، كنت فحسب أتعامل وفقًا لشعور من الضجر وغريزة بليدة. كنت أدرك فقط رغبتى فى سماع أغنية بأعلى صوت ممكن دون أن ينتج عن ذلك أعمال انتقامية.

ولكن، عندما كنت فى منتصف طريقى بعرض الحجرة سمعنا طرقًا عنيفًا على الباب الأمامي. كان شخص ما يدق عليه بقبضته المتكورة؛ ثم صوت ارتطام جسم مندفع وصوت أجش، صوت رجل يصيح: " سوف أقتلك يا ابنة الحرام، سأقتلك".

تجمدت أوصالي، وقفز والدى من كرسيه، وارتد على عقبيه بطريقة تشبه ربوض المصارع، ووضعت أمى علامة الكتاب بين

صفحات كتابها وأغلقته؛ ثم خلعت نظارتها التى كانت متصلة بسلسلة فضية حول رقبتها، ونظرت إلى أبى بتوتر. كان من الواضح أنها غلطته: فمن سوف يناديها بابنة الحرام؟ استوى أبى قائمًا وذهب إلى الباب.

قال: "أوه، إنه أنت، سيد كورى"، واستطرد: "إنى مسرور أنى أراك قد غادرت فراش المرض مرة أخرى".

صاح الصوت: "سوف أقاضيك. سأقاضيك فى كل لحظة من حياتك! لماذا لم يمكنك أن تتركنى وحدى لحالي؟ لقد خربت كل شيء!". وأجهش الصوت فى نهنهات طويلة متقطعة.

ورد عليه صوت أبى قائلا : "إنك منزعج قليلاً الآن".

وبكى الصوت الآخر وهو يقول: "لقد أفسدت كل شيء، كنت قد فعلتها بصورة صحيحة هذه المرة، ولكنك أفسدتها! لا أريد أن أعيش...".

"الحياة منحة،" قال أبى ذلك بأسلوب وقور جدًا، ولكنه يحمل بين طياته بعض التوبيخ، مثل طبيب الأسنان العطوف الذى كان يتحدث عن تجاويف الفم على جهاز التليفزيون الذى امتلكناه منذ عامين... "يجب أن تشعر بالامتنان للحياة. يجب أن تحترمها".

جأر الصوت: "ماذا تعرف أنت؟". ثم كان هناك صوت حركة أقدام مهرولة باهتياج، وابتعد صوت الرجل، وهو يهمهم بكلمات

مكتومة مثل فقاعات تحت الماء. أغلق أبى الباب بهدوء وعاد إلى غرفة المعيشة.

قالت أمي: "لا أعلم لماذا تفعل ذلك؟ إنهم لا يعترفون أبدًا بالجميل".

" يفعل ماذا ؟ " قلت أنا، بعين منتفخة، قاطعة بذلك الصمت الذى كنت قد أقسمت على الالتزام به فى لهفتى لأن أعرف. لم أسمع أبدًا رجلاً يبكى من قبل، ومعرفة أن ذلك أمر ممكن أحيانًا أثارنى بقوة وبصورة مفاجئة.

قالت أمي: "عندما يحاول الناس أن يقتلوا أنفسهم، فإن أبوك يعيدهم مرة أخرى إلى الحياة".

قال أبى بحزن: "ليس دائمًا يا فرانسيس".

قالت أمى وهى تفتح كتابها: "غالبًا يحدث، لقد تعبت من تلقى محادثات تليفونية بذيئة فى منتصف الليل، إنى بالفعل أتمنى لو تتوقف".

كان أبى يعمل طبيب تخدير فى مستشفى تورنتو المركزي، لقد درس بناء على دفع أمى وحثها له بدراسة الطب، لأنها شعرت أن التخصص هو المستقبل. كان الجميع يقولون أن الأخصائيين أفضل من طبيب الأسرة، حتى أنها كانت مستعدة للقيام بالتضحيات المالية الضرورية أثناء فترة دراسته وتدريبه، ولكنى كنت أعتقد أن كل ما

كان أبى يفعله هو أن يجعل الناس تنام قبل العمليات. فأنا لم أكن أعرف عن هذا الجزء من شخصيته المتعلق بإعادة الحياة إلى الموتى.

سألت: " لماذا يحاول الناس أن يقتلوا أنفسهم؟ وكيف تعيدهم مرة أخرى إلى الحياة ؟ "

تجاهل أبى الجزء الأول من السؤال، كان معقدًا إلى حد بعيد بالنسبة له. قال: "أنا أطبق وسائل تجريبية، وهى ليست فعالة دائمًا. ولكنهم يعطوننى فقط الحالات الميئوس منها، بعد أن يكونوا قد جربوا معها كل شيء آخر"، ثم قال موجهًا الكلام لأمي، وليس لي، "ستندهشين عندما تعرفين كم عدد من يشعر منهم بالسرور، بأنهم استطاعوا... العودة، الحصول على فرصة أخرى".

قالت أمي: "حسنًا، أنا فقط آمل أن من لا يكون سعيدًا يحتفظ بمشاعره تلك لنفسه، فهو مضيعة للوقت، إذا أردت رأيي، فهم ببساطة سيحاولون التخلص من حياتهم مرة أخرى. إذا كانوا جادين فسوف يضعون فوهة مسدس فى فمهم ويضغطون على الزناد بكل بساطة، وذلك سوف يجعل فرصة الإنقاذ معدومة".

قال أبى: " ليس كل شخص لديه مثل عزيمتك ".

بعد عامين اكتشفت شيئًا آخر عن أبى. كنا فى منزل آخر، له حجرة طعام أكبر، رائعة ومبطنة بالخشب، وكانت أمى تقيم حفل

عشاء لتكريم طبيبين حديثي الزواج، وإن كانت تحس بكراهيتها لهما بينها وبين نفسها. ووفقًا لما قالته كان من الضرورى أن تدعوهما مع زوجاتهما إلى العشاء لأن الزوجين كانا زميلين لأبى فى العمل، رجلان لهما أهميتهما فى المستشفي، وكانت هى تحاول أن تساعده على النجاح فى مهنته. ولم تعر اهتمامًا إلى قوله أن ذلك لن تكون له أهمية تذكر بالنسبة لنجاحه فى مهنته سواء دعت هؤلاء القوم على العشاء أو لم تفعل؛ ولكنها استمرت فى الدعوة على أية حال. وعندما تحققت فى النهاية من أنه كان على حق، توقفت عن إقامة حفلات العشاء، وبدأت فى احتساء الخمر على نحو متزايد. ولكن لابد وأنها بدأت ذلك بالفعل فى تلك الأمسية، والتى أستطيع أن أتذكر قائمة الطعام التى أعدتها لها: صدور دجاج بصلصة الكريمة مع أرز برى وعش الغراب وسلاطة الجيلى المعدة لكل شخص على حدة، والمضاف إليها التوت البرى، والكرفس بالمايونيز، وبطاطس الدوقة، وحلوى معقودة مع فصوص اليوسفي، وصلصة الزنجبيل، ونوع من العصير.

كنت فى المطبخ، وكنت قد بلغت الخامسة عشرة، ووصلت إلى أقصى نمو لي: وصل طولى إلى خمسة أقدام وثمانية بوصات، ووزنى مائتين وخمسة وأربعين رطلاً [١٠٩ كيلوجرامات]،أضف أو انقص منهم أرطالا قليلة. ولم أعد أحضر حفلات عشاء أمي، كانت قد سئمت من أن لديها ابنة فى مثل هذه السن تشبه الدرفيل ولا تفتح

فمها أبدًا إلا لتضع شيئًا داخله. لقد كان وجودى يتلف مشروع الضيافة المترف الذى تقوم به، ومن جانبي، بقدر ما كنت أرحب بالفرصة لإحراجها، فالأمر كان يختلف مع الغرباء، فقد كانوا يرون أن بدانتى نوع من الإعاقة، مثل الحدبة أو القدم المشوهة، كانت رؤية صورتى المنعكسة فى عيونهم تهز ثقتى بنفسي. لم أستمد من بدانتى نوعًا من المتعة الكئيبة إلا فيما يتعلق بأمي، أما بالنسبة لأى شخص آخر، بما يشمل أبى، فقد جعلتنى تعسة، ولكنى لم أستطع التوقف.

كنت فى المطبخ أختلس السمع عبر الممر، وألتهم بقايا الطعام. كانوا قد وصلوا إلى الحلوى، ومن ثم كنت ألتهم ما تبقى من الدجاج وسلاطة التوت البرى وبطاطس الدوقة، وأستمع إلى المحادثة فى الغرفة الأخرى بفتور، وكأنها تمثيلية إذاعية مملة. كان أحد الأطباء الزائرين قد شارك فى الحرب، غالبًا فى إيطاليا كما تبينت، والآخر كان مجندًا، ولكنه يصل إلى أبعد من بريطانيا، ثم طبعًا كان والدي، وغنى عن الذكر بأنه كان فى الحرب أيضًا، إلا أنه لم يكن يتحدث عنها كثيرًا أبدًا. كنت قد سمعت محادثات مثل هذه من قبل، ولم تحظ تلك المحادثات باهتمامي. ومن أفلام الحرب التى كنت قد شاهدتها، لم يكن ثمة ما تفعله النساء فى الحروب فيما عدا الأشياء التى يفعلنها فى كل الأوقات.

ولما انتهى الرجل الذى خدم فى إيطاليا من سرد أحد أعماله البطولية، وبعد فاصل من الهمهمة والغمغمة، سأل: " أين كان موقعك يا فيل ؟ "

ورد أبى قائلا " فى الواقع، كنت...."

أجابت أمي: " فى فرنسا".

قال الرجل الآخر: " أوه، تقصدين بعد الغزو ".

" لا، قالت أمى ذلك وقهقهت؛ كان ذلك إشارة خطرة، وكانت قد اعتادت على القهقهة خلال حفلات العشاء فى الفترة الأخيرة، وقد حلت القهقهة التى كانت تتسم بالإرهاق وعدم التحكم، محل الضحك النبيل المبهج، والذى تعودت أن تستخدمه بشكل هادف كما لو كان مضرب كرة بسبول.

قال الرجل الإيطالى بأدب: "أوه... ماذا كنت تفعل؟"

"يقتل الناس"، قالت ذلك أمى فورًا، بتلذذ واستمتاع وكأنها تستمتع بنكتة خاصة.

قال أبى محذرًا: "فران". ولكن نبرة صوته كانت أيضًا مناشدة؛ وهو أمر جديد ونادر. كنت أقضم القطع الأخيرة من صدر الدجاجة، ولكنى توقفت لأنصت لما يقال.

قال الرجل الثاني: "حسنًا، أعتقد أن أى شخص يقتل قليلاً من البشر فى الحرب".

قالت أمي: "عن قرب؟ أنا واثقة أنك لم تقتلهم عن قرب".

ساد صمت، هذا النوع من الصمت الذى يحل على الغرفة عندما يعرف الموجودون أن شيئًا مثيرًا، وربما غير سار، سوف يحدث. استطعت أن أتخيل أمى تنظر حولها إلى الوجوه المنتبهة، متحاشية النظر إلى عينى أبى.

قالت باهتمام: "كان يعمل فى الاستخبارات. لا يمكن أن تتخيل ذلك وأنت تنظر إليه، أليس كذلك؟ لقد ألقوه خلف خطوط الأعداء، وكان يعمل مع جماعات المقاومة الفرنسية السرية. إنك لن تسمع ذلك منه أبدًا، ولكنه يستطيع التحدث بالفرنسية مثل الفرنسيين أنفسهم، إنه يفهمها بسرعة".

قالت إحدى السيدات: "أوه، طالما وددت أن أذهب إلى باريس. أهى جميلة كما يقولون؟"

استمرت أمي: "كانت وظيفته أن يقتل الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أنهم مزيفون، كان عليه فقط أن يأخذهم إلى الخارج ويطلق الرصاص عليهم، بدم بارد، كان أحيانًا لا يعرف حتى إذا كان قد أطلق النار على الشخص المطلوب، ألم يكن ذلك شيئًا؟"

كان صوتها منفعلاً ومفعمًا بالإعجاب: "الشيء المضحك الذى لا يحب أن أذكره... الشيء المضحك.. أنه قال لى ذات مرة أن ما يخيفه فى كل ذلك أنه كان قد بدأ يستمتع به".

ضحك أحد الرجلين بعصبية. وقفت وانسحبت على قدمى إلى درجات السلم (أستطيع السير بهدوء كاف عندما أريد ذلك)، وانحنيت لأسفل قليلاً لكى لا يرونى. وطبعًا، بعد لحظة عاد أبى عابرًا الباب المتأرجح إلى المطبخ تتبعه أمي، لابد وأنها أدركت أنها تمادت إلى أبعد الحدود.

قالت: "لا خطأ فى ذلك"، واستطردت: "كان ذلك من أجل قضية صالحة، إنك لا ترفع أبدًا من قدر نفسك".

قال أبى فى صوت يعكس الغيظ والغضب الشديد: "طلبت منك ألا تتحدثى فى هذا الموضوع". كانت أول مرة أدرك فيها أنه يمكن أن يغضب؛ فقد كان هادئًا عادة. "ليس لديك أى فكرة عن طبيعة ما كان يحدث آنذاك".

قالت أمى بصدق: "أعتقد أنه كان شيئًا عظيمًا، وكان بحاجة إلى شجاعة حقيقية، لا أعرف ما الخطأ الذى كان فى ذلك....".

قال أبى: "اخرسي".

كانت تلك الأحداث منذ عهد قريب، وفيما قبل لم يكن هو موجودًا، ومن المحتمل أن ذلك هو السبب فى أننى أحمل له فى

ذاكرتي صورة ألطف من أمي. وبعد ذلك كان منشغلاً بالدراسة، وكان ينبغي عدم إزعاجه، ثم أصبح يقضي وقتًا طويلاً بالمستشفي، لم يكن يعلم تمامًا ماذا يفعل بي، في أي وقت، رغم ذلك لم أشعر أبدًا بأنه عدواني تجاهي، وإنما كان فقط مرتبكًا.

كانت الأشياء القليلة التي فعلناها سويًا غير مصحوبة بكلمات. على سبيل المثال : كان يعتني بنباتات المنزل، المتسلقة والعنكبوتية والسرخس والبيجونيا. كان يحب أن يشغل نفسه بتلك النباتات، من قص وقطع وإعادة توزيع وزراعة مرة أخرى في الأصص، وفي أمسيات أيام السبت، إذا كان لديه وقت، كان يستمع إلى حفلات الأوبرا المذاعة على الراديو، وكان يدعني أساعده في النباتات. وكما أنه لم يتحدث أبدًا كثيرًا عن أي شيء، كنت أتخيل صوته هو صوت ميلتون كروس، عطوفًا ومتميزًا، يصف أزياء المغنين والأحداث العاطفية والمأساوية والمستحيلة التي كانوا منهمكين في أدائها. كان هناك، نافخًا الغليون الذي شرع في تدخينه بعد انصرافه عن السجائر، ينبش بفضول في نباتاته المنزلية، ومتحدثًا معي عن المحبين المطعونين، أو المهجورين، أو من غُدر بهم، وعن الغيرة والجنون، وعن انتصار الحب الأبدي على الموت، ثم تتهادى إلى الغرفة تلك الأصوات المرعبة، فيقف الشعر خلف رقبتي، وكأنه كان يستحضرها، لقد كان يستحضر الأرواح، كاهنًا بصوت معلق أوبرا عجوز متجرد في عباءة السهرة، أو ذلك ما أتخيل صورته عندما

أستحضر فى ذهنى المحادثات التى كنت أحب أن أجريها معه، ولكنها لم تحدث أبدًا. كنت أريده أن يخبرنى بحقيقة الحياة، والتى كانت أمى لن تقولها لي، والتى لابد أنه يعرف شيئًا عنها، بصفته طبيبًا وشارك فى الحرب، قتل آخرين وبعث الموتى إلى الحياة. ظللت أنتظر منه أن يعطينى بعض النصائح، يحذرني، يرشدني، ولكنه لم يفعل أبدًا أى شيء من ذلك. ربما كان يشعر إنى لست ابنته فى الحقيقة، فقد رآنى لأول مرة بعد أن ولدت بخمس سنوات، وعاملنى كزميلة له أكثر من ابنة، بل وكشريك فى مؤامرة. ولكن ماذا كانت تلك المؤامرة التى دبرناها؟ لماذا لم يعد إلينا طوال تلك السنوات الخمس؟ سؤال سألته أمى أيضًا. لماذا تعامل كلاهما وكأنه كان مدينًا لأمى بشيء ما؟

ثم كانت هناك تلك المحادثات الأخرى التى استرقت السمع إليها. تعودت أن أذهب إلى حمام الدور العلوي، وأغلق الباب، وأفتح الصنبور، وبذلك يعتقدان إنى كنت أنظف أسنانى بالفرشاة، ثم ألف سجادة الحمام على الأرض حتى لا أشعر بالبرد فى ركبتي، وأضع رأسى فى التواليت وأستمع إليهما.. خلال الأنابيب. كانت تقريبًا ماسورة مستقيمة إلى المطبخ، الذى كان قد شهد معظم مشاجراتهما، أو بالأحرى تلك المشاجرات التى كانت تشنها أمي. فقد كان سماعها أسهل كثيرًا من سماع أبى.

"لماذا لم تحاول أن تفعل شيئًا معها كنوع من التغيير ؟ إنها ابنتك أيضًا. لقد وصل صبرى حقًا إلى آخر مداه "

أبى: صمت.

"أنت لا تعلم كيف كان الحال وأنا وحدى تمامًا أربيها، بينما كنت أنت تستمتع هناك".

أبى: "أنا لم أكن أستمتع".

وذات مرة: "ليس ذلك ما كنت أريده لها. ليس ذلك كما أردت أن أتزوجك. كان على أن أحول الطالح إلى صالح، إذا أردت رأيي".

أبى: "آسف أن الأمور لم تجرى وفق مصالحك".

وذات مرة، عندما كانت غاضبة جدًّا: "إنك طبيب، لا تخبرنى أنك لم تستطع فعل شيء".

أبى: (متعذر سماعه).

"لا تتفوه بتلك السخافات... لقد قتلت الكثير من البشر، أنا لم أرتكب خطأ فى حياتي".

فى البداية صدمت، بالدرجة الأولى لاستخدام أمى تلك الألفاظ. كانت تحاول بشدة أن تكون سيدة محترمة أمام الآخرين، حتى أنا. وفيما بعد حاولت أن أفهم ماذا كانت تعنى.

وعندما قالت: "لولاى ما كنت أنت هنا"، لم أصدقها.

لقد كنت آكل لأتحداها، ولكنى أيضًا كنت آكل رعبًا. أحيانًا كنت أخشى أننى لم أكن هناك بالفعل، كنت أنا بالنسبة لأمى صدفة، سمعتها تدعونى صدفة. هل كنت أود أن أصبح أكثر صلابة؟ صلبة كالحجر، حتى لا يكون بمقدورها أن تتخلص منى؟ ماذا فعلتُ؟ هل أوقعت أبى فى شراك، إذا كان حقًّا والدي، هل أفسدت حياة أمي؟ لم أجرؤ أن أسأل.

ومرت بى فترة أردت أن أكون مغنية أوبرا. فرغم أنهم كانوا بدينين كانوا يستطيعون ارتداء الأزياء الفاخرة، لم يكن أحد يسخر منهم، كانوا محبوبين ويتلقون الثناء، ومن سوء الحظ أننى لم أستطع الغناء، ولكنه كان يروق لى دائمًا: أن تكون قادرًا على الوقوف هناك فى مواجهة الجميع، والصراخ بأعلى ما تستطيع، معبرًا عن الضغينة والحب والغضب واليأس، والصياح بأقوى ما تستطيعه رئتاك، وإخراج كل ذلك على هيئة موسيقى. لو حدث هذا، لكان ذلك شيئًا ذا قيمة بالتأكيد.

الفصل الثامن

"أحيانًا أشك أن لديك عقلاً فى رأسك". تعودت أمى أن تقول لى ذلك، عندما كنت أبكى لسبب أو لآخر يبدو واهيًا. كانت الدموع من وجهة نظرها دليلاً على الغباء. "سوف أعطيك سببًا تبكين من أجله. هذا شيء لا يستحق البكاء. لا تبكى على اللبن المسكوب".

كنت أقول لها: "إنى وحيدة، ليس لدى من ألعب معه".

كانت تقول وهى ترسم فمها بقلم الشفاه: "العبى مع عرائسك".

لعبت معها، تلك الأصنام ذات الشعر البلاستيكى المجعد ذات الأرجل المتصلبة، بعيونها الطفولية، وصدورها المنحوتة بانسيابية كالركبتين، غير ظاهرة، وبلا حلمات. كنت ألبس تلك الدمى من أجل مناسبات اجتماعية لم تحضرها أبدًا، وأخلع ملابسها مرة أخرى وأحدق فيها، متمنية أن تدب فيها الحياة. كانت تلك الدمى صماء، لا حب فى حياتها، كالأرامل: وفى تلك الأيام لم تكن هناك دمى ذكور. فكانت ترقص وحدها، أو تقف قبالة الحائط، متخشبة.

عندما كنت فى التاسعة من العمر حاولت اقتناء كلب. وعلمت أننى لن أستطيع الحصول عليه، ولكنى كنت أحاول إقناع أمى بأن تسمح لى باقتناء قطة صغيرة؛ كانت إحدى البنات فى المدرسة قد عرضت على واحدة من صغار قطتها الستة، قطة لها سبعة أصابع

فى كل قدم. وكانت تلك هى القطة التى أريدها. لكن، ما كنت أريده فى الحقيقة هو أخت صغيرة، وكان ذلك مستحيلاً، كنت أعرف ذلك، فقد سمعت أمى تقول على الهاتف أن ابنة واحدة أكثر مما ينبغي. (لماذا لم تكن أكثر سعادة من ذلك؟ لماذا لم أستطع أبدًا أن أجعلها تضحك؟).

سألتنى أمي: "من سوف يطعمها... ثلاث مرات فى اليوم؟"

قلت: "أنا سأفعل!"

ردت أمي: "لن تفعلي، إنك حتى لا تعودين إلى المنزل ساعة الغداء"، وكان ذلك صحيحًا، كنت آخذ غذائى إلى المدرسة معي.

كان وجود قطة صغيرة يعنى تدريبًا منزليًّا، وخدش المفروشات. بعد ذلك حاولت اقتناء سلحفاة، لم يبدُ أن هناك ضررًا كثيرًا سوف يحدث مع السلحفاة، ولكن أمى قالت أن لها رائحة.

قلت: "لا، لن يكون لها رائحة.... لديهم واحدة بالمدرسة وليس لها رائحة".

قالت أمي: "سوف تضيع خلف قطع الأثاث وتجوع حتى الموت".

ولم تقبل سماع شيء عن خنزير غينيا، أو جرذ الهامستر، أو حتى طائر. فى النهاية، وبعد ما يقرب من عام من المحاولات الفاشلة

مع أمي، تمكنت من محاصرتها. طلبت اقتناء سمكة. إنها لن تحدث ضوضاء، وعديمة الرائحة، وبلا جراثيم، ونظيفة، وفوق كل ذلك، تعيش فى الماء. أردت أن يكون لها دورق زجاجى به أحجار ملونة ونموذج لقلعة مصغرة.

لم تجد أمى أى سبب وجيه للرفض، وهكذا استسلمت واشتريت سمكة ذهبية من محلات كريسج. قالت أمي: "إنها سوف تموت... كل تلك الأسماك الذهبية الرخيصة بها أمراض". ولكن بعد أسبوع استسلمت، حتى أنها سألتنى عن اسمها - كنت جالسة وعيناى على الدورق، أراقبها تسبح إلى القمة وتعود مرة أخرى إلى القاع، متجشئة قطعًا من طعامها - قلت: "سوزان هيوارد". كنت قد شاهدت للتو فيلم "أغنية فى قلبي"، والذى مثلت فيه سوزان هيوارد دور مغنية تعود إلى الغناء وهى جالسة على كرسى متحرك. كانت السمكة الذهبية وحيدة وتعيش فى جو غريب، وأردت أن يمنحها الاسم تشجيعًا. وقد ماتت على أية حال؛ قالت أمى أنها كانت غلطتي، حيث قمت بتغذيتها أكثر مما ينبغي، ثم ألقتها فى التواليت قبل أن تكون لدى فرصة لأن أبكيها وأواريها التراب كما ينبغي. ورغبت فى شراء أخرى بدلاً منها، ولكن أمى قالت أننى لا شك تعلمت الدرس. كان من المفترض دائمًا أن أتعلم درسًا أو آخر.

كانت أمى تقول إن الأفلام مبتذلة، ومع ذلك كنت أرتاب فى أنها رأت الكثير من تلك الأفلام فيما مضى؛ وإلا فكيف كانت تعرف

جوان كراوفورد؟ وهكذا، كانت عمتى "لو" هى التى أخذتنى لأرى سوزان هيوارد. قالت لى فيما بعد: "أترين؟ الشعر الأحمر من الممكن أن يكون ساحرًا للغاية".

كانت العمة "لو" طويلة وثقيلة الوزن وذات بنيان مثل إعلان عن الكورسيهات للجسم الناضج بكتالوج إلتون، ولكنها لم تكن تهتم. كانت تكوِّم شعرها الأصفر المشوب بالبياض فوق قمة رأسها، وتضع قبعات مبهرة مزودة بالريش والأقواس فوق كومة الشعر، وتثبتها بواسطة دبابيس من اللؤلؤ، وترتدى معاطف فراء ضخمة وبذلة صوفية خشنة وضخمة تجعلها تبدو على نحو أطول وأكثر بدانة. وإحدى ذكرياتى المبكرة عنها هى وأنا جالسة فى حجرها الدافئ الواسع ـ هذا هو الحجر الوحيد الذى أتذكر نفسى جالسة عليه، وكانت أمى تقول: "انزلى يا جوان ولا تضايقى عمتك لويزا" ـ وتمسح بيدها على فرو الثعلب الذى كانت ترتديه حول رقبتها. كان هذا فرو ثعلب حقيقي، وكان بنى اللون، ولم يكن باهتًا كما أصبح فيما بعد، كان له ذيل وأربعة كفوف، وعينان سوداوان صغيرتان وأنف بلاستيك لطيف. ولكن تحت هذا الأنف كان يوجد، بدلاً من فك سفلي، مشبك يثبت الذيل فى مكانه. وكانت العمة "لو" تفتح المشبك وتغلقه وتدعى أن الثعلب يتحدث، وكثيرًا ما كان يكشف أسرارًا، مثل أين خبأت العمة "لو" نقاط اللثة التى أحضرتها لي، ويسأل أسئلة مهمة أيضًا، مثل ماذا أريد هدية لأعياد الكريسماس، ولما كبرت انتهت تلك

اللعبة، ولكن العمة "لو" ظلت تحتفظ بالثعلب فى دولابها، على الرغم من أنه أصبح موضة قديمة.

كانت عمتى "لو" تصطحبنى كثيرًا لمشاهدة الأفلام السينمائية، كانت تعشقها، خصوصًا تلك التى تجعلك تبكى؛ كانت تعتقد أن الفيلم لا يكون جيدًا ما لم يجعلك تبكى، فهى تقدر قيمة الأفلام بعدد "لفات" المناديل الورقية التى تستهلكها أثناءها، فيلم لفتين، أو فيلم ثلاث لفات، مثل النجوم المطبوعة على نشرات الدعاية للمطاعم. كنت أيضًا أبكى، وكانت حفلات السمر التى نتفق على البكاء فيها تلك من أسعد اللحظات التى عشتها فى طفولتي.

فأولاً، كان هناك الشعور المبهج بالتسلل بعيدًا عن أمي، فرغم أنها كانت تدعى موافقتها عندما أطلب الأذن، كنت أعرف أنها لم تكن موافقة، ثم نركب الترام أو الأتوبيس إلى دار العرض، وفى الردهة كنا نملأ جيوبنا بالمناديل الورقية، والفشار، وقوالب الحلوى؛ ثم نستقر فى المقاعد الوثيرة والظلمة الساكنة الهادئة لنقضى عدة ساعات من الشهيق والنشيج، عندما نرى البطلات المزهوات يتهادين أمامنا على الشاشة والآلام تعتصرهن.

عانيت طويلاً مع جون أليسون الرقيقة الصابرة وهى تعيش مقتل جلين ميللر؛ وأكلت ثلاثة صناديق من الفشار بينما كانت جودى جارلاند تحاول أن تتغلب على متاعبها مع زوج مخمور، وخمسة

قوالب من الشيكولاتة بينما تؤدى إليانور باركر دور مغنية الأوبرا المشلولة، متلمسة أسلوبها الحزين فى فيلم "لحن لم يكتمل". ولكن من أفضل الأفلام التى أحببتها كان فيلم "الأحذية الحمراء"، مع مويرا شيور كراقصة باليه ممزقة بين عملها وزوجها. عشقتها: ليس فقط لأن شعرها أحمر وترتدى زوجًا من النعال الحريرية الحمراء التى تسلب اللب فى الرقص، بل لأنها أيضًا كان لديها أزياء جميلة، وكانت تعانى أكثر من أى شخص آخر. أخذت أمضغ ما فى فمى أسرع فأسرع كلما كانت هى تغرق أكثر فأكثر فى أزمتها ــ كنت أريد أنا أيضًا تلك الأشياء، أريد أن أرقص، وأن أكون متزوجة من قائد أوركسترا وسيم، كلا الأمرين فى نفس الوقت ــ وعندما ألقت فى النهاية نفسها أمام قطار أطلقت آهة عالية معبرة عن السخط جعلت ثلاثة صفوف من كل اتجاه حولى يتلفتون نحوى باستياء، وقد أخذتنى العمة "لو" لمشاهدة هذا الفيلم أربع مرات.

شاهدت عددًا من الأفلام المخصصة للكبار فقط قبل أن أبلغ سن الرشد. ولم يشك أحد فى سنى أبدًا. كنت بدينة تمامًا فى ذلك الوقت، وكل النساء البدينات يظهرن متشابهات، جميعهن يظهرن فى الثانية والأربعين. كما أن النساء البدينات لا يجذبن ملاحظة الناس أكثر من النحيلات، فهن أقل لفتًا للنظر، لأن الناس يجدونهن مثيرات للأسى، فيتفادون النظر إليهن. لابد أنى بدوت للموظفين وبائعى

التذاكر كلطخة ضخمة عديمة الشكل، ولو كنت قد سطوت على بنك، ما كان فى الإمكان أن يجدوا شاهدا يستطيع أن يصفنى بدقة.

كنا نخرج من تلك الحفلات السينمائية بعيون مُقلتها حمراء وأكتافنا لا تزال تهتز من النشيج، ولكن كان ينتابنا شعور دافئ بما حققناه من إنجاز. بعد ذلك كنا نذهب لتناول علبة أو اثنتين من الصودا أو لتناول وجبة خفيفة فى شقة العمة "لو" ـــ سندوتشات لحم سرطان بحرى مشوى بالمايونيز، وسلاطة دجاج باردة. كانت تحتفظ بكمية من تلك الأشياء فى ثلاجتها أو فى علب على رفوف دولاب المطبخ. كانت العمارة التى بها شقتها قديمة، بمشغولات خشبية داكنة وحجرات واسعة، وكان الأثاث أيضًا كبيرًا وداكنًا، كثير الأتربة، والأشياء دائمًا مبعثرة: جرائد على الكنبة، شالات أفغانية على الأرضية، أحذية أو جوارب قديمة تحت الكراسي، صحون فى الحوض. كانت تلك الفوضى تعنى بالنسبة لى أنك تستطيع أن تفعل ما تشاء، وكنت أقلدها فى غرفة نومي، أبعثر الملابس والكتب وأغلفة قوالب الشيكولاتة فوق أسطح الأشياء التى كانت أمى قد رتبتها بعناية، فالتسريحة بها شرائط زينة مصنوعة من قماش قطنى رقيق مثبت فيها بمسامير صغيرة عديمة الرأس، وغطاء سرير مزخرف مناسب فى ذوقه مع شرائط الزينة، وبساط ينسجم مع كل ذلك، وكان هذا هو الشكل الوحيد للديكور الداخلى الذى داومت على

فعله، وكان العيب كامن فى أنّ الغرفة لابد أن تنظف جيدا إن عاجلا أم آجلا.

وعندما كنا ننتهى من وجبتنا الخفيفة كانت العمة "لو" تصب لنفسها كأسًا، وتخلع نعليها، وتستقر على أحد مقاعدها الوثيرة، وتسألنى أسئلة بصوتها الخشن. وكانت تبدو مهتمة فعلاً بما أقول، ولم تضحك عندما قلت لها إنى أود أن أكون مغنية أوبرا.

كانت إحدى طرق أمى لصرفنا عن الاهتمام بعمتى "لو" هى أن تقول أنها تشعر بالمرارة والإحباط لأنها ليس لديها زوج، ولكن لو كان هذا صحيحا، فإن عمتى كانت ماهرة فى إخفائه. بالنسبة لى فقد بدت أقل مرارة وإحباطًا بكثير من أمي، التى كانت تركز كل طاقتها بشكل متزايد على دفعى لخفض وزني، وذلك بعد أن حققت ما تريد وأثثت المنزل على أفضل ما تتمنى. وقد جربت حقًّا كل شيء فى سبيل تحقيق ذلك. عندما كنت أرفض تناول الحبوب أو الالتزام بالرجيم ــ الذى وضعته هى بإحكام، بقوائم طعام لكل يوم من أيام الأسبوع، مع حساب عدد السعرات الحرارية ــ كانت ترسلنى إلى طبيب نفساني.

"أحب أن أكون بدينة"، قلت له ذلك وانفجرت فى البكاء. جلس ينظر إلى وقد شبك أصابع يديه مبتسمًا بعطف ولكن مع مقدار من الاشمئزاز وأنا ألهث وأنفخ من الغيظ.

سألني وقد بدأ البكاء في الانحسار: "ألا تحبين أن تتزوجي ؟ "، وجعلني ذلك أبدأ البكاء من جديد، ولكني في المرة التالية التي رأيت فيها العمة "لو" سألتها: "ألا تحبين أن تتزوجي؟"

ضحكت إحدى ضحكاتها الخشنة. كانت جالسة في كرسيها المحشو المريح، تشرب مارتيني، وقالت: "أوه، كنت متزوجة يا عزيزتي... ألم أخبرك أبدًا ؟ "

كنت دائمًا أفترض أن عمتي "لو" عانس، لأن اسمها الأخير كان نفس اسم أبي، ديلاكورت، ويُنطق ديلاكور. قالت العمة لو "إن الاسم ذو صلة دون شك بطبقة النبلاء الفرنسية". كان جدها الكبير مزارعًا قبل أن يقرر أن يحسن من وضعه. قالت أنه توجه إلى أعمال التمهيد الأساسية لطرق السكك الحديدية، باع المزرعة ليفعل ذلك، وكانت تلك هي الكيفية التي جمعت بها العائلة أموالها. "كانوا جميعًا محتالين بالطبع "، قالت ذلك وهي ترشف من شرابها، "ولكن لا يذكر ذلك أحد أبدًا".

وظهر أن العمة "لو" كانت قد تزوجت وهي في التاسعة عشرة من عمرها، إلى رجل يكبرها بثماني سنوات، وذي منزلة اجتماعية رفيعة، وباركت العائلة هذا الزواج. ولسوء الحظ كان مقامرًا لدرجة الإدمان. " تدخل النقود إلى جيب، وتخرج من الآخر"، ثم تنفست بعمق، " ولكن ماذا كنت أعرف في تلك السن؟ كنت مجنونة بحبه يا

عزيزتي، كان طويلاً وأسمر اللون ووسيمًا". بدأت أدرك لماذا كانت تحب تلك النوعية من الأفلام: فهى تحتوى الكثير مما يشبه حياتها الخاصة. ... "حاولت يا عزيزتي، حاولت حقًا، ولكن بلا فائدة... كان يختفى لعدة أيام بغير انقطاع، ولم يكن الأمر أنه يتركنى كامرأة خبيرة فى إدارة المنزل أو التعاملات المالية. لم أكن قد تسوقت طعامًا فى حياتي، كان كل ما أعرفه أنك ترفعين سماعة التليفون وهناك من يحضره إلى منزلك فى صندوق. فى الأسبوع الأول من زواجنا طلبت رطلاً من كل شيء ــ رطل دقيق، ورطل ملح، ورطل فلفل أسود، ورطل سكر ــ كنت أعتقد أن ذلك هو ما يفترض أن تقومى به. الفلفل ظل عندى سنوات". كانت ضحكة العمة "لو" كضحكة فيل البحر الغضبان. كانت تحب أن تلقى نكات عن نفسها، ولكن أحيانًا كان ذلك يجعلها تختنق، " ثم يعود، وإذا كان خاسرًا يقول لى كم يحبني، وإذا كان قد كسب فسوف يشكو بأنه مقيد. كان ذلك شيئًا محزنًا حقًا. ذات يوم لم يعد أبدًا. ربما أطلقوا عليه الرصاص لأنه لم يدفع ما عليه، وأتساءل إن كان لا يزال حيًّا؛ ولو كان، فالمفترض إنى لا زلت زوجته".

اكتشفت فيما بعد أن العمة "لو" كان لها صديق من نوع ما. كان اسمه روبرت، وكان محاسبًا، وكانت له زوجة وأطفال، وكان يأتى إلى شقتها للعشاء فى أمسيات الآحاد. قالت العمة "لو" "لا تخبرى أمك بذلك يا عزيزتي، ... لست متأكدة أنها سوف تفهم".

سألتها عندما أخبرتني: "ألا تحبين أن تتزوجى به؟"

قالت العمة "لو": "لا أريد أن ألدغ من جحر مرتين، بالإضافة إلى إنى لم أحصل أبدًا على الطلاق، فما الهدف؟ لقد استعدت فقط اسم عائلتي، وهكذا فلست مضطرة للإجابة على أسئلة كثيرة. خذى بنصيحتى ولا تتزوجى حتى تبلغى الخامسة والعشرين على الأقل ".

كانت تفترض أنه سيكون هناك العديد من الخُطَّاب يجرون ورائي. لم تعترف بأنه من المحتمل أن لا يطلب أحد يدي. وكانت وجهة نظر أمى أن من كان على شاكلتى لن ينجز شيئًا أبدًا، ولكن العمة "لو" كانت تغض النظر تمامًا عن الإعاقة وعن التعامل مع المعاقين كعقبات يمكن التغلب عليها، فمغنية الأوبرا المقعدة يمكنها أن تنجح فقط لو تحاول، وفى بدانتى تلك، ثمة ما يتوقع منى على أية حال، ولم أكن واثقة من إنى قادرة عليه.

بعد تجربتها السيئة مع المقامر خرجت العمة "لو" إلى الحياة وحصلت لنفسها على وظيفة، قالت لي: "لم أكن أستطيع الكتابة على الآلة يا عزيزتي، لم أكن أستطيع أن أفعل أى شيء. هذا هو الأسلوب الذى تربيت عليه، لم يكن سوى الاكتئاب، كما تعلمين. لم يكن لدى العائلة مزيدًا من المال، لذا كنت مضطرة للعمل، أليس كذلك؟ لقد صنعت طريقى".

عندما كنت أصغر سنًّا، كان أبى وأمى غير واضحين فيما يتعلق بوظيفة العمة "لو"، وكذلك هي. كان ما يقوله الجميع هو أنها تعمل فى مكتب لشركة ما، وكانت هى رئيسة الفرع، ولما كنت فى الثالثة عشرة اكتشفت ماذا كانت تعمل فى الواقع.

جاءتني أمي قائلة: "خذى ... أعتقد أنه حان الوقت لتقرئى هذا"، ووضعت فى يدى كتيبًا وردى اللون ذا غلاف مزين بإكليل من الورود. "أنت تكبرين"، هكذا كُتب على الغلاف. وفى الصفحة الداخلية كانت هناك رسالة، وكانت تبدأ بما يلي: "النمو من الممكن أن يكون شيئًا ممتعًا وجالبًا للمرح. ولكن هناك أيضًا بعض الأشياء التى يمكن أن تكون محيرة. إحدى تلك الأشياء هو الحيض..."، وفى أسفل تلك الصفحة كانت صورة العمة "لو"، تبتسم ابتسامة الأم الحنون، ولكن بصورة مهنية، التقطت الصورة قبل أن يُصبح لها هذا اللُّغد الكبير. وحول رقبتها قلادة من صف واحد من اللآلئ، ورغم أنها كانت تضع اللآلئ فى الواقع، فلم تكن أبدًا مجرد صف واحد. وتحت الرسالة كان توقيعها: المخلصة على الدوام، لويزا ك. ديلاكور". تأملت الرسوم فى الكتيب الوردى باهتمام، وقرأت التلميحات الخاصة بآداب المعاملات فى مباريات التنس وحفلات المدرسة الثانوية، ومقترحات خاصة بالملابس، والنصيحة حول غسل شعرك؛ ولكنى كنت أكثر إعجابًا بصورة وتوقيع العمة "لو" ـــ مثل نجوم السينما، نوعًا. كانت عمتى "لو" إذا مشهورة، بشكل ما.

سألتها عن ذلك فى المرة التالية التى رأيتها فيها. قالت: " أنا مديرة علاقات عامة يا عزيزتي، ولكنى لم أكتب هذا الكتيب فى الواقع، كما تعلمين. كان هذا مكتوبًا بالإعلان".

سألتها: "وماذا تعملين إذن؟"

قالت: "حسنًا... إنى أذهب إلى لقاءات كثيرة، ويستشيروننى فى الإعلانات، وأرد على الرسائل. تساعدنى سكرتيرتي، بالطبع".

سألتها: "رسائل من أى نوع؟"

قالت: "أوه، تعلمين، شكاوى حول المنتج، طلب النصيحة، أشياء من هذا القبيل. سوف تعتقدين أن جميع هذه الأسئلة تأتى من الفتيات الصغيرات، وكثير منها كذلك. الفتيات تريد أن تعرف مكان أعضائهن التناسلية، وأشياء مثل ذلك، وقد وضعنا نموذج رسالة لمثل هؤلاء، ولكن بعض من يبعثون بتلك الرسائل يحتاجون حقًّا للمساعدة، وهؤلاء هم الذين أرد شخصيًّا على رسائلهم. عندما يكونون خائفين من الذهاب إلى الطبيب أو شيء من هذا القبيل، فهم يكتبون لي. فى نصف الحالات لا أعرف ماذا أقول". أنهت العمة "لو" ما فى كأسها من شراب، وذهبت لتصب لنفسها كأسًا آخر، "تسلمت رسالة منذ فترة من امرأة كانت تعتقد أنها حملت من روح شريرة".

سألت: "روح شريرة؟" ... كانت تقولها وكأنها نوع من الأدوات الطبية. "ما هذا؟"

قالت العمة "لو": "لقد بحثت عنها فى القاموس، إنها شيء أشبه بالشياطين".

سألت مذعورة: "ماذا قلت لها؟" .... ماذا لو كانت المرأة على حق؟

أجابت العمة "لو" وهى فى حالة تأمل: "قلت لها أن تجرى اختبار حمل، فإذا جاءت النتيجة إيجابية فذلك يعنى أنها ليست روحًا شريرة، وإذا جاءت سلبية، فليس هناك مبرر للقلق، ألست على حق؟"

"لويزا خارجة عن الحدود"، كانت أمى تقول هذه العبارة وهى تشرح لأبى سبب عدم دعوتها للعمة "لو" على العشاء فى كثير من الأحوال. "من المؤكد أن يسألها الناس ماذا تعمل، وهى دائمًا ترد عليهم. لا أستطيع تحمل استخدامها لتلك الألفاظ على العشاء. أعلم أنها طيبة القلب ولكنها لا تعير اهتمامًا على الإطلاق لنوع الانطباع الذى تتركه لدى الآخرين".

قالت لى العمة "لو" بضحكة خافتة: "يجب أنْ أحمد ربى، إنهم يدفعون لى جيدًا، وهو مكتب كريم. ليس ثمة ما أشكو منه".

تملك الطبيب النفسانى اليأس منى بعد ثلاث جلسات من الدموع والصمت. كرهت أن أترك انطباعًا بأن هناك مشاكل أخرى معى بالإضافة إلى كونى بدينة، وامتعض هو من استيائي، وأبلغ أمى أنها مشكلة عائلية لا يمكن أن تُحل بالتعامل معى وحدي، وتملكها

الغيظ، قالت لوالدي: "يا له من رجل بارد الأعصاب. إنه يريد فقط الحصول على مزيد من الأموال. إنهم جميعًا دجالون، إذا كنت تريد رأيي".

بعد ذلك دخلت مرحلة الإصابة بالإسهال. أعتقد أنها فى ذلك الوقت كانت شديدة الاهتياج؛ من المؤكد أن الهواجس كانت تنتابها بسبب ضخامتي. من المحتمل أنها كانت كمعظم الناس تفكر فى صور خيالية للواقع، ولابد أن الصورة التى تخيلتها لى كانت شيئًا له ثقب واحد، مثل أنبوبة داخلية، تلتهم الأشياء من ناحية واحدة، ولكنها لا تدعها تخرج من الناحية الأخرى: فلو أنها استطاعت بطريقة ما أن تفتحنى فسوف أفرغ كل شيء مرة واحدة، مثل المنطاد. بدأت فى شراء أدوية تخسيس من النوع الذى لا يكتب تركيبته عليه، لإخفاء محاولاتها معى لتناول تلك الأدوية ــ "سوف يكون هذا الدواء جيدًا لبشرتك" ــ ومن حين إلى آخر تضعها فى الطعام. ذات مرة صنعت كيكة الشيكولاتة المثلجة المذاب فيها الدواء مسبقًا، وتركتها على منضدة المطبخ حيث وجدتها أنا والتهمتها، وكانت نتيجة ذلك أنها جعلتنى تعسة ولكن لم تجعلنى نحيفة.

وفى ذلك الوقت كنت في المدرسة العليا، قاومت خطة أمى لإرسالى إلى مدرسة بنات خاصة ترتدى التلميذات فيها تنورات وأربطة عنق صغيرة منقوشة، فمنذ تجربة المرشدات كنت دائمًا قلقة من أى مجموعة تتكون من النساء كلية، وخصوصًا اللائى يرتدين

زيًا موحدًا. وهكذا ذهبت إلى أقرب مدرسة ثانوية، والتى كانت فى رأى أمى التالية من حيث الأفضلية، ولكنها لم تكن سيئة كما كان يمكن أن تكون، حيث أننا الآن نعيش فى حى محترم. كانت المفاجأة أن أبناء العائلات التى كانت أمى تراهم نظراء لها ومثالاً يحتذى تم إرسالهم إلى المدرسة الخاصة التى أرادت أن ترسلنى إليها، وهكذا التحق بالمدرسة العليا معظم الباقين الذين كانوا ينتمون إلى المساكن الأصغر الواقعة حول أطراف المنطقة، مبنى المجمع السكنى الجديد الذى لقى معارضة من المقيمين القدامى، والأسوأ من ذلك، الشقق الواقعة فوق المحلات بالشوارع التجارية. بعض زملائى فى الفصل لم يكونوا على الإطلاق ما تتوقعه أمي، ومع ذلك فإنى لم أخبرها بذلك، حيث لم أرد أن أجبر على ارتداء زى موحد.

فى ذلك الوقت أعطتنى أمى علاوة ملابس كحافز لإنقاص وزنى. واعتقدت أننى سوف أشترى ملابس تجعلنى أقل بدانة، كالملابس القاتمة بأقمشة منقطة نقاطًا صغيرة والخطوط الرأسية المفضلة من جانب مصممى أزياء البدينات، وبدلاً من ذلك سعيت للحصول على ملابس بشعة وغريبة، ذات ألوان عنيفة ومخططة أفقيًا. حصلت على بعضها من المحلات الخاصة باحتياجات الأمهات، والبعض الآخر من المحلات التى تعرض نسبة تخفيضات فى الأسعار، كنت مسرورة خاصة بالتنورة الحمراء الزاهية المقصوصة دائريًا (كلوش)، ومطبوع عليها تليفون أسود. كلما كانت الألوان أكثر

سطوعًا وأكثر إظهارًا لامتلاء الجسم، كلما كان شرائى لها مؤكدًا. لم أكن لأدع نفسى للظهور بمظهر يجعلنى فى صورة منقوصة الحجم ومحايدة بارتداء كيس قماش منقط أزرق بحرى اللون.

ذات مرة عندما وصلت إلى المنزل مرتدية معطفًا أخضر ليمونى مزود بأزرار من القماش من الأمام، يومض مثل بطيخة من النيون، بدأت أمى تبكى. كانت تبكى بصورة تنم عن اليأس والاستسلام؛ كانت تميل على درابزين السلم، وجسدها متراخٍ بأكمله وكأنه يخلو من العظام، وكانت أمى لا تبكى أبدًا بحيث يمكن أن أراها، وأصابنى الفزع من بكائها. ولكننى كنت مبتهجة أيضًا لأن هذا دليل على قوتي، وقوتى فقط. لقد هزمتها: لن أدعها أبدًا تجعل منى الصورة التى فى مخيلتها، نحيفة وجميلة.

قالت وهى تنشج بالبكاء: "أين عثرت على تلك الملابس؟ ... إنك تفعلين ذلك عمدًا. إذا كان شكلى مثلك لاختبأت فى قبو".

لقد انتظرت طويلاً حتى أرى ما يحدث أمامي. من تبكى أولاً هى الخاسرة.

قلت: "يبدو أنك كنت تشربين الخمر"، وكان هذا صحيحًا. لأول مرة فى حياتى أجرب، عن وعى، فرحة أن أكون أنا التى توجه اتهامًا بدعوى أننى أنا الصالحة.

قالت أمي: "ماذا فعلت حتى أجعلك تتصرفين هكذا؟" كانت ترتدى معطفًا منزليًا ونعلين، وعلى الرغم من أن الساعة كانت الرابعة والنصف بعد الظهر، كان يمكن لشعرها أن يكون أكثر تهذيبًا. مشيت ضاربة بقدميّ، مارة بها، صاعدة إلى غرفتي، شاعرة بالرضا تمامًا عن نفسي. ولكنى عندما فكرت فى الموضوع، تملكتنى الشكوك، فقد كانت تحاول أن تنسب الفضل لنفسها، فأنا لم أكن دميتها، وبالتأكيد أن هذا السلوك لم يكن يسبب شيء فعلته هي، ولكن لأنى أنا التى أردت أن أفعل ذلك. وما هو الخطأ الكبير على أية حال فى السلوك الذى كنت أسلكه؟

قالت العمة "لو" ذات مرة: "ذلك على وجه الدقة هو أسلوبي. فإذا لم يستطع الآخرون التعامل معه، فتلك مشكلتهم. تذكرى ذلك يا عزيزتى، إنك لا تستطيعين دائمًا اختيار حياتك، ولكنك تستطيعين أن تتعلمى أن تتقبليها".

اعتدت أن أعتبر العمة "لو" حكيمة، بالتأكيد كانت تتصف بالكرم والشهامة. كانت المشكلة الوحيدة أن الحِكَم التى توزعها من حين لآخر من الممكن أن تحمل عدة معان عندما تمعن النظر فيها. على سبيل المثال، أكان من المفروض أن أتقبل أمي، أم كان من المفروض أن تتقبلنى هي؟

في أحد أحلام اليقظة كنت أتصور أن العمة "لو" هي أمي الحقيقية، وأنها – نتيجة سبب مثير للإحباط ولكن يمكن اغتفاره – سلمتني لأبي وأمي كي يتوليا تربيتي. ربما كنت طفلة المقامر الوسيم، والذي سوف يظهر يومًا، أو كانت العمة "لو" قد أنجبتني خارج نطاق الزوجية عندما كانت صغيرة جدًّا. وفي هذه الحالة فإن أبي ليس هو أبي الحقيقي، وكذلك أمي... ولكن هناك ما ينقض هذا الاحتمال من أساسه، فما الذي يدفع أمي لأخذي ما لم تكن مجبرة على ذلك؟ وعندما يعلق أبي على مدى ولع العمة "لو" بي، ترد أمي بحدة أن ذلك فقط لأنني لم أكن تحت يديها بصورة دائمة. تحت يديها، نوع من الاستعارات التي كانت أمي تستخدمها دائمًا فيما يتعلق بي، رغم أنها في الحقيقة نادرًا ما كانت تلمسني. كانت يداها رقيقتين، ولها أصابع طويلة، وأظافر حمراء، وشعرها مهندم بعناية؛ لم يكن ثمة مكان لي وسط تلك الحلقات المصففة بعناية. دائمًا ما أستطيع أن أتذكر كيف كان شكل أمي ولا أستطيع أن أتذكر كيف كانت تشعر.

كانت العمة "لو" لينة الجانب، منتفخة، دافئة، مشعرة. حتى وجهها، معالج بالبودرة وأحمر الشفاه، كان مغطى بشعيرات صغيرة جدًّا، مثل النحلة. كانت خصلات الشعر نافرة من رأسها، وخيوط من حواشي أرديتها، روائح نفاذة تنتشر في المسافة بين ياقتها ورقبتها، حيث اعتدت أن أريح جبهتي، منصتة إلى قصص ثعلبها المتحدث. وفي مواسم الصيف عندما كنت صغيرة، كنا نتجول في أروقة

المعرض القومى الكندي، كان من عادتها أن تمسكنى من يدي، فى حين أن أمى لم تكن تمسكنى من يدي، حيث كانت تخشى على قفازها، كانت تمسكنى من الذراع أو من خلف الياقة. ولم تكن تصطحبنى أبدًا إلى ذلك المعرض، الذى قالت عنه أنه لا فائدة منه. وكنت والعمة "لو" نعتقد أنه مفيد، بل إننا عشقناه، هتاف المنادين، والأشرطة الأنبوبية، وحلوى غزل البنات، والفشار بالزبد الذى كنا نحشو به أنفسنا خلال تجوالنا من سرادق إلى آخر. كنا نتوجه مباشرة إلى قاعة "الطعام النقي" أولاً كل عام، لنرى تمثال البقرة المصنوع من الزبد الخالص؛ فى إحدى السنوات صنعوا بدلاً منها تمثالاً للملكة.

ولكن كان هناك شيء لا أستطيع أبدًا أن أتذكره جيدًا. ذهبنا إلى جناح الملاهي، طبعًا، وإلى ألعاب الملاهي، البطيئة منها ــ كانت العمة "لو" تحب العجلة الحديدية ــ ولكن كانت هناك خيمتان لا تحب العمة "لو" أن تدعنى أزورهما. إحدى الخيمتين مرسوم عليها نساء فى أزياء الجواري، لهن صدور ضخمة بارزة، واثنتين أو ثلاثة من تلك النسوة كن يقفن على درجة صغيرة خارج الباب فى سراويلهن الشفافة وكاشفات بطونهن، بينما يقف رجل بمكبر للصوت محاولاً جذب الناس لشراء التذاكر، والخيمة الأخرى كانت بعنوان "العرض العجيب"، وهذه الخيمة كان بها آكل النار وبالع السيف، بالإضافة إلى الرجل المطاط، و"التوأم السيامى ملتصقا الرأس ولا يزالان على قيد الحياة"، أعلن الرجل ذلك، والمرأة الأكثر بدانة فى العالم. لم ترغب

العمة "لو" فى دخول تلك الخيمة أيضًا. قالت: "من الخطأ أن نضحك على سوء حظ الآخرين"، كانت لهجتها تتسم بصرامة أكثر من المعتاد. وكنت أعتبر أن هذا الرأى ليس عادلاً، فالآخرون يضحكون على سوء حظي، ومن حقى أن أحصل أنا أيضًا على فرصة للضحك. ولكن، لم يكن البدين يعتبر سيىء الحظ، كانت البدانة تعتبر نوعًا من فشل الإرادة المثير للاشمئزاز. لم تكن قدرًا محتومًا وبناء عليه جذابة للمشاهدة مثل التوأم السيامى أو شخص يعيش برئة حديدية. وعلى الرغم من ذلك كانت المرأة البدينة فى الخيمة، ورغبت فى أن أشاهدها، ولكنى لم أفعل أبدًا.

ما لا أستطيع أن أتذكره هو: أين كانت تلك الخيمتان؟ أم هل كانتا خيمة واحدة ؟ كان الرجل المتحدث فى الميكروفون ينادى على العجائب وعلى البنات الراقصات على السواء. كان كلاهما مدهشًا، كانا شيئًا من المفترض أن يُرى حتى يمكن تصديقه.

وكان المكان المفضل للعمة "لو" فى الملاهى عبارة عن خيمة فتحتها على شكل فم عملاق يصدر عنه ضحك متواصل لا ينتهى أبدًا لشخص سكران. "اضحك فى الظلام"، كان هذا عنوان الخيمة. كان بداخلها هياكل عظمية بإضاءة فسفورية، ومرايا محرفة للهيئة تمط صورتك أو تجعلها منكمشة. وقد وجدت تلك المرايا مزعجة، حيث لم أكن أريد أن أكون أكثر بدانة مما كنت بالفعل، وأن أكون أنحف.. فذلك من المستحيل.

تعودت أن أتخيل المرأة البدينة جالسة على مقعد، تقوم بالحياكة، بينما هناك صفوف وصفوف من الوجوه الكئيبة تتأملها بالدور، ناظرة، ناظرة. رأيتها في سروال شفاف وحمالة صدر حريرية حمراء، مثل البنات الراقصات، وخف أحمر. وكنت أفكر فيما سوف تشعر. يومًا ما سوف تتمرد، سوف تفعل شيئًا؛ أما الآن فهي تتكسب من فضول الآخرين. كانت تحيك وشاحًا، لأحد أقاربها، والذي كان يعرفها منذ الطفولة، ولم يكن يراها غريبة على الإطلاق.

الفصل التاسع

كان عندى صورة وحيدة لعمتى "لو" اعتدت أن أحملها معى فى أى مكان أذهب إليه، وأن أضعها على أى مكتب أجده بالصدفة هناك، ولكن عندما فررت إلى تيريموتو تركتها: وربما يكون آرثر قد لاحظ فقدانها. كانت الصورة قد التقطت فى يوم حار من شهر أغسطس، بأروقة المعرض القومى الكندى خارج مبنى المسرح الكبير، بواسطة أحد هؤلاء المصورين المتجولين الذين يلتقطون لك الصورة ويسلمونك قصاصة ورقية عليها رقم. سألنى آرثر ذات مرة، وكانت الصورة خارج المحفظة: "هل هذه أمك؟"

أجبت: "لا، بل هى عمتى "لو".

"ومن تكون الأخرى؟ ... البدينة ؟"

ترددت للحظة، وكنت على وشك أن أخبره بالحقيقة... ثم أجبت: "تلك عمتى الأخرى، عمتى ديردر. كانت العمة "لو" رائعة، ولكن العمة ديردر كانت فظيعة".

قال آرثر: "يبدو وكأنها كانت تعانى من مشكلات بالغدة الدرقية".

قلت لآرثر: "لم تكن كذلك، كانت فقط تأكل كثيرًا. كانت عاملة تليفونات، وكانت تحب هذا العمل لأنها تستطيع الجلوس طوال اليوم، كما كان صوتها مرتفع. وحصلت على ترقية لتصبح من هؤلاء الناس الذين يتصلون بك ليستعلموا عن سبب عدم سداد الفاتورة". يا لها من أكاذيب قلتها له. ولم يكن لمجرد الدفاع عن النفس، فقد كنت أبتكر بالفعل ماضيًا زائفًا كلية لهذه الصورة الباهتة المطبوعة على قطعة من الورق، هذه المرأة التى لا تستطيع تمييز عمرها، الواقفة تحدق شزرًا فى الكاميرا، والممسكة بقرطاس من غزل البنات الوردى اللون، ووجهها منتفخ وفارغ كوجه مغولى أبله : لم تكن سوى جسدى الذى تغيرت هيئته تمامًا.

قال: "هى تشبهك قليلاً".. "

اعترفت: "قليلاً، ولكنى لم أكن أحبها، كانت دائمًا تحاول أن تخبرنى كيف أدير حياتي".

كان يؤلمنى إلى حد ما أن أخدع نفسى بهذا الشكل. كانت هذه الصورة هى البداية وكان لابد أن آخذها، كان الوقت لا يزال مبكرًا للدخول فى مخاطرات من هذا القبيل، وبدلا من ذلك انسحبت خلف تمويه لمظهرى كما عرفه آرثر عني. أعتقد أننى خشيت أن أطرح إليه كل تلك التعاسة. لم أكن أعتقد أنه سوف يكون قادرًا على التعامل معها، لقد أرادنى أن أكون حمقاء وضعيفة، هذه حقيقة، ولكن فقط

بشكل سطحي، وتحت هذه الصورة كانت أسطورة أخرى: وهى أننى لم أستطع أن أسمح لنفسى بأن أكون حمقاء وضعيفة إلا لأنه كان لدىّ جوهر من القوة ومخزون من الدعم والدفء يمكن استدعاؤه عند الحاجة.

إن كل أسطورة نسخة معدلة من الحقيقة، والدفء والدعم كانا موجودين على أرض الواقع، تعلمت المواساة مبكرًا، أعطيت أوراقًا نقدية بالدولار خلال أعياد الكريسماس إلى منظمة جيش الخلاص المسيحية الناشطة فى مجالات أعمال الخير، وأيضًا إلى رجال بلا أقدام يبيعون الأقلام على جوانب الطرق، وكنت من النوع الذى يلجأ إليه الأطفال بأكاذيب حول فقدان أجرة الأتوبيس أو الحافلة، وكنت أدفع ثمن التذكرة كل مرة. وعندما مشيت فى شارع يونج اصطدمت بجماعات حركة الهير كريشنا " حركة هندية الأصل تدعو لنبذ شرب الخمر ولعب القمار والجنس المُحرّم وأكل الحم " عند كل ضوء أحمر، كانت تشبه أى موكب، ولا أعلم كيف اكتشفوني. كنت أتعاطف مع أى مخلوق يتألم: القطط التى صدمتها السيارات، النساء العجائز اللائى يقعن على الأرضفة المغطاة بالثلج فيشعرن بالخجل من ضعفهن وانكشاف ملابسهن الداخلية، نواب المجالس التشريعية الذين يبكون على شاشات التليفزيون عندما يخسرون فى الانتخابات. ولهذا السبب، وكما أشار آرثر أكثر من مرة، كانت مشاعرى السياسية مفرطة على نحو صبياني. لم أكن أحب فرق إطلاق النار، لم أشعر

أبدًا أن هؤلاء الذين أطيح بهم من السلطة يستحقون ما حدث لهم، أيًا كان ما فعلوه خلال فترة عملهم. كان آرثر يسمى ذلك "إنسانية ساذجة"، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يستحسنها عندما تتعلق به.

كان الشيء الذى لا يعرفه هو أن ابتسامتى المتعاطفة كانت تخفى صفًا من الأسنان المثبتة بإحكام، وخلف ذلك حشد من الأصوات، تصرخ فى داخلي: ماذا عنى؟ ماذا عن آلامى أنا؟ متى يأتى دوري؟ ولكنى تعلمت كتم هذه الأصوات لأكون هادئة ومتقبلة ومتفتحة.

استطعت المرور بالمدرسة الثانوية من خلال الدفء والدعم. فى الكتاب السنوى الذى تصدره المدرسة كان يُكتب شيء ما تحت كل صورة من الصور التى بها فتيات بأفواه داكنة وحواجب مرسومة وقصة شعر ملتفة عند الكتفين، أو الشعر المرفوع على شكل ذيل الحصان، وصور بها أولاد حلقوا شعورهم بقصة عُرف الديك أو تسريحة البطة المدهونة بزيت الشعر. عيون متحدية، أقدام متشابكة عند الكاحل، الكلمات التى كانت تحت صورتى كانت دائمًا تقول: "صديقتنا المحظوظة السعيدة ذات الشخصية الرائعة"، أو "صديقة عظيمة"، أو "ضحكة جوان القصيرة"، أو "عزيزتنا البدينة، التى يبدو أنها لا تهتم أبدًا". أما البنات الأخريات، فتجد تحت صورهن أشياء مثل: "إنها تحبهم فارعين"، أو "أوه، تلك حفلات لدون ميلز"، أو "إن جاذبيتها الرئيسية ارتداؤها نسيج من مصنع سمبسون". أو حتى

"الأشياء الطيبة تأتى فى عبوات صغيرة ". فى المنزل كنت متجهمة أو فاقدة للوعي، فى السينما كنت أبكى مع العمة "لو"، ولكن فى المدرسة كنت متعاونة بإصرار ومنطلقة، كنت أمضغ العلكة، ودخنت فى الحمام، ولونت شفتى بلون وردى فاقع أو أحمر مثير، وضاع فمى الدقيق المشابه لفم كيوبيد فى بحر الوجه البدين. كنت جيدة فى لعبة الكرة الطائرة، ولم أكن كذلك فى كرة السلة، لأن عليك أن تركض فيها كثيرًا، وقد انتخبت فى اللجان، كسكرتيرة عادة، وانضممت إلى نادى الأمم المتحدة، وشاركت فى وفد إلى الأمم المتحدة أمثل فيه العرب، وأذكر أننى ألقيت خطبة جيدة حول محنة اللاجئين الفلسطينيين. كما ساهمت بأعمال الديكورات الخاصة بإقامة حفلات الرقص، فعلقت أكاليل من أزهار مصنوعة من المناديل الورقية بطول جدران صالة الألعاب، ولو إنى بالطبع لم أحضر الحفلات أبدًا. كانت درجاتى معقولة، ولكنها لم تكن عالية جدًّا بحيث تجلب لى مشاعر الحسد والضيق. والأكثر أهمية من كل ذلك إنى لعبت دور العمة الحنون والمرأة الحكيمة لعدد من الفتيات الرقيقات لابسات السترات الكشمير وذوات الصدور البارزة فى الفصل. ولهذا السبب تحدث الكتاب السنوى عنى بمثل تلك العبارات الطيبة.

كان بالمدرسة فتاتان أخريان بدينتان. إحداهما، مونيكا، كانت تسبقنى بعام. كان لديها شعر دهنى قصير تمشطه إلى الخلف، مثل الأولاد، وكانت ترتدى سترة سوداء بأزرار فضية، وكانت فى ساعة

الظهيرة تتسكع بالخارج مع بعض الأولاد الأغنياء المشاكسين فى الساحة المخصصة لوقوف السيارات. حيث كانوا يشربون من قنينات صغيرة مخبأة فى أحد تابلوهات السيارات ويتبادلون نكات بذيئة. كانت تقريبًا تجد قبولاً بينهم، ولكن باعتبارها ولدًا آخرَ. لم يكن يبدو أنهم يفكرون فيها كامرأة على الإطلاق. وكانت البدينة الأخرى اسمها تريزا، وكانت فى نفس السنة الدراسية مثلي، ولكن فى فصل مختلف. كانت شاحبة وكتومة، لم تكن تتحدث إلا قليلاً، وكان لها أصدقاء قليلون. كانت تتمشى بمفردها بين قاعات المدرسة، أكتافها منحنية، وكتبها مضمومة إلى صدرها لإخفاء جزء من جسدها، وتنظر باستحياء إلى قدميها، كانت ترتدى بلوزات بلون القشدة من الحرير الصناعى مطرزة بطريقة متحفظة، مثل سكرتيرة مكتب فى الخامسة والأربعين من العمر. ومع ذلك، كانت هى ـــ وليس مونيكا الوقحة ـــ التى نالت الشهرة التقليدية للفتاة البدينة، كانت تريزا هى التى يصيح الأولاد عليها من الجانب الآخر من الشارع: "هاى تريزا، أيتها البدينة، ألا تودين الذهاب معى خلف المنزل؟"، كانت تريزا تدير وجهها خجلاً؛ ولا يعلم أحد بالضبط ما إذا كان ما يتردد عنها إشاعات أم حقيقة، ولكن الجميع صدقوا تلك الإشاعات.

أما أنا، فكانت لى شخصية رائعة، وكانت صديقاتى مهذبات، من النوع الذى يرغب الأولاد المهذبون فى اصطحابهن إلى الرقص ومشاهدة الأفلام السينمائية، حيث يكونون على مرأى من الجميع،

وموضع إعجاب علني. لم يكن أحد يتفوه بألفاظ خارجة فى الشارع لي، لا أحد من مدرستنا على أية حال. كانت تلك الفتيات تحب العودة إلى المنزل سيرًا معي، يطلبن نصيحتي، ويدلين لى بأسرارهن، لسببين: إذا كان هناك ولد لا يرغبن فى الاتصال به، أكون أنا هناك، وصيفة بدينة، الحجة المثالية، ويكون ذلك كما لو كانت معك دبابتك الخاصة، وإذا كان الولد مرغوبًا فيه، فليس أفضل من الظهور بجانبي، كفتيات مهذبات، وذلك بالإضافة إلى أننى كنت متفهمة جدًا، كنت دائمًا أعرف اللحظة المناسبة التى أقول فيها "إلى اللقاء"، وأختفى بعيدًا مثل منطاد فى رياح هادئة، تاركة الاثنين يحدق كلٌ فى الآخر على الرصيف أمام بيوت برايسايد الأنيقة، وتلك الحدائق المهذبة بعناية. وتتصل الفتاة بى هاتفيًّا فيما بعد، لتقول وهى منقطعة الأنفاس: "تخيلى ما حدث!". وكنت أقول: "أوه، ماذا حدث؟"، وكأننى مبتهجة ومسرورة ومتشوقة جدًّا لمعرفة ما حدث. استطعت أن أكون شخصًا يعتمد عليه، لا أبدى حسدًا، وليس واردًا أن أقوم بدور المنافسة اللعوب، ولا أتساءل لماذا لم أكن مدعوة إلى الحفلات المختلطة لهؤلاء الأصدقاء الأعزاء. ورغم أن جسدى كان ضخمًا، كان يُنظر إلى على أننى فوق رغباته، وهو ما لم يكن صحيحًا، بالطبع.

كل شخص كان يثق بي، ولم يكن هناك من يخافني، مع أن هذا كان ينبغى أن يرد بأذهانهم. كنت أعلم كل شيء عن صديقاتى ــ أمانيهن، وما يفضلنه ــ نوع أطقم الخزف وشكل فستان الزفاف الذى

يحلمن به ورسمن صورته فى مخيلتهن منذ سن الخامسة عشرة، كنت أعرف أسماء الأولاد غير المشتبه فيهم الذين يرغبن فى منحهم تلك الثروات، وكيف يشعرن نحو الأولاد الذين خرجوا معهن، السذج التافهين منهم، والآخرين المفضلين، تلك الدمى الحية. كنت أعلم رأى كل منهن فى الأخرى، وماذا تقول عنها من وراء ظهرها. ولكنهن لم يحزرن شيئًا فيما يتعلق بي؛ كنت مثل قطعة الإسفنج، أستوعب كل الأسرار بداخلى ولكنى لا أخرج شيئًا منها، رغم الإغراء الذى يراودنى بإفشاء كل شيء، كل كراهيتى وغيرتي، أن أكشف نفسى كوحش منافق، كما أعرف أننى كذلك. كنت لا أكاد أطيق نفسي.

كانت الفائدة الوحيدة لهذه الحياة إنى اكتسبت معرفة شاملة بقسم من قرائى فى المستقبل: أولئك اللائى تزوجن مبكرًا، وأنجبن أطفالاً فى وقت مبكر، اللائى كن يحلمن بأمراء وقصور، وانتهى الأمر بهن إلى العيش فى شقق مخنوقة مع أزواج متذمرين. ولكنى لم أكن فى ذلك الوقت أرى مستقبلى هذا.

تركت مونيكا المدرسة بأسرع ما استطاعت، وكذلك فعلت تريزا، لكى تتزوج من رجل يعمل ميكانيكي، رجل أكبر منها لم يكن يذهب إلى مدرستى أو أى مدرسة أخرى. وقيل أنها كانت حامل، ولكن ـــ كما أشارت إحدى صديقاتى ـــ كيف كان يمكن معرفة ذلك مع بدانتها الزائدة؟ أما أنا فقد تمسكت بالدراسة، أردت أن أتخرج لكى أنتهى منها، ولكن لم يكن لدى فكرة ماذا سوف أفعل بعد ذلك. كانت

أمي تأمل في أن ألتحق بكلية ترينيتي بجامعة تورنتو، والتي كانت رفيعة المستوى، وكنت تقريبًا أريد نفس الشيء، كنت أريد أن أدرس علم الآثار، أو ربما التاريخ، ولكنى لم أستطع أن أتحمل التفكير في أربع سنوات أخرى من البؤس الحاد المكتوم، مع نوادي النساء المرعبة، والارتباطات ومباريات كرة القدم، وحفلات زفاف الربيع. بدأت في الالتحاق بوظائف للعمل نصف الوقت، وفتحت حسابًا بنكيًّا. وأخبرت العمة "لو"، ولا أحد سواها، أنه بمجرد أن يكون معى نقود كافية، فسوف أترك المنزل.

قالت: "هل تعتقدين أن ذلك من الحكمة يا عزيزتي؟"

سألت بدوري: "هل تعتقدين أن البقاء في المنزل سيكون من الحكمة؟" كانت تعرف أمي، وكان ينبغي أن تتعاطف معي. ربما كانت تقلق حول ما يمكن أن يحدث لي في العالم الخارجي، وكنت أنا أيضًا قلقة. أردت الرحيل، لكنى كنت أيضًا أخشاه.

كنت أشعر بالذنب تجاه العمة "لو": لم أكن أذهب إلى السينما معها كثيرًا مثلما تعودت. والحقيقة أننى كنت أخشى أن أجد إحدى صديقاتي في نفس العرض السينمائي، بربارا أو كارول (التي كانت على رأس فريق المشجعين)، أو فاليرى، وهى ترتدى سويتر كشمير بصدر مكتنز صغير بارز وأنيق، وإكليل من الزهور الصناعية يزين الشريط المطاطى الذى يربط ذيل الحصان على شعرها، تسحب ولدًا

يرتدى سترة عليه حرف "بى"، وترانى أبكى بجانب عمتى الضخمة الملفوفة فى الفراء.

قالت العمة "لو" بحكمة: "لا تذهبى قبل أن تكونى مستعدة لذلك"، وكالمعتاد، كان يمكن لهذا القول أن يعنى أى شيء.

كانت أنواع الوظائف التى استطعت الحصول عليها لا تتطلب مهارة، وليست ممتعة. فأصحاب الأعمال عادة لا يرغبون فى تشغيل أى شخص بدين جدًّا، ولكن بعضهم كان يشعر بحرج من أن يخذلنى تمامًا، خاصة إذا كانوا قد نشروا إعلانًا. كنت أنظر إليهم باتهام من بين جفونى المنتفخة، وأقول: "ها هو الإعلان، هنا"، وعندئذ يوظفوننى لعدة أسابيع، مختلقين أكذوبة حول أن أحد موظفيهم المنتظمين فى العمل فى أجازة. وهكذا عملت فى محل لبيع السلع الرخيصة لثلاثة أسابيع، وأرشد الرواد إلى مقاعدهم بأحد دور السينما لمدة أسبوعين، وأمينة خزينة فى مطعم لثلاثة أسابيع، وهكذا. بعض المستخدمين كانوا يرحبون بي: كنت امرأة، مرتبى لا يكلف كثيرًا، ولا أتسبب فى إحداث فوضى بين الموظفين الذكور والزبائن مثلما تفعل النساء الأخريات، ولكن كانت هذه الوظائف غالبًا صعبة وغير لطيفة، مثل غسيل الأطباق، ولم أبق طويلاً فى أى منها.

كانت أمى فى حيرة من تلك الوظائف. سألتنى عدة مرات: "ما الذى يجعلك مضطرة إلى العمل؟ نحن نعطيك كل المال الذى

تحتاجينه". كانت ترى أن الوظائف التى كنت أحصل عليها مهينة لها شخصيًا، وكان ذلك أفضل بالنسبة لي. لابد وأنها كانت تذكرها بنفسها فى بداية حياتها.

عندما أصبحت الصراحة فى ذكر العلاقات بين الجنسين نوعًا من الموضة، قرأت كثيرًا من الروايات عن التجارب الجنسية الأولى لآخرين : العادة السرية مع مقابض الأبواب، وحنفيات المياه، ومقابض ماكينات الحلاقة الكهربائية، والتحسس والبحث فى المقاعد الخلفية للسيارات فى دور سينما السيارات، والتزاحم والتسلق وسط الشجيرات، وما إلى ذلك. لم يكن أيًا من هذه التجارب يشبه تجربتي. أنا نفسى كانت لى تجربتين جنسيتين فى وقت مبكر، على الرغم من إنى فى معظم الأوقات كنت أقوم بقمع اهتمامى بالجنس الآخر كلية مثلما قمعت اهتمامى بأفلام الحرب. لم يكن هناك دور متاح بالنسبة لي، لذلك فقد تجاهلت الأمر كله بقدر ما أستطيع. ولم أكن حقًا أشارك صديقاتى فى ولعهن بالمغنين، رغم إنى كنت أتظاهر بذلك. وكان أقصى ما يمكن أن أسمح لنفسى به رغبة مثالية فى الحب العذري، فارس أحلام يرتدى قبعة عالية وصنادل، وعضلات رائعة، وسلك تليفون ملفوف بعناية حول خاصرتيه، من النوع الذى يظهر عادة على غلاف دليل تليفونات تورنتو، والذى اختفى منذ سنوات. ربما اكتشفت شركة التليفونات أنه، بالإضافة إلى سرعته فى توصيل

المكالمات، كان معبود اللصوص وعرضة للاستخدام فى عمليات الاحتيال.

وكانت لدىّ وسائل بديلة لمعرفة أسرار علاقات بربارا وفاليريا، اللتان أتناول معهما الغداء أو أصاحبهما خلال طريق العودة إلى المنزل. ومع ذلك، فقد كانتا تميلان إلى مناقشة مثل هذه الأشياء مع بعضهما أكثر من مناقشتها معي. وكانتا محتشمتين تنأيان بنفسيهما عن الأشياء التى تقلل من قدر البنت، قبلة بعد ثالث لقاء، مزيد من القبلات فقط إذا كانت العلاقة مستمرة، المنطقة أسفل الرقبة محظورة. كانت محظورة قبل مرحلة الأقراص، وكان أمام أعينهن نماذج كئيبة بما يكفى لكبحهن، تحكيها الأمهات لهن والثرثرة حول البنات اللائى اضطررن للزواج، أو حتى أسوأ من ذلك حول من كان لابد لهن من الزواج ولم يستطعن. وكنّ يكتمن الحديث عما كان يحدث لو تخطين ما هو محظور وما هو مفترض ألا يتعدينه.

كانت تجربتى الأولى كما يلي، كنت أسير عائدة إلى البيت مع فاليريا، والتى كانت قد ظهرت كضيفة عدة مرات على صفحات "أزياء قوطية"، مرتدية مرة زيًّا تحتيا يرجع إلى القرن الخامس عشر، ومرة فى ثوب يشبه أزياء الملكات الإغريقيات الذى يكشف جزءًا من الصدر، ولكنها فى ذلك اليوم كانت ترتدى سترة غليظة حمراء معلق عليه دبوس يشبه الكلب كثيف الشعر، و تنورة ذات نسيج مربع منقوش أحمر اللون يتماشى لونها مع لون السترة، وحذاء رخيص،

وفوق كل ذلك معطف أزرق بحاري. وكانت تحدثنى عن تلقيها مكالمة تليفونية مهمة الليلة قبل الماضية، عندما كانت منهمكة فى غسيل شعرها. وقبل المنعطف الذى اعتدت أن أتركها عنده بعدة نواصي، اعترض سبيلها فتى كان قد بذل محاولات سابقة لتخرج معه استمرت لعدة أسابيع، ولم تكن هى تبدى اهتمامًا به ـ كنت أعرف أنها تراه شخصًا بغيضًا ـ ولكن أدب التعامل كان يفرض عليها ألا تعامله بوقاحة صريحة. حيث أن ذلك ربما يجلب لها سمعة أنها متكبرة أو مغرورة. وهكذا كان الشاب يمشى بجانبنا، يتحدث إلى فاليريا متجاهلاً إياى بقدر ما يستطيع.

وجهت فاليريا إلى نظرة ذات مغزى فلم أنعطف إلى الشارع المؤدى إلى منزلي، وسرت معها طوال الطريق حتى منزلها، وأنا أعلم أنها ستتصل بى فيما بعد وتشكرنى لفهمى وتجاوبى معها. ودعتنى عند المدخل المؤدى إلى باب بيتها، ثم استدارت وانطلقت بخطوة إيقاعية وذيل الحصان يتأرجح فى رأسها. وأغلقت الباب الخلفى وراءها. وقفت على الرصيف، قدماى منتفختان فوق جوانب صندلى الرخيص، وكعباى يؤلماننى، لقد ابتعدت عن طريقى بثلاث كتل سكنية، وعلى الآن أن أقطعها مرة أخرى. لقد حان الوقت أن أعود إلى المنزل وأعد لنفسى سندوتش الجبن المكون من ثلاث طبقات والمزود بزبد الفستق، وأستعد لعملى كمرشدة فى سينما النجوم، حيث كانت ناتالى وود تلعب دورًا فى "روعة الحب". أما

الفتى، الذى حتى أنا كنت أراه غير مقبول، فكان من المفترض أن يلقى التحية الآن ويبتعد عنى بأسرع ما يمكن، ولكنه بدلاً من ذلك فعل شيئًا غريبًا، فقد جثا على ركبتيه أمامي، وسط بركة وحل متجمعة على الطريق ـ كنا فى شهر إبريل وكان الجو ممطرًا ـ ثم دفن وجهه فى بطنى الضخم.

ماذا فعلت؟ كنت مذهولة، وأشعر بالتعاطف فى نفس الوقت، ربت على شعره، وظلت رائحة كريم الشعر فى يدى لعدة أيام.

بعد دقائق قليلة نهض، وبنطلونه المبلل يقطر عند منطقة الركبة، ثم سار مبتعدًا. كانت تلك تجربتى الأولى التى لامست فيها فتى. عدت إلى المنزل وتناولت السندوتش.

أما لماذا هذا الفتى على وجه الخصوص، والذى لا أستطيع أبدًا تذكر اسمه، رغم أننى أتذكر تعبيرات وجهه التى تنم عن التوتر والعذاب، لماذا قام بهذا الفعل الغريب، ولو أنه بدا نوعًا من أداء الطقوس، على رصيف الشارع الموحل فى ضاحية برايسايد أمام منزل عادى من القرميد الأحمر بكرانيش بيضاء وشجرتى أرز مقلمتين، واحدة على كل جانب من جانبى الباب الأمامي، ليس لدى تفسير لهذا اللغز. ربما كان تعبيرًا عن حزنه لحب فاشل، وكان يبحث عن المواساة. ثم مرة أخرى، ربما كان فعلاً تلقائيًّا ينبع من تقديس البطن، أو ربما بناء على أسلوب إلقاء ذراعيه حولى وكتاب الكيمياء

المدرسى الخاص به ملقى منسيًا على العشب، وتوتر أصابعه، ربما أحس بى كصدر أم ضخم، ولكن هذا التخمين جاء فيما بعد وأنا أتأمل المسألة. أما فى ذلك الوقت، فقد صدمت بأول لمسة من فتى، حتى أننى نسيت كل ما يتعلق بالحادث بأسرع ما يمكن. فلم يكن حادثًا سارًّا، حتى أننى لم أستخدمه للسخرية منه، كما كان من الممكن أن أفعل لو كنت أقل بدانة. أما هو، فقد تجنبنى بعد ذلك، ولم يبذل محاولات أخرى مع فاليريا للخروج معه.

حدثت تجربتى الثانية أثناء عملي لنصف الوقت بوظيفة أمينة صندوق بأحد المطاعم، كان مطعمًا صغيرًا ومتوسط الحال، ويدعى "اقضم قضمة"، وكان يقوم بتقديم وجبات السجق والهامبورجر واللبن المخفوق والقهوة، وقطع الفطائر؛ وإذا كنت ترغب فى عشاء كامل، كان يقدم مقليات من الدجاج والجمبرى، وستيك خفيف، وقطع من لحم الخنزير أو لحم البقر المشوي. كنت أعمل من الرابعة والنصف حتى التاسعة والنصف حيث يغلق المطعم أبوابه، وكان جزء من راتبى أن أتناول وجبة مجانية، من الأطعمة الرخيصة. وكنت أجلس على مقعد مرتفع خلف ماكينة تسجيل وعد النقود، وأتلقى النقود. وكنت أيضًا أعتنى بالزبون الذى يجلس على المنضدة المجاورة لمقعدي، ولهذا الغرض كان لدى تليفون داخلى موصل بمنطقة الطهي، أستطيع من خلاله أن أبلغ الطلب.

كانت منطقة الطهى فى الخلفية، ولها فتحة لعبور الطعام، مزينة بورق حائط عليه رسم قرميد، ومجموعة من الأوعية النحاسية التى لم تستخدم أبدًا. وكان هناك طباخان، أحدهما كسول كثير الامتعاض، والآخر أجنبى نشط وذو عينين لامعتين، إيطالى أو يوناني، لم أكن متأكدة. كان ذلك هو الحال دائمًا، فى خبرتى مع الوظائف. فالكنديون الذين يعملون فى وظائف كهذه لم يكن من المتوقع أن يحققوا أى ترقية، رغم ما يتميزون به من معرفة اللغة والمنطقة، فكان هذا أفضل ما يمكن أن يفعلوه. أما الأجانب فكانوا يتقدمون، كانوا يدخرون المال ويتعلمون، لم يكونوا ينوون البقاء فى مستوى الخادم. فالطباخ الأجنبى يستغرق نصف الوقت لإنجاز العمل الذى يقوم به الآخر، بالإضافة إلى سلوكه الأكثر تهذيبًا بكثير، فهو يبتسم وهو يسلم المضيفات أطباق الطعام، ويدور داخل مطبخه الضيق الحار مثل سنجاب يخبز، مطنطنًا بمقاطع من أغنية غريبة، ويمكنك أن ترى أن الطباخ الآخر يود لو يقتله.

بدأت علاقتى معه عندما بدأ يرد على التليفون فى كل مرة أتصل للإبلاغ عن طلب. وكان أثناء ذلك يرانى بوضوح من خلال الفتحة.

كان يغنى بصوت عذب: "آلوووو...".

وأقول مثلاً: " سندوتش من لحم مقلى بالجبن بجانب مقليات فرنسية".

"من أجلك أصنعها مخصوصة جدًّا".

اعتقدت أنه كان يمازحنى وتجاهلت الأمر، ولكن ذات يوم سأل من خلال الهاتف: "ألا تتناولين فنجانًا من القهوة معي؟ بعد العمل؟"

كانت المفاجأة أشد من أن أقول لا، حيث لم يسبق أن وجهت لى دعوة على فنجان من القهوة من قبل.

ساعدنى على ارتداء معطفي، وفتح لى الباب، مندفعًا حولى مثل زورق سحب يلف حول الملكة إليزابيث؛ كان أقصر منى بنحو خمس بوصات، وأقل فى الوزن بنحو ثمانين رطلاً. وما أن جلسنا يواجه كل منا الآخر فى أحد المقاهى القريبة، حتى دخل مباشرة فى الموضوع.

"أطلب منك أن تتزوجيني؟"

قلت: "ماذا؟"

استند على المنضدة، محدقًّا فيّ بعينيه السوداويتين اللامعتين، قائلاً: "أننى جاد، أرغب فى مقابلة والدك، وسوف أطلعك على حسابى البنكي".

ثم دفع نحوى دفترًا بنكيًّا أزرقا صغيرًا، مما أصابنى بالذعر.

قلت متلعثمة: "والدي؟ حسابك البنكي؟"

قال: "اسمعي، إن لدى طموحًا حقيقيًّا. أود أن أفتح مطعمًا لنفسي الآن فورًا، ادخرت ما يكفى لذلك. أنت فتاة جادة. لقد راقبتك، لا أعرف كيف أعبر، سوف تعملين على آلة النقود، وترحبين بالزبائن، وسوف أقوم بطبخ أصناف أطعمة أفضل كثيرًا من تلك". وأشار نحو الشارع الذى يقع فيه مطعم "اقضم قضمة". ثم أكمل كلامه،"سوف أقدم النبيذ، من يستطيع تناول الطعام بدون نبيذ إلا لو كان خنزيرا ؟ "

قلت: " ولكن.... ". للحظة فقط لم أستطع أن أفكر فى أى سبب للرفض. ثم تخيلت التعبير الذى سيرتسم على وجه أمى عندما أظهر فى بداية ممشى الكنيسة فى الرداء الحريرى الأبيض مع هذا الرجل الأجنبى صغير الحجم معلقًا فى ذراعى مثل حقيبة اليد.

قال: "سوف أمنحك أطفالاً... أطفالاً كثيرين، أرى أنك تحبين الأطفال. إنك فتاة طيبة، بعد ذلك، وعندما نحصل على ما يكفى من المال، سوف نذهب لزيارة بلدي، سوف تحبينها".

قلت: "ولكنك على غير ديانتي..".

لوّح بيده قائلاً: "سوف تغيرين دينك.."

عندما زرت تيريموتو لأول مرة، وضحت لى الصورة التى رآنى عليها: كنت أشبه الزوجة بالفعل، كنت على الشكل الذى

تستغرق معظم النساء سنوات عديدة ليصبحن عليه. كل ما فى الأمر أننى بدأت مبكرًا قليلاً. ولكن فى نفس الوقت لم أستطع التغلب على الشكوك التى راودتنى فى أنه كان يسخر منى، إما هذا، أو أنه كان ببساطة عرضًا تجاريًّا. ومع ذلك، فما أسهل الأمر، على الرغم من حجمه، فإنه كان واضحًا أنه اعتاد على صنع القرار، وأنا نفسى لن أكون بعد ذلك ملزمة باتخاذ أى قرار! على أية حال، لم أكن أرغب فى أن أعمل على آلة النقود لفترة أطول من حياتي، لم أكن ماهرة فى الحساب.

قلت: "أشكرك كثيرًا جدًّا، ولكنى أخشى أن يكون ذلك من المستحيل".

لم يفل ذلك من عزمه، فطوال الأسابيع القليلة التالية تعامل معى وكأنه يدرك أن الرفض كان مسألة شكلية، فمن اللائق والأدعى للاحتشام أن ترفض الفتاة، وكل ما أنا بحاجة إليه الآن هو بعض التشجيع، وبعد وقت مناسب سوف أستسلم. كان يغازلنى من خلال الفتحة عندما أذهب لأخذ الطلبات، يشير بعينيه ويهز لى شاربه البنى الصغير، وكان يطلبنى على الخط الداخلى فأنظر إليه ليتنهد ويناشد، ويراقبنى طوال فترة العمل من مكانه أمام الشواية، وعندما يحين الوقت لأخذ راحتى وتناول العشاء، كان يطهو لى أصنافًا غالية الثمن، أشياء ممنوع تقديمها لى أصلاً فى المطعم، ويملأ طبقى بالجمبري، الذى كان يعرف أنى أحبه، ويضع فوقه حزمة صغيرة

من البقدونس. بدأت أفقد شهيتى تدريجيًّا، والتى كانت هائلة فى المعتاد، بسبب اتصالى المستمر بطعام الآخرين لساعات من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنى فى كل وجبة كنت أشعر أننى آخذ رشوة.

أخذ الموضوع برمته طابع الطقوس، نوعًا من الأداء الضرورى المرور به قبل أن أستسلم لما يريد، إلا أنه ككل الطقوس التى يؤمن الناس بها، كان يتسم بالصدق والتأثير الشديد. لقد أعجبت به، ولكنه كان يزعجني. كنت أعرف أننى لا أستحق مثل هذا الاهتمام، إلى جانب أنه كان هناك شيء عبثى يتعلق بكل ذلك. كان الأمر كما لو كان شارلى شابلن يلاحقني. وقد ارتحت عندما عاد أمين الصندوق الدائم واستطعت أن أترك العمل.

كنت لفترة استغرق فى أحلام اليقظة حول هذا الرجل فى المدرسة (لم أعرف اسمه الحقيقى أبدًا؛ ففى تصميمه على أن يصبح كنديًّا، كان يصر على أن اسمه جون). كنت أراه غالبًا كمجرد منظر طبيعي، منطقة من سماوات زرقاء ومناخ معتدل منعش، وشواطئ رملية بيضاء، وبقايا مبان أثرية كلاسيكية فخمة ذات أعمدة على منحدر صخرى شاهق؛ مكان يمثل تباينًا واضحًا مع تورنتو القاسية ورياحها الشتوية المحملة بالرمال ووحلها المالح الذى يفسد أحذيتك، ولياليها الصيفية المحملة برطوبة قاسية؛ وكان يمكن أن أستريح فى مكان يناسبنى أخيرًا، حيث أكون فى الشكل الصحيح المطلوب. أحيانًا كنت أفكر أننى لو تزوجته لكان ذلك لطيفًا، ولكان مثل اقتناء حيوان

مدلل، لأنه بعينيه السوداويتين وشاربه الناعم سوف يكون مثل حيوان أليف، سنجاب أو ثعلب الماء، ينطلق بسرعة فوق جسدى الضخم بالنسبة له، كشبه جزيرة. ولكن تلك الصور تلاشت من ذهنى تدريجيًا، وبينما كنت أتخلص من طنين مدرس التاريخ وحديثه الممل عن المصادر الطبيعية وأشياء أخرى لا تهمني، عدت إلى حلم يقظة قديم.

وفى هذا الحلم كنت أجلس فى خيمة سيرك. كانت مظلمة. وكان شيء ما على وشك الحدوث. كان الجمهور متوترًا يتوقع ما سيحدث، وأنا آكل الفشار. وفجأة قطع شعاع ضوئى الظلام، وتركز على منصة فى أعلى الخيمة، فوقها وقفت امرأة بدينة من استعراض الغرائب والعجائب بالمعرض القومى الكندي. كانت أكثر بدانة مما تخيلتها من قبل، أكثر بدانة من الصورة غير المتقنة المرسومة لها على لوحة الإعلانات الخاصة بالخيمة، أكثر بدانة منى بكثير. كانت ترتدى رداء محكمًا وردى اللون ومرصعًا بالترتر، وتنورة قصيرة واسعة وردية اللون، ونعل باليه حريري، وعلى رأسها تاج متلألئ. وكانت تحمل مظلة وردية صغيرة جدًا؛ كانت بديلاً للأجنحة التى كنت أتوق لإلصاقها بها. حتى في خيالاتى بقيت حريصة على قليل من القواعد الواقعية.

انفجر الجمهور فى الضحك، صرخوا وأشاروا وأعربوا عن سخريتهم، ثم رددوا أغانى مهينة. ولكن السيدة البدينة، غير مكترثة،

بدأت تمشى بحرص على السلك المرتفع، بينما بدأت الفرقة تعزف موسيقى هادئة، لحنًا جليلاً. عندئذ سكن الجمهور، وتصاعدت همهمة تعبر عن الفزع. كان واضحًا أن هذا العمل يشكل خطرًا بالنسبة لها، كانت بدينة بصورة هائلة، كيف تستطيع أن تحتفظ بتوازنها، سوف تترنح وتقع، "سوف تقتل"، همسوا بتلك العبارات، حيث لم تكن هناك شبكة للأمان.

تدريجيًّا، بوصة بوصة، تقدمت السيدة البدينة عبر السلك المشدود، متوقفة بين الحين والآخر للتأكد من احتفاظها بتوازنها، وارتفعت مظلتها الوردية فوق رأسها بتحدٍّ. خطوة خطوة، تابعتها وهى تعبر العوائق المتناثرة التى تحف بها مغامرات "الشاطئ الغربي"، فوق أراضى الحنطة فى المروج، تشير عاليًا فوق مناجم ومداخن أونتاريو، تظهر وسط السحب مثل طيف وردى أمام أعين المزارعين الفقراء بوادى سانت لورنس، وصيادى سمك الماكريل فى منطقة الساحل.. "يا إلهي، ما هذا؟"، غمغموا وهم يتوقفون بشباكهم التى تمتلئ دائمًا بالأسماك. ترنحت عدة مرات، وكتم الجمهور أنفاسه، تأرجح الحبل، ركزت كل قواها على هذا العبور المحفوف بالمخاطر، فالسقوط كان يعنى الموت. ثم.. قبل أن يقرع الجرس وتنتهى المدة ــ وكانت تلك هى الخدعة ــ كانت ستخطو إلى الأمان على الجانب الآخر، ويقف جمهور المتفرجين على أقدامهم، زئير

الأصوات تعبيرًا عن الإعجاب والتقدير. يظهر ونش عملاق، وينزل بها إلى الأرض.

ربما تظن إني أضفيت على هذه السيدة البدينة وجهي، ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. بدلاً من ذلك كان لها وجه تريزا، رفيقتى فى المعاناة التى عانت من احتقار الزملاء، وفى المدرسة تجنبتها، ولكنى لم أكن وحشًا متحجر القلب تمامًا، كنت أتمنى عمل إصلاح، وكانت نواياى طيبة.

أعرف كيف يمكن أن يحلل آرثر هذه الخيالات، سوف يقول: يا للعار، كم كانت مواقف المجتمع تحطم معنوياتي، إذ يجبرنى على أن أوضع فى قالب أنوثة لا تلائمنى على الإطلاق، ويحشو بى تلك الملابس الوردية السخيفة المزينة بالترتر، وحذاء الباليه العتيق الضيق. ألم يكن من الأفضل قبولى كما أنا وتعليمى أن أكون راضية عن نفسى أيضًا؟ واقعى جدًّا، صحيح جدًّا، صالح جدًّا. ولكن ليس الأمر بهذه البساطة أيضًا. فقد كنت أريد تلك الأشياء، تلك التنورة الهفهافة، وذلك التاج المرصع، أحببت تلك الأشياء.

أما بالنسبة للسيدة البدينة، فقد كنت أعلم جيدًا أنه بعد العمل البطولى الذى قامت به متحدية الموت، كان عليها أن تعود إلى عرض الغرائب مرة أخرى، تجلس فى مقعدها الضخم، تحيك، بينما

يفتح من اشتروا التذاكر أفواههم وهم يمرون بها. تلك كانت حياتها الواقعية.

الفصل العاشر

عندما كنت فى عامى الدراسى الثالث بمدرسة برايسايد الثانوية، دعتنى العمة "لو" إلى العشاء فى أحد أيام الآحاد. كنت مندهشة، حيث كنت أعلم أن ليالى الأحد محجوزة لروبرت، المحاسب بالشركة التى تعمل بها. ولكنها عندما قالت: "ارتدى شيئًا جميلاً يا عزيزتي"، أدركت أنها سوف تجعلنى أقابله. لم يكن لدى شيء جميل أرتديه، ولكنى مثل العمة "لو" كنت لا أعترف بذلك، ارتديت التنورة الجوخ المرسوم عليها تليفون.

كنت مُعدة لأن أشعر بالغيرة من روبرت. تصورته رجلاً طويلاً، مسيطرًا، وشريرًا إلى حد ما، يستغل المشاعر الطيبة التى تتحلى بها العمة "لو". ولكن على النقيض من ذلك، كان صغير الحجم، ومتأنقًا، أكثر رجل رأيته فى حياتى اهتمامًا بهندامه. حتى أن العمة "لو" نظفت الشقة عن آخرها من أجله، تقريبًا، ومع ذلك استطعت أن ألمح طرف أحد جواربها النايلون يطل من تحت أفضل مقعد، وهو المقعد الذى كان يجلس عليه، ويرتشف المارتيني.

كانت العمة "لو" مزينة من رأسها إلى أخمص قدميها. تتدلى منها أشياء، والأساور تجلجل فى رسغيها، ويفوح منها عطر "البحر الجنوبي"، وبينما كانت تتحرك بسرعة ونشاط لإضافة اللمسات

النهائية للمأدبة التى أعدتها، بدت دافئة ومتفائلة. كان روبرت يراقبها وكأنها شمس رائعة وقت الغروب، وتمنيت لو ينظر إلى أى رجل مثل تلك النظرة.

قال: "لست أعرف ماذا ترى عمتك فى عود يابس عجوز مثلي"، متظاهرًا بأنه يوجه الحديث لي، وهو فى الحقيقة للعمة "لو".

جأرت العمة "لو": "لا تجعليه يخدعك، فتحت هذا المظهر الناعم شخص شرير".

بعد أن انتهينا من حلوى الشيكولاتة، قالت العمة "لو": "جوان يا عزيزتي، نتمنى لو تذهبين معنا إلى الكنيسة".

كانت هذه مفاجأة أيضًا. كانت أمى تذهب إلى الكنيسة لأسباب اجتماعية، وأجبرتنى لسنوات عديدة على حضور موعظة يوم الأحد، بقفازات بيضاء وقبعات دائرية من اللباد الأزرق البحرى المثبتة برباط مطاطى وشارة مارى جينز الجلد اللامعة، وكانت العمة "لو" تتعاطف معى عندما أقول أن هذه الموعظة مثيرة للضجر، وهى نفسها كانت تصطحبنى من حين إلى آخر إلى كنيسة إنجليكانية صغيرة فى أعياد الفصح لإنشاد التراتيل كما كانت تقول، وكان ذلك أقصى ما ذهبت إليه. ولكنها الآن وضعت إحدى قبعاتها العجيبة على رأسها، ووضعت مساحيق على أنفها، وتناولت قفازها الأبيض فى يدها.

وقالت لي: "إنها ليست بالضبط كنيسة، ولكن روبرت يذهب كل أحد".

ذهبنا فى سيارة روبرت، وأوقفها فى شارع صغير شمال شارع الملكة. كانت البيوت شبه المنفصلة فى المنطقة قديمة، من طابقين، ومغطاة بالقرميد الأحمر، وذات شرفات أمامية. وبدت المنطقة مزرية ومنحطة، فالجليد القذر يحيط بالعشب. كان هناك منزل يختلف عن المنازل الأخرى، لأن نوافذه مغطاة بستائر حمراء زاهية، وبدت هذه الستائر مضيئة بسبب الإنارة خلفها. وكان هذا هو المنزل الذى دخلناه.

فى الصالة الأمامية كانت هناك منضدة عليها صينية نحاسية كبيرة، وكومة من القصاصات الورقية وعدة أقلام رصاص، وتحتها، أحذية مطاطية من تلك التى تلبس فوق الحذاء العادي، وبعضها موضوع على جرائد منتشرة لتجفيفها. وكتب كل من العمة "لو" وروبرت رقمًا على إحدى القصاصات الورقية، ثم وضعا الورقة مطوية فى الصينية. قالت العمة "لو": "وأنت كذلك يا عزيزتي، اكتبى رقمًا، ربما تأتيك رسالة"

قلت: "رسالة؟ ممن؟"

أجابت: "حسنًا، لن تعرفى أبدًا، ولكنك يجب أن تحاولى أنت أيضًا".

فكرت أن أنتظر وأرى ماذا سوف يحدث. وعندما عبرنا من خلال زوج من الستائر القطيفة البنفسجية، أصبحنا داخل "المصلي"، كما تعلمت فيما بعد أن أسميه. كان يومًا ما غرفة معيشة المنزل، ولكنه الآن يحتوى على خمسة أو ستة صفوف من الكراسى القابلة للطي، وملحق بكل منها عارضة للكتابة موضوع عليها كتاب تلاوة الترانيم، وفى الحجرة التى كانت فيما مضى مخصصة للطعام كان هناك مستوى أرضى أعلى بمثابة درجة واحدة عليها منبر مكسو بالقطيفة الحمراء، وأورج كهربائى صغير. كان ثلث عدد الكراسى فقط مشغولاً، وامتلأت الغرفة أكثر قليلا قبل أن تبدأ الصلاة بوقت قليل، ولكن فى زياراتى اللاحقة لم أر أبدًا تلك الغرفة مليئة عن آخرها. كان معظم الحاضرين من أعضاء الأبرشية الأصليين من كبار السن، وكان العديد منهم مصابًا بسعال مزمن. وكانت العمة "لو" وروبرت من أصغر الأعضاء سنًا.

جلسنا فى مقاعدنا بالصف الأول، كانت العمة "لو" ملابسها "منفوشة" مثل الدجاجة، وروبرت يجلس منتصبًا بأناقة. ولم يحدث شيء لفترة، وجاءت من خلفنا أصوات حمحمة ووقع أقدام غير منتظمة. فتحت كتاب التراتيل، الذى كان رفيعًا جدًا، ليس مثل الكتاب الإنجليكانى على الإطلاق. كان يسمى كتاب التراتيل الروحانية، وهناك خاتم مطاطى تحت العنوان، خاص بالكنيسة الأردنية نسبة لنهر الأردن. قرأت اثنتين من التراتيل بصورة عشوائية. كانت

الأولى تتحدث عن رحلة مرحة لسفينة تعبر نهر الأردن إلى الضفة الأخرى، حيث كان الأحباء فى الانتظار. وكانت الأخرى عن الأرواح المباركة لمن عبروا من قبل، والتى تسهر من فوقنا لحمايتنا حتى نصل إلى الضفة الأخرى. أشعرتنى هذه الفكرة بعدم الارتياح. فقد قيل لى فى موعظة الأحد أن الله يراقبك كل دقيقة فى كل ساعة. ولكن الآن على أن أفكر فى كل هؤلاء الذين لا أعرفهم وهم يتجسسون علي. سألت العمة "لو" بصوت هامس: "ما نوع هذه الكنيسة؟"

قالت العمة "لو" بهدوء: " صه، يا عزيزتي، إنهم يبدءون". وبالفعل، خفتت الأضواء، وعبرت المنصة امرأة قصيرة ترتدى رداء بنيًّا من الحرير الصناعي، تتزين بأقراط ذهبية تشبه الأزرار ودبوس ينسجم معها، وبدأت فى العزف على الأورج الكهربائي. وارتفعت حولى أصوات كورس مرتعشة، دقيقة وحادة كصوت الجدجد.

فى وسط التراتيل، دخل شخصان من الباب المؤدى إلى المطبخ، ووقفا خلف المنبر. أحدهما، كما عرفت فيما بعد، كانت الكاهنة ليدا سبروت، الزعيمة. كانت امرأة عجوز مهيبة زرقاء العينين، زرقاء الشعر، ولها أنف روماني، ترتدى رداءً حريريًّا طويلاً أبيض اللون، بياقة أرجوانية مشغولة، مثل علامة الكتاب، حول رقبتها. وكان الآخر رجلاً نحيفًا أبيض الشعر، والذى قيل أنه

"مستر ستيوارت، وسيطنا الزائر"، وتعجبت فيما بعد عن معنى وصفه بالزائر، حيث كان هناك دائمًا.

عندما وصلت التراتيل إلى نهايتها، رفعت ليدا سبروت يديها فوق رأسها، وقالت فى صوت عميق رنان: "دعونا نستغرق فى التأمل". وأطبق الصمت على القاعة، لا يقطعه إلا صوت وقع أقدام غامضة، خرجت من خلال الستائر الأرجوانية ثم إلى أعلى الدرج ببطء شديد. بدأت ليدا سبروت صلاة قصيرة، طالبة المساعدة من محبينا الذين فازوا "بالضوء الأعظم" من أجل الذين لا يزالون يهيمون فى الضباب على هذا الجانب. وسمعنا عن بعد صوت تدفق التواليت، وخطوات الأقدام تعود مرة أخرى.

قالت الكاهنة ليدا وهى تخطو جانبًا: "سوف نتلقى الآن رسالة ملهمة من وسيطنا الزائر، مستر ستيوارت".

مع نهاية تجربتى مع الروحانيين[1] كنت قد حفظت على وجه الخصوص رسالة مستر ستيوارت، حيث أنها كانت تتكرر بنفس

---

(١) الروحانية spiritualism: مذهب دينى ظهر فى أمريكا الشمالية ووصل إلى قمة انتشاره ما بين ١٨٤٠ إلى ١٩٢٠، وكان أتباعه يؤمنون بأن أرواح الموتى يمكن الاتصال بها عن طريق وسطاء، وأن هذه الأرواح يمكن أن تهدى البشر إلى الطريق القويم فى الحياة، وبأن الحياة الأخرى يمكن أن تحمل سعادة للجميع، وليس لمن تم تعميدهم كمسيحيين فقط (كما ترى بعض المذاهب المسيحية). وقد استمدت هذه الحركة بعض التأثيرات من أديان أخرى، مثل ديانات الهنود الحمر (الأمريكيين الأوائل)، والهندوسية وبعض الحركات الصوفية فى الإسلام. ولا يزال هناك بقايا لهذا المذهب يتم ممارستها فى دوائر صغيرة غير منظمة أو منتمية إلى كنيسة من الكنائس الكبرى.

الطريقة كل أسبوع. كانت الرسالة تتلخص فى ألا نكون مكتئبين، وأن هناك أملاً دائما، وأنه عندما تبدو الأشياء غاية فى الظلمة، فإن ذلك يعنى أن الفجر قد اقترب. وقد اقتبس أبيات شعرية قليلة من قصيدة " لا تقل أنّه ليس هناك جدوى من الكفاح "، لكاتبها آرثر هوغ كلو:

وليس بسبب الرياح الشرقية وحدها،

عندما يأتينا نور النهار، تدخل الشمس بيوتنا؛

وإلى الأمام، تتسلق الشمس ببطء، يا له من بطء

ولكن فى جهة الغرب، انظر، إنّ الأرض تصبح أكثر إشراقا

ويقول بيت آخر من نفس القصيدة "إذا كانت الآمال خادعة، فقد تكون المخاوف كاذبة". ربما تكون المخاوف كاذبة حقًّا يا أصدقائي، مما يذكرنى بقصة قصيرة سمعتها منذ عدة أيام، ويمكن أن تكون مفيدة لنا جميعًا عندما نشعر بانقباض، عندما نشعر أنه لا شيء يهم، وأنه لا فائدة من الكفاح. كانت هناك ذات مرة يرقتان، تسيران جنبًا إلى جنب فى طريق، قالت اليرقة المتشائمة إنها سمعت أن اليرقات سرعان ما ستضطر للدخول إلى مكان مظلم ضيق، وأنها ستتوقف عن الحركة وتصبح صامتة، وقالت: "سيكون فى ذلك نهايتنا". لكن المتفائلة قالت: "ذلك المكان المظلم ليس إلا شرنقة، وسوف نستريح فيها لفترة من الوقت، وبعد ذلك سوف نظهر بجناحين جميلين، سوف نصبح فراشات ونطير عاليًا نحو الشمس". والآن يا

أصدقائي، ذلك الطريق هو طريق الحياة، والأمر يعود إلى كل منا أيهما سوف نكون، الدودة المتشائمة المليئة بالكآبة، لا ترى إلا الموت، أو الدودة المتفائلة، التى كانت مليئة بالثقة والأمل، وتتطلع لحياة أرقى".

لم يبد أبدًا أن المجموعة يقلقها أن تكون الرسالة متكررة دائمًا دون تغيير. فى الحقيقة، ربما شعروا بالخديعة لو أنّ السيد ستيوارت قدّم رسالة أخرى مختلفة.

بعد الرسالة، انشغل الحاضرون بالمرأة ذات الرداء الحريرى الصناعى ذى اللون البنّي، وبعد ذلك بدأ العمل الجاد، الذى جاء من أجله الحاضرون جميعًا فى الواقع وهو: رسائلهم الشخصية الخاصة. أحضرت المرأة ذات الرداء الحريرى الصينية النحاسية، وأخذت ليدا سبروث القصاصات الورقية الواحدة تلو الأخرى، كانت تمسك كل قصاصة مطوية فى يدها، وتغمض عينيها، وتعطى الرسالة، ثم كانت تفتح الورقة وتقرأ الرقم. كانت الرسائل بصورة عامة تتعلق بالصحة: "هناك سيدة عجوز ذات شعر أبيض والضوء يشع من حول رأسها، وهى تقول: كن حذرًا وأنت تنزل على الدرج، وهى ترسل إليك الحب والتمنيات الطيبة"، "هناك رجل يرتدى تنورة اسكتلندية، ولديه مجموعة من المزامير، لابد أنه اسكتلندي، أحمر الشعر. إنه يرسل إليك الكثير من الحب، وهو يقول: 'قللى من تناول الحلوى، إنها ليست جيدة بالنسبة لك. إنه يقول لك... لا أستطيع أن أتبين الكلمة

جيدًا.. إنها جديلة، من نوع ما، 'كونى حذرة من الجدائل'، ذلك ما يقوله".

بعد أن انتهت القصاصات الورقية، جاء دور السيد ستيوارت ليلقى رسائل حرة مشيرًا إلى أعضاء التجمع وهو يصف الأرواح التى كانت تقف خلف مقاعد الحاضرين. واكتشفت أن ذلك أكثر إزعاجًا من الأرقام: كانت رسائل ليدا سبروت تبدو وكأنها تأتى من داخل رأسها، ولكن السيد ستيوارت ألقى رسائله وعيناه مفتوحتان، كان يستطيع بالفعل أن يرى الأموات فى الغرفة. تدليت فى مقعدي، راجية ألا يشير إلي.

بعد هذا كان هناك المزيد من التراتيل، ثم ذكرتنا ليدا سبروت بجلسة الأيدى الشافية المقرر عقدها يوم الثلاثاء، والكتابة الأتوماتيكية يوم الأربعاء، والجلسات الخاصة يوم الخميس، وعند ذلك انتهى كل شيء. كان هناك بعض الصخب والزحام فى الصالة، حيث جاهد العديد من المسنين لخلع أحذيتهم الواقية. وعند الباب شكرها الناس بحرارة، كانت تعرف معظمهم، وكانت تسأل: "سيدة هيرتس، هل حصلت على ما تريدين؟"، "كيف كان الحال يا سيدة دين؟"

كانوا يقولون: "سوف ألقى ذلك الدواء على الفور"، أو "أوه، كان ذلك عمى هربرت، فهذا بالضبط هو شكل المعطف الذى اعتاد أن يرتديه".

قالت العمة "لو" فى السيارة: "حسنًا، يا روبرت، إنى آسفة أنها لم تأت الليلة".

كان من الواضح أن روبرت محبط. قال: "ربما كانت مشغولة. لا أعرف من كانت تلك السيدة الأخرى، السيدة التى كانت ترتدى ثوب المساء".

قالت العمة "لو": "سيدة كبيرة، نعم، لقد بدت مثلي".

وسألت روبرت الصعود لتناول مشروب، ولكنه قال إنه خائر القوى، وسيعود على الأرجح إلى المنزل، وصعدت أنا بدلاً منه وتناولت كوبًا من الكاكاو الساخن، وبعض الكعكات، وسندوتش جمبري، وتناولت العمة "لو" كأسًا مزدوجًا من الويسكى الاسكتلندي.

قالت العمة "لو": "إنها أمه، هذا ثالث أسبوع على التوالى لا تحضر فيه، كانت دائمًا طائشة قليلا، ولم تكن زوجة روبرت تحتملها، وهى ترفض أن تذهب معه إلى الكنيسة رفضًا تامًا. قالت له: ما دمت تذهب إلى هناك لتتحدث مع تلك العجوز المرعبة فلا أحب أن أكون هناك، أعتقد أن ذلك نوعًا من القسوة، ألا تعتقدين ذلك؟"

أجبت: "عمتى "لو"، هل تعتقدين فى كل تلك الأشياء؟"

قالت: "حسنًا، لا يمكن أن تعرفى الحقيقة أبدًا، أليس كذلك؟ لقد رأيتهم يقدمون كثيرا من الرسائل الدقيقة، بعض تلك الرسائل لا تعنى شيئًا ذا بال، ولكن البعض الآخر يفيد كثيرا ".

قلت: "ولكن من الممكن أن يكون كل ذلك مجرد قراءة أفكار".

قالت العمة "لو": "لا أعرف كيف يحدث هذا، ولكنهم جميعًا يجدون الأمر مريحًا جدًّا، أعلم أن روبرت يشعر بذلك، وهو يحب أن أبدى اهتمامًا. أشعر أنك ينبغى أن تكونى متفتحة العقل".

أجبت: "إنها تصيبنى بالعصبية الشديدة".

قالت العمة "لو" بتفكير: "تأتينى باستمرار رسائل من ذلك الرجل الاسكتلندي، ذى الشعر الأحمر والمزامير، وأعجب ماذا كان يعنى فيما يتعلق بالجدائل. ربما كان يعنى شيئًا آخر، الكلاب مثلاً، ربما يعضنى كلب".

قلت: "من هو؟"

قالت: "ليس لدى أدنى فكرة، لا أعرف على الإطلاق أحدًا يعزف على المزمار. من المؤكد أنه ليس من الأقارب".

قلت بارتياح: "أوه، .. هل قلت لهم ذلك؟"

ردت: "لا يمكن أن أقول ذلك، فلا أريد أن أجرح مشاعرهم".

واعتدت الذهاب بانتظام إلى الكنيسة الأردنية فى ليالى الآحاد. كانت طريقة لرؤية العمة "لو" ، وأصبحت أفضلها حاليًّا على السينما، إذ كنت متأكدة تمامًا من أنه لن يرانى أحد من مدرسة بريسايد الثانوية أبدًا. وقضيت أيضا فترة معينة من الوقت ينتابنى القلق من مذهب الروحانيين: فإذا كان "الجانب الآخر" بهذه الروعة والجمال، فلماذا إذن كرست الأرواح معظم رسائلها للتحذير؟ بدلاً من إخبار أحبائها بتجنب درجات السلم الزلقة والسيارات غير الآمنة، والطعام النشوى، كان يجب أن تغريهم بعبور المنحدرات والجسور والبحيرات، وتحثهم على خوض أعمال بطولية أعظم شأنا ضد الإدمان والشراهة، لكى تعجل بمرورهم إلى الضفة الأكثر إشراقًا. كان بعض الروحانيين يؤمنون أيضًا بالتناسخ المتكرر، واعتقد البعض فى أتلانتا. كما كان بعضهم مسيحيين عاديين. لم تكن ليدا سبروت تهتم بما تؤمن به طالما تؤمن أيضًا بقدراتها.

كنت أرغب فى مراقبة الأمر برمته، بنفس درجة إرجائى عدم تصديقى وتكذيب ما كنت أراه فى الأفلام السينمائية، ولكنى وضعت حدا فاصلا لوضع رقم على الصينية. لم أكن أعرف أى موتى، ولم تكن لدى رغبة لمعرفة أى منهم. لكن فى إحدى الليالى وصلتنى رسالة، والتى كانت أكثر غرابة من أى شيء خشيته. كان ذلك خلال جلسة أرقام ليدا سبروت، وكانت على وشك أن تفض آخر ورقة

مطوية على الصينية النحاسية. وكالمعتاد أغلقت عينيها، ولكنها فجأة فتحتهما.

قالت: "لدى رسالة عاجلة، لشخص بدون رقم". كانت تنظر مباشرة نحوى. "هناك امرأة تقف خلف مقعدك، تبلغ حوالى ثلاثين عامًا، بشعر أسود، ترتدى بذلة زرقاء بحارى لها ياقة بيضاء وزوج من القفازات البيضاء. إنها تقول لك.... ماذا؟ إنها حزينة جدًّا بسبب شيء ما... حصلت على اسم.... جوان. أنا آسفة، لا أستطيع أن أسمع..." استمعت ليدا سبروت لمدة دقيقة، ثم قالت: "هى لم تستطع أن تعبر عبورا كاملاً، كان التشويش عاليًا جدًّا".

همست للعمة "لو" بحدة بالغة : "إنها أمي... إنها حتى لم تمت بعد!" شعرت بالفزع، ولكنى كنت أيضًا غاضبة: فقد كسرت أمى قواعد اللعبة، إما ذلك، أو أن ليدا سبروت كانت محتالة. ولكن كيف استطاعت أن تعرف شكل أمي؟ وإذا كانت قد استطلعت بتطفل لتعلم شيئًا، لما وقعت فى خطأ استخدام شخص على قيد الحياة.

قالت، العمة "لو": "فيما بعد يا عزيزتي".

بعد أن انتهت الجلسة، واجهت ليدا سبروت، وقلت لها: "تلك كانت أمي".

قالت ليدا: "إنى سعيدة من أجلك. لقد انتابنى الإحساس بأنها تحاول الاتصال بك منذ فترة. لابد وأنها قلقة جدًّا بشأنك".

قلت: "ولكنها لا تزال حية... لم تمت على الإطلاق".

ارتعشت العينان الزرقاوتان، ولكن فقط للحظة واحدة. ثم قالت بهدوء: "إذن لابد أن ذلك كان جسدها النجمي، ذلك يحدث أحيانًا، ولكننا لا نشجعه، إنه يشوش الأشياء، والاستقبال لا يكون دائمًا جيدًا".

"جسدها النجمي؟" لم أسمع أبدًا عن مثل هذا الشيء. شرحت ليدا سبروت بأن كل شخص له جسد نجمى بالإضافة إلى الجسد المادي، ويستطيع جسدك النجمى أن يتجول بنفسه، متصلاً بك بواسطة شيء ما مثل شريط مطاطى طويل. قالت: "لابد وأنها جاءت من خلال نافذة الحمام، ... نحن دائمًا نتركها مفتوحة قليلاً؛ لأن المدفأة تعلو أكثر من اللازم". وقالت يجب أن تكونى حريصة جدًّا على شريطك المطاطي، فإذا انقطع فإن جسدك النجمى ربما ينفصل عن بقيتك، ثم ماذا ستكونين؟ "شخصًا خاملاً، هذا هو، مثل تلك الحالات التى قرأت عنها فى المستشفي، نحن نكرر قولنا للأطباء أن جراحات المخ فى بعض الحالات تؤذى أكثر مما تفيد، فيجب أن يتركوا النافذة مفتوحة قليلاً، حتى يستطيع الجسد النجمى أن يعود مرة أخرى".

لم تعجبنى تلك النظرية على الإطلاق، وكرهت على وجه الخصوص فكرة أن أمي، فى شكل نوع من الهلام الروحاني، تطوف ورائى من مكان إلى مكان، مرتدية على ما يبدو بذلتها الزرقاء

البحرية القديمة التى يرجع تاريخ صنعها إلى عام ١٩٤٩. ولا كنت أريد أن أسمع أنها كانت قلقة بشأني، فدائمًا ما كان قلقها يعنى ألمًا، ورفضت أن أصدق ذلك. "هذا جنون"، قلت ذلك بقدر ما أستطيع من الفظاظة.

ولشدة دهشتى ضحكت ليدا سبروت، وقالت: "أوه، لقد تعودنا أن يقال لنا ذلك، نحن بالتأكيد يمكن أن نتعايش مع هذا". وشعرت بالحرج عندما وجدتها تمسك بيدي، وتقول وهى تنظر فى عينىّ مباشرة : "إن لديك هبات عظيمة، قدرات عظيمة يجب أن تطوريها. يجب أن تحاولى الكتابة الأتوماتيكية، أيام الأربعاء. لا أعرف إذا كنت مرسلة أو مستقبلة... أعتقد مستقبلة. سوف أكون مسرورة لو ساعدتك على تسلسل أفكارك؛ يمكنك أن تكونى أفضل من أى منا، ولكن ذلك سوف يتطلب عملاً شاقًا، ويجب أن أحذرك، هناك بعض الخطر إذا حاولت بدون إشراف، فليست كل الأرواح ودودة، كما تعلمين. بعضها تعيس جدًّا. وإذا ضايقتنى كثيرًا، فإنى أغير ترتيب الأثاث، فذلك يربكها". وربتت فوق يدي، ثم تركتها: "تعالى الأسبوع القادم، وسوف نتحدث عن ذلك".

لم أعد أبدًا إلى هناك، كنت قد فزعت من ظهور أمى (التي، عندما عدت ليلة الأحد تلك، لم يكن يبدو عليها بأى حال أنها قامت برحلات نجمية، كانت كما هى دائمًا أبدًا، كما كانت ثملة قليلاً). وكان رأى ليدا سبروت فيما يتعلق بقدراتى العظيمة مفزعًا، خصوصًا حيث

إننى لابد أن أعترف بأن الفكرة كانت جذابة. لم يقل لى أحد من قبل أن لدى قدرات عظيمة. وطافت بذهنى تصورات مغرية عن نفسي، ملفوفة داخل قماش أبيض مرفرف بحافة أرجوانية اللون؛ أبدو فخمة وأشع بالطاقة الروحانية. كانت ليدا سبروت بدينة تمامًا... ربما كان ذلك هو مستقبلي. ولكنى لم أكن متأكدة أنى أردت حقًّا قدرات عظيمة، ماذا لو وقع خطأ ما؟ ماذا لو فشلت فشلاً هائلاً، وعلى الملأ؟ وماذا لو لم تأت رسائل؟ كان من السهل ألا أحاول. سوف يكون من المفزع أن أخيب رجاء أى تجمع، ولكن على الأخص ذلك التجمع بالكنيسة الأردنية. كانوا شديدى الثقة، وعلى جانب كبير من الرقة، بسعالهم وأصواتهم الهزيلة. لا أستطيع تحمل تلك المسئولية.

حين حدث ذلك كانت العمة "لو" ترى إنى منزعجة أكثر من اللازم، ولم تصر على معرفة التفاصيل. وبعد عدة أشهر أفضيت لها عما بداخلي. قلت لها: "ليدا سبروت قالت لى أن لدى قدرات عظيمة".

قالت العمة "لو": "هل قالت ذلك يا عزيزتي؟ لقد قالت لى نفس الشيء. ربما كلتانا لديها تلك القدرات العظيمة".

"وقالت لى أيضًا إنى يجب أن أحاول الكتابة الأوتوماتيكية".

قالت العمة "لو" وهى مستغرقة فى التفكير: "أتعلمين... لقد حاولت ذلك. من المحتمل أن تظنى إنى غبية".

قلت: "لا..".

"كما ترين، كنت أرغب دائمًا أن أعرف ما إذا كان زوجى لا يزال حيًّا أم لا. شعرت أنه إذا لم يكن حيا، فقد يكون لديه...، حسنا، الكياسة أو الأدب الذى يجعلنى أعرف".

سألت: "وماذا حدث؟"

قالت العمة "لو" ببطء: "حسنًا، كان شيئًا غريبًا جدًّا. لقد أعطتنى قلمًا من الحبر الجاف، مجرد قلم عادى. لا أعرف ... كنت أتوقع شيئًا آخر، ريشة أوزة أو شيء من هذا القبيل. ثم أشعلت شمعة ووضعتها أمام مرآة، وكان من المفترض أن أحدق فى الشمعة ـــ ليس فى الشمعة الحقيقية، ولكن فى الصورة المنعكسة بالمرآة. فعلت ذلك للحظة، ولم يحدث شيء، فيما عدا إنى استطعت أن أسمع نوعًا من الضوضاء والهمهمات. أعتقد إنى وقعت فى النوم أو انتابتنى غفوة أو شيء من هذا القبيل، فقط لدقيقة، بعد ذلك حان وقت الذهاب".

سألت بلهفة: "هل كتبت أى شيء؟"

أجابت: "ليس تمامًا، مجرد نوع من الشخبطة، وحروف قليلة".

قلت: "ربما لا يزال حيًّا إذن!"

قالت العمة "لو" لا يمكنك أبدًا أن تتأكدي. فإذا كان ميتًا، فإن من شيمته ألا يقول أى شيء. كان دائمًا يريد أن يجعلنى فى حالة

ترقب. ولكن ليدا سبروت قالت إنها بداية جيدة ويجب أن أعود. قالت إن الأمر يأخذ فترة لتحقيق الغرض".

قلت: "وهل فعلت؟"

قطبت العمة "لو" جبينها: "أرادنى روبرت أن أفعل. ولكنك تعلمين، لست متأكدة أنها فكرة جيدة. لقد نظرت إلى الورقة فيما بعد، ولم تكن على الإطلاق تشبه خطى. على الإطلاق! لم يعجبنى ذلك الشعور بكوني... حسناً.. تحت سيطرة شيء لا أعرف كنهه. شعرت أنى يجب أن أتخلى عن المسألة، وسوف أفعل نفس الشيء لو كنت مكانك يا عزيزتي. إنك لا تستطيعين الطيران بجناح واحد، ذلك هو رأيي".

وعلى الرغم من نصيحة العمة "لو"، فالإغراء كان كبيرًا، أن أحاول بنفسى الكتابة الأتوماتيكية، فى المنزل، وفى حجرة نومي؛ وذات مساء عندما كان أبواى بالخارج فعلت.. أحضرت إحدى الشموع من حجرة الطعام بالدور الأرضي، وقلمًا أحمرَ جافًا، ودفتر الملاحظات الخاص بأمى من فوق منضدة الهاتف، ثم أشعلت الشمعة وأطفأت نور الحجرة، وجلست أمام مرآة التسريحة، أحدق فى اللهب الصغير فى الزجاج بانتظار أن يحدث شيء. كنت أحاول بصعوبة شديدة أن أمنع يدى من أى حركة شعورية، فذلك سيعتبر غشاً، وقد

أردت أن تكون التجربة صادقة. لم يحدث شيء، فيما عدا أن لهب الشمعة بدا وكأنه أصبح أكبر.

بعد ذلك لم أدرك إلا وشعرى قد أمسكت به النار، فقد انحنيت بدون وعى تجاه الشمعة. فى ذلك الوقت كانت لدىّ قصة شعر أمامية، بدأت تطقطق وتحترق. صفعت بيدى على جبهتي، وجريت إلى الحمام؛ كانت مقدمة شعرى محترقة بشكل سيء، واضطررت أن أقصها، الأمر الذى أثار غضب أمي، وفى اليوم التالى اضطرت لدفع خمسة دولارات لعمل قصة شعر عند الكوافير، وقررت أنه من الأفضل التخلى عن فكرة الكتابة الأتوماتيكية نهائيًّا.

ومع ذلك فقد كان هناك شيء ما على ورقة النوتة: خط أحمر طويل منفرد، التوى وعاد إلى بدايته، مثل دودة أو فتلة صوف. لم أستطع تذكر أنى رسمته؛ ولكن إذا كان هذا هو كل ما على الجانب الآخر أن يقوله لي، فلماذا يجب على أن أذهب بنفسى إلى المشكلات؟

ولفترة من الوقت تحولت نصيحة ليدا سبروت إلى أحلام يقظة أثناء الفصل الدراسى (يمكن أن أفعلها، إذا أردت، بداية متواضعة فى كنيسة صغيرة مجهولة، إلهامات خارقة، الشهرة تنتشر، صالات مكتظة، آلاف من المستفيدين، تعليقات هامسة، رهبة وإعجاب ... "ربما تكون امرأة ضخمة، ولكن يا لها من قدرات!"). على أية حال، بعد عدة أشهر بهتت الفكرة تدريجيًّا، دون أن تترك سوى رسالة السيد

ستيوارت، محفورة بعمق فى ذاكرتي، تطفو إلى السطح فى لحظات غير مناسبة: اليرقة المتشائمة واليرقة المتفائلة، تشقان سبيلهما على طريق الحياة، منهمكتان فى حوارهما اللانهائي. وكنت معظم الوقت فى جانب اليرقة المتفائلة؛ ولكن في لحظات اكتئابى كنت أفكر: وماذا لو تحولت إلى فراشة؟ الفراشات أيضًا تموت.

الفصل الحادى عشر

كانت الوظيفة التالية التى حصلت عليها، بعد مطعم "اقضم قضمة"، هى العمل فى معرض الرياضيين. كان هذا المعرض يقام فى شهر مارس من كل عام، على أرض المعارض فى مبنى الكولوسيوم (المدرج الكبير للحفلات العامة) بالمعرض، كان المعرض هذا يشبه معرض السيارات، أو معرض الخريف، كانت تقام فيه أكشاك لبائعى الزوارق السريعة، والزوارق المصنوعة من الفيبرجلاس، (أى الزجاج المغزول الليفى الشكل) وبائعى التجزئة لزوارق الإسكيمو الجلدية، وكذلك لشركات صنانير صيد الأسماك وشركات بيع بنادق الصيد. وكان الكشافة من الفتيان يقومون بتجارب نصب الخيام وإشعال النيران، وتقوم فرقهم فى زيهم الأخضر بتدريبات قدح النار، وركبهم الوردية العارية ظاهرة من سراويلهم القصيرة. وبجانب منصتّهم أقامت وزارة الأراضى والغابات لوحة حول الوقاية من حرائق الغابات. وفى أوقات معينة كانت هناك رقصات هندية تؤديها مجموعة من الهنود الحاقدين بأزياء كانت حديثة وجديدة أكثر من اللازم بحيث لا يمكن أن تبدو أنها واقعية. عرفت أنهم كانوا حاقدين ويشعرون بالمرارة لأنهم كانوا يأكلون السجق فى نفس المنصّة التى كنت آكل فيها السجق، وسمعت

بالمصادفة بعض الأشياء التى قالوها. أحدهم وصفنى باسم "فاتسو" (أى البدينة).

وكان هناك عرض فى مدرج مسقوف أيضًا، كانت تقام فيه مسابقات دحرجة ألواح خشبية طافية فى الماء، ومسابقات صيد الأسماك بالاستعانة بالذباب الصناعى، ومسابقة ومهرجان ملكة جمال الهواء الطلق، وعجل بحر يسمى "شاركى" يستطيع أن يعزف لحن "حفظ الله الملكة" بنفخ مجموعة من المزامير.

أحببت هذه الوظيفة أكثر من أى وظيفة أخرى شغلتها. كانت تتسم ببعض الفوضى وقليل من البهرجة، وكنت أستطيع أن أسير فى الزحام دون أن أشعر بأنى غريبة عن المكان. كانوا غالبًا ما يعتقدون أنى خبيرة فى مسابقات صيد السمك بواسطة الذباب أو دحرجة الأخشاب للإناث. كنت أعمل بعد المدرسة وطوال يومى السبت والأحد، وكنت آكل فى ساعة الراحة للغداء خمسة أو ستة سندوتشات من السجق، وأشرب بعض شراب المَن أو طل العسل، ثم أتجول حول المكان، وأتوقف لأشاهد عرض أزياء السيدات فى الهواء الطلق، وعرض لأحدث السترات الرياضية، وصدارات النجاة الفيللينية للوقاية من الغرق والتى كانت ملكة جمال الهواء الطلق تترأسه مع عرض لفنون صيد السمك باستخدام السدادة، أو ربما كنت أذهب إلى أحد المداخل المقنطرة للمدرج المسقوف، وأنظر بالداخل بينما شخص ما يصوب سهمًا على بالونة، وهو يحفظ توازنه على

الحافة العليا من جانب زورق رفيع، أو رجلاً يدفع آخر من فوق عارضة القفز فى حمام السباحة البلاستيكى.

وكانت وظيفتى بسيطة للغاية. كنت أقف خلف مدى الرماية، مرتدية مريلة تغيير من جلد أحمر، وأقوم بتأجير السهام، وعندما كانت براميل الأسهم تكاد تفرغ، كنت أنزل إلى الأهداف المصنوعة من القش تاركة الزبائن واقفين خلف الحبل الحاجز: أطفال قليلين، وبعض الشباب المهتم بالرياضة، وزوجاتهم أو صديقاتهم، وفتيان قليلين يرتدون سترات جلد سوداء والذين من المألوف تواجدهم حول معرض الرماية، كنت أجذب السهام وألقيها فى البراميل، ثم أبدأ مرة أخرى.

كان هناك موظفان آخران، "روب"، وكان يقوم بالدعاية بإلقاء خطب وكلمات دعائية للسلع، وكانت لديه خبرة كوكيل إعلانات، وفى العمل فى مدن الملاهى المتنقلة، ويعمل للمعرض فى مراكب الصيف، وأكشاك غزل البنات، وألعاب "اربح دمية". كان يقف واضعًا قدمه على حافة البرميل، وينادى: "ثلاثة مقابل عشرة سنتات، تسعة مقابل رُبع دولار، تقدم خطوة واظهر مهارتك، فرقع البالونة واحصل على واحدة مجاناً، هل تحب السيدة الصغيرة أن تحاول؟". وكان الموظف الثاني، "برت"، طالبًا خجولاً فى السنة الأولى بالجامعة، يرتدى نظارة، وسترة ذات رقبة، كان يساعدنى فى جمع الأسهم وإعادتها.

كانت الصعوبة تتمثل فى أننا لا نستطيع أن نتأكد أن كل الأسهم تم إطلاقها قبل أن نذهب وننزعها من الأهداف. كان روب يصيح: "اخفضوا الأقواس إلى أسفل من فضلكم، وابعدوا الأسهم عن الخيوط"، ولكن من حين إلى آخر كان شخص ما يترك السهم ينطلق بقصد أو بغير قصد، وكان هذا هو السبب فى إصابتى بطلقة. كنا قد جذبنا السهام، وكان الرجال يحملون البراميل ثانية إلى الخط. وكنت أبدل لوحة الهدف، وانحنيت لأغرز دبوسًا فى الهدف الأخير عندما شعرت بشيء ما يصيبنى فى ردفى الأيسر، كان هناك صوت من الخلف، نوع من الضحك المصحوب بصراخ، وصاح روب: "من فعل ذلك؟" قبل أن أجد وقتًا للشعور بالألم، وقال الشخص أنه لم يقصد ذلك، وهو ما لم أصدقه. من المحتمل أن منظر ردفى الضخم الذى كان يشبه القمر كان أكبر من اللازم بكثير بالنسبة له.

اضطررت للذهاب إلى مركز الإسعافات الأولية لنزع السهم وإصلاح التنورة، بينما تم تضميد الجرح وارتديت ملابسي. من حسن الحظ أنه كان سهمًا من سهام الأهداف، ولم يكن الجرح غائرًا. "مجرد جرح سطحي"، كما قالت الممرضة. أراد روب منى أن أعود إلى المنزل، ولكنى أصررت على البقاء حتى انتهاء العمل ليلا، بعد ذلك اصطحبنى إلى المنزل فى سيارته الفولكس فاجون القديمة، كان لطيفًا جدًّا، ورغم أنه كان يتهكم تقريبًا على كل شيء، فقد كان متعاطفًا مع أى شخص مصاب بسبب هذا النوع من الخطر المهني.

هو نفسه كاد يقتل ذات مرة بسبب خروج سيارة الفأر الهائلة عن مسارها. وعندما توقفنا عند ضوء أحمر، رفع يده اليمنى من على عجلة القيادة وربت بها على ركبتي، وقال مازحًا: "شيء مزعج أن الإنسان لا يستطيع التبول وهو واقف".

وعندما دخلت من الباب الأمامي، سمعت أبى ينادينى من حجرة المعيشة، ولم يكن ذلك شيئًا معتادًا، ففى تلك الأيام كان أبواى يسمحان لى بالخروج والعودة كما يحلو لي. كانا يجلسان فى مكانيهما المعتادين، وكان أبى يبدو مهمومًا ويرتشح، وأمى فى حالة اهتياج.

قال أبى برقة: "لدينا أخبار سيئة لك يا جون".

قالت أمي: "عمتك "لو" ماتت... بسبب أزمة قلبية. كنت أعرف دائمًا أن ذلك سيحدث". كانت نبوءات أمى دقيقة بصورة محبطة عندما يتعلق الأمر بالنكبات.

فى البداية لم أصدق، ارتميت على المقعد بصورة لاشعورية، فصرخت من شدة الألم.

قالت أمي: "ماذا بك؟"

قلت: "أصابنى شخص بسهم... فى مؤخرتي".

نظرت أمى لى وكأنى معتوهة، وقالت: "أليس ذلك التصرف الطائش من شيمتك؟"، وكأن ذلك خطئى أنا، ثم استطردت بأسلوب

هجومي: "لقد تركت لك عمتك بعض المال، إنه أغبى شيء سمعت به على الإطلاق، إنه ضياع كامل وتام للوقت، إذا أردت رأيي".

كانت أمي، التى لم تخطئ الهدف أبدًا، قد ذهبت إلى شقة العمة "لو" بمجرد أن سمعت الخبر من المشرفة على البناية التى تضم الشقة، والتى وجدت العمة "لو" المسكينة ملقاة فى ثوبها الفضفاض على أرضية الحمام، فقد انزلقت على حصيرة الحمام، إما قبل أو بعد الأزمة التى أصابتها. وكانت الوصية الأصلية مع محامى العمة "لو"، ولكن أمى عثرت على نسخة من الوصية بين أوراق العمة "لو".

قالت أمي: "فوضى... الشقة بأكملها فوضى... يجب أن تأتى معى وتساعديني"، حيث أن العمة "لو" لم يكن لها أقارب غيرنا.

تركت لى العمة "لو" بالفعل بعض المال، ألفى دولار، فى الواقع، وكان مبلغًا كبيرًا فى ذلك الوقت، لشخص فى مثل سني. ولكن كان هناك شرط: أستطيع الحصول على المبلغ فقط إذا خفضت وزنى، واختارت العمة "لو" الوزن اللائق، حيث كان على أن أفقد مائة رطل.

وكان هذا ما جعل أمى غاضبة. لم تكن تعتقد إنى قادرة على ذلك، وفى نظرها فإن المال لابد وأنه بهذا الشرط قد ذهب هباء. الشخص الآخر الوحيد الذى حصل على شيء هو زوج العمة "لو"، المقامر، بشرط أن يتم العثور عليه.

قضيت الليلة حزينة على العمة "لو"، بصورة متشنجة ومزعجة، ومع ذلك لم تكن دموعى قد انهمرت بعد بالكامل، حيث أننى لم أكن أصدق بعد أنها ماتت. لم تكن فكرة أنها اختفت نهائيًا قد رسخت بداخلى حتى الصباح التالي، عندما مشيت أعرج خلف أمى إلى الشقة التى أصبحت الآن خالية، وأنا أشعر بدوار من قلة النوم. كانت كما رأيتها تمامًا آخر مرة، ولكن بدون شجاعة العمة "لو" وحيويتها، بدت منعزلة وقذرة، وحتى بالية. كانت العمة "لو" دائمًا تجعلك تشعر وكأنها كانت تقصد، بل ووضعت خطة للفوضى. والآن بدت مجرد لامبالاة، أو أسوأ من ذلك، وكأن شخصًا ما قلّب فيها، باحثًا عن شيء لا يمكن أن يكون موجودًا، ملقيًا بالملابس والأشياء بلا اعتبار لأصحابها. كان من الواضح أن العمة "لو" لم تكن تتوقع أن تموت، وإلا لكانت أكثر تنظيمًا، ومع ذلك فقد توقعت الموت، وإلا ما كانت قد تركت وصيتها الغريبة.

والآن، وأنا فى شقتها، شعرت بأننى متطفلة، وكأننا اقتحمنا خصوصيتها عنوة، بدون إذن، أو كأننا نشاهد منظرًا شديد الخصوصية من خلال ثقب فى الحائط، ولكن الأمر أصبح أسوأ. بدت أمى تخوض فى دواليبها، تشد الملابس من الشماعات وتطويها وتحشوها فى كيس بُنى كبير من أكياس التبرع لمؤسسة "المدنيين المعوقين" التى أحضرتها معها، مبدية ملاحظات عليها وهى تفعل ذلك. "انظرى إلى تلك، انظري".. كانت تتحدث عن أفضل رداء

سهرة للعمة "لو" مطرز بالترتر الذهبي. "رخيص". رأيت العمة "لو" تختفي، قطعة قطعة، بداخل الكيس الورقى البُني، الذى كان يبتلعها بلا نهاية، ملابسها وأوشحتها المرحة، حماقاتها، نكاتها عن نفسها التى كانت أمى تأخذها بجدية (تلك البلوزة القرمزية، مثلاً)، ولم أستطع أن أتحمل ذلك. استطعت أن أنقذ الثعلب، فدسسته فى الخفاء فى حقيبة يدي، بينما كانت أمى تعطينى ظهرها، ثم ذهبت إلى المطبخ لأتواصل مع العمة "لو" مرة أخيرة، عن طريق ثلاجتها. لم تعلق أمى أو تشكو من أنى لم أكن أساعدها، كنت أعلم بطريقة غامضة أنه لم يتم إحضارى للمساعدة بأى حال، بل تم إحضارى كنوع من العقاب غير المباشر لأنى كنت أحب العمة "لو" أثناء حياتها.

وجدت علبة سرطان البحر فى دولاب المطبخ، وأعددت لنفسى سندوتش، وكانت حقيبة اليد الخاصة بالعمة "لو" هناك، فتحتها، وشعرت أنى مثل الجاسوس، ولكنى كنت أعرف أن أمى سوف تفتحها فيما بعد وترمى محتوياتها. أخرجت محفظة عمتى "لو"، وعلبة الماكياج الخاصة بها، وأحد مناديل يدها مشغول الحواف، والذى كان لا يزال يحمل رائحتها المميزة، ووضعت ذلك فى حقيبة يدي. لم يكن ذلك نوعًا من السرقة، كان إنقاذًا. أردت الاحتفاظ ببقاء ووجود أكبر قدر ممكن من عمتى "لو"، حيث كانت أمى مصممة على محوها.

كانت أمى مؤخرًا قد أصيبت بحالة من الترهل، ولكن موت العمة "لو" جعل النشاط يدب فى أوصالها مرة أخرى؛ أعطاها شيئًا تقوم بالإشراف عليه. قامت بكل ترتيبات الجنازة، بكفاءة مع إضفاء درجة من التجهم. أرسلت الإشعارات وردت على المكالمات التليفونية والبطاقات (وكانت جميعها من مكتب عمتى "لو")، ووضعت إعلانًا بالصحيفة، لم يكن والدى قادرًا على القيام بذلك، حيث أخذ أجازة لعدة أيام من المستشفى وراح يطوف بأنحاء المنزل مرتديا نعله الجلدى الأحمر الداكن، معترضًا طريق أمى التى كانت تتحرك بسرعة وتوتر، قائلاً "مسكينة لو"، مرارًا وتكرارًا، مثل طائر كئيب. كانت الأشياء الأخرى التى قالها لي: "هى التى ربتني"، و... "لقد صنعت لى زوجًا من الجوارب أثناء الحرب، لم يكن مقاسه مناسبًا". كان مغرمًا بها وقريبًا منها أكثر مما كنت أتخيل، لكنى لم أستطع منع نفسى من التساؤل، كيف أن شخصًا تربى على يد عمتى "لو" يمكن أن يتحول ليكون غير قادر على التعبير وقليل الكلام مثل أبى. لقد تعودت أن تقول: "المياه الساكنة ظاهريًا تجرى فى الأعماق"، و"إذا لم تكن تستطيع أن تقول قولاً طيبًا، فلا تقل أى شيء على الإطلاق". ربما ذلك يشرح الأمر. ورغم ذلك، فهى لم تترك له أى مال، لم يكن يحتاجه، وكان المقامر يحتاج، لابد أن ذلك كان مبررها.

وُضعت العمة "لو" فى بيت أو داكرس الجنائزى، محاطة بسلال من زهور الأقحوان البيضاء (كل ذلك من إعداد أمي)، وقامت

بزيارتها فتيات فى منتصف العمر من شركة الفوط الصحية، اللائى كن يتنشقن بصوت مسموع، وصافحن يد أمى بحرارة، وقلن إنها كانت شخصية رائعة. وكان شكلى فى الجنازة مثيرًا للخجل، فقد بكيت كثيرًا وبصوت مرتفع.

كان روبرت المحاسب هناك، عيناه حمراوان ومنكمش على نفسه. وبعد الطقوس ضغط على يدي، وقال: "سوف تكون على اتصال... نستطيع أن نعتمد عليها". ولكنى لم أصدق ذلك.

عندما عدنا إلى المنزل قالت أمي: "حسنًا، لقد انقضى الأمر".

كان الشيء التالى الذى تذكرته هو أنى نظرت لأعلى إلى سقف غرفة المعيشة، فقدت الوعي، وأثناء وقوعى اصطدمت بمنضدة جانبية (خُدشت)، ومصباح سويدى حديث (كُسر)، ومطفأة نحاس مشغولة (لم تصب بشيء).

وظهر أننى أصبت بتسمم فى الدم بسبب الجرح الناتج عن السهم. حيث لم تضع الممرضة التى كانت بمركز الإسعافات الأولية ما يكفى من المطهر على الجرح. قال الطبيب إنى لابد كنت أعانى من الحمى لعدة أيام. وصحيح أننى كنت أعانى من دوار، وكانت أذناى تحدث طنينا والأشياء حولى تهتز، ولكنى أرجعت ذلك إلى الحزن. لزمت الفراش، وحُقنت بالبنسلين. قال الطبيب إنه كان شيئًا طيبًا إنى بدينة جدًّا (قال: "كثيرة اللحم")، وبدا وكأن لديه نوعًا من

نظرية النشافة عن البدانة والجراثيم. وأحضرت أمى لى مكعبات مرق الدجاج مذابة فى ماء ساخن.

تطور الأمر معى إلى حمى عنيفة مع هذيان، وكان من بين نتائج هذا فكرة أنى أصبت بالسهم فى نفس اللحظة التى توفيت فيها عمتي، وأن روحها الراحلة هى التى أرشدت الطلقة. كانت تريدنى أن أعرف، أن تودعنى بأسلوب غريب إلى حد ما. وصحيح أن ذلك كان يناسب طباعها، ولكنها لا يمكن أن تكون قد أرادت لى أن أصاب بتسمم فى الدم. ولن أتخلص أبدًا من هذه الفكرة، رغم أنى كنت أعلم أنها بعيدة الاحتمال. وفى ذلك الوقت ضايقتنى كثيرًا، لقد ملأتنى حقًّا بالندم لأنى لم أدرك هذه الرسالة من الموت، وربما كانت صيحة لطلب العون. كان يجب على أن ألقى كل شيء وأهرع إلى شقتها دون أن أتوقف حتى لنزع السهم. ربما كان يمكن أن أصل فى الوقت المناسب. لقد بدا وكأنى أسمع صوتها، من مسافة بعيدة، وهى تقول "الأكثر قولاً، الأسرع ندمًا"، و"لطلب المسمار ضاع الإنسان"، رغم أنى كنت أعرف أن كليهما خطأ.

فى الأوقات التى كنت أفيق فيها، وعندما كنت أتعافى، فكرت فى رسالتها الأخرى. رسالتها فى وصيتها، كيف أفسرها؟ هل ذلك يعنى أنها لم تقبلنى حقًّا على ما كنت عليه، كما كنت أعتقد ـــ أنها أيضًا وجدتنى شيئًا مُنفِّرًا؟ وأننى بالنسبة لها أيضًا لم أكن مناسبة؟ أم

أن الأمر كان مجرد نظرة عملية من ناحيتها؟ معرفتها إنى لابد أن أعيش حياة أسهل إذا كنت أكثر نحافة؟

قدمت لى المال لأبتعد، لأهرب من أمي، إذ كانت تعرف أنى أرغب فى ذلك؛ ولكن بشروط سوف تدفعنى إلى الإذعان، أو هكذا بدا لي.

ذات يوم، بينما كنت جالسة فى الفراش أتصفح إحدى روايات أبى البوليسية، تصادف أن وقع بصرى فى لمحة على جسدي. كنت قد ألقيت بأغطية السرير بعيدا، فقد كان الجو دافئًا، وكان قميص النوم منحسرًا عن ساقي. لم أكن فى العادة أنظر إلى جسدى فى المرآة أو بأى طريقة أخرى، كنت أحيانًا ألمح أجزاء منه بين حين وآخر، ولكن ليس بكامله. وهناك، أمام وجهي، كان فخذى كله، كان ضخمًا، كان هائلاً، كان أشبه بطرف متورم بشكل مرضى، النوع الذى تراه فى صور أهالى الأدغال، كان منتشرًا إلى الأبد، مثل مرج تم تصويره من طائرة، لكن اللحم ليس أخضر، ولكن أبيض مائل إلى الزرقة، بعروق متعرجة تتخلله مثل الأنهار. كان فى حجم ثلاثة أفخاذ عادية. كنت أفكر، هل هذه حقيقة فخذى ؟ إنه هو فى الحقيقة، ثم فكرت أن هذا لا يمكن أن يستمر.

وعندما استعدت صحتى مرة ثانية، قلت لأمى إنى عازمة على إنقاص وزنى. لم تصدقني، ولكنى ذهبت إلى شارع ريتشموند بوسط

المدينة ووزنت نفسي، وكما اشترطت الوصية، مع محامى العمة "لو"، السيد موريسى، الذى ظل يقول: "كانت لعمتك شخصية مميزة"، لقد فقدت بالفعل بعض الوزن خلال المرض، والآن على إنقاص ٧٠ رطلاً فقط.

كنت أتوقع أنى بمجرد اتخاذ القرار سوف أخفض وزنى ببساطة مثل الحشية الهوائية. كنت أريد أن يحدث ذلك فجأة وبمجهود قليل من جانبي، وانزعجت عندما لم يحدث. بدأت أتناول علاجات أمى العجيبة، كلها فى وقت واحد، زوج من حبوب السمنة فى الصباح، وجرعة من المسهلات، نصف صندوق من الـ "آيدس"، وقليل من مقرمشات الشعير المخصصة للتخسيس، وقهوة سادة، وأتهادى فى المشى حول المبنى للتمرين. وبالطبع فقد حدثت بعض التأثيرات الجانبية، مثل صداع مريع، وتشنجات معوية، وتسارع فى ضربات القلب نتيجة أقراص السمنة، ونوع من وضوح الرؤية المنذر. فالعالم الذى كنت أراه منذ فترة طويلة ضبابيًا من خلال شخص أمى الضخم ولكن غير المحدد المعالم يقف فى الخلفية، أصبح فجأة شديد الوضوح، آذت عينىّ الشمس المشرقة والألوان الساطعة. عانيت من نوبات الضعف، ومن انتكاسات قسرية كنت أثناءها آكل بثبات، فى نوع من الغشية، أى شيء، وكل شيء تقع عليه عيناى. أتذكر بفزع التهام تسعة طلبات من الدجاج المقلى وراء بعضها حتى تحتج معدتى المتقلصة والتى يساء استخدامها، وأتقيأ الطعام.

ابتعدت بعض الوقت عن المدرسة خلال المرض، ولم أستطع تحصيل ما فاتنى من الدروس، وكان التركيز فى غاية الصعوبة. كنت أقضى فترة الصباح أقاوم التفكير فى ساعة الغداء، وأقضى فترة ما بعد الظهر نادمة عليه. أصبحت فاترة الهمَّة ونكدة المزاج، قدحت فى صديقاتي، أبلغتهن إنى لا أريد أن أسمع المزيد عن أصدقائهن الأغبياء، رفضت طلب المساعدة لعمل ديكورات حفل التخرج الرسمى الذى كان سيسمى "عجائب إبريل"، كنت قد سئمت من زهور مناديل الورق. وهوت درجاتي؛ وارتخت بشرتى إلى طيات لينة مثل جلد المرضى بمرض مزمن أو المسنين، أصبحت تتدلى حولى مثل بذلة عرق متهدلة. وفى شهر مايو تقريبًا تم استدعائى لإجراء حوار سريالى مع الأخصائى الاجتماعي، والذى كنت خلاله مصابة بألم فى رأسى نتيجة سرعة الريجيم، وكان عقلى يدور مثل فأر ميكانيكي. حدقت بعين جاحظة فى هذا الرجل غير الجدير بالثقة ذى الشعر الأبيض اللامع وهو يقول: "نحن نعلم أن لديك القدرة، يا جوان. أهناك شيء يضايقك فى المنزل؟" قلت: "عمتى ماتت".. ثم انفجرت فى قهقهة عالية حتى أصبت باختناق. وتكونت بقية المقابلة من أنه يخبط على ظهري، وأعتقد أنه تحدث مع أمى على الهاتف.

وفى المنزل قضيت ساعات أمام المرآة أراقب حاجبيّ، ثم فمي، وقد بدآ فى الانتشار عبر وجهي. كنت أتضاءل. كان مشهد شخص بدين فى الشارع، والذى كان يلهمنى بأن لى زملاء، أصبح

الآن مثيرًا لثورتي. الامتداد الواسع الذى انتشر مثل كثيب رملى من ذقنى إلى أخمص قدمى بدأ فى الانحسار، وبدأ صدرى وأردافى تظهر منه مثل الجزر. وبدأ رجال غرباء، كانت نظراتهم فى السابق تنزلق بعيدًا عنى وكأنى لست موجودة، بدءوا ينظرون إلى من نوافذ الشاحنات ومواقع البناء، نظرة تأملية، مثل كلب ينظر إلى حنفية حريق.

أما أمي، ففى البداية كانت راضية، رغم أنها عبرت عن ذلك بطريقتها الخاصة: "حسنًا، لقد آن الأوان، رغم أنه متأخر جدًّا". ولما كنت مواظبة، كانت تقول أشياء مثل: "إنك تدمرين صحتك"، و.. "لماذا عليك أن تلجئى إلى التطرف المبالغ فيه فى كل شيء؟" وحتى... "يجب أن تأكلى شيئًا أكثر من ذلك، سوف تجوعين حتى الموت". واستمرت فى صنع المخبوزات، وتركت الفطائر والكعك فى المطبخ لإغرائى، وطرأ بذهنى أنها كانت دائمًا تفعل ذلك، وإن كان بشكل أقل. وبينما كنت أزداد نحولاً، أصبحت هى نفسها مذهولة وقلقة. وكانت آنذاك تشرب بكثرة، وبدأت تنسى أين وضعت الأشياء، هل أرسلت ملابسها إلى محل التنظيف أم لا، ماذا قالت أو لم تقل، فى بعض الأوقات كانت تكاد تتوسل إلىّ حتى أتوقف عن تناول الحبوب، وأن أهتم أكثر بنفسي؛ ثم بدأت تنتابها نوبات من الغضب. غضب تدريجى متقطع لا يشبه غضبها الهادف السابق. كانت تقول

باحتقار: "إنك ضيقة الأفق... أخرجى من هنا، إن منظرك يصيبنى بالمرض".

أما التفسير الوحيد الذى كنت أتصوره لسلوكها هذا فهو أن جعلى نحيفة كان مشروعها الأخير المتاح. لقد انتهت من كل مشروعاتها، لم يعد لها شيء لتفعله، وكانت تضع فى حساباتها أنى سوف أكون مشروعها إلى الأبد. كان من المفترض أن أكون مبتهجة بانزعاجها، ولكنى بدلاً من ذلك كنت مشوشة. كنت فى الحقيقة أعتقد أنه إذا أصبحت أنا أكثر نحافة فسوف تكون هى مسرورة، سرور المتعجرف المستبد، ولكنه سرور على أية حال: لقد تحققت إرادتها، وبدلاً من ذلك كانت شديدة الاهتياج.

ذات يوم بعد الظهيرة، عندما جررت نفسى من المدرسة إلى المنزل، أشعر بالضعف والجوع، ذهبت إلى المطبخ لأتناول قطعة صغيرة من مقرمشات الشعير، التى كانت مكافأة على التزامى بالحمية، جاءت تسير على غير هدى من غرفة المعيشة، وفى يدها كأس من الاسكوتش، وكانت لا تزال ترتدى قميص النوم الوردى ونعلها الفرو.

"انظرى إلى نفسك، تأكلين وتأكلين، هذا كل ما تفعلين على الإطلاق. إنك مقززة، أنت فعلاً مقززة، لو كنت مكانك لخجلت من أن يرى أحد وجهى خارج البيت". كان هذا ما تعودت أن تقوله لى

عندما كنت بدينة، وكانت تحاول إرهابى حتى أنقص وزنى، ولكنى شعرت أن هذا لم يعد ضروريًا.

قلت لها: "أمي... إنى أقوم حاليًا بعمل رجيم، أتذكرين؟ إنى آكل قطعة من مقرمشات الشعير، إذا لم يكن لديك مانع، لقد فقدت اثنين وثمانين رطلاً، وبمجرد أن أتمكن من إنقاص ثمانية عشرة أخرى فسوف أذهب إلى مكتب السيد موريسى وآخذ نقود عمتى "لو"، وبعد ذلك سأغادر البيت".

لم يكن ينبغى أن أكشف خططي. نظرت إلى بغضب شديد، والذى تحول سريعًا إلى خوف، وقالت: "إن الله لن يسامحك، لن يسامحك الله أبدًا". ثم أخذت سكين تقشير من على منضدة المطبخ، كنت أستخدمها لتوزيع جبن على مقرمشات الشعير ــ وغرزتها فى ذراعى فوق الكوع. فاخترقت سترتي، وأصابت اللحم، ثم ارتدت إلى الخارج وسقطت على الأرض. لم يستطع أى منا أن يصدق أنها فعلت ذلك. ظلت كلتانا تحدق، ثم التقطت سكينة التقشير، ووضعتها على منضدة المطبخ، ووضعت يدى اليسرى بصورة عرضية فوق الجرح داخل سترتي، وكأنى أنا نفسى تسببت فيه وأحاول إخفاءه. قلت وكأننى أتبادل حديثًا عاديًا معها: "أعتقد أنى سأعد لنفسى كوبًا من الشاي... أترغبين فى واحد يا أمي؟"

قالت: "ذلك سيكون حسنًا... كوب من الشاى ينعشك".

وجلست مرتعشة على أحد كراسى المطبخ، وقالت وأنا أملأ الغلاية: "إنى ذاهبة لأتسوق يوم الجمعة، لست أظن أنك تودين المجيء معي".

قلت: "سيكون ذلك حسناً".

فى تلك الليلة، عندما سكنت الأصوات فى غرفة أمى ــ حيث ذهبت إلى الفراش مبكرًا وكان أبى لا يزال بالمستشفى ــ ملأت حقيبة، وغادرت. كنت خائفة جدًّا، ليس بسبب الإصابة التى أحدثتها السكين (فالخدش لم يكن عميقًا، وقد غسلته جيدًا بالديتول لتجنب أى تلوث)، ولكن بسبب مشاعر أمى الدينية. بعد ذكرها الله، قررت أنها مجنونة، فرغم أنها كانت تجبرنى على الذهاب إلى موعظة الأحد، فإنها لم تكن امرأة متدينة على الإطلاق.

الجزء الثالث

الفصل الثانى عشر

كان الصباح مشرقًا بأشعة الشمس التى تدفقت عبر نوافذ المكتبة، حيث جلست شارلوت، مهندمة بعناية فى ثوبها الرمادى المتواضع، وياقته البيضاء مثبتة على الرقبة ببروش أمها المنقوش، والذى أثار فيها الشجون: أمها، التى ورثت عنها شارلوت ملامحها الرقيقة الشاحبة، كانت قد وضعته فى يدها قبل لحظات من موتها. ابتسمت لشارلوت، وانحدرت دمعة واحدة على خدها، وأخذت منها وعدًا بقول الصدق دائمًا، وأن تكون نقية، وواعية، ومطيعة، وقالت لها: "عندما يظهر الرجل المناسب يا حبيبتى سوف تعرفين؛ سيشعر به قلبك. أدعو لك بآخر نفس فى صدرى أن يحفظك الله". كانت شارلوت تعتز دائمًا بصورة وجه أمها المحاط بخصلات ملتفة رقيقة من الشعر الأشقر الناعم مثل خيوط العنكبوت، وبابتسامتها الحزينة، لكن المفعمة بالأمل.

أزاحت شارلوت بعيدًا تلك الأفكار الحزينة، وانحنت مرة أخرى فوق زجاج المجوهرات، كانت تصلح المشبك الصغير لسوار من الزمرد. وللحظة خاطفة تخيلت كيف ستبدو أحجار الزمرد على بشرة فليشيا البيضاء، كيف يزيد لون الزمرد الأخضر عينيها الخضراوتين جمالاً ويكمل رونق شعرها الناري. ولكنها طردت تلك

الأفكار أيضًا من رأسها، حيث لا تستحق الاهتمام بها، ووضعت كل تركيزها فى العمل الذى بين يديها.

سمعت ضحكة خفيفة، تشبه تغريد أحد الطيور الاستوائية. نظرت شارلوت إلى أعلى، واستطاعت من خلال الستائر الشفافة البيضاء أن ترى شخصين متشابكى الذراعين على مسافة قصيرة من النافذة، مستغرقين فيما يشبه المحادثة الحميمة. واستطاعت التعرف على فليشيا من شعرها الأحمر، كانت ترتدى زيًّا صباحيًّا غالى الثمن من القطيفة الزرقاء، مزركشًا بريش نعام أبيض عند الرقبة والكفين، مع قبعة أنيقة تتلاءم معه، وكانت يداها مختفيتين فى كيس من الفراء. وبينما ألقت رأسها للخلف وهى تضحك مجددًا،ومض ضوء الشمس على رقبتها ناصعة البياض وعلى أسنانها القصيرة.

كان الرجل الذى بجانبها، والذى أخذ ينحنى مقتربًا أكثر ليهمس بشيء فى أذنها، يرتدى عباءة قصيرة، وفى يده اليسرى المغطاة بالقفاز تدلت، بلا مبالاة منه، عصا ركوب ذات مقبض ذهبي. فكرت شارلوت أنه لابد وأن يكون ردموند، واعترتها نوبة من الفزع؛ ولكن بمجرد أن اعتدل وحول وجهه نحوها، اكتشفت أن ذلك الرجل لم يكن ردموند، على الرغم من أنه يشبهه كثيرًا. فأنف ردموند كان معقوفًا أكثر.

لم تكن شارلوت تقصد التصنت، ولكنها لم تستطع منع نفسها من سماع جزء من المحادثة. قال الرجل شيئًا بصوت منخفض، وردت فليشيا بهزة من رأسها تنم عن الازدراء وضحكة أخرى.

"لا، إنك مخطئ... ردموند لا يشتبه فى شيء. إنه يشغل نفسه كلية هذه الأيام بتلك الفتاة الوقحة شاحبة الوجه التى استأجرها لإصلاح زمرداتي، وهو حاليًا لا ينظر إلى أى شيء آخر".

ماذا تعنى؟ كانت شارلوت لا تزال تنظر من النافذة إلى الاثنين اللذين بدآ يبتعدان. عندما سمعت صوتًا ضعيفًا جعلها تلتفت. كان ردموند واقفًا عند المدخل، ناظرًا إليها نظرة ثابتة، وعيناه تتألقان كالفحم الموقد، وسألها: "هل أعجبك زى زوجتى الجديد؟" سألها ذلك وفى صوته نبرة ازدراء جعلتها تعرف أنه رآها تنظر من خلال النافذة، وظهر احمرار الخجل على وجنتى شارلوت، هل يتهمها بالتجسس والتطفل؟

أجابت بتحفظ: "إنه يلائمها جدًّا... لم أستطع منع نفسى من رؤيتها، فقد مرت قريبًا جدًّا من النافذة".

ضحك ردموند واقترب منها. قامت من مقعدها وتراجعت نحو أرفف المجلدات القيمة والمختوم على كعب كل منها ختم عائلة ردموند بالذهب. كان قلبها ينبض فى ذعر، وكان وجهه يتوهج من الشراب، رغم أن الوقت لم يتعد منتصف النهار، واسترجعت فى

ذهنها القصص التى كانت تسمعها عن سلوكه من السيدة رايرسون الطيبة، مديرة المنزل. كانت زوجته فليشيا، السيدة ردموند، هى أيضًا سيئة السمعة، وكانا يستطيعان تجاهل القيل والقال بسبب مركزهما الاجتماعى، ولكن شارلوت كانت تعلم أنها إذا سقطت مرة واحدة، فذلك سوف يعنى نهايتها، وسيصبح مكتوبًا عليها أن تتسكع ليلاً فى شوارع لندن الملوثة، ولن تجد ملجأ إلا فى أحد بيوت العار أو الدعارة.

قال: "أنا لا يعجبنى مثل ذلك الريش الفاخر، ذلك الرداء طبعًا الآن... سيكون أكثر انسجامًا على زوجة..... ولكنك تصففين شعرك بشكل متحفظ جدًّا." واقترب منها، وحل رباط شعرها، ثم زحفت يده نحو رقبتها. وسعت شفتيه نحو شفتيها، كانت ملامحه مشوهة ووحشية. جذبت شارلوت نفسها بعيدًا، باحثة بجنون عن شيء يمكن أن تدافع به عن نفسها، أمسكت بنسخة ثقيلة من كتاب بوزيل "سيرة حياة جونسون". إذا حاول أن يجرها إلى هذا الطريق مرة أخرى، فلن تتورع عن ضربه بهذا الكتاب. لم يكن أول رجل مزعج من النبلاء تقاومه، لم يكن ذنبها أنها كانت صغيرة وجميلة.

"أناشدك أن تتذكر يا سيدى أنى وحيدة وبلا حماية تحت سقف منزلك، تذكر واجبك!". نظر ردموند إليها بنظرة احترام جديدة؛ ولكن قبل أن يتمكن من الرد، كانت هناك ضحكة خافتة. وفى المدخل وقفت

فليشيا بكل زيها الفاخر الثرى، ممسكة بقبعتها ذات الريش فى إحدى يديها اللطيفتين، وبجانبها وقف الغريب ذو العباءة.

قال الغريب بابتسامة عريضة لشارلوت: "أحسنت القول... ليتك يا ردموند تضع هذا القول فى قلبك".

تجاهلتها فليشيا، واتجهت إلى ردموند وخاطبته قائلة: "يبدو لى يا ردموند أنّ آنستك الصغيرة صائغة الجواهر متيمة كثيرًا بزمرداتي، ومن المؤكد أن الأمر لا يتطلب كل هذا الوقت لإصلاح عدة مشابك قليلة مكسورة وتركيب بضعة أحجار. متى سوف تنتهى من هذا العمل؟"

أجفلت شارلوت من الكلام عنها بهذه الطريقة، ولكن ردموند انحنى لزوجته انحناءة ساخرة، وقال: "يجب أن تسأليها بنفسك يا عزيزتي... إن طرق المحترفين ليس من السهل فهمها، مثل طرق المرأة"، ومشى نحو المدخل قائلاً: "أهلاً بك يا أوترلى"، قال ذلك وهو يصافح الرجل الغريب الطويل. "تعلم أنى يسرنى دائمًا أن أراك على الغداء، حتى بدون دعوة".

أجاب الرجل: "إنى أحب أن أتريض قليلاً فى الصباح"، ثم سارا معًا مبتعدين.

بقيت فليشيا لحظة، تتفحص شارلوت بنظراتها وكأنها قطعة أثاث.

قالت: "إذا كنت مكانك، فلن أبقى هنا طويلاً، فالبالوعات فى هذا المنزل ليست جيدة؛ مع ذوى الطبائع الحساسة مثلك، وعُرف عنها أن لها تأثير سيئ على الصحة، وحتى على العقل. إذا كنت تحبين بعض التمشية خارج المنزل، فلابد أنك ستستمتعين بجولة فى متاهتنا. قيل لى إنها تدعو للاهتمام".

ثم انسحبت بعيدًا ترفل فى القطيفة.

جلست شارلوت فى دوامة من الأحاسيس المشوشة. كيف يتجاسر هؤلاء الناس على تهديدها بهذه الطريقة، ولكن على الرغم من ذلك، فمع ردموند، رغم أنه كان سيئ الطبع جدًّا، وجدت نفسها تتمنى لو تبقى يده على رقبتها للحظة أطول. ... والغريب الذى يرتدى العباءة.. لابد أنه الأخ غير الشقيق لردموند، إيرل(لقب انجليزي) أوترلى. لم تكن الأشياء التى سمعتها عنه من السيدة رايرسون تدعو للسرور.

كانت تشعر بضيق شديد لا تستطيع معه الاستمرار فى العمل. أغلقت على الزمردات فى الصندوق الخاص بها، وأغلقت على الصندوق داخل الحجرة كتعليمات ردموند، وصعدت إلى حجرتها الخاصة لتهّدئ نفسها.

ولكن عندما فتحت باب حجرة نومها، أمسكت نفسها بصعوبة من إطلاق صرخة... فعلى فراشها انتشر رداؤها الحريرى الأسود

الجميل، ممزقًا بضراوة طوليًا كالأشرطة. التنورة ممزقة بشكل بشع، والصديرى مشوه تمامًا بحيث لا يمكن إصلاحه، والأكمام تحولت إلى قصاصات، وبدا وكأن آلة حادة استخدمت فى هذا العمل، سكين أو مقص.

دخلت شارلوت الحجرة وأغلقت الباب خلفها شعرت بضعف فى ركبتيها، وأصيبت بدوار خفيف. من فعل هذا؟ تعلم أنها تركت الرداء فى خزانة الملابس عندما نزلت لتبدأ عملها فى المجوهرات. وفتحت باب خزانة الثياب... فوجدت كل ملابسها الأخرى قد عولجت بنفس الأسلوب: عباءتها الخاصة بالسفر، وفستانها الآخر، وقميص نومها، وملابسها الداخلية، وشالها. لم يعد لديها شيء ترتديه فيما عدا ما على جسدها من ملابس.

ولكن لماذا؟ سألت نفسها وقد تهاوت وهى ترتعد على فراشها الصغير الخشن. وطرأ على ذهنها أن شخصًا أراد أن يفزعها لترحل، شخص ما أرادها أن تترك ردموند جرانج... أو ربما كان ذلك تحذيرًا، إشارة تركها فاعل خير. بحثت عن مذكرة قد يكون تركها، ولكن لم يكن هناك شيء. فقط تلك الملابس المهلهلة.

كانت قد غادرت غرفتها فى الساعة التاسعة، تناولت الإفطار ثم عملت بمفردها حتى الحادية عشرة والنصف، عندما سمعت المحادثة بين فليشيا وأوترلى. خلال ذلك الوقت كان يمكن لأى

شخص داخل المنزل ـــ أو من خارجه! ـــ أن يدخل حجرتها دون أن تراه، ويرتكب هذه الفعلة. ردموند، فليشيا، أوترلى، السيدة رايرسون الطيبة... الخادمات، الطباخ، وليم الجنايني، توم سائس العربة، بابتسامته الشبيهة بابتسامة الفأر. من الممكن أن يكون أيًّا منهم.

وتذكرت وهى تشعر بالخوف ملحوظة فليشيا عن سوء البالوعات. هل كان ذلك تهديدًا؟ وإذا لم تستجب للتحذير، فإلى أى مدى يمكن أن يصل عدوها المجهول لكى يتخلص ردموند جرانج منها.... إلى الأبد؟

كتبت هذا فى تيريموتو بقلمى الأخضر التفاحي. واستغرقت كتابته منى أربعة أيام، وهذا بطيء للغاية. عادة كنت أكتب قصصى "أزياء قوطية" على الآلة الكاتبة وعيناى مغلقتان. كانت طريقة لمنع نفسى من رؤية ما كتبته على الصفحة، أما باللون الأخضر التفاحى فقد كان أكثر بشاعة مما قصدت.

قررت أنى لابد أن أقوم بالرحلة إلى روما لشراء الآلة الكاتبة وصبغة الشعر، فلن أنتهى أبدًا من قصة شارلوت بهذا المعدل الذى كنت أسير عليه، ومستقبلى المالى يعتمد على مستقبلها المالي، وكلما تأسس مستقبلها هذا بأمان بشكل أسرع، كلما كان ذلك أفضل.

فى هذا الوقت، كانت معرضة للخطر، عذرائى الأبدية الهاربة، معبودتى التى تجلب لى النقود السريعة. كان البيت خلفها،

وسيد البيت أيضًا، وربما سيدة البيت. كانت الأشياء تُضيّق الخناق حولها، رغم أنها حتى الآن كانت تتصرف بتعقل، فقد كانت فتاة شجاعة رفضت أن تستسلم للتهديد، وإلا لركبت الحافلة التالية وخرجت من المنطقة. أنا نفسى لم يكن لدى فكرة مطلقًا عمن مزق ملابسها، وبالطبع سيشترى ردموند لها ملابس جديدة، وستكون مناسبة تمامًا لها، بعكس الأشياء الرثة التى كانت ترتديها. وسوف تتردد فى قبولها، ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ فليس بيدها شيء. دائمًا تحدث أشياء سيئة لملابس بطلاتي: زجاجات الحبر تُسكب فوقها، أو تحدث لها ثقوب نتيجة حريق، أو تلقى من النوافذ، تقطيع ـ تمزيق. فى قصة "أبراج تانتريب" قام شخص ما بحشو ملابس البطلة كلها بالقش، مثل الفزّاعة (خيال المقاتة)، أو دمية مسحورة وألقى بها لتطفو فى النهر. وذات مرة دفنت الملابس فى قبو. لكن فليشيا لن تعجبها ملابس شارلوت الجديدة. ستقول لردموند: "إذا كنت ستتخذ هذه الفتاة عشيقة لك يا ردموند فأود أن تفعل ذلك فى مكان آخر". سوف تقول ذلك على مسمع من شارلوت. كانت امرأة ساخرة، وقد اعتادت طيشه.

وضعت المسودة فى درج ملابسى الداخلية، وارتديت زيى التنكري، وأغلقت الباب خلفى بعناية ثم خرجت متوجهة إلى روما.

القيادة فى إيطاليا جعلتنى عصبية، فالناس هناك يتعاملون مع السيارات وكأنها جياد. لم يكونوا يفكرون بلغة الطريق، ولكن بلغة

المكان الذى يريدون الذهاب إليه. فالطريق هو حيث يريد شخص آخر لك الذهاب منه، الطريق إهانة. كنت معجبة بهذا الموقف طالما لم أكن أنا التى أقود، فلما توليت القيادة جعلنى ذلك عصبية. كان الطريق من المدينة سلسلة من التعاريج بلا سياج أو علامات. كنت أطلق آلة التنبيه طوال طريق النزول على التل فيقفز الدجاج والأطفال متفرقين.

تمكنت من الوصول إلى تيفولى بدون حوادث، ثم انحدرت بالسيارة أسفل التل إلى السهل، ولاحت روما على مسافة غير بعيدة. وكلما اقتربت منها ازدادت وعورة الطريق، وكثرت الأنابيب الضخمة وآلات وماكينات عملاقة حمراء وزرقاء وبرتقالية، رقدت متناثرة مثل عظام الديناصورات على جانبى الطريق الرئيسي. ورجال يحفرون، وينقبون، ويمزقون الأرض، ويتركون كل ذلك. بدأت تصبح مثل أمريكا الشمالية، مثل أى مدينة مهملات كبيرة. أصبح الطريق الآن مزدحمًا بالشاحنات، الصغيرة منها والكبيرة، بمقطورات تحمل المزيد من الأنابيب، والمزيد من الماكينات، ذهابًا وإيابًا، ولكنى لم أستطع أن أعرف ما إذا كان ذلك دليلاً على النمو أو التخلف. كل ما رأيته هو أن البلاد كانت تتأرجح على حافة الفوضى وسوف تقع فى مجاعة وثورة فى الأسبوع التالي. ولكنى لم أكن أستطيع قراءة الجرائد، وكوارث هذا المشهد كانت خافية عنى. ورغم الأنابيب والماكينات، فقد سرت بالسيارة بهدوء، وكأننى داخل فيلم

سينمائي. كانت السماء زرقاء والأضواء ذهبية، وكتل ضخمة من المبانى السكنية تحيط بجانبى الطريق إلى روما، شرفاتها مزينة بحبال الغسيل، ولكنى لم أستطع تخمين أى نوع من الحياة يجرى داخلها. فى بلدى كان يمكن أن أعرف، ولكن هنا كنت صماء خرساء.

شققت طريقى خلال المرور المختنق ووجدت مكانا لوقوف السيارة. كان مكتب الأمريكان إكسبريس مزدحمًا، طوابير طويلة من النساء يرتدين نظارات شمسية مثل نظارتي، ورجال فى بذلات صيفية مُجعّدة، يسدون الشبابيك. كان الدولار الأمريكى غير مستقر والبنوك ترفض دفع المقابل النقدى للشيكات السياحية. فكرت أننى كان لابد أن آخذ معى نقودًا كندية، وبعد انتظار دورى حصلت على بعض النقود، وذهبت للبحث عن آلة كاتبة.

عثرت على واحدة مستعملة ماركة أوليفيتى، واشتريتها مستخدمة معلوماتى المحدودة عن اللغة الإيطالية ومستعينة بإشارات الأصابع، ثم خرجت من المحل مثقلة بالآلة الكاتبة، ورغم هذا شعرت أنى خفيفة مثل راقصة، مجهولة وغير مراقبة من جمهور السائرين على الرصيف، الذين لن أضطر أبدًا إلى معرفتهم.

ثم فجأة تذكرت آرثر. كان من قبل هنا معي، وكنا سويًّا فى نفس هذا الشارع. أستطيع أن أشعر أنه لا يزال بجانبي، وكأنه حقيقة

ملموسة، كانت أيدينا متشابكة، ووقفنا لنتشاور حول الخريطة، هنا تمامًا، أمام هذا المحل. إنه حتى له نفس الرائحة، هل حدث ذلك بالفعل أم أن ذلك من وحى خيالي؟ هل تمشينا حقًا معًا فى متاهة الشوارع الرومانية؟ هل تسكعنا بسيارة فيات مستأجرة؟ هل سقنا السيارة بطول طريق أبيان وعلى جانبيه القبور وما يشاع عن الأشباح؟ هل نزلنا إلى سراديب الموتى، المليئة برفات المسيحيين الأوائل؟ هل قام بإرشادنا قسيس بلغارى قصير القامة؟ هل صعدنا مرة ثانية بعد ثلاثين دقيقة؟ هل تجولنا مرات فى المسرح الرومانى غير قادرين على العثور على المخرج الصحيح بينما صوت الشاحنات يدوى وهى تمر على الجانبين، محملة بالمعادن والأسمنت والأعمدة، وأسود لألعاب السيرك، وغنائم وعبيد؟ كانت قدماى تؤلماننى ولكنى كنت سعيدة.

كان آرثر معي، ولكنه ليس معى الآن، كنا نمشى بطول شارع مثل هذا، ثم اندفع المستقبل بقوة وجرفنا، وانفصلنا. هو على مسافة بعيدة الآن ــ عبر المحيط، على شاطئ، شعره يهفهف فى الرياح، أستطيع بصعوبة تبين ملامحه. كان يتحرك فى سرعة متزايدة بانتظام بعيدًا عنى، إلى أرض الموتى، الماضى الميت، غير القابل للاسترجاع.

الفصل الثالث عشر

قابلت آرثر لأول مرة فى حديقة هايد بارك. كانت مصادفة: اصطدمت به بين متحدث معارض لتشريح الأحياء لأغراض علمية، ورجل كان يتنبأ بنهاية العالم. كنت أعيش فى ذلك الوقت مع نبيل بولندى فى لندن، وكنت لا أزال غير متأكدة كيف وصلت إلى هذه الحال.

عندما خرجت من الباب الرئيسى لمنزل أمى قبل عامين، وأغلقت الباب برفق خلفى حتى لا أوقظها، لم يكن ذلك هو ما خططت له، بل لم يكن لدى فى الواقع أية خطط على الإطلاق. كانت معى حقيبة ملابس وحقيبة يدي. وكانت حقيبة الملابس تحتوى على القليل من الملابس التى لا تزال تلائمني. تنورات بأحزمة يمكن تضييقها، وبلوزات يمكن جمعها ودس أطرافها داخل التنورات؛ كان لابد أن أتخلى عن كل ملابسى على مدى السنة التى كنت أنقص وزنى فيها، كان ذلك فى أواخر شهر يونيو، تقريبًا يوم عيد ميلادى التاسع عشر، كنت قد أديت امتحانات الصف الثالث عشر، وكنت أعلم أنى لابد راسبة فى أربع مواد على الأقل، ولكن النتائج لن تظهر قبل شهر أغسطس، وعلى أية حال لم أكن أهتم.

كان ثعلب العمة "لو" فى حقيبة ملابسي، واحتفظت فى حقيبة يدى بشهادة ميلادها، وصورة تجمعنا سويًّا التقطت لنا فى المعرض القومي، ومعى نحو ثلاثين دولارًا، سبعة عشر دولارًا كانت ملكي، وثلاثة عشر أخذتها من الصندوق الذى كانت أمى تضعه فى المطبخ وتحتفظ فى داخله بعملات صغيرة، سوف أعيد هذا المبلغ فيما بعد. وكنت لا أزال غير قادرة على الحصول على ميراث العمة "لو" حيث لا يزال وزنى أكثر من المطلوب، ولكنى كنت أملك مالاً فى البنك جمعته من عملى فى بعض الوظائف، ويمكن أن أحصل على بعضه فى الصباح.

ركبت الأتوبيس إلى وسط المدينة حيث نزلت فى فندق رويال يورك. جعلنى ذلك عصبية، حيث لم أنزل أبدًا بفندق من قبل. استخدمت اسم عمتى "لو"، فلم أكن أريد أن تقتفى أمى أثرى. وكان ذلك تصرفًا غبيًّا، فهى سوف تكتشف فورًا اسم العمة "لو" ، ولكنى لم أكن أفكر فى ذلك، وإنما كنت أفكر فى مواجهة اعتراض موظف الاستقبال لكونى أصغر من السن القانوني. وعندئذ سوف أخرج شهادة ميلاد عمتى وأتظاهر بأنى فى التاسعة والأربعين.

ولكن كان كل ما قاله هو: "أهناك أى شخص معك؟"

قلت: "لا". نظر خلف كتفى إلى الردهة المزخرفة ليتأكد من صدق كلامي، ولم يطرأ بذهنى فى ذلك الوقت أنه يمكن أن يشك أنى

كنت عاهرة. وأرجعت نجاحي ليس إلى حقيقة أن الردهة كانت خالية من أى شخص، ولكن إلى القفازات البيضاء التى ارتديتها كرمز للبلوغ والوضع الاجتماعي. كانت أمى تقول: "أى سيدة محترمة لا تخرج أبدًا من بيتها دون أن ترتدى قفازها". وكانت العمة "لو" تفقد قفازاها باستمرار.

(ربما كان فندق رويال يورك هو الذى ألهمنى دنيا الخيال الزائفة لمسرات القرن التاسع عشر، سجاجيد حمراء وثريات وكرانيش معمارية وأفاريز ومرايا من الأرض إلى السقف وأرائك قطيفة بالية ومصاعد مزركشة بالنحاس. حيث يمكن تتبع أول مثيرات إبداعى إلى هناك. بدا لى أن مثل تلك البناية قد صممت من أجل شخصيات أخرى بعيدة تمامًا عن الشخصيات التى يمكن أن تجدها هناك بالفعل من رجال الأعمال المتثاقلين وزوجاتهم الغامضات. هذا المكان يتطلب أردية سهرات ولياقة ومراوح يد، وفساتين تكشف عن الكتفين، مشابهة لتلك المرسومة على صناديق شيكولاتة لورا سيكورد، تنورات مثبتة بأسلاك، ورجال متأنقين. وقد تضايقت عندما أعادوا تعديل المكان).

وبمجرد أن ذهب خادم الفندق أخيرًا ــ كان قد ظل يتسكع طويلاً يفتح ويغلق مفاتيح الإضاءة وستائر النوافذ حتى تذكرت ما كنت قد قرأته حول البقشيش ــ فتحت كل أدراج المكتب. كنت أتوق لكتابة ملحوظة رائعة عن الثبات الأرستقراطي، ولكن لم يكن هناك

أى ورق على الإطلاق أستطيع أن أكتب عليه. أخذت حمامًا، مستخدمة كل الفوط، وغسلت شعرى ولففته على بكرات شعر مغطاة بشبكة بلاستيكية. كنت طوال الوقت وأنا بدينة أقص شعرى قصيرًا ليظهر دوران وجهي. وكانت أمى لا تتوقف عن تقديم مقترحات لتحسين هيئته، كانت تريدنى أن أقصه بهذه الطريقة أو تلك، ولكنى كنت أرفض كل مقترحاتها. والآن تركت شعرى يطول لعام كامل، أصبح بطول الكتف، أحمر داكنًا ومستقيمًا، ولم أكن أتركه مسترسلاً، ولكنى أبقيته إلى الوراء بدبوس شعر خلف كل أذن. وبعد أن لففت شعرى بعناية، وقفت أمام مرآة خلف باب الحمام بطول الباب، وتفحصت نفسى مثلما يتفحص وكيل العقارات مستتقعًا ناظرًا إلى التطورات المستقبلية للمكان. كان وزنى لا يزال زائدًا، وكنت لا أزال متهدلة. كانت هناك علامات ممتدة على فخذي، وكان وجهى يشبه وجه سيدة بيت فى الخامسة والثلاثين ولها أربعة أطفال وزوج متسكع. كنت أبدو بالية. ولكن كانت عيناى خضراوين، وأسنانى صغيرة بيضاء. ومن حسن الحظ أنه لم يكن لدى نمش، وليس أمامى إلا ثمانية عشر رطلاً وأذهب إلى محامى العمة "لو"...

فى الصباح اشتريت صحيفة وتفحصت بدقة فى الإعلانات بحثًا عن غرفة. وعثرت على واحدة فى شارع إيزابيلا، ثم أجريت اتصالاً بمالكة العقار، وقدمت نفسى فى التليفون كفتاة عاملة فى مكتب تبلغ خمسة وعشرين عامًا، لا تشرب الخمر ولا تدخن، ولملمت

شعرى إلى الخلف، وارتديت قفازى الأبيض، وذهبت لأرى الغرفة. انتحلت اسم الآنسة ل. ديلاكورت، واستخدمت أيضًا هذا الاسم عندما فتحت حسابًا بنكيًّا جديدًا فيما بعد فى نفس اليوم. سحبت كل مالى من الحساب الآخر وأقفلته، لم أرد أن تقتفى أمى أثرى. كانت هذه هى بداية شخصيتى الثانية. وكنت مندهشة من أن كل شخص كان يصدقنى بسهولة، ولكن ما الذى كان يدعوهم للارتياب؟

وبعد ظهيرة ذلك اليوم ذهبت إلى المستشفى لأرى أبى. لم أكن قد دخلتها أبدًا من قبل، ولذلك لم أكن أعرف كيف أصل إليه. سألت موظفى الاستقبال، وسأل بعضهم البعض، حتى اكتشفوا أنه فى غرفة العمليات. وطلبوا منى أخذ موعد أو البقاء فى منطقة الاستقبال ـــ لم أكن قد أعلمتهم أنى ابنته ـــ وقلت أنى سوف أنتظر. ولكنى سمعت رقم الدور، وعندما تيقنت من أن لا أحد يراقبنى قمت بهدوء وذهبت إلى المصعد.

وقفت خارج الباب أنتظر، وأخيرًا خرج. لم أكن قد رأيته أبدًا من قبل يرتدى زيه الرسمي، كان يرتدى غطاء رأس ومعطفًا أبيضين، وقناعًا يغطى النصف السفلى من وجهه، والذى كان يقوم بخلعه. وبدا مثيرا للإعجاب أكثر كثيرًا مما كان عليه دائمًا فى البيت، كان يبدو شخصًا ذا نفوذ، وكان يتحدث مع طبيبين آخرين. واضطررت لأن أنادى عليه حتى يلحظ وجودي.

قال بلا انزعاج: "كانت أمك مريضة بالقلق".

قلت: "لقد كانت مريضة بالقلق طوال حياتي، أردت فقط أن أقول لك إننى بخير. ولن أعود إلى المنزل، فلدى غرفة ومال يكفيني".

حدق فيّ بنظرة لم أستطع فى ذلك الوقت تقييمها، لأنه كان من النادر أن يوجه مثلها نحوى. كانت تعبر عن الإعجاب، أو حتى الحسد: لقد فعلت ما لم يستطع هو نفسه أن يفعله، لقد هربت بعيدًا.

قال: "هل أنت متأكدة أنك بخير؟" وعندما أومأت بالإيجاب قال: "لا أظن أنى أستطيع أن أحثك على الذهاب لرؤيتها".

قلت: "لقد حاولت قتلي، ألم تخبرك بذلك؟" كنت أبالغ، فالسكين لم تتسبب فى جرح غائر، ولكنى أردت أن أؤكد له أنها لم تكن غلطتي. "لقد طعنتنى بالسكين فى ذراعي"، وشمرت كمى لأريه الإصابة.

قال: "ما كان يجب أن تفعل ذلك"، وكأنها فعلت ذلك باليد اليسرى، بينما كان المطلوب هو اليد اليمنى، "أنا متأكد أنها لم تقصد ذلك".

وافقت على مداومة الاتصال به ــ وحافظت على هذا الوعد، تقريبًا ــ ولكنى رفضت أن تكون لى أى صلة أخرى مع أمي. وتفهم موقفي. قال ذلك بنفس هذا التعبير، مثل شخص قضى وقتًا طويلا

يتفهم مواقف الناس. كنت أتذكر تلك العبارة، وتبين لى بعد وقت طويل أن أحدًا لم يكن يتفهم موقفه، لا أنا، ولا أمي، ولا العمة "لو"، ولا أى شخص. ولا أعتقد أن ذلك كان بسبب أنه ليس لديه موقف. كان موقفه موقف رجل قتل أناسًا وأعادهم إلى الحياة، وإن لم يكن نفس الأشخاص، وتلك الألغاز الغامضة من الصعب توصيلها إلى الآخرين. والأدهى من ذلك، كان موقفه موقف الرجل الذى يرتدى نعلين من الجلد النبيتى ويعتنى بالنباتات المنزلية فى العطلات الأسبوعية، ولهذا السبب كان يعامل كمغفل لا أهمية له من جانب زوجته. كان رجلاً محبوسًا فى قفص، مثل معظم الرجال، ولكن ما جعله مختلفًا هو اشتغاله بالأحياء والموتى.

ولعدة شهور تلت ذلك كنت أقيم فى غرفتى بشارع إيزابيلا، التى كنت أدفع لها أربعة عشر دولارًا أسبوعيًّا. وتضمن ذلك تغيير الأغطية والفوط وموقد تسخين كنت أغلى عليه الشاى وأعد وجبات سريعة ذات سعرات منخفضة. كان البيت نفسه من الطراز الفيكتورى ذى القرميد الأحمر ـــ وقد أزيل هذا المبنى فيما بعد وأقاموا مكانه بناية مرتفعة ـــ وكانت له طرقات مظلمة بأرضيات خشبية تحدث صريرًا، والسلم الذى كان مفيدًا لى فى مناسبات عديدة ("انزلقت إلى أعلى السلم، يد واحدة على الدرابزين...")، ورائحة دهان قطع الأثاث الخشبية، وتحت رائحة الدهان كانت هناك رائحة أخرى، من المحتمل أن تكون رائحة قيء. وكان المنزل والمنطقة كلها مقامة على

المنحدر، ولكن صاحبة المنزل كانت اسكتلندية وحادة الطباع، لذلك فأي تقيؤ كان يحدث خلف الأبواب المغلقة.

كان هناك آخرون يقيمون فى البيت، ولكنى نادرًا ما كنت أراهم، جزئيًا بسبب كثرة خروجي. كنت أهرول مسرعة وأنا أنزل على السلم كل صباح وكأنى كنت ذاهبة إلى العمل، ولكن فى الحقيقة كنت أجوِّع نفسى حتى أكون قادرة على الحصول على نقود العمة "لو". وفى المساء كنت أعود إلى الحجرة وأقوم بغلى باكو من حبوب البازلاء أو قطعة من لحم البقر المملح على الموقد ذى الشعلة الواحدة، وبينما كنت أتناول طعامى كنت أتذكر العمة "لو" بأسى. الآن وقد ماتت فليس لى أى شخص أتحدث معه؛ كنت أخرج ثعلبها الفرو، الذى تفوح منه رائحة النفتالين، وأنظر إليه، على أمل أن يفتح فمه بمعجزة ويتحدث، بصوت العمة "لو"، كما كان يفعل فى طفولتي. حاولت الذهاب إلى السينما، وحدي، ولكنها أصابتنى بمزيد من الاكتئاب، وفى غياب العمة "لو" كان لزامًا علىَ أن أتعامل مع ملاحظات الرجال الغرباء، التى كانت تقطع مشاهدتى للأفلام. وفى أغسطس ذهبت إلى المعرض القومى الكندي، كانت رحلة مثيرة للانقباض. لم أذهب إلى هناك مع العمة "لو" منذ ثلاث سنوات ـــ لابد وأنها شعرت أنى أصبحت كبيرة جدًا على الذهاب إلى هذا المكان ـــ وبدا المكان مختلفًا، أكثر زيفًا بشكل ما، المرح يبدو مفتعلاً.

كنت أذهب كثيرًا إلى المتحف ومعرض الفن، وأماكن كنت أستطيع أن أتمشى فيها وأتفرج كما لو كنت أفعل شيئًا ما، أماكن لا أتعرض فيها لإغراء الطعام. ركبت الأتوبيس فى رحلات طويلة: إلى سانت كاترين، إلى لندن، إلى أونتاريو، وندسور، وبافالو، وسيراليوس، وألبانيا. كنت أبحث عن مدينة أستطيع أن أنتقل إليها حيث أكون حرة فى اتخاذ شخصية تختلف عنى أنا ذاتي. لم أكن أريد أى شيء مختلف جدًا أو مروعًا، أردت فقط أن أكون فى مكان يناسبنى بدون أن أكون معروفة لأحد.

وخلال تلك الرحلات بالأتوبيس اكتشفت أن هناك شيئًا ينقص شخصيتي. جاء هذا النقص من أنى كنت بدينة، كان شيئًا يشبه عدم الشعور بالألم، فالشعور بالألم والخوف يحميان إلى حد معين. لم أكتسب أبدًا مشاعر الخوف الطبيعية لدى الأنثى: الخوف من المتطفلين، الخوف من الظلام، الخوف من الضوضاء اللاهثة على التليفون، الخوف من مواقف الأتوبيس والسيارات المتباطئة، الخوف من أى شخص أو أى شيء خارج دائرة سحرية تُعرف بالأمان. لم يسبق لى أن عاكسنى أحد بصفارة أو قرصنى بيده فى أحد المصاعد. لم يتبعنى أحد أبدًا وأنا أسير فى الشوارع بمفردي. لم أجرب الرجال كعدوانيين فاسقين، ولكن كمخلوقات خجولة مراوغة لا تستطيع أن تفكر فى شيء تقوله لي، وتبتعد عند اقترابي. وعلى الرغم من أن أمي حذرتنى من الرجال الأشرار فى الوادي، فعند وصولى إلى سن

البلوغ كانت تحذيراتها جوفاء، فمن الواضح أنها لم تكن تصدق أننى سوف أتعرض أبدًا للأذى، ولا أنا تعرضت له. كان ذلك مثل محاولة إيذاء لاعب كرة سلة عملاق. ورغم أنى اختزنت صورًا لنضوجى الشخصى تذوب أنوثة ورقة، إلا أننى فى داخلى كنت أعلم أنى سأكون قادرة على الإلقاء بأى معتد محتمل أرضًا بمجرد نفخة فى وجهه، ولذلك فعندما تقلص جسدى إلى الحجم الطبيعى لم يكن يراودنى أى من تلك المخاوف، وكان لابد أن أحاول اكتسابها. لابد وأن أنبه نفسى دائمًا: لا تذهبى إلى هناك بمفردك، لا تخرجى فى الليل، عيناك للأمام، لا تنظري، حتى لو كان يثير اهتمامك، لا تتوقفي، لا تخرجى من السيارة، استمرى فى طريقك.

كنت أجلس وسط الأتوبيس، وخلفى يجلس رجل يدخن سيجارًا، ورجل غريب بجانبي. وكل عدة ساعات نتوقف لدى أحد المطاعم الواقعة على جانب الطريق حيث أقوم برحلات وأنا شبه نائمة إلى دورات مياه السيدات، التى تفوح منها دائمًا رائحة المطهرات والصابون السائل. وهناك أمسح من على وجهى بمناشف ورقية مبللة أدخنة السيارة المسمرة والملوثة بالزيت. وبعد ذلك، عندما يصطدم جانب رأسى بإطار النافذة المعدنى البارد، ويسترخى جسدى رغبة فى النوم، تظهر يد على فخذي، مختلسة، لا تتحرك، يد استطلاعية، متوترة.

عندما ظهرت الأيدى لم أستطع أن أتعامل معها. فاجأتني، لم يكن الرجال يلقون أى نظرات إلى فتيات بدينات، ولذلك لم تكن لدى خبرة، وكنت مجهدة بصورة خطيرة. لم تكن الأيدى تخيفنى ولا تثيرني، ولكنها جعلتنى أدرك أننى لم أكن أعرف ماذا أفعل. لذلك كنت أتظاهر بأنى لم ألاحظ؛ كنت أنظر خارج النافذة إلى المنظر الطبيعى الأسود القاتم، بينما كانت الأصابع المتسللة تزحف فوق فخذي. وفى المحطة التالية، استأذن بأدب وأنزل من الأتوبيس، وليس لدى فكرة عما يمكن أن أفعله بعد ذلك.

أحيانًا كنت أبحث عن فندق، ولكن فى أغلب الأحيان كنت أتوجه إلى مطعم محطة الأتوبيس، وآكل ما يمكننى أكله من الكعك وقطع الفطائر المحشوة بمعجون السمك. فى تلك الأوقات كنت أشعر بوحدة شديدة، كنت أتوق إلى أن أعود بدينة مرة أخرى، ستكون البدانة نوعًا من العازل، مثل الشرنقة، كما ستكون نوعًا من التنكر، أستطيع أن أكون مجرد متفرجة مرة أخرى، دون توقع شيء منى. فبدون عباءة البدانة السحرية التى كنت أختفى خلفها، شعرت أنى عارية، كشجرة أزيل لحاءها، وكأنى فقدت غطاءً ضروريًّا.

ورغم تلك الانتكاسات، كان وزنى ينقص. وصلت إلى الوزن المطلوب، وكنت أقف فى مواجهة ما تبقى من حياتي. أنا الآن شخص مختلف، وكأني ولدت كاملة النمو فى التاسعة عشرة من العمر: كنت فى القالب الصحيح، ولكن كان لدى الماضى الخطأ. لابد

أن أتخلص منه كلية وأنشئ ماضيًا جديدًا مختلفًا لنفسي، ماضيًا أكثر قبولاً. وقررت مقاطعة أى من الأماكن التى زرتها من قبل، والإقامة فى حجرة مؤجرة فى ألبانيا لن تختلف فى النهاية عن الإقامة فى حجرة مؤجرة فى تورنتو، فيما عدا أن هناك ستكون الفرصة أقل لأن أصادف أمى فى الطريق، أو أى شخص آخر يمكن أن يتعرف علىّ.

التفكير فى الاستمرار فى نفس النوع من الحياة دائمًا وأبدًا أصابنى بالاكتئاب. أردت أن أعيش أكثر من حياة واحدة، وعندما نزلت فى النهاية من فوق الميزان منتصرة فى مكتب السيد موريسى وتسلمت الميراث، ذهبت مباشرة إلى وكالة سفريات، واشتريت تذكرة طائرة إلى إنجلترا.

الفصل الرابع عشر

"لديك جسد إلهة"، اعتاد الكونت البولندى أن يقول ذلك فى لحظات عاطفة تأملية. (هل كان يتدرب على قول ذلك؟)

أجبت ذات مرة بخبث: "وهل لدىَ رأس إلهة كذلك؟"

قال: "لا تمزحى هكذا، ... لابد أن تصدقى، لماذا ترفضين الإيمان بجمالك؟"

ولكن أية إلهة كان يعنى؟ كنت أعرف أن هناك أكثر من واحدة. هناك واحدة على عبوة أقلام رصاص "فينوس"، على سبيل المثال، بلا أذرع ومغطاة كلها بالشقوق. بعض الإلهات ليس لهن أجساد على الإطلاق، هناك واحدة فى المتحف، ثلاثة رؤوس على رأس عمود، مثل حنفية حريق. كثيرات كن على شكل زهريات، أو أحجار، وجدت أن إطراءه كان غامضا.

كان الكونت البولندى مصادفة فى حياتي. قابلته أول مرة عندما زلت قدمى وسقطت من الأتوبيس ذى الطابقين بالقرب من ميدان ترافلجار. لحسن الحظ أنى لم أسقط من الطابق العلوي؛ كانت إحدى قدمى فى منتصف الطريق إلى الأرض، ولم أكن معتادة أن يتحرك الأتوبيس قبل أن يكون الناس قد نزلوا جميعًا منه بسلام، ولكنه تحرك فجأة من تحتي، مرسلاً إياى إلى الرصيف فانكفأت

باسطة ذراعي وقدمايّ. وتصادف ذلك مع مرور الكونت البولندى الذي التقطني ورفعني إلى أعلى.

في ذلك الوقت كنت أقطن في إحدى الغرف الرطبة، في منطقة ويلزدون جرين. عثرت عليها من خلال البيت الكندي، وهو أول مكان ذهبت إليه عندما وصلت إلى لندن. كنت أعاني من الحنين إلى الوطن بالفعل، لم أكن أعرف أحدًا، ولم يكن لدى مكان للإقامة، وكنت محبطة مما رأيته من إنجلترا في الأتوبيس القادم من المطار. كانت إلى حد بعيد تشبه ما تركته، فيما عدا أنه بدا وكأن يدين عملاقتين قد ضغطتا وجمعتا الأشياء كلها لتكون أقرب إلى بعضها. السيارات كانت أصغر، والمنازل مزدحمة، والناس أقصر، الأشجار فقط كانت أكبر، ولم تكن الأشياء قديمة وأثرية بالدرجة التي توقعتها. كنت أريد قلاعًا وأميرات، و"سيدة الشالوت" تتهادى في قارب على صفحة النهر المتعرج، كما في "قصائد قصصية للصغار"، التي درستها في الصف التاسع. بحثت عن كلمة "شالوت" في القاموس: شالوت: كراث، نوع من البصل الصغير، كان الهجاء مختلفًا، ولكن ليس اختلافا كبيرا.

قالت سيدة البصل الصغيرة:

أشعر بالسأم من العتمة

ثم كان هناك ذلك البيت الآخر الذى أثار ضحكا كثيرًا بين الأولاد، ومشاعر الحرج بين الفتيات :

صاحت سيدة الشالوت

لقد حلت علىّ اللعنة.

لماذا يعتقد الفتيان أن انحدار الدم على ساق الفتاة شيء مضحك؟ أم تُرى كان الرعب هو الذى دفعهم للضحك ؟ ولكن لم يكن لأى شيء من ذلك ما يصدني، كنت رومانسية رغما عني، وكنت أريد بالفعل، فى ذلك الوقت، أن أجد من يقول أن لدى وجهًا جميلاً، حتي لو لزم الأمر أن أتحول إلى جثة فى قاع مركب أولاً.

ومع ذلك، بدلاً من القلاع والسيدات، لم يكن هناك إلا الكثافة المرورية، وعدد ضخم من الناس قصار القامة وبأسنان مريضة.

كان " *البيت الكندى* "، عندما وصلت إلى هناك، عبارة عن بناية ضخمة من الرخام، رائعة ولكنها صامتة. كانت هناك امرأة تجلس خلف طاولة الاستقبال الخشبية القائمة فى غرفة خافتة الإضاءة أقرب إلى التجويف منها إلى الغرفة، وكان فيها عدد قليل من المواطنين الكنديين المتجهمين، يقرأون صحف تورنتو الصادرة من أسبوع، ويتسلمون بريدهم. سلمتنى المرأة قائمة غرف للإيجار. ونظرًا لأنى لم أكن أعلم شيئًا عن الطبيعة الطبوغرافية لمدينة لندن، فقد أخذت أول غرفة استطعت الوصول إليها، ولسوء الحظ كانت

الرحلة إلى وسط المدينة تستغرق ساعة كاملة بواسطة مترو الأنفاق، الذى كان يشبه واجهة ردهة استقبال مكتب سفريات مبطنة بالقطيفة الأرجوانية؛ وظللت أتوقع رؤية مساند للأقدام ومقابض للأيدي. فى المقابل كان مترو أنفاق تورنتو الجديد برقاقاته المطاطية الرقيقة ذات اللون الفاتح ورائحة محلات " سُم الأتربة " التى تفوح بداخله، أشبه بغرفة حمّام متنقلة. كنت أشعر أنى قروية، وعندما تركت مترو الأنفاق مشيت بطول شارع مصفوف بمحلات صغيرة جدًّا، وعدد غير صحى من هذه المحلات لبيع الحلوى. وكانت المرأة التى فى البيت الكندى قد رسمت لى خريطة بدائية، ونصحتنى أيضًا بشراء ورقة صغيرة من وريقات نبات القيقب وأن أعلقها على طية صدر سترتي، وبذلك لا يظن الناس خطأً أنى أمريكية.

كان البيت منزلا صغيرا على الطراز التيودورى (ذو علاقة بأسرة تيودر التى حكمت انجلترا من ١٤٨٥- ١٦٠٣)، ويشبه كل المنازل الواقعة على الشارع، طراز تيودورى مزيف، كوخ مزيف، بحديقة أمامية محاطة بسور. وكان مالك البيت رجلاً فظًّا يرتدى قميصًا بأكمام وحمالات، وبدا خائفًا من قيامى بعمل حفلات متسمة بالقصف والعربدة وترك المكان بدون دفع الإيجار. كانت الحجرة نفسها بالطابق الأرضي، تفوح منها رائحة الخشب المعطن، وكانت رطبة جدًّا لدرجة أن الأثاث كان يتعفن بالفعل ــ ولو ببطء شديد. ولما رقدت على سريرى الرطب أول ليلة، تساءلت ماذا لو كنت قد

أنقصت كل هذا الوزن وجئت كل تلك المسافة لأجل لا شيء. تسلق رجل أسود من النافذة الأمامية للغرفة، ولكن كل ما قاله كان: "ليست النافذة المطلوبة، آسف"، ثم قفز إلى الخارج مرة أخرى. استطعت أن أسمع أصواتًا باهتة آتية من حفلة صاخبة مقامة فى مكان أبعد بنفس الشارع. كنت أشعر بوحدة مريعة، وكنت أفكر بالفعل فى الانتقال إلى مكان آخر. شقة سوف تكون أفضل، ستكون لدى مساحة أكبر، ولكن هذه الغرفة معقولة الثمن، وكنت أريد أن تبقى نقود العمة "لو" أطول فترة ممكنة، وعندما تُنفق كلها سيكون عليّ أن أتخذ قرارًا، أختار ما يجب أن أفعله، أحصل على وظيفة (أستطيع أن أكتب على الآلة الكاتبة بطريقة اللمس)، أو أعود إلى المدرسة (ربما أستطيع أن أكون عالمة آثار على أية حال)، ولكنى لم أكن مستعدة بعد، لم أكن قد اعتدت حياتى الجديدة. قضيت كل حياتى أتعلم أن أكون شخصية معينة، والآن كنت شخصية أخرى مختلفة. كنت وأنا بدينة شاذة واستثناء من القاعدة، بالقيود التى فرضت عليّ، والآن وقد أصبحت حسب المعدّل النموذجي، إذا بى بعيدة جدا عن التعود على وضعى الجديد.

لم يكن من المفترض أن أطهو طعامى فى غرفتى ــ كان صاحب المنزل يشعر أن المستأجرين يتآمرون لإشعال النار فى منزله، وكان ذلك بالطبع صعبًا مع وجود تلك الرطوبة العالية ــ ولكن كان مسموحٌ لى أن أغلى برادًا فوق موقد غاز ذى عين واحدة.

كنت أستخدمه فى عمل الشاي، وأشربه وآكل البسكويت فى الفراش، وقد جمعت كل الأغطية ولففتها حولي. كنا فى أواخر شهر أكتوبر والبرودة شديدة، والحرارة فى غرفتى يتم التحكم فيها بوضع شلنات فى العداد الكهربائي، وكذلك كان حال المياه الساخنة فى الحمام المشترك؛ ولهذا السبب استحممت مرات قليلة، وبدأت أفهم لماذا كان الناس فى مترو الأنفاق تفوح منهم تلك الرائحة: لم تكن بالضبط رائحة القذارة، ولكنها رائحة المحصورين فى مكان ضيق، وفيما عدا الشاى والبسكويت كنت آكل فى مطاعم رخيصة، وتعلمت بسرعة أن أتجنب الأشياء التى كنت آكلها بصورة عادية. اكتشفت أن النقانق تعنى شيئًا رفيعًا ضاربًا إلى الحمرة، وتُقلى فى دهن الضأن، أما الهامبورجر فكان عبارة عن نشارة خشب لونها بيج وتوضع فى رغيف صلب، واللبن المخفوق له مذاق الطباشير. أكلت سمك وبطاطس، أو بيض، أو بسلة وبطاطس، أو سجق وهريسة، واشتريت قميصًا داخليًّا.

بدأت أشعر أنى يجب أن أفعل شيئًا ما إلى جانب مراقبة تضاؤل قيمة شيكاتى السياحية. من المفترض أن يكون السفر توسعة، لماذا كنت أشعر أنى أكثر ضيقًا. فاشتريت خريطة لإنجلترا، وانتقيت منها أسماء تبدو مألوفة لى من المدرسة الثانوية، مثل يورك، أو أسماء كانت تأسرني، مثل ريبون، وكنت أذهب إلى تلك الأماكن بالقطار وأقضى الليل فى إحدى الحانات من الدرجة الثانية، أو فنادق

المسافرين، وأعود فى اليوم التالي. زرت المبانى التاريخية والكنائس، وجمعت الكتيبات التى كانت لديهم على الأرفف مع إعلان أنها مقابل نصف شلن، لم أكن دائمًا أدفعه، تعلمت ماذا يكون "منور الكنيسة"، واشتريت بطاقات بريدية، وهى التى جعلتنى أشعر أننى فى مكان ما. وأرسلت تلك البطاقات إلى أبى على عنوان المستشفى، وعليها تعليقات غامضة، مثل "بج بن ليست بج" (أى ليست كبيرة)، و"لماذا يسمونها مقاطعة البحيرة ؟ ينبغى أن تسمى مقاطعة البركة، ها ها". بدأت أشعر أن إنجلترا كانت رسالة مكتوبة بنوع من الشفرة لا أعرف كيف أفك رموزها، وأننى لابد أن أقرأ كمية كبيرة من الكتب لكى أفهمها.

كنت قد قضيت فى إنجلترا ستة أسابيع عندما سقطت من الأتوبيس، وساعدنى الكونت البولندى على الوقوف، وشكرته. وكانت بداية بسيطة للغاية.

كان أقصر منى قليلاً، ولديه شعر ناعم يميل لونه إلى البنى وينحسر عن جبهته، وله كتفان منحدرتان، ويرتدى عدسات نظارة بدون إطار، لم تكن تتماشى مع الموضة فى ذلك الوقت. وكان يرتدى سترة زرقاء داكنة بالية قليلاً، ولامعة، ويحمل حقيبة صغيرة. ولكى يساعدنى على النهوض وضع الحقيبة جانبا، ووضع يديه تحت إبطيّ، ورفعنى بشهامة، وكنت على وشك إسقاطه معى على الأرض، ولكننا استعدنا توازننا، ثم التقط حقيبته.

سألنى بلهجة إنجليزية ركيكة: "هل أنت على ما يرام؟". ولو كنت إنجليزية لاستطعت أن أدرك أنه كونت بولندي، ولكنى لم أكن.

قلت: "أشكرك جدًّا". تمزق جوربي، وأصبت بسجحات فى ركبتي، والتوى كاحلى بشدة.

قال: "لابد أن تجلسى وتستريحي". ثم قادنى عبر الشارع إلى مطعم يدعى على ما أذكر "البيضة الذهبية"، وأحضر لى كوبًا من الشاى وفطيرة عنب أسود، مهروس قليلاً. كان سلوكه عطوفًا ولكن متواضعٌ، وكأنى كنت طفلة حمقاء على غير المعتاد. قال مبتسمًا: "تفضلي". لاحظت أن له أنفًا معقوفًا، غير أنها لم تكن مؤثرة نسبة إلى طوله.

قال: "هذا الشاى علاج إنجليزى لكل شيء، إنهم أناس غرباء".

سألته: "ألست إنجليزيًّا؟"

عيناه ــ اللتان كانتا رماديتين تميلان إلى الاخضرار، أو ربما خضراوين مائلتين إلى اللون الرمادى ــ غامتا خلف عدستىّ نظارته، وكأنى سألته سؤالاً شخصيًّا وقحًا. قال: "لا، ولكن فى هذه الأيام يجب على المرء أن يتكيف. أنت بالتأكيد أمريكية".

شرحت له أنى لم أكن كذلك، وبدت عليه خيبة الرجاء. سألنى إن كنت أحب التزلج على الجليد، وأجبته إنى لم أتعلم التزلج أبدًا.

فقال بشكل مبهم: "إنى أدين بحياتى للتزلج. كل الكنديين يمارسون رياضة التزلج، كيف يمكن التنقل فوق الجليد بطريقة أخرى؟"

قلت: "بعضنا يستخدم المزالق. حيرته الكلمة فشرحت له معناها.

وبعد أن انتهيت من الشاي، شعرت أن الوقت قد حان لأشكره بلطف على عطفه ثم أغادر المكان، وإلا فسوف يكون علينا أن نتبادل رواية قصص حياتنا، وكانت قصة حياتى تشعرنى بكآبة تجعلنى غير راغبة فى فعل ذلك. وهكذا شكرته ووقفت، ثم جلست مرة أخرى، كان كاحلى متورمًا، ولم أستطع أن أسير عليه.

أصر على أن يصطحبنى طوال طريق العودة إلى ويلزدون جرين، وسندنى وأنا أعرج إلى محطة مترو الأنفاق، وبطول الشارع المار بمحلات الحلوى.

قال عندما رأى المنزل الذى أقطن به: "ولكن هذا شيء مروع. لا يمكنك أن تعيشى هنا. لا أحد يستطيع أن يعيش هنا"، ثم تطوع بأن يلف كاحلى بفوطة معصورة بالماء البارد. كان يفعل ذلك وهو راكع أمامى بينما كنت جالسة على السرير، عندما ظهر صاحب المكان، وأعطانى إشعارًا بإخلاء الغرفة فى خلال أسبوع. قال له الكونت البولندى إن كاحل السيدة مخلوع. رد صاحب المنزل بأنه لا يعنيه ماذا انخلع، وينبغى أن أغادر يوم الخميس، حيث أنه لا يستطيع أن

يستوعب هذا النوع من التصرفات فى منزله. كأن منظر قدمى العارية المتورمة قد ضايقه.

وعندما ذهب، قال الكونت البولندى مستهجنًا: "هؤلاء الناس عقولهم صغيرة، الإنجليز، أمة من أصحاب المتاجر". لم أكن أعرف أن هذه العبارة كانت اقتباسًا معروفًا، وفكرت أنها تدل على ذكائه. كنت قد صدمت عندما ذهبت لزيارة الأثر الحجرى المسمى "ستون هنج"، فوجدته محاطًا بسياج وله بوابة لقطع التذاكر. سألني: "هل رأيت برج لندن؟" لم أكن. قال: "سنذهب غدًا إلى هناك".

"ولكنى لا أستطيع السير!"

"سوف نذهب بتاكسي، ثم نستقل مركبًا". لم يسألني، ولكنه قرر ذلك، فلم أستطع أن أقول لا. كما أنه بدا كبير السن بالنسبة لي، كان فى الواقع يبلغ الحادية والأربعين، ووضعته تحت تصنيف "مسن"، وبالتالى فهو من الرجال غير المؤذيين.

وخلال تلك النزهة، حكى لى قصة حياته. وكان قد طلب الاستماع أولاً إلى قصتي، كما تدعو آداب المحادثة، فقلت إنى جئت إلى لندن لدراسة الفن فى مدرسة الفن، ولكنى اكتشفت أنه ليست لدى موهبة. تنهد وقال: "إنك فتاة حكيمة، إذ تكتشفين ذلك فى هذه المرحلة المبكرة من حياتك. لن تضللى نفسك بآمال زائفة. أنا نفسى رغبت ذات مرة أن أكون كاتبًا، وددت أن أكون مثل تولستوى، كما تعرفين،

ولكنى الآن منفى عن لغتى الأم، واللغة التى أتحدث بها لا تصلح لشيء فيما عدا استخدامها فى لوحة إعلانات؛ لغة ليس بها موسيقى، لغة لا تغني، لغة تحاول فقط أن تبيع لك شيئًا ما".

لم أكن أعرف من هو تولستوى، أومأت وابتسمت، واستمر فى رواية تاريخه الشخصي. كانت عائلته تنتمى إلى الطبقة العليا من المجتمع، قبل الحرب لم يكن كونت على وجه التحديد، ولكنه كان شيئًا أو آخر، وأرانى خاتمًا يحمل شعار أسرته، كان يرتديه فى إصبعه الصغير. كان النقش عليه يحمل صورة طائر أسطوري، العنقاء أو الغريفين ، نسيت أيهما. وقد تعرضت عائلته للإيذاء المتواصل تحت الاحتلال الألماني. ولكن عندما غزا السوفييت بلده، علم أنه لابد أن يغادر البلاد وإلا فسيُقتل.

قلت له: "لماذا؟ إنك لم تفعل أى شيء.."

نظر إلى نظرة إشفاق، وقال: "ليس الأمر ماذا فعلت، ولكن من أنت".

وحاول هو وستة آخرون الوصول إلى الحدود عن طريق التزحلق على الجليد، حيث كانوا سيلتقون هناك بمرشد يعبر بهم. ولكنه مرض فى الطريق، وأصر على أن يكمل الآخرون الرحلة بدونه، وزحف إلى كهف، وهو شبه واثق من أنه سيموت، لكن الآخرين قبض عليهم على الحدود وأُعدموا، أما هو فقد شُفى واتخذ

لنفسه طريقًا نحو العبور، كان يسافر بالليل مسترشدًا بالنجوم. وعندما وصل إلى إنجلترا، عمل فى غسل الأطباق بمطاعم "سوهو" ليعيش. وسرعان ما تعلم ما يكفى من اللغة الإنجليزية، وتمكن من الحصول على وظيفة كاتب فى بنك فى قسم تبادل العملات الأجنبية. "وها أنا فى نهاية سباق الموت، آخر فرد من عائلة الموهيكان". والواقع أنه ترك ابنة له وأم أيضًا فى بولندا، ولكن لم يكن له ابن ذكر، وهو الأمر الذى أثقل عليه.

كان رد فعلى الأول لهذه القصة هو أنى قابلت كذابًا، متعودا على الكذب وعاطفيًّا مثلى، ولكن كانت استجابتى الظاهرية المعتادة هى تصديق كل ما قاله لي، كما أحب أنا نفسى أن يصدقنى الآخرون، وفى هذه الحالة كانت الاستجابة صحيحة، نظرًا لأن قصته كانت حقيقية بالفعل. كنت متأثرة جدًّا، وبدا أنه ينتمى إلى عصر أفضل ولّى، حيث كانت الشجاعة ممكنة. كنت أعرج خلال الرحلة إلى برج لندن وقد توكأت على ذراعه المفتولة العضلات، ينتابنى مزيج من الأحاسيس الجديدة بالنسبة لي: شعرت بالأسف من أجله بسبب المعاناة التى مر بها، وأعجبت بشجاعته، ولدى شعور بالزهو لاهتمامه بي، وكنت أشعر بالامتنان لهذا، وكنت على الأخص مسرورة لأنه يرى أننى عاقلة حكيمة. وفيما بعد اكتشفت أن أى شخص تقريبًا سوف يقول لك أنك حكيم إذا اعترفت بأنه ليست لديك موهبة.

كان ذلك يوم الأحد. ويوم الاثنين كان لابد أن يعمل بالبنك أثناء النهار، ولكنه في المساء دعاني على العشاء في نادٍ للمغتربين البولنديين، كان مليئًا بجنرالات ذوي عين واحدة، وكونتات بولنديين آخرين. قال: "نحن القلة التي بقيت.... الروس قتلوا الباقين".

وسألته: "ولكن ألم تكونوا أنتم والروس معادين للألمان؟" ضحك برقة، وشرح الموقف ببعض الإسهاب.

أدهشني جهلي الشخصي، وبدا لي أن الأشياء من كل الأنواع كانت تحدث خلف ظهري، خيانات ومجاعات ومؤامرات دبلوماسية وجرائم قتل أيديولوجية ومآثر بطولية حُكم عليها بالإخفاق . لماذا لم يخبرني أحد؟ ربما فعلوا، ولكني لم أكن أستمع، كنت قلقة بشأن وزني.

يوم الثلاثاء صحبني إلى حفلة موسيقية في قاعة مُعدة لجمهور قليل العدد، الحجرة أقيمت لصالح إحدى المنظمات السياسية البولندية التي لم أسمع عنها أبدًا من قبل. وذكرت له أني لم أعثر بعد على غرفة أخرى.

فصاح: "ولكنك سوف تقيمين معي! لدي مكان جميل، جميل جدًّا... ساحر جدًّا، فيه غرف كثيرة. طبعًا لابد أن تفعلي ذلك". كان يسكن الطابق الثاني بكامله من منزل في كيسنجتون كان يملكه لورد إنجليزي في العقد العاشر من العمر، وكان أغلب الوقت في منزل

للرعاية الطبية، والطابق الثالث كانت تسكنه ثلاث فتيات عاملات، ولكن من طبقة محترمة، وقد أكد لي أنهن يعملن فى مكاتب.

اعتقدت أن عرضه لمشاركتى شقته كان من باب العطف، حيث أنه لم يكن قد لمسنى أبدًا، إلا ليساعدنى على عبور الشارع أو على السير، بسبب كاحلي، ولم تبدر منه أية إشارات ذات مغزى، وكنت مندهشة تمامًا عندما... بعد أن نظفت أسنانى بالفرشاة وكنت على وشك الصعود إلى الفراش (مرتدية، على ما أذكر، ثوبًا ثقيلاً من القطن على هيئة كيس كنت قد اشتريته الأسبوع قبل الماضى من محلات مارك وسبنسر)، كان هناك طرق رصين على الباب، وظهر هذا الرجل الذى لم أكن أعلم بعد حتى اسمه الأول عند المدخل، مرتديًا بيجاما بخطوط زرقاء وبيضاء. لقد فهم أنه سيذهب معى إلى الفراش، وفهم أننى فهمت ذلك أيضًا.

القصة التى حكيتها لآرثر فيما بعد، أنه تم إغوائى تحت شجرة صنوبر وأنا فى السادسة عشرة، بواسطة مدرب فى معسكر صيفى على القوارب الشراعية من مونتريال كانت كذبة. فأنا لم أُغتصب على الإطلاق.كنت ضحية لتزامن أعراض مدربة الرقص الآنسة فليج: إذا وجدت نفسك محاصرًا فى وضع لا تستطيع الفكاك منه بكرامتك، فالأفضل أن تدعى أنك اخترته، وإلا فسوف تبدو مثيرًا للسخرية، والبراءة لها أخطارها، وفى حالتى كانت إحدى تلك الأخطار أن الكونت البولندى لم يستطع أن يتصور أن يكون هناك

شخص ساذج إلى الدرجة التى كنت عليها. إذا أنت سألت امرأة أن تنتقل إلى شقتك، ووافقت هي، فمن الطبيعى أنها موافقة على أن تكون عشيقتك. إنه تعبير غريب: "عشيقة"، ولكن ذلك هو ما ظنه، وكانت تلك هى المقولات التى تترتب وفقًا لها حياته الجنسية: زوجات وعشيقات، ولم أكن عشيقته الأولى. بالنسبة له لم يكن هناك شيء يسمى "الحبيبة".

عند وصف قصة مدرب القوارب الشراعية من مونتريال لآرثر، حرصت على أن يتضمن الوصف بعض التفاصيل المثيرة، أضفت قليلاً من اللمسات الصغيرة المقنعة، مثل التصاق شوك شجر الصنوبر بمؤخرتي، ملابسه الداخلية المثيرة للسخرية، رائحة كريم الشعر، كنت ماهرة فى أشياء مثل هذه. وبالطبع لم أذهب فى حياتى إلى معسكر صيفي، أرادت أمى أن أذهب إلى مثل تلك المعسكرات، ولكن كان ذلك يعنى حبسى طوال شهرين مع مجموعة من فتيات المرشدات الساديات (المنحرفات جنسيا اللائى يُنزلن صنوف العذاب بأحبائهن)المفرطات فى النمو، دون وسيلة للفرار. ولذلك كنت أقضى الأجازات الصيفية راقدة بالمنزل آكل وأقرأ الكتب التافهة، بعضها تحتوى على تفاصيل مثيرة، وكانت تلك التفاصيل هى التى استخدمتها فى قصة حياتي.

عندما اكتشف الكونت البولندى أننى لم أكن طالبة الفن الفاشلة المستهترة كما كان يظن ــ عندما اكتشف أنه حرمنى من عذريتى ــ

ملأه الندم. قال بحزن شديد: "ماذا فعلت؟ يا طفلتى المسكينة، لماذا لم تقولى شيئًا؟" ولكن أى شيء كان يمكن أن أقوله لم يكن من الممكن تصديقه. وهذا هو السبب الذى جعلنى ألفق حياتي، مرارًا وتكرارًا، كانت الحقيقة غير مقنعة.

لذلك لم أقل شيئًا، وربت هو على كتفى بقلق. كان يشعر أننى فقدت فرصة زواج جيد بسببه، وأراد أن يعوضني، ولم يكن يفهم لماذا لم أكن أكثر انزعاجًا. كنت جالسة فى الفراش أرتدى ثوبى القطنى (لأن الجو كان باردًا ورطبًا فى شقته مثلما كان فى حجرتي)، أنظر إلى وجهه الطويل الكئيب ذى العينين الخضراوتين الرماديتين واللتين كان بهما حول خفيف. لقد ثبت لى رغم كل شيء أنى طبيعية، لقد اختفت هالة اللحم والشحم من حول جسدي، ولم أعد من بين غير القابلات للمس.

الفصل الخامس عشر

غالبًا ما كنت أتساءل ماذا كان يحدث لو بقيت مع الكونت البولندى بدلاً من الانتقال للسكن مع آرثر. ربما كنت سأصبح بدينة وراضية عن حياتي، أجلس فى شقته طوال النهار، مرتدية جلبابًا منقوشًا بالورود، أشتغل ببعض التطريز، وأقوم ببعض الإصلاحات، أقرأ كتبًا تافهة وآكل الشيكولاتة، وفى المساء نخرج لعشاء فى نادى الضباط البولنديين، وكنت سأعامل باحترام، إلى حد ما، كنت سأحظى بمكانة اجتماعية مرموقة، حيث أكون "عشيقة بول". ولكن ما كان هذا لينفع، لقد كان منهجيًا جدًا. كان اسمه الأول تاديو، ولكنه كان يفضل أن يُدعى بول، اسمه الثالث، على اسم سانت بول، الذى كان رجلاً منظمًا بلا نهايات غير محكمة. كانت فكرته عن الحياة الجيدة أنها يجب أن تكون مرتبة.

حتى هروبه عبر الحدود البولندية كان منظمًا. قلت معترضة: "ولكن كانت هناك مصادفة أنقذت حياتك!" فقال: "لا، كنت سأموت على أية حال ما لم أستخدم رأسي". لقد درس طريقه بدقة، وخرج من الغابة إلى النقطة التى كان يقصدها بالضبط. ولكى يظل مستيقظًا ويبدد الهذيان الذى أصابه، كان يردد جداول الضرب وهو يشق طريقه متثاقلاً خلال الجليد والظلام. (كان متثاقلاً لأنه كان قد أعطى زحافته لأحد أفراد المجموعة المنكوبة). لم يصب بالذعر، كما كان

يمكن أن يحدث لى لو كنت مكانه؛ لم يعر التفاتًا للأشكال الهندسية، وما تلاها فيما بعد من الوجوه المخيفة، التى كانت تظهر أمام ناظريه فى الهواء. أنا أيضًا رأيت تلك الأشكال والوجوه، خلال إصابتى بالتسمم فى الدم، واكتشفت أن استجابتى ـ وعلى الأخص لو كنت فى أعماق تلك الغابة البولندية الكثيفة الباردة المثيرة لليأس ـ يمكن أن تكون الجلوس على الجليد، والدعاء أم تحل بى أى كارثة وتقضى علىّ. التفاصيل قد تصرف انتباهي، بقايا الشمع وعظام أولئك الذين رحلوا، فى أى متاهة كنت سأترك الخيط من يدى لكى أتتبع ضوءًا شاردًا وصوتًا متلاشيًا، فلو كنت فى إحدى القصص الخيالية، لكنت إحدى الأختين الغبيتين التى فتحت الباب الممنوع وصدمت بالزوجات المقتولات، وليست الأخت الثالثة، الذكية، التى تلتزم بالمبادئ: ذات العقل الحاضر والبصيرة والأكاذيب المسبوكة. كنت أكذب، ولكنها لم تكن أكاذيب مسبوكة. لم يكن عقلى منضبطًا، كما كان آرثر أحيانًا يقول.

وكذلك فعل بول. كان شديد الالتزام بالوقت، كان لابد أن يغادر المنزل فى الساعة الثامنة والربع تمامًا، وقبل ذلك كان يقضى عشر دقائق بالضبط يلمع حذاءه وينظف بدلته بالفرشاة. كان يجد افتقارى للنظام شيئا ساحرًا، ولكن ليس لفترة طويلة، فسرعان ما كان يلقى خطبًا حول كم من السهل أن يعلق الإنسان ملابسه فى الوقت المناسب، بدلاً من تركها فى كومة على الأرض حتى الصباح التالي.

ولم يكن يتوقع الكثير منى، إلا تلك الأشياء القليلة التى كان يتوقعها بشكل لا مناقشة فيه. أعتقد أنه كان يعتبر تدريبى على العيش معه تحديًا تافهًا ومضجرًا، كنوع من تدريب كلب على عدد محدود من الحيل، يتعلمها بمهارة. كان يؤمن بالغرف المنفصلة، لذلك فقد كنت أنام على فراش قابل للطى فى الحجرة التى كان يسميها بالمكتبة. لم يكن بخيلاً أو قمعيًا بطبيعته، ولكنه كان رجلاً له مهمة خاصة، ولأننى كنت أنام فى المكتبة فسرعان ما اكتشفت تلك المهمة.

فى أول يوم، بعد أن خرج متوجهًا إلى البنك، نمت حتى الحادية عشرة. ثم استيقظت وتفقدت الشقة، فتحت دواليب المطبخ بحثًا عن شيء آكله، وأيضًا لاستكشاف شخصية هذا الرجل. كنت فضولية، ويمكنك أن تعرف الكثير عن الشخص من دواليب مطبخه. وهذه كانت مرتبة جدًا، السلع المعلبة سائدة، مع بعض أنواع الحساء المجففة المفيدة، وعبوة من البسكويت. وكان الطعام من نوعين، السلع الضرورية، ومواد غريبة: سمك حبار، على ما أذكر، وبعض من لحم الفقمة (التى تناولناها فيما بعد وكانت فاسدة الطعم وكثيرة الدهن). ثم تفقدت الثلاجة التى كانت خالية تقريبًا. أكلت بضع قطع من البسكويت مع بعض السردين المعلب، ثم أعددت لنفسى كوبًا من الشاى وذهبت إلى حجرة بول لأفحص بدقة دولابه وأدراج مكتبه. وكنت حريصة على عدم بعثرة أى شيء. كانت هناك بعض الصور الفوتوغرافية الباهتة على المكتب، لون شفاه أرجوانى الشعر رمادى

مائل للاصفرار، شورتات داخلية، كل بيجاماته كانت مخططة فيما عدا واحدة حريرية. وتحت الشورتات الداخلية كان هناك مسدس لم ألمسه.

عدت إلى المكتبة بنية ارتداء ملابسي، ولكنى فكرت أن أفحص أرفف الكتب أولاً، كانت الكتب معظمها قديمة مجلدة بأغلفة قماش وجلد ملتصقة بنهايات ورقية بشكل الرخام، كتب من النوع الذى تجده على مناضد عرض الكتب المستعملة، كان عدد منها باللغة البولندية، وكذلك كانت هناك بعض الكتب بالإنجليزية: سير والتر سكوت، وكان هناك الكثير لهذا الكاتب، وديكنز وهاريسون إينسوورث، وويلكى كولينز، أذكر الأسماء لأنى فيما بعد قرأت معظم تلك الكتب، ولكن كان هناك رف واحد أثار حيرتي. كان يحتوى على قصص الممرضات، النوع العاطفى جدًّا من هذه القصص الذى يحمل ممرضة على الغلاف وطبيب فى الخلفية يحدق فيها باهتمام وإعجاب، ومع ذلك لا تجحظ عيناه أبدًا بالرغبة. وكانت تلك الكتب تحمل عناوين مثل جانيت هولمز: طالبة التمريض، هيلين كورتس: رئيسة الممرضات، وآن أرمسترونج: الممرضة الصغيرة. وبعضها كان يحمل عناوين أكثر جرأة مثل قصة حب فى الجنة، ولوسى جالانت: ممرضة الجيش. كانت كل تلك الكتب لكاتبة تحمل اسمًا غير محتمل هو مافيس كويلب. تصفحت مجموعة منها، وأتذكرها جيدًا. كنت قد قرأت عشرات من تلك الكتب فى وقت سابق، أيام بدانتي. كانت

بأسعار قياسية، وكل منها ينتهى بممرضة وطبيب وقد تعلق كل منهما بذراع الآخر بثبات وطهارة مثل الضمادات المطاطية. كان هناك أمر غريب فيما يتعلق باللغة، الصياغة ركيكة، مشوهة قليلاً. على سبيل المثال، قال شخص ما: "إنها رائجة مثل فطائر الحلة" بدلاً من أن يقول "فطائر ساخنة". وقال شخص آخر: "احتفظ بفك علوى ثابت"، و"اترعشت" آن أرمسترونج، بدلاً من "ارتعشت"، عندما لامسها الطبيب وهو يمر بها. ومع ذلك، من المحتمل أنها كانت أخطاء مطبعية، وفيما عدا ذلك، لم تكن لافتة للنظر، ولكنها كانت فى غير محلها على الإطلاق فى مكتبة بول، حتى أننى سألته عنها فى ذلك المساء.

كنا جالسين متقابلين على منضدة المطبخ، نأكل السردين المعلب ونشرب نصف زجاجة شمبانيا كان قد أحضرها كنوع من الاسترضاء، قلت: "بول... لماذا تقرأ تلك الكتب التافهة لمافيس كويلب؟"

ابتسم ابتسامة ساخرة ملتوية: "أنا لم أقرأ أبدًا تلك الكتب التافهة لمافيس كويلب!".

"لماذا إذن تحتفظ بأربعة عشر منها فى مكتبتك؟"

ربما كان بول عميلاً سريًّا ــ وهو ما يفسر وجود المسدس، وكتب كويلب رسائل كودية.

كان لا يزال مبتسمًا، ثم قال: "أنا أكتب تلك الكتب التافهة لمافيس كويلب".

وقعت الشوكة من يدي: "أتعنى أنك مافيس كويلب؟" بدأت فى الضحك، ولكنى توقفت أمام نظرة الضيق المرتسمة على وجهه.

أجاب وهو يكظم غيظه: "إن لدى أم وابنة بالداخل".

كانت القصة التى رواها لى هى أنه فى أول وصوله إلى إنجلترا، كان لا يزال يحلم بأن يصبح كاتبًا. كان قد كتب ملحمة من ثلاثة مجلدات حول ثروات عائلة من الطبقة الأرستقراطية الصغيرة سابقًا (عائلته) أثناء وبعد الحرب، كادحًا فيها مع الاستعانة بالقاموس فى فترات الراحة التى تخللت عمله فى غسل الأطباق التى كانت تستغرق عشر ساعات يوميًا. كان يفضل أن يكتبها باللغة البولندية، ولكنه شعر أنها لن تكون ذات فائدة. كان لقصته ثلاث عشرة شخصية رئيسية، فى علاقات مترابطة، وكل منها تحيط به حاشية من الزوجات والعشيقات والأصدقاء والأطفال والأعمام. وعندما انتهى من كتابه أخيرًا، وطبعه على الآلة الكاتبة، أخذه بنفسه وهو يتألم إلى أحد الناشرين. لم يكن يعلم شيئًا عن الناشرين، واختار دون قصد واحدًا لا ينشر شيئًا سوى قصص الغرب والممرضات، والروايات الرومانسية التاريخية.

وبالطبع رفضوا نشر روايته، ولكنهم كانوا متأثرين بنوعية الكتابة، وعلى الأخص بحجم العمل. قال له الرجل: "تستطيع أن تغيرها، اتفقنا أيها الصديق؟ إليك خيط قصة من أجلك، اكتبها وبأسلوب سهل، مائة جنيه، أيكفى ذلك؟" وكان يحتاج إلى المال.

وبينما ظل يعرض قصته المكونة من ثلاثة مجلدات على ناشرين أكثر احترامًا ـ لم تلق أى قبول ـ كان يكتب قصصًا تافهة، مستخدمًا فى البداية خيوطًا قصصية زودوه بها، وبعد ذلك كان يبتدع قصصه بنفسه. وكان فى ذلك الحين يتسلم ما بين مائتين وثلاثمائة جنيه فى الكتاب بدون أى حقوق تأليف. ومع وظيفته الجديدة فى البنك حصل على مال يكفى للإنفاق على نفسه، وهكذا أصبح العائد من قصص الممرضات إضافيًّا، فأرسله إلى أمه وابنته فى بولندا، وكان لديه زوجة أيضًا هناك، ولكنها كانت قد طلقته.

عرض الناشر عليه أن يكتب قصص الغرب والقصص الرومانسية التاريخية، ولكنه لزم ما تخصص فيه. ولكتابة روايات الغرب يجب أن تستخدم كلمات كان لا يشعر تجاهها بالراحة، والقصص الرومانسية التاريخية قد توقع فى نفسه الكآبة، فقد تذكره بحياته القديمة وما كان بها من امتيازات. (قال لى إن أدب الهروب هو هروب للكاتب كما هو للقارئ). مع قصص الممرضات لم يكن بحاجة لأن يتعلم أى شيء إضافى أو يستخدم أية كلمات غريبة فيما عدا مصطلحات طبية قليلة من السهل العثور عليها فى قاموس جيب

صغير للإسعافات الأولية. اختار اسم شهرة مستعار لأنه اكتشف أن اسم مافيس اسم أصيل فى اللغة الإنجليزية، أما اسم كويلب... تنهد قائلاً: "آه، كويلب... هذه شخصية من شخصيات ديكنز، إنه قزم مشوه خبيث. هذا ما أرى نفسى عليه، فى هذا البلد؛ لقد حُرمت من قوامتي، وتملأنى الأفكار المريرة".

فكرت فى أنه يقصد "مكانتي"، ولكنى لم أقلها، كنت أتعلم ألا أصلح له. قلت مقترحة: "ما رأيك فى شيء آخر، أقرب إليك.... قصص الجاسوسية المليئة بالإثارة.. أوغاد دوليين...".

قال متنهدًا: "ذلك سيكون مشابهًا كثيرًا للحياة".

قلت: "بالنسبة للممرضات، ربما تكون قصص التمريض مشابهة أكثر للحياة".

"الممرضات لا يقرأن قصص الممرضات. إنما تقرأها النساء اللائى يرغبن بشكل خاطئ فى أن يصبحن ممرضات. على أية حال، إذا كانت الممرضات يرغبن فى تجنب مشكلات حياتهن، فلابد أن يكتبن قصص جاسوسية، ذلك كل شيء. إن ما يلائم الأوزة لا يلائم ذكر الإوز، هذا هو...". كان بول يؤمن بالقضاء والقدر.

إذن يرجع إلى بول فضل اختيارى للمهنة. كانت نقود العمة "لو" تتناقص أسرع كثيرًا مما كنت أتوقع، مع ذلك كنت أحاول أن أكون مدبرة، ولم أكن أحب التفكير فى الحصول على وظيفة، فلا أحد

يحب ذلك التفكير، حقيقة هم يفعلون ذلك لأنهم مضطرون. أستطيع أن أكتب على الآلة الكاتبة، ولكن بدا لى أنى أستطيع الحصول على مال أسرع بكتابة شيء يخصني، فكتابة رسائل العمل للآخرين مملة جدًّا. ولم يكن هناك شيء أفعله فى الفترات المسائية بينما كان بول يجلس منخرطًا فى كتابه الحالي، جوديث موريس: الممرضة عضو بعثة القطب الشمالي، وهو يدخن جولواز باستمرار، واضعًا السيجارة فى حامل سجائر ذهبى قصير يحتفظ به مثبتًا بين أسنانه، ويشرب كوبًا واحدًا من الخمر فى المساء، وفى مثل هذه الأوقات كان احتقاره لقارئيه ولنفسه يجعله يحوم فى الغرفة مثل سحابة الدخان، وكان مزاجه بعد كل جلسة من تلك الجلسات حادًّا، ولكنه بارد، مثل مزيج من الضباب والدخان.

طلبت من بول الحصول على بعض نماذج الرومانسيات التاريخية من ناشره، وهى دار اسمها "كتب كولومبية"، وبدأت العمل بنشاط. اشتركت فى المكتبة المحلية، واستعرت كتابًا عن تصميم الأزياء خلال العصور، ووضعت قائمة بأسماء الأردية وأنواعها فى العصور القديمة. قضيت أمسيات كاملة فى حجرة الملابس بمتحف فيكتوريا وألبرت، أتنفس رائحة التاريخ والخشب المدهون والروائح الجافة التهكمية للحراس، أدرس أطر النوافذ ومجموعات اللوحات والرسوم. اعتقدت أنى لو استطعت فقط أن أرسم الأزياء بشكل صحيح، فأى شيء آخر سوف يكون منسجمًا. وحدث ذلك: البطل

وسيم، من أصل طيب، يتسم ببعض الجرأة، يرتدى عباءة أنيقة من صوف التويد الخشن مثل عباءة شرلوك هولمز، يطارد البطلة، وينهمكان معًا فى قبلة فى عربة مغلقة تجرها الخيل. أما الشرير، الذى هو فى نفس الوقت كريم الأصل ويرتدى ثيابًا أنيقة أيضًا، يفعل نفس الشيء، فيما عدا أنه إضافة إلى ذلك أدخل يده تحت الشال الذى تضعه حول عنقها. الأنثى المنافسة كان قوامها رشيقًا مثل حيوان أدغال يتحرك تحت رداءٍ مشدود ومطرز بشكل رائع، ومثل كل النساء من هذا النوع، كانت نهايتها مؤسفة. لم أكن ماهرة فى النهايات السيئة كما أصبحت فيما بعد. اعتقدت أنها تعثرت فحسب فى تنورتها الطويلة أثناء نزولها فتدحرجت على السلالم، كانت تستحق ذلك حيث كانت قد حاولت أن تكره البطلة على حياة الذل بتوثيقها وتركها فى بيت للدعارة تحت إشراف مديرة البيت التى أعطيتها ملامح الآنسة فليج.

ولكنى ارتفعت أكثر من اللازم، عادت محاولتى الأولى مع توصيات معناها أنه لا يمكن استخدام كلمات مثل أسماء الأزياء القديمة هذه بدون شرح ماذا تعنى تلك الكلمات، وقمت بالمراجعات الضرورية، وتسلمت أول مائة جنيه مع طلب المزيد من هذه المادة، كانوا يسمونها "المادة"، وكأنها جاءت من ساحة عمل.

كنت فى غاية الابتهاج عندما وصلت نسختين من "مطاردة اللورد تشسني" فى حزمة من الورق البني، وعلى الغلاف سيدة ذات

شعر داكن ترتدى عباءة سفر ذات لون أرجوانى داكن، وكان اسم القلم الخاص بى مكتوبًا بحروف بيضاء: لويزا ك. ديلاكورت. وبالطبع استخدمت اسم العمة "لو"، كان ذلك نوعًا من إحياء ذكراها. وبعد عدة سنوات، عندما تحولت إلى ناشر آخر فى أمريكا الشمالية، طلب منى صورة فوتوغرافية لوضعها فى الأرشيف كما قالوا، لتستخدم فى الدعاية والإعلان؛ فأرسلت لهم صورة التقطت للعمة "لو" فى المعرض وأنا أقف بجوارها، ولم تستخدم تلك الصورة أبدًا. فالنساء اللائى يكتبن تلك النوعية من الكتب كان من المفترض أن يظهرن أنيقات وفى صحة جيدة بشعور رمادية لطيفة. وعلى عكس القراء: لهن أكتاف رشيقة وناجحات، ولم يكن من المفترض أن يغمضن أعينهن نصف إغماضة وهنّ ينظرن للشمس شزرا، عارضات صفيّ أسنانهن وممسكات بكوز غزل البنات. كان القراء يفضلون ألا يتخيلوا صور العرّابات الكالحات اللائى ينتجن أدوات تنكرهن الليلية الرقيقة وهنّ فى حالة بدانة مفرطة، ومزريات قليلا، بأشرطة كتفية منزلقة، وفتحات صدر واسعة يعرضنها للناظرين، مثل العمة "لو" أو مثلي.

وفى بادئ الأمر كان بول يشجعني، إلى حد ما بسبب المال. كان يحب فكرة أن تكون لديه عشيقة، ولكنه لم يكن يستطيع فى الواقع الإنفاق على واحدة. وبعد أول خمسة أو ستة أشهر، عندما بدأ أجرى عن الكتاب يزيد عن أجره هو نفسه، بدأ يأخذ منى إيجارًا، رغم أن

نومى فى مكتبته لم يكن يكلفه أى نقود إضافية. كنت ممتنة لثقته، ليس بالضبط فى موهبتي، حيث أنه لم يكن يشعر أن كتابة هذا النوع من الكتب تتطلب أى موهبة، ولكن لثقته فى مثابرتي: كنت أستطيع أن أفكر فى حبكات قصصية بنفس السرعة التى كان يفكر هو بها، وكنت أفضل منه على الآلة الكاتبة، لذلك كنت أتساوى معه صفحة بصفحة أثناء عملنا طوال الليل. وفى البداية كان عطوفًا ومتساهلاً.

وبشكل ما، كان يذكرنى بالرجل الذى كان يحمل باقة زهور النرجس البرية الذى عرض نفسه بذلك الأسلوب الشهم والمؤثر على القنطرة الخشبية عندما كنت إحدى فتيات المرشدات الصغيرات. كان بول أيضًا يوحى بذلك الجو من النية الحسنة، ولكنها كانت فروسية فى غير محلها؛ كان كلاهما على ما أظن رقيقًا وغير مؤذٍ، على الرغم من أن أطوارهما الغريبة التى لا تتطلب سوى إرضاء بسيط لا تشكل ضغوطًا على من يشاركهما الحياة. من المحتمل أن كليهما أتقذني، ولو أن شخصية حامل زهور النرجس البرية لا تزال مجهولة بالنسبة لي. ولم أستطع معرفة هوية بول أيضًا، فبمرور الوقت بدأ يتغير، أو من المحتمل فقط أننى أصبحت أعرفه أكثر، فعلى سبيل المثال كان يرى أن فقدان عذريتى كان خطأه، وبالتالى جعله ذلك مسئولاً عنى، وفى نفس الوقت نعمة، جعلتنى غير مؤهلة لأن أكون زوجة أبدًا، أو زوجته هو على أى حال. اعتقد أن افتقارى للشعور بالذنب علامة على البربرية. أى شخص من الجانب الآخر من

المحيط الأطلنطى كان بالنسبة إليه يحمل بعض صفات الهمجية، وحتى الإنجليز كانوا محل شك، كانوا غربيين أكثر من اللازم، وهكذا فقد انتهى به الأمر أن أصبح غاضبًا منى لفشلى فى البكاء، رغم أنى قلت له مرارًا وتكرارًا أن ذلك لم يكن الشيء الذى أبكى من أجله.

ثم كانت آراؤه عن الحرب. ويبدو أنه كان يعتقد أن اليهود كانوا بطريقة غامضة ميتافيزيقية يتحملون مسئولية الحرب، ومن ثم كانوا مسئولين عن فقد قصر عائلته.

قلت بغضب: "ولكن ذلك شيء سخيف"؛ لا يمكن أن يعنى ذلك حقًا، "ذلك مثل قول أن ضحية الاغتصاب مسئولة عن اغتصابها، أو ضحية القتل..."

سحب بهدوء نفسًا من سيجارته، وقال: "ذلك أيضًا حقيقي، لقد جلبوا ذلك على أنفسهم".

تذكرت المسدس، لم أستطع أن أسأله عنه دون أن أكشف أنى تطفلت على حجرته، وأصبحت أعرف الآن أنه سيعتبر ذلك شيئًا لا يُغتفر. بدأت أشعر قليلاً مثل إيفا براون فى مقر قيادة هتلر، ماذا أفعل مع هذا المجنون، كيف وصلت إلى هذا المكان المغلق تمامًا، وكيف أستطيع الخروج منه؟ ولأن بول كان لديه تصور بحتمية نهاية العالم، فإن المدنية بالنسبة له انهارت بالفعل أو على وشك الانهيار. كان يعتقد أنه سوف تكون هناك حرب أخرى، وفى الحقيقة كان يأمل فى

ذلك؛ ليس لأنه اعتقد أنها ستحل أو تحسن أية أوضاع، ولكن من أجل أن يتمكن هو نفسه من القتال فى هذه الحرب ويكتسب الشرف بأفعال الشجاعة. كان يشعر أنه لم يقاوم بما يكفى فى الحرب الأخيرة، كان صغيرًا جدًّا ولا يعرف أنه كان يجب عليه أن يبقى ويهلك فى الغابة مع بقية أفراد الجيش الذين ذبحوا. أن يعيش، وأن يبقى، وأن يهرب... كان ذلك نوعًا من العار. ولكنه لم يكن يتخيل حربًا من دبابات وصواريخ وقنابل. كان يتخيلها كأنه هو نفسه فوق ظهر حصان، يحمل سيفًا، يحارب أعداء مستحيلين. كان يقول: "المرأة لا تستطيع فهم هذه الأشياء"، وهو يطبق بأسنانه على مبسم سيجارته، "فهن يعتقدن أن الحياة أطفال وحياكة". ولما كنت أقول له: "ولكنى لا أستطيع الحياكة"، كان رده على ذلك: "سوف تفعلين ذلك بالتأكيد فيما بعد... إنك صغيرة جدًّا"، ويواصل حديثه متنبئًا بمزيد من الفواجع.

كنت ألقى بالكثير من شعارات الأمل، بلا فائدة، كان يبتسم ابتسامته الصغيرة الملتوية ويقول: "إنكم أيها الأمريكيون قوم سُذّج جدًّا، وليس لديكم تاريخ". وقد يئست من محاولة أن أخبره أننى لم أكن أمريكية. كان يقول: "الأمر سيان، أليس كذلك؟ إن افتقار أناس إلى التاريخ هو نفسه افتقار أناس آخرين إليه".

وفى النهاية كانت خلافاتنا كما يلي: أننى كنت أومن بالحب الحقيقي، وكان هو يؤمن بالزوجات والعشيقات؛ كنت أؤمن بالنهايات السعيدة، وكان يؤمن بالنهايات المفاجئة العنيفة؛ كنت أعتقد أنى واقعة

فى حبه، وكان هو كبير السن وساخرًا بما يكفى لإدراك أنى لم أكن كذلك. كنت فقط مضللة بعقيدتى الأخرى، الخاصة بالحب الحقيقي. كيف أستطيع أن أعيش مع هذا الرجل الغريب، دون أن أقع فى غرامه؟ من المؤكد أن الحب الحقيقى هو التبرير الوحيد لافتقارى إلى الذوق.

ولأن بول كان يعلم أننى لا أحبه، ولأنه كان يفكر أننى مجرد عشيقة، ويؤمن أن العشيقات غير مخلصات بطبيعتهن، فقد بدأت تنتابه نوبات من الغيرة، وكان ذلك لا بأس به طالما كنت لا أفعل شيئًا إلا التكاسل داخل الشقة، أقرأ وأكتب قصص الأزياء القوطية الهمجية، ولا أذهب إلى مكان إلا معه. فهو حتى لم يلاحظ رحلاتى إلى متحف فيكتوريا وألبرت، لم يلاحظها لأننى كنت دائمًا أعود إلى البيت قبله، ولم أكن أذهب هناك فى العطلات. وبسبب طريق بورتو بللو وصلنا إلى مفترق الطرق. كان هو الذى عرفنى بنفسه على هذا الطريق، وسرعان ما أصبح هوسًا بالنسبة لي. كنت أتأمل لساعات فى أكشاك القلادات البالية، ومجموعات الملاعق وملاقيط السكر الذهبية والمصنوعة على هيئة أرجل الدجاج أو أيدى قزم، وفى الساعات التى لا تعمل، والصينى المزخرف بالورد، والمرايا المبقعة والأثاثات الثقيلة، تلك البقايا المتخلفة عن قرون غابرة، والتى كنت استغرق فى العيش فيها. لم أكن قد رأيت أبدًا مثل تلك الأشياء من قبل، فى هذا المكان كان هناك زمن، موجات منه، استغرقت فيه

وسبحت خلاله وأنا أحفره فى ذاكرتى ــ علبة نشوق من اليشب (حجر كريم)، زجاجة عطر مزخرفة بالمينا، قطعة بعد قطعة، بشكل دقيق ومتقن، حتى أصنع وأضع العواطف الغامضة لبطلاتى المرتديات الأزياء القوطية فى صورة منطقية، مثل وضع أحجار الماس على وجه عجينة لينة.

ما أدهشنى هو المقدار الهائل للأشياء، مخلفات لمن عاشوا أزمنة سابقة، والأسلوب الذى يتم تداولها به. مات الناس ولكن متعلقاتهم باقية، تلك المتعلقات دارت هنا وهناك وكأنها فى دوامة بطيئة، وكل الأشياء التى رأيتها ورغبت فى امتلاكها رآها آخرون من قبل ورغبوا فى اقتنائها، مرت فى حياة العديد من البشر، ومقدَّر لها أن تمر فى حياة آخرين، لتصبح بالية أكثر، ولكن أيضًا أكثر قيمة، وأصلب وأروع، وكأنها تشربت بمعاناة مالكيها وتغذت عليها. كم من الصعب التخلص من تلك الأشياء، إنها تتلكأ بشكل مستتر، مثل خراف مستنزفة لأموال الناس، تنتظر من يشتريها. أنا نفسى لا أستطيع شراء شيء منها.

بعد تلك النزهات كان علىّ أن أعود إلى الشقة منهكة، خائرة القوى، بينما هناك فى تلك الأكشاك البروشات المصنوعة من المرجان الوردى اللون، ودبابيس الأحجار الكريمة، والنقوش العاجية تلمع فى الظلام. ولا عجب أن بول بدأ يشك أن لدى حبيبًا، وأننى كنت أتسلل لأزوره، فتبعنى ذات مرة، معتقدًا أننى لا أراه، وهو

يراوغ جيئة وذهابًا بين طاولات مليئة بأردية المساء وشالات الريش المستعملة مثل عين هزلية. كان هذا الفعل ينال من كرامته، بالطبع، أن يتهمنى فعليًا بأى شيء. وبدلاً من ذلك كان يقابلنى بغضب لأننى أردت أن أذهب إلى شارع بورتو بللو يوم السبت، اليوم الطيب، وكان يشعر أن هذا اليوم يجب أن يكون محجوزًا له. وبدأ أيضًا فى مهاجمة رواياتى قائلاً إنها رخيصة وطائشة، وقد أغاظه أننى اتفقت معه بكل سرور على هذا الرأي. قلت بالطبع أنها كانت رخيصة وطائشة، ولكنى لم أدَّعِ أبدًا أنى كنت كاتبة جادة. اعتبر ذلك طعنًا فى طموحاته السابقة. من المحتمل أنه كان يفضل اكتشاف أن لدى حبيبًا، فإن وجود حبيب كان أقل إذلالاً بالنسبة له.

كان بول قد بدأ يخيفني. كان ينتظرنى على قمة الدرج بعد عربدتى فى شارع بورتو بللو، واقفًا هناك مثل العمود، لا ينبس بأية كلمة، وبينما كنت أصعد كان يرمينى بنظرات تأنيبية تنم عن الرغبة فى الانتقام. كنت ابدأ الحديث: "رأيت اليوم تحفة رائعة لعفريت العلبة من عصر الملكة فيكتوريا"، ولكن صوتى كان يبدو زائفًا، حتى بالنسبة لى نفسي. دائمًا ما كنت أجد نماذج الآخرين عن الواقع شديدة التأثير، وكنت أبدأ فى التفكير أنه قد يكون على حق، وربما كان لدى حبيب سرى، وبدأت بالفعل أشعر بالرغبة فى أن يكون لدى حبيب. لم يعد بول رقيقًا، أصبح يقرص ويضرب، وأصبحت أخشى اللمحات المؤذية، والصمت المستبد، والمسدس الذى كان يشعرنى بالقلق.

بالإضافة إلى كل ذلك أعلن أن الحكومة البولندية وافقت على أن تغادر أمه بولندا. كان يدخر من أجل ذلك، وأخيرًا سوف يتحقق، قال إن إخراج المواطنين الأكبر سنًا أسهل من خروج الأصغر. ولكنى لم أكن أرغب فى أن تعيش كونتيسة بولندية معنا ــ أين سوف تنام؟ تتحدث عنى بالبولندية وتقف بجانب بول ضدي، وتقوم بكى ملابسه الداخلية، وهو ما رفضت أن أفعله. وكان هو فى الوقت نفسه مكرسًا حياته لأمه، وكان يمكن احتمال ذلك وهى بعيدة. ولكن عندما ذكرت مسألة المغادرة لأعطيهما مساحة أكبر، لم يقبل سماع شيء من ذلك.

الفصل السادس عشر

لم أتحدث أبدًا مع آرثر عن بول، وربما كان ذلك خطأ. ليس لأنه سوف تضايقه حقيقة أنى كنت أقيم مع رجل آخر، ولكنه كان سيرتاع من مجرد ذكر لقب بول، لغرابته، وأيضًا لاتجاهاته السياسية. أى امرأة تستطيع أن تعيش مع رجل مثل بول فإن آرثر سوف يلصق بها صفة الخطأ فورًا، وكان ذلك واضحًا بالنسبة لى بعد ربع ساعة فقط من التقائى بآرثر.

كنت أتمشى فى حديقة هايد بارك فى يوليو عام ١٩٦٣. كانت تأتى أصوات الخطب من كل جانب، مشحونة بالمصير المحتوم، كالعهد القديم، ولكنى كنت لا أصغى إليها جيدًا. كان ذلك تقريبًا فى ذكرى يوم ميلادى الحادى والعشرين، ولكنى لم أكن أفكر فى ذلك أيضًا، كنت أمشى الهوينى، جيئة وذهابًا، فى الطريق الذى كانت على وشك أن تسلكه سامانتا دين، بطلة "الهروب من الحب" وهى تعدو هاربة من تحرشات سير إدموند دى فير. كان قد حاول للتو أن يستغل وجودها بمفردها فى حجرة الدراسة الخاصة بالأطفال، بينما كان الجميع قد توجهوا إلى قصر الكريستال لقضاء اليوم.

وبينما كانت سامانتا تهرول أسفل الدرج، احمرت وجنتاها من التفكير فيما حدث للتو، فبينما كانت تجلس بمفردها فى حجرة الفصل،

منهمكة في غزل إحدى قطع الملابس التى كانت تعكف عليها فى أوقات راحتها القليلة، لم تسمع الباب يُفتح، ولم تسمع سير إدموند يقترب منها حتى كان على بعد خطوتين من مقعدها، فصاحت من المفاجأة وهى تقف على قدميها. كان وجهه متوهجًا يشع فيه الدم، أشعث الشعر، واختفى تحكمه الحديدى المعتاد في نفسه، وكان يحدق فيها وعيناه متوهجتان مثل عينى حيوان متوحش اشتم رائحة فريسته.

قالت سامانتا تحاول أن يظل صوتها طبيعيًّا: "سير إدموند... ما معنى هذا الاقتحام؟ ولماذا لا تكون هناك فى قصر الكريستال مع الآخرين؟" على الرغم من محاولاتها كانت ركبتاها ضعيفتين، إما من الخوف، أو من استجابة حاولت دون جدوى أن تنكرها.

قال وهو يقترب أكثر: "علمت أنك بمفردك، فتسللت بعيدًا عن الآخرين. يجب أن تشعرى نحوى بالشفقة، يجب أن تعلمى أن حياتى أصبحت جحيمًا". ورغم هذا القول إلا أنه لم يكن يتوسل، بل كان يأمر. أمسكها من رسغها وجذبها نحوه، ودون جدوى كانت تقاومه. وكانت يداه النهمتان قد وصلتا بالفعل إلى رقبتها تنزع شال عنقها.

استطاعت أن تتنفس قائلة: "تذكر أنك رجل متزوج!" كانت إجابته مجرد ضحكة خشنة ساخرة، وتذكرت وهى فى حالة يأس الإبرة القصيرة الغليظة التى كانت لا تزال قابضة عليها فى يدها اليمنى، فرفعتها بشدة ثم وخزت بها وجنته، فأطلق سراحها من فرط

المفاجأة لا الألم، فاستغلت هذه اللحظة لتجرى نحو الباب، ثم أغلقته خلفها بعنف، وأدارت المفتاح الثقيل فى القفل. كانت مرتعدة جدًا، فانطلقت دون أن تفكر فى وضع عباءة أو حتى مجرد شال على رقبتها.

كانت فى تلك الأثناء تهرول عبر الحديقة، دون أن تعرف كيف وصلت إلى هذا المكان. رداؤها الأسود الرقيق لم يكن يكفى لحمايتها من هواء المساء البارد. أين تذهب؟ وماذا ستفعل؟ وما التفسير الذى سيقوله سير إدموند للآخرين، وخصوصًا السيدة لتيتيا عندما يعودون ليجدوه محبوسًا فى الفصل الدراسى وقد ذهبت المعلمة؟ وأيًا كان ما سيقوله فسينعكس على سمعتها، بكل تأكيد. لم تكن تستطيع العودة؛ وبعد ذلك فإنه سوف يفتش عنها ويطاردها. .. لم يكن لديها إلا قروشًا معدودة فى حقيبة يدها. لم تكن تعرف أين ستقضى تلك الليلة.

بدا وكأن أطيافًا مظلمة تطير حولها من كل جانب، ومن حين لآخر كانت تسمع ضحكات سخرية خافتة... إن بنات الخطيئة مخلوقات حقيرة مهجورة. وربما كانت ستصبح مثلهن ما لم تقاوم... ولكن، ربما كانت الآن فى خطر أعظم... وحيدة، ضعيفة، بلا حماية. ألا يمكن أن تقع فريسة لأى عربيد فاسق؟ إنها لم تنس محاولات الداعر "إيرل دارسى"، عم سير إدموند، والذى فرت من مسكنه سعيًا نحو حماية سير إدموند، ولكن الحامى خذلها....

سمعت وقع أقدام خلفها. لجأت إلى ظل شجرة، على أمل ألا تلفت الانتباه، ولكن وقع عليها ظل حجب الشمس الغاربة. وشعرت بيد تحط على ذراعها، وصوت أجش ولكنه رقيق ينطق باسمها...

وعند هذه النقطة فى مخطوطتى شعرت بشيء فوق ذراعي، نظرت إليه، كانت هناك يد عليه، صرخت بصوت عال، ولم أعرف ماذا حدث إلا أننى وجدت نفسى فوق شاب نحيل يبدو مضطربًا. تبعثرت الأوراق فوقنا مثل قصاصات منثورة، وبسرعة تجمع عدد من المشاركين فى الزحام، وقاموا بمساعدتى على النهوض ولَم الأوراق بسرعة.

قال رجل ضخم الجسم تفوح منه رائحة البيرة: "لقد حاول أن يتحرش بك، أليس كذلك أيتها الحبيبة؟ ... مشاغبون دمويون".

قال مهاجمي: "كنت فقط أعطيها ورقة من المنشورات"، وما أفزعنى أنى رأيت على خده جرحًا صغيرًا. شعرت أننى بلهاء.

"أترغبين فى استدعاء شرطى أيتها الحبيبة ؟ إنهم يجب أن يعاقبوا على مضايقتهم للبنات الصغيرات".

قلت: "لا، شكرًا".

نزل أحد المعارضين لتشريح الأحياء لأغراض علمية، وأحد المنذرين بالمصير المشئوم للبشرية من فوق صناديق الصابون التى يقفون عليها لإلقاء خطبهم، وجاءا لمساعدتي، كانا تقريبًا متماثلين من

حيث الدماثة الخلقية وكبر السن، ولديهما عيون زرقاء شاحبة. ولما رأيا أنى لم أصب بسوء، أعطانى كل منهما منشورًا.

قلت للجميع: "لقد كان الأمر كله خطئى أنا، كانت غلطة، اعتقدت أنه شخص آخر مما أثار ذعري، هذا كل ما حدث. هاك، دعنى أعطيك منديلاً ورقيًا". قلت ذلك للشاب، "أنا شديدة الأسف لأنى خدشتك".

فتشت فى محفظتي، ولكنى لم أستطع العثور على منديل.

قال برزانة: "الأمر لا يستدعى"، كان جاثيًا على ركبتيه يجمع أوراق منشوراته، وانحنيت لأساعده. كانت تلك المنشورات عليها رسم بالأبيض والأسود لانفجار قنبلة ذرية، وشعار "انقذوا العالم من الفناء فى الدخان".

سألته: "حظر القنبلة الذرية؟" قال بكآبة: "نعم، إن هذه الأوراق لا فائدة منها، ولكنك يجب أن تستمرى فى المحاولة".

نظرت إليه متفحصة، كان يرتدى سترة سوداء ذات رقبة، ووجدتها أنيقة جدًّا. مقاتل كئيب لقضايا شبه خاسرة، مثالية ومحكوم عليها بالفشل، نوع أشبه باللورد بايرون الذى كنت قد تصفحت مؤخرًا سيرته الذاتية. وما أن انتهينا من جمع الأوراق حتى وقعت فى حبه، وذهبنا لتناول مشروب فى أقرب حانة. لم تكن مناورة صعبة من جانبي: فكل ما كان على أن أفعله هو التعبير عن اهتمامى

بالقضية التى يدعو لها. وكنت أفضل لو كانت لهجته بريطانية، ولكنه لسوء الحظ كان مجرد كندى مثلى، ولكنى تغاضيت عن هذا العيب.

وبينما كان آرثر واقفًا على البار لإحضار المشروبات ــ كان يختار مشروبه من النوع الذى يفترض أن يحتوى على معادن مفيدة ــ شعرت بالقلق مما يمكن أن يحتويه رأسى من نفايات المعلومات السياسية، التى قد تكون قد سكنته بغير قصد منى، مثل بقايا السبانخ بين صف الأسنان الأمامي. قدمت كإنسانة شبه مُطّلعة، كان لزامًا على أن أتعرف على المزيد، بل إننى أخرجت الأوراق التى تسلمتها وتصفحتها بسرعة، على أمل أن أجد تلميحًا أو موضوعًا نتحدث بشأنه.

وعندما عاد آرثر بالمشروبات كنت مستعدة له، وكلما دخل الحوار فى مناطق متخصصة حوّلت الموضوع إلى محنة اللاجئين الفلسطينيين، وكنت أعرف الكثير عن ذلك منذ الأيام التى قضيتها فى نادى الأمم المتحدة فى مدرسة برايسايد العليا. فى ذلك الوقت كانت تلك المنطقة مجهولة بما يكفى لجذب انتباهه، وشعرت بالخجل وأنا أراه هادئًا فى تأثره.

تركته يمشى معى حتى محطة مترو الأنفاق. لم أستطع أن أدعوه إلى المنزل معي، وعللت ذلك بأن الشقة تشاركنى فيها كاتبة آلة كاتبة، وأنها بدينة جدًا، وتحب المكوث فى البيت، ولن تكون

سعيدة بالمرة بل وستشعر بالاكتئاب إذا ما دعوت أى رجل إلى الشقة لأى سبب. وقلت له إن من الأفضل أن نتجنب الاتصالات التليفونية، ولكن إذا كان يمكن أن يعطينى رقم هاتفه... لم يكن لديه تليفون، ولكن كحل أفضل دعانى لمشاهدة سباق فى اليوم التالي. ذهبت إلى المكتبة العامة ــ نفس المكتبة التى حصلت منها على كتب الأزياء ــ واستعرت كل الكتب التى وجدتها لبرتراند رسل، والتى سببت بعض اللحظات الصعبة مع بول. عندما عاد ووجد تلك الكتب صاح فى غضب "هراء شيوعي، لن أسمح بتلك النفايات فى منزلي".

قلت: "إنى فقط أقوم بعمل بحث، فكرت أن أقوم بكتابة شيء أكثر حداثة إلى حد ما، رواية تدور فى العشرينات".

قال بول: "لن تبيع... إذا أنت جعلت التنورات أقصر وقصصت الشعر فلن تبيع، إنهم يفضلون أن تحتفظ المرأة بغموضها، كما أفعل أنا"، أضاف هذه الكلمات وهو يقبلنى على كتفي.

أحيانًا كنت أجد تعليقات مثل هذه أوروبية جدًّا وساحرة، ولكنها كانت قد بدأت تغيظني. قلت: "يا له من غموض لا يكلف أكثر من ياردات قليلة من الملابس وباروكة، الرجال غامضون أيضًا، كما تعلم، وأنا أرى أنهم لم يعودوا يضعون الجدائل أو يرتدون الأثواب الدائرية الطويلة".

قال بول بشكل هزلي: "آه، ولكن غموض الرجل فى العقل، أما غموض المرأة ففى جسدها. ما الغموض سوى شيء يبقى مخبأ ؟ إن كشف الجسد أسهل من كشف العقل، لهذا السبب فالرجل الأصلع لا يبدو شيئًا مرعبًا منافيًا للطبيعة، كما تبدو المرأة الصلعاء".

قلت بنيَّة التهكم: "وأرى فى الوقت نفسه أن المرأة البليدة تلقى قبولاً اجتماعيًّا أكثر من الرجل الأبله".

قال بول: "هذا صحيح، فى بلدى غالبًا ما يستخدمون هذا النوع من النساء كعاهرات من أسوأ المستويات، أما الرجل الذى لا عقل له فلا حاجة إليه". وابتسم وكأنه أثبت وجهة نظره.

قلت: "أوه، الرحمة يا إلهي". وذهبت إلى المطبخ لإعداد كوب من الشاي. كان بول حائرًا، ومرتابًا أيضًا، فهو لم يستطع أن يفهم سر اهتمامى المفاجئ ببرتراند رسل.

كان لدى الكثير من المشكلات مع تلك الكتب، واكتشفت أن لدى مشكلات مع النظريات والسياسة بشكل عام. لم أكن أرغب فى أن أكون فريسة انفجار ذرى، ولكن من ناحية أخرى لم أستطع أن أصدق أننى أستطيع فعل أى شيء لمنع ذلك. يجب أيضًا أن أحاول أن أمحو السيارات: إذ من الممكن أن أتعرض لأن تدهسنى سيارة، وإذا حدث ذلك فلن أكون إلا ميتة. فكرت أن اللورد رسل كان لديه وجه شديد الوسامة، ومع ذلك فسرعان ما أعطيته دورًا ثانويًّا فى

"الهروب من الحب": شخصية رجل عجوز غريب الأطوار ينقذ سامانتا دين فى حديقة هايد بارك بضرب مهاجمها على رأسه بمظلته. (*"خذ هذا، يا سيدي، هل أنت بخير يا عزيزتي؟" "كيف أستطيع أن أعبر لك عن امتناني؟" "أرى أنك من بيت طيب، وأصدق تفسيرك، اسمحى لى أن أقدم لك مكانًا للمبيت الليلة... مديرة بيتى سوف تقرضك رداء للنوم... سيدة جينكينز، من فضلك، كوب من الشاى لهذه السيدة الصغيرة"*) حتى أنى زودته بهواية ـــ تربية أسماك الزينة ـــ التى جعلتنى أشعر بالود نحو كل أعماله، وقادرة على أن أتحمل نوازعه السياسية، وعلى تحمل الإعجاب الممزوج بالرهبة الذى يحمله آرثر له.

لو أن آرثر عرف بتوظيفى لشخصية اللورد رسل فى أحد الأدوار الصغيرة فى روايتى لأصيب بالفزع. كان سيدعو ذلك "تسفيهًا"، وقد فعل ذلك فى السنوات الأخيرة عندما كنت أقل قدرة على إخفاء تلك العادة العقلية الخاصة، وأيضًا عندما كنت أقل رغبة فى ادعاء الإعجاب ببطل اليوم لديه: كان آرثر متقلبًا يغير ولاءه وانتماءاته، وبعد أن مررت بهذه الحالة عدة مرات، أصبحت حذرة. كنت اسأله: "ماذا عن السيدة ماركس؟" أو "أراهن أن زوجة ماركس كانت تتمنى لو كان طبيبًا". كان كل ما يمكن أن أناله من تلك الأسئلة نظرة قرف، لذلك كنت أذهب إلى المطبخ وأتخيل حياة ماركس العائلية. "ليس الليلة يا عزيزتي، عندى صداع"، إنكم متشابهون أيها

المثقفون، تحلمون كثيرًا، لماذا لا تتخرجون وتصنعون شيئًا مفيدًا لأنفسكم إذا كنتم بهذا الذكاء؟ يعلم الله أن لديكم موهبة.

فكرت في كاسترو كنمر في الفراش على الرغم من ذلك السيجار وتلك اللحية التي تفسر شعبيته في أمريكا الشمالية. ولكن ماو كان هو المفضل عندي. يمكنك أن تعرف بسهولة أنه كان يحب الأكل. تصورته يلتهم كميات ضخمة من الوجبات الصينية، باستمتاع ودون شعور بالذنب، وأطفال فرحون يتسلقون فوقه. كان أشبه بعملاق أخضر مرح، بغض النظر عن لون بشرته الأصفر، كان يكتب الشعر، وكان يستمتع بالحياة. كان بدينًا ولكن ناجحًا ولم يعر أي اهتمام لبدانته. أما ستالين، فكانت حياته المنزلية مملة، ومعروف عنها الكثير، وكان متزمتًا على أية حال. ولكن حياة ماو، يا إلهي من جنة مليئة بالمباهج، شجع خلالها عروض الحواة والمسرح، كان يحب اللون الأحمر والأعلام والاستعراضات والمواكب ولعبة تنس الطاولة، كان يعلم أن الشعب يحتاج للغذاء والترفيه، وليس الخطب فقط. كنت أحب أن أفكر فيه وهو يستحم في البانيو ومغطى بالصابون مثل طفل ملائكي ضخم، يشع بالنور، ويشكر بالامتنان الشديد امرأة عاشقة ـــ أنا ـــ تحك له ظهره.

وفيما يختص بي، كان من المستحيل أن أحب مجرد نظرية، فأنا لم أحب آرثر من أجل نظرياته، رغم أنها أضفت عليه نوعًا من العظمة المجردة، مثل عباءة الأوبرا ذات الخطوط القرمزية. لقد

أحببته للطريقة التى تبرز بها أذناه قليلاً؛ الطريقة التى كان ينطق بها كلمات معينة ـ كان من المناطق الساحلية، وينطق بعض الكلمات بطريقة غريبة عن نطقى بها، أنا بنت أونتاريو. أحببت ارتداءه المتعمد للثياب الرثة، مثاليته المخلصة، اقتصادياته المضحكة (بالنسبة لي) ـ كان يستخدم كيس الشاى الواحد مرتين ـ الطريقة التى كان يحشر بها إصبعه فى أذنه، ضعف بصره ونظارة القراءة المحطمة التى يضعها على عينيه. قلت له ذات مرة: "أعتقد أنني أعرف لماذا تحبني، إنك لا تستطيع أن ترى عن قرب كيف أبدو". كان من السابق قليلاً لأوانه أن أمزح بهذه الطريقة، قال: "لا، ليس هذا هو السبب". ثم كانت هناك فترة صمت طويلة غريبة، وكأنه كان يحاول أن يشحذ كل تفكيره ليضع يده على سبب حبه لي، أو ربما، تساءلت وقد شعرت بألم فى بطني، إن كان يحبنى على أية حال؟

كانت هذه مشكلة، لم أستطع أن أعرف بالضبط شعور آرثر نحوى، إذا كان هناك شعور نحوى. كان يبدو أنه يستمتع بمناقشة فلسفة العصيان المدنى معي، أو على الأصح يخبرنى ما هي، لأنى كنت حكيمة بما يكفى لعدم كشف جهلي، فكنت أكرر الإيماء برأسي. سمح لى بالخروج معه لتوزيع أوراق المنشورات، وكان يأكل باستمتاع السندوتشات التى كنت أحضرها فى تلك المناسبات. وقد حكى لى عن جذوره الاجتماعية، والده القاضي، وأمه المتدينة جدًا. كان والده يريده أن يكون محاميًا، وكانت أمه تلح عليه لأن يصبح

مبشرًا طبيًا على أقل تقدير. وقد خيَّب أمل كل منهما بتوجهه إلى الفلسفة، ولكنه لم يكن قادرًا على تطبيقها من خلال كل القياسات المنطقية (قال: "إن الرجل الأصلع أصلع، ما علاقة ذلك بالحالة الإنسانية؟" وللمرة الأولى استطعت أن أتفق معه بلا نفاق... حتى بدأت التفكير في الأمر، ماذا لو كان المرء رجلاً أصلعًا؟) ترك الدراسة في الفلسفة بعد عامه الثالث، ليأخذ راحة ويتأمل الطريق المثالي في الحياة. (كان ذلك هو الفرق بيننا: فبالنسبة لآرثر كانت هناك طرق مثالية، ربما العديد منها، ولكن واحدًا فقط في كل مرة. أما بالنسبة لي فلم يكن هناك أي طرق مثالية على الإطلاق. كانت هناك أدغال، خنادق، برك، متاهات، مستنقعات، وليس ثمة طرق.)

بعد ذلك انهمك آرثر في الحركة الداعية لحظر القنبلة الذرية، التي انغمس فيها على مدى عامين، وكرس كثيرًا من الوقت والطاقة لصالح الحركة، ولكن، وبطريقة ما، كان لا يزال عضوًا هامشيًا، يقوم بتوزيع المنشورات. ربما كان ذلك بسبب جنسيته الكندية.

امتلأت تعاطفًا وفهمًا. كنا نجلس في المطاعم الرخيصة، التي تفوح منها رائحة دهن الضأن، نأكل أطباقًا من البيض المقلي، والبطاطس والبازلاء، وهي الأطعمة التي يتكون منها طعام آرثر في الغالب. كان ينفق كل ما معه من نقود، ثم يحصل على وظيفة مؤقتة، كمسح الأرضيات أو تعبئة المناديل، أو أسوأ الوظائف: غسيل الأطباق، إما ذلك أو قبول ما كان يعتبره رشوة من والديه والعودة

إلى الدراسة فى جامعة تورنتو التى كان يشعر نحوها بكراهية فاترة مجردة.

وكانت شقته فى منطقة إيرلس كورت ملحقًا بها مطبخ صغير، ولكنه لم يكن يحب الطهي، وكان المطبخ نفسه تعمه الفوضى. وكان يشاركه فى الشقة رجلان آخران، أحدهما نيوزيلندى يدرس الاقتصاد في مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية، وكان يأكل البازلاء المعلبة باردة بعد أن يغطيها بصلصة الطماطم ويترك الأطباق غير مغسولة فى كل مكان مثل مشاهد لمذابح صغيرة. والآخر راديكالى من الهند له عينان تشبهان عينى الغزال، وكان يقوم بطهو الأرز البنى والكارى لنفسه ويترك الأطباق أيضًا هنا وهناك. وكان آرثر من النوع الذى يصعب إرضاءه، ولم يكن يحب الفوضى، ولكنه كان صعب المراس لدرجة تجعله يمتنع عن تنظيف تلك الأطباق، ولذلك كنا نأكل بالخارج. وقد قمت بتنظيف المطبخ مرة أو اثنتين من أجلهم، ولكن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى نتائج غير طيبة، فقد أخذ آرثر انطباعًا خاطئًا عنى، حيث لم أكن ماهرة فى أعمال المطبخ، وقد شعر بالإحباط عندما اكتشف ذلك فيما بعد. ومن ناحية أخرى كان النيوزيلندى واسمه سلوكم يلاحقنى فى المطبخ بالتماسات ("كونى رياضية، لم أعرف امرأة منذ جئت إلى هذا البلد بارد العواطف، ولا واحدة")، وفقد الراديكالى الهندى احترامه لى كسياسية من نوع ما، وبدأ ينظر إلىّ نظرات تهديد ويظهر غضبه. وفيما يبدو أن المرأة لا

تستطيع أن تكون امرأة محترمة وجارية لغسل الأطباق فى نفس الوقت.

فى تلك الأثناء لم يكن بينى وبين آرثر أكثر من تماسك الأيدي، وأصبحت الحياة مع بول لا تحتمل. ماذا يحدث لو تتبعني، واكتشف أنى أقوم بتوزيع المنشورات مع آرثر؟ قررت أن آرثر هو الذى أحبه وليس بول، وقررت اتخاذ تدابير صارمة.

انتظرت حتى غادر بول البيت إلى البنك، ثم عبأت كل ما أملك فى المنزل، بما فى ذلك آلتى الكاتبة، ومسودة القصة التى أنهيت نصفها تقريبًا ("الهروب من الحب"). وتركت رسالة بخط اليد إلى بول، كنت أريد أن أقول له "حبيبي، أعتقد أنه هكذا أفضل"، ولكنى أدركت أن هذا لن يكون دراميًّا بما يكفى، لذلك كتبت بدلاً من ذلك: "لقد تسببت فى تعاستك، ولا يمكننا الاستمرار على هذا المنوال، لم يكن هذا ما نريده". لم أكن أعتقد أنه سيكون قادرًا على تتبع أثرى، ولم أكن حقًّا أظن أنه سيحاول ذلك، فقد كان لا يزال شخصًا نبيلاً فيما يتعلق بنقاط الشرف. ربما سوف يظهر ذات مساء فى المدخل ببعض الأسلحة المسرحية الشبيهة بالتحف، مثل فتاحة الرسائل والأوراق، أو سيف، لم أكن رأيته من قبل يستخدم المسدس، فالمسدس عصرى جدًّا. وقبل أن أفقد أعصابي، وضعت كل أمتعتى فى سيارة أجرة ثم أنزلتها على عتبة باب آرثر. كان من المفروض أن يكون بالمنزل، كنت أعرف ذلك.

قلت له: "لقد طُردت".

رمش بعينيه قليلاً: "هكذا، أعتقد أن هذا غير قانوني".

قلت: "حسنا، ولكنه حدث"... ثم استطردت قائلة: "وذلك بسبب انتماءاتى السياسية، حيث عثر صاحب المنزل على بعض تلك المنشورات... فهو يمينى متطرف، كما تعلم. كانت هناك مشاجرة فظيعة". (شعرت أن هذا ليس بعيدًا عن الحقيقة، فقد كان بول هو صاحب المنزل بشكل ما، وكان يمينيًّا. ومع ذلك فقد شعرت أننى محتالة أيضًا).

قال آرثر: "أوه، حسنًا، فى هذه الحالة..." كنت لاجئة سياسية. دعانى إلى الدخول حتى نستطيع أن ندرس ماذا يمكن أن أفعل، وتعاون معى فى حمل أمتعتى إلى أعلى الدرج.

"ليس معى أى نقود"، قلت ذلك وأنا أحتسى كوبًا من الشاي، الذى أعددته بنفسى فى المطبخ القذر. ولم يكن آرثر لديه نقود أيضًا، ولا شريكيه فى الشقة، كان يعلم ذلك. قال آرثر: "أنا لا أعرف أحدًا فى لندن... أعتقد أنك تستطيعين النوم على الأريكة... حتى تحصلى على وظيفة".

وماذا كان يستطيع أن يقول؟ نظرنا نحن الاثنين إلى الأريكة، كانت قديمة ومتكتلة وهابطة من أحد جوانبها.

نمت على الأريكة ليلتين، وبعد ذلك نمت مع آرثر. وحالما استقريت فى بيته وأمام عينيه، بدأ آرثر يمنحنى مزيدًا من الاهتمام، حتى أنه أصبح حنونًا، بطريقته الخاصة، كان يمشط شعري، صحيح بشكل أخرق، ولكن بتركيز، وكان أحيانًا يأتى من خلفى ويعانقنى بلا مناسبة، وكأننى كنت لعبة يحبها ويعتنى بها. كنت أنا نفسى راضية وقريرة العين: فقد دخل حياتى الرجل المناسب، رجل مكتمل وله قضية يمكن أن أكرس حياتى لها، أصبح لحياتى أهمية.

وعلى الرغم من ذلك، كانت هناك صعوبات، فالهندى والنيوزيلندى كانا موجودين فى كل مكان، يفتحان باب حجرتنا فى الصباح لاقتراض شلنات من آرثر، وكان النيوزيلندى ينظر إلينا بخبث، أما الهندى فكان يبتعد فى امتعاض بذلك الرفض الزاهد الذى بدا عليه منذ اكتشف أننا ننام سويًا. أو كان النيوزيلندى يجلس على الأريكة، يستمع إلى الراديو الترانزستور الذى يمتلكه ويقوم بعمل حسابات سريعة، بينما كان الهندى يستحم مرارًا تاركًا الفوط المبتلة على الأرضية؛ وكان مغرمًا بقول أنه لا أحد استطاع أن يفهم شرور النظام الطبقى مثله، فهو النظام الذى نشأ عليه، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من عادة النظر إلى أى شخص يلتقط الفوط باعتباره خادم. وقد استاء كلاهما من وجودي، أو على الأصح كانا يستاءان مما كانا يعتبرانه حسن حظ أصاب آرثر، ولم يكن آرثر مدركًا لاستيائهما، ولا لحسن حظه أيضًا.

أما الصعوبات الأخرى فكانت أننى لم أكن أجد الوقت أو المكان الذى أستطيع فيه أن أعمل فى رواية "الهروب من الحب". فعندما كان آرثر يخرج، كان يتوقع منى أن أذهب معه، وإذا استطعت أن أتجنب ذلك لأى سبب، كان واحد من الآخرين سيكون بالتأكيد بالبيت، لذلك فقد احتفظت بالمسودة فى حقيبة مقفلة، فقد كنت أشك أن النيوزيلندى كان يتطفل على حجرتنا، وذات يوم عدت لأجد الهندى قد رهن آلتى الكاتبة، ووعد برد الثمن فيما بعد، ولكن بعد ذلك كنت أغتاظ من كل حبة يأكلها من الأرز البني.

ولم يكن لدى ما يكفى من النقود لدفعها إلى محل الرهانات، وكنت أعتمد على مبلغ المائتى جنيه الذى سيدفع لى مقابلها. وكان اليأس يتزايد بداخلى كل يوم وبصورة سرية من إمكانية استعادتها مرة أخرى. ولم يكن آرثر يعلم شيئًا عن المشكلة، وظل متعجبًا لماذا لم أحصل بعد على وظيفة مضيفة بأى مطعم، وقد أضفت إلى الماضى الزائف الذى كنت قد نسجت خيوطه من أجله قليلاً من الأحداث الحقيقية التى حدثت بالفعل، فقلت له أنى كنت أعمل مضيفة من قبل. وقلت له أيضًا أنى كنت مرة أقود الهتافات، وكنا نضحك سويًّا بسبب الماضى الذى عشته مضللة سياسيًّا.

ولما مضى على وجودى معهم بالمنزل ثلاثة أسابيع كنت مفلسة تقريبا. ورغم ذلك دفعت ذات يوم بعض الشلنات الثمينة لشراء بعض الخامات لعمل ستائر للحمام، التى ستجعل الحمام أقل برودة

وأكثر إحكامًا، كما كنت أعتقد، وكنت سأقوم بحياكة الستائر بنفسي. ولم أكن قد حكت أى شيء فى حياتى من قبل. صعدت الدرج إلى أعلى وأنا أهمهم لنفسي، وفتحت باب الشقة.

وهناك، فى منتصف أرضية صالة الاستقبال، رأيت أمي.

الفصل السابع عشر

كيف استطاعت أن تعثر عليّ؟

كانت واقفة باستقامة شديدة على البساط القذر بلون الطين، ترتدى بدلتها الزرقاء الداكنة ذات الياقة البيضاء، وكان قفازها الأبيض، وقبعتها وحذاؤها فى غاية النظافة، وتقبض بإحكام على حقيبة يدها تحت إبطها. وكان وجهها مغطى بالمساحيق، وقد رسمت بأحمر الشفاه فمًا أكبر من فمها، ولكن شكل فمها الأصلى كان ظاهرًا من خلاله، ثم رأيت أنها كانت تبكى، بلا صوت، وبارتياع؛ كان الكحل ينحدر من عينيها على هيئة دموع سوداء.

ومن خلال ظهرها استطعت أن أرى الأريكة الخربة، التى بدت وكأن الحشو يخرج منها. انتصب شعر رأسى خلف رقبتي، وقفزت عائدة من الباب الأمامى وأغلقته ورائي، واتكأت عليه. لقد كان ذلك هو جسدها الرقيع، فكرت فى ذلك وأنا أتذكر ما قالته لى من قبل ليدا سيروت. لماذا لم تحتفظ بهذا الجسد اللعين بالمنزل الذى ينتمى إليه؟ تخيلت أمى تطفو فوق المحيط الأطلنطى ورباطها المطاطى يمتد ويصير أقل سمكًا كلما بعدت المسافة، عليها أن تحترس وإلا سينقطع، وبعد ذلك تكون معى إلى الأبد تندس فى الردهة مثل سحابة شفافة أو إحدى الصور الفوتوغرافية الشفافة

التقطت لها عام ١٩٤٩. ماذا كانت تريد منى؟ ولماذا لا تستطيع أن تتركنى وشأني؟

فتحت الباب مرة أخرى، لمواجهتها ومناقشة كل شيء معها بشكل نهائي، ولكنها كانت قد ذهبت.

وفى الحال قمت بتغيير ترتيب جميع قطع الأثاث، وكان ذلك أمرًا صعبًا حيث كانت قديمة وثقيلة. ثم رحت أتجول فى أنحاء الشقة لعلى أجد أى شبابيك مفتوحة، ولكن لم يكن هناك أى شباك مفتوح. كيف استطاعت أن تدخل؟

لم أخبر الباقين بهذه الزيارة، كانوا منزعجين قليلاً بسبب ما فعلته بالأثاث، رغم أن ذلك لم يكن يهمهم، ولكنهم شعروا أننى كان يجب أن أتشاور معهم. قلت لهم: "كنت أحاول أن أجنبكم العناء، وأعتقد أنها تبدو أفضل هكذا". وقد عللوا الأمر بالغرائز المتعلقة بربات المنازل، ونسوا كل شيء عن ذلك. ولكنى لم أنس. إذا كانت أمى قد استطاعت أن تعبر بجسدها الوهمى المحيط الأطلنطى مرة، فستكون قادرة على أن تفعل ذلك مرة أخرى، ولم أكن أرحب بالزيارة التالية. لم أكن متأكدة من أن إعادة ترتيب الأثاث سوف يبقيها بعيدًا. كانت ليدا سبروت تستخدم هذه الوسيلة لإبعاد الأرواح غير الصديقة، ولكن أمى لم تكن روحا.

تلقيت برقية بعد هذا الحادث بخمسة أيام، كانت قد ظلت فى البيت الكندى أربعة أيام، وكنت قد داومت على استقبال بريدى هناك، واستخدمته كعنوان المرسل على كروت المعايدة النادرة التى كنت أرسلها إلى أبى، احتراسًا من أن تحاول أمى أخذ العنوان كى تتحرى عني وتتعقبني. ولم أكن أذهب لأتسلم البريد كثيرًا، لأن كل ما كنت أحصل عليه كان بطاقة بريدية من حين لآخر من أبى، عليها صورة طبيعية لتورنتو ملتقطة ليلاً من الجزيرة المركزية ـــ لابد أنه اشترى منها عشرات النسخ مرة واحدة ـــ وكانت الرسالة المرفقة تقول،" كل شيء هنا على ما يرام". وكأنه كان يرسل إلى تقريرًا.

كانت البرقية تقول: "توفيت أمك أمس، عودى من فضلك. أبوك"

قرأتها ثلاث مرات. فى البداية قررت أنها مكيدة، أرسلتها أمى نفسها، لابد أنها حصلت على العنوان من بطاقة بريدية تركها أبى ملقاة بلا اكتراث، وكانت تحاول أن تغرينى بالعودة من مسافة هائلة. ولكن فى هذه الحالة كانت سوف تقول إن أباك مات بالأمس. ولكن لابد وأنها اعتقدت أنى لم أكن راغبة فى العودة ما دامت هى على قيد الحياة، وأرسلت البرقية كإشارة خادعة بزوال الخطر.

ولكن ماذا لو كانت بالفعل قد ماتت؟ فى تلك الحالة فقد حضرت إلى صالة الاستقبال لتخبرنى بذلك. لم أرد على الإطلاق أن يكون ذلك حقيقة، ولكنى كنت أشك. يجب أن أعود.

عندما وصلت إلى الشقة كان الهندى الراديكالى جالسًا متربعًا على الأرض، يشرح لآرثر الذى كان جالسًا على الأريكة أنه لو أكثر من ممارسة الجنس فسوف يُضعف من حيويته، وبالتالى عقله، وسيصبح عديم الفائدة سياسيًّا، وضرب مثلاً بغاندي. استمعت إلى هذه المحادثة لعدة دقائق من خلال الباب نصف المفتوح (لا أزال أحتفظ بعادة التنصت من خلف الأبواب)، ولكن عندما لم أتمكن من سماع رد آرثر، دخلت.

قلت: "آرثر، يجب أن أعود إلى كندا. لقد ماتت أمي".

قال: "إذا كانت ماتت بالفعل، فلماذا تعودين؟ لن يكون هناك ما يمكن أن تفعليه".

كان على حق، ولكنى كنت فى حاجة لمعرفة إن كانت قد ماتت بالفعل... فحتى لو أجريت اتصالاً بعيد المسافة، وتحدثت مع أبى، لن أكون متأكدة ولابد أن أراها. قلت: "لا أستطيع أن أشرح، إنها مسألة عائلية، فقط لابد أن أعود".

ثم تذكر كلانا أنه ليس لدى أى نقود. لماذا لم يرسل لى أبى بعض المال؟ لقد افترض أننى مسئولة وقادرة على حل مشاكلي؛

وكان دائمًا يفترض عدم وجود أى مشاكل عندي، فأنا فتاة عاقلة. ربما تكون أمى أكثر معرفة بذلك. قلت: "سأفكر فى شيء ما". جلست على الفراش أقضم أظافري. كانت آلتى الكاتبة مرهونة، و"الهروب من الحب" مطوية فى حقيبة ملابسي، لم ألمسها منذ انتقلت للإقامة مع آرثر؛ كنت قد انتهيت فقط من نصفها، وما معى من المال لا يكفى بالكاد لشراء ورق لاستكمالها. أستطيع أن أكتب إلى أبى ليرسل لى مالاً، ولكن ذلك سيكلفنى جنيهًا غاليًا، بالإضافة إلى أن حسابى المصرفى هنا باسم لويزا ك. ديلاكورت. وسيكون من الصعب أن أشرح لأبى ذلك، وخاصة تلغرافيا. لابد وأن يجرح ذلك شعوره.

وضعت مسودة الرواية داخل حقيبة يدي. وقلت لآرثر: "إنى ذاهبة إلى المكتبة". وقبل أن أغادر اختلست إحدى كراسات النيوزيلندى الصفراء الرخيصة وقلمًا جافًا. لا حاجة للاستعارة: فهى ستؤدى إلى استجواب لا لزوم له.

جلست فى غرفة الاطلاع بالمكتبة على مدى اليومين التاليين، أقوم بعمل صعب فى الطباعة بالأحرف الخشبية، وأعانى من الأصوات حولى من رنين وحفيف وصرير وأزيز وأصوات سعال الرواد الآخرين. كانت سامانتا دين قد اختطفت بتهور من غرفة نومها فى منزل الرجل العطوف غريب الأطوار، ومهددة بالاغتصاب على يد إيرل دارسى عم البطل، عم البطل سيئ السمعة، وأنقذها البطل؛ واختطفت مرة أخرى على يد رجال كونتيسة بدمونت

الشريرة، الحسناء الحسودة، نصف الإيطالية، والتى كانت عشيقة البطل قبل ذلك. وطارت المسكينة سامانتا ذهابا وإيابا عبر لندن مثل كيس الفاصوليا، لتنتهى رحلتها أخيرًا بين ذراعى البطل، بينما كانت زوجته السيدة لتيتيا ضعيفة العقل قد ماتت مصابة بالحمى الصفراء، وفقدت الكونتيسة عقلها تمامًا فخاطرت بالقفز من فوق السور خلال عاصفة رعدية فماتت، وأفلس الإيرل بسبب مشروعات وهمية فى الباسيفيك. كان واحدًا من أقصر الكتب التى كتبتها. ومع ذلك كان سريع الإيقاع، أو كما جاء على الغلاف، أحداث تلى أحداثًا حتى الذروة المذهلة. أخذت معى نسخة بعد الطباعة إلى تورنتو، وعلى غلافها كانت سامانتا فاتنة فى اللون الأزرق، يتموج شعرها مثل عشب بحرى فى مواجهة سحابة هائلة، وفى الخلفية قلعة دى فير ذات الأبراج.

ولكنى حصلت مقابلها على أقل من المعتاد، بسبب قصر الرواية من ناحية ــ حيث تدفع دار النشر حسب عدد الكلمات ــ ومن ناحية أخرى لأن الأوغاد علموا أننى بحاجة إلى المال. وقالت الرسالة التى تسلمتها مع الأجر "إن الخاتمة لم تحل العقدة تمامًا". ولكن كان الأجر كافيًا لقطع تذكرة ذهاب فقط بالطائرة إلى تورنتو.

لقد ماتت أمي، لا شك فى ذلك. ليس هذا فقط، فأنا لم ألحق بجنازتها أيضا. لم أفكر فى الاتصال هاتفيًا من المطار، لذلك وأنا

أصعد درجات السلم الأمامى للمنزل لم أكن أعرف ما إذا كان هناك أحد لاستقبالى أم لا.

كان الوقت مساء، وكانت المصابيح الكهربائية مضاءة بالمنزل. طرقت الباب؛ ولم يجب أحد. حاولت مع الباب فوجدته مفتوحًا، ودخلت. عرفت فورًا أنها ماتت بالفعل لأن بعض الأغطية البلاستيكية كانت فوق المقاعد وبعضها منزوع. ولا يمكن لأمى أن تفعل ذلك، فإما الكل مغطى أو لا: كان لحجرة المعيشة شخصيتان متميزتان ومنفصلتان، اعتمادًا على ما إذا كانت فى حالة استقبال أم لا، وبدت المقاعد المكشوفة باهتة إلى حد ما.

كان أبى جالسًا على أحد المقاعد، مرتديًا حذاءه، وكانت تلك إشارة أخرى. كان يقرأ كتابًا وهو شارد الذهن، وكأنه لم يعد بحاجة إلى الاستغراق تمامًا فى القراءة. رأيت ذلك للحظة قبل أن يلاحظ وجودي.

ولما رآنى قال: "لقد ماتت أمك، تعالى واجلسي، لابد أنك قطعت رحلة سفر طويلة".

كان وجهه مجعدًا أكثر مما فى الصورة التى أحتفظ بها فى ذاكرتي، وأيضًا أكثر تحديدًا. كان هذا الوجه فى السابق منبسطًا، مثل قطعة نقود معدنية، أو حتى مثل قطعة نقود مر عليها قطار؛ فكان يبدو وكأن قسمات وجهه قد مُحيت، ولكن ليس تمامًا، وكانت تلك

القسمات مبهمة وغامضة وكأنها تظهر من خلف طبقات من الشاش. ولكن الآن بدأ وجهه فى البزوغ، كانت عيناه تشعان زرقة ودهاء، لم أفكر أبدًا فيه كداهية؛ وكان فمه رفيعًا، ويعبر عن قليل من التهور، فم رجل مقامر. لماذا لم أكن ألاحظ ذلك أبدًا؟

أخبرنى أنه عثر على أمى أسفل درجات القبو عندما عاد من المستشفى ذات ليلة. كانت هناك كدمة على صدغها ورقبتها ملتوية بشدة، ومكسورة. اكتشف ذلك فى الحال، ولكنه دعا عربة الإسعاف كإجراء شكلي، على الرغم من علمه أنها ماتت. كانت ترتدى ثوبها الطويل الذى تلبسه فى البيت والخف الوردي. قال أبى: "لابد وأنها تعثرت وسقطت أسفل الدرج، وارتطم رأسها عدة مرات وكُسر عنقها فى قاع السلم". وألمح إلى كمية الخمر الكبيرة التى كانت تحتسيها فى الآونة الأخيرة. كانت نتيجة التحقيق هى موت نتيجة حادث. لا يمكن أن يكون هناك أى شيء آخر، حيث لا توجد أى علامات تدل على وجود أى شخص آخر بالبيت، ولم يُفقد شيء. تلك كانت أطول محادثة جرت بينى وبين أبى فى حياتى كلها.

اجتاحتنى موجة من الشعور بالذنب لعدة أسباب. أنى تركتها، تخليت عنها رغم أنى كنت أدرك أنها تعيسة، ثم أنى ارتبت فى البرقية، شككت فى مؤامرة. وحتى لم أستطع حضور الجنازة. لقد أغلقت الباب عليها فى نفس لحظة موتها ـــ والتى على أية حال لا يمكن أن تكون محددة تمامًا، حيث أنها كانت قد ماتت قبل خمس أو

ست ساعات على الأقل قبل عثور أبى عليها. شعرت وكأنى قتلتها بنفسي، رغم أن هذا كان مستحيلاً.

تلك الليلة ذهبت إلى الثلاجة، ثلاجتها، والتهمت محتوياتها، أكلت بتعجل مسعور وبلا استمتاع نصف دجاجة، وربع رطل زبد، وفطيرة كريمة الموز التى اشتراها أحدهم من الخارج، ورغيفين من الخبز، وبرطمان مربى فراولة من دولاب المطبخ. وظللت أتوقع أن تتجسد عند الباب بتلك النظرة المشمئزة التى تخفى بعض السرور، والتى أذكرها جيدًا ــ كانت تحب أن تضبطنى متلبسة ــ ولكن رغم هذه الطقوس، التى غالبًا ما كانت تتسبب فى ظهورها، لم تظهر. تقيأت مرتين أثناء الليل، ولم أعاود ما فعلت مرة أخرى.

بدأت شكوكى فى اليوم التالي، عندما قال لى أبى أثناء تناول طعام الإفطار، وهو ينظر إلىّ بعينيه الماكرتين الجديدتين، وبدا وكأنه تدرب على هذا "ربما تجدين هذا صعب التصديق، ولكنى أحببت أمك".

وبالفعل وجدت هذا صعب التصديق. كنت أعلم عن الفراش المزدوج، والاتهامات المضادة، كما كنت أعلم أنه من وجهة نظر أمى أننى وأبى قد فشلنا تمامًا فى إشباع حياتها بالطريقة التى كانت تريدها. اعتادت أن تقول أنه لا أحد يقدرها، ولم يكن ذلك نوعًا من جنون العظمة. لم يكن أحد يقدرها فعلاً، حتى ولو فعلت الشيء

الصحيح، لقد كرست حياتها من أجلنا، جعلت حياتها العائلية هى مهنتها وفقًا لما قيل لها أن تفعل، وفى النهاية ماذا كان المردود ؟ : ابنة ساذجة بدينة عبوسة الوجه، وزوج لا يتحدث إليها، ولا يرغب فى العودة إلى روزديل، تلك المنطقة التى كان يسكنها الأنجلو ساكسون الجديرون بالاحترام، حيث كانت تعيش عائلته. هل كان يخجل منها؟ من المحتمل أن الإجابة نعم، على الرغم من أنه خلال هذه المحادثات كان أبى لا يقول شيئًا؛ أو ربما كان يقول إنه لا يحب روزديل. وكانت أمى تقول إن أبى لا يحبها، وأنا أصدق أمي.

والأكثر غرابة أن يجد نفسه بحاجة لأن يقول لى "لقد أحببت أمك". كان يريد أن يقنعني، كان ذلك واضحًا؛ ولكن كان من الواضح أيضًا أنه لم يكن يتوقع أن أعود حقًا من إنجلترا. لقد تبرع بالفعل بملابس أمى إلى مؤسسة المدنيين المعاقين، وقد ترك آثار أقدامه على طول البساط، وكانت هناك أطباق متسخة فى الحوض لثلاثة أيام سابقة على الأقل، كان ينتهك بصورة منظمة كل القواعد. وفى اليوم التالى قال شيئًا أكثر مدعاة للارتياب، قال: "ليس الأمر سيان بدونها"، متنهدًا وناظرًا إلىّ، عيناه تلتمسان منى أن أصدقه، أن أشارك فى المؤامرة وأحتفظ بفمى مغلقًا. لقد تخيلته فجأة يتسلل خارجًا من المستشفى، مرتديًا قناعه الأبيض حتى لا يمكن التعرف عليه، ويقود سيارته عائدًا إلى البيت ويدخل بمفتاحه، ويخلع حذاءه، ثم يرتدى نعليه، ويتسلل فى صمت خلفها. لقد كان طبيبًا، وكان يعمل ضمن

حركة سرية، لقد قتل بشرًا من قبل، كان على علم بكيفية كسر رقبتها، وجعل الأمر يبدو وكأنه حادث. وعلى الرغم من تجاعيد وجهه وتنهداته، فقد كان معتدًّا بنفسه، مثل إنسان استطاع أن ينجو بفعلته.

قلت لنفسي، بلا فائدة، إن هذا لم يكن من شيمة أبى، ومع ذلك فإن أى شخص يمكن أن يفعل أى شيء إذا صادف الظروف المناسبة. بدأت أتصيد الدوافع، امرأة أخرى، رجل آخر، بوليصة تأمين، شكوى طاغية من جانب واحد. تفحصت ياقات قمصان أبى بحثًا عن أحمر شفاه، بحثت فى الأوراق التى تبدو رسمية فى أدراج مكتبه، تنصَّت على المكالمات التليفونية القليلة التى تلقاها، انحنيت لأتفحص درجات السلم، ولكن لم يظهر شيء، وتخليت عن استقصائى بأسرع مما لو كان قد تم إقناعى بذلك. إلى جانب أنه، ماذا لو اكتشفت بالفعل أن أبى كان قاتلاً؟

تحولت إلى التخمينات حول أمي؛ استطعت أن أخمن بشأنها الآن لأنها لم تعد موجودة. ماذا كان قد حدث لها ليجعلها تتعامل معى بالطريقة التى كانت تعاملنى بها؟ وأكثر من أى وقت مضى، أردت أن أسأل أبى عما إذا كانت قد حملت قبل أن يتزوجا. وماذا عن ذلك الشاب فى ألبوم صورها الفوتوغرافية؟ والذى يرتدى ملابس رياضية بيضاء ويركب سيارة فاخرة، ذلك الشخص الذى قالت إنها كانت تقريبًا مخطوبة له؟ تقريبًا. مأساة ما تختبئ هناك. هل تخلى عنها لأن

أباها كان يعمل ناظر محطة فى السكك الحديدية الكندية؟ أكان أبى التالى فى الأفضلية بالنسبة لها، رغم أنه كان أعلى درجة فى السلم الاجتماعي؟

أخرجت ألبوم الصور لأنعش ذاكرتي، ربما أعثر فى تعبيرات الوجوه عن خيط يحل اللغز، ولكن فى كل صور الرجل ذى الزى الرياضى الأبيض، كان الوجه مقصوصًا، بعناية، وكأنه تم بنصل شفرة حادة، وكان وجه أبى فى الصور مفقودًا أيضًا. كانت أمى فقط هناك، صغيرة وجميلة تضحك للكاميرا بمرح، تتأبط ذراع رجلها الذى بلا رأس، جلست لمدة ساعة والألبوم مفتوح أمامى على المنضدة، مذهولة للعثور على هذا الدليل الواضح على غضبها العارم. يمكننى أن أتخيلها بوضوح وهى تفعل ذلك، أصابعها الطويلة تعمل فى غضب عنيف، تستأصل الماضى الذى تحول إلى الحاضر وغدر بها، مطيحًا بها فى هذا المنزل، هذه المقبرة ذات الكفن البلاستيكى، والتى لا مخرج منها. لابد أن هذا هو ما شعرت به. خطر على بالى أنه من المحتمل أن تكون قد حاولت الانتحار، على الرغم من أننى لم أسمع أبدًا عن أى شخص حاول الانتحار بإلقاء نفسه على درج القبو. وربما يفسر ذلك حالة أبى ورغبته فى أن أصدقه، واشتياقه للتخلص من متعلقاتها، التى قد تذكره بأنه يتحمل بعض اللوم. ولأول مرة فى حياتى بدأت أشعر أنه لم يكن من العدل

أن يحب الجميع العمة "لو" ولا يحب أحد أمي. فقد كانت حادة الطباع جدًّا بما لا يتيح فرصة لأحد أن يحبها.

وكان ذلك فشلاً منى أيضًا إلى حد ما. هل أخطأت عندما أخذت حياتى على عاتقى وتركت المنزل؟ وقبل ذلك كنت البدينة البلهاء، المتخلفة التى فضحتها وخذلتها: لم تكن حقيقتها كظاهرها، كنت أنا عائقًا، التناقض المجسد لادعاءاتها بالمنزلة الرفيعة والرشاقة. ولكن رغم كل شيء فقد كانت أمي. لابد وأنها عاملتنى يومًا كطفلة، رغم أنى لا أذكر سوى لمحات، وهى تحملنى لأنظر إلى نفسى فى المرآة الثلاثية، وهى تمشط لى شعري، أو تحتضننى فى مكان عام، وهى بصحبة الأمهات الأخريات.

استغرقت فى التفكير فيها لعدة أيام. أردت أن أعرف كل ما يمكن معرفته عن حياتها، ولكن أيضًا عن موتها، ماذا حدث فعلاً؟ وخاصة إذا كانت قد ماتت وهى ترتدى ثوبها الطويل الذى تلبسه فى البيت والنعل الوردي، ولماذا ظهرت فى صالة الاستقبال التى أقطن بها مرتدية بدلتها الزرقاء الداكنة التى احتفظت بها منذ عام ١٩٤٩؟ قررت أن أعثر على ليدا سبروت وأطلب منها إجراء جلسة خاصة.

بحثت عنها فى دفتر التليفونات، ولكن لم يكن اسمها مدونًا، ولا الكنيسة الأردنية. ركبت سيارة أجرة إلى المنطقة التى كنا نذهب إليها فى الماضي، وأخذت أقطع الشوارع جيئة وذهابًا، بحثًا عن

الكنيسة. وفى النهاية وجدت المنزل، لا شك أنه هو، تذكرت محطة البنزين الكائنة على الناصية؛ ولكنى وجدت عائلة برتغالية تقطن هناك حاليًّا. ولم يفيدونى بشيء. ليدا سبروت وأعضاء فرقتها الصغيرة من الروحانيين قد اختفوا كلية.

بقيت مع أبى لمدة تسعة أيام، أراقب منزل أمى وهو يتفكك. دولابها وأدراج ملابسها كانت فارغة، فراشها كان مرتبًا ولكن بلا استخدام، وظهرت أعشاب برية فى الحديقة، وبعض القذارة فى حوض الحمام، وفتات الخبز على الأرضية هنا وهناك. ولم يكن أبى مستاء على وجه التحديد من وجودي، لكنه لم يدعُنى للبقاء. كنا متآمرين صامتين طوال حياتنا، والآن عندما زال سبب الصمت، لم نستطع أن نفكر فى أى شيء يمكن أن نقوله لبعضنا. كنت أتصور أن أمى كانت تتعمد إبعاد كل منا عن الآخر، أتخيل أننا كنا سنعيش سعداء لولاها، مثل نانسى درو وأبيها المحامى المتفهم، ولكنى كنت مخطئة. والحقيقة أنها كانت تجمعنا سويًّا، مثل ضرورة وطنية يلتف حولها الشعب، كحملة عسكرية مفاجئة.

وأخيرًا حصلت لنفسى على غرفة فى شارع تشارلز. لم أكن فى الحقيقة أستطيع دفع أجرها، ولكن أبى قال لى إنه يخطط لبيع البيت والانتقال إلى شقة من غرفة نوم واحدة فى شارع أفينيو. (فى نهاية الأمر تزوج ثانية، من سكرتيرة قانونية جميلة قابلها بعد موت أمي، وانتقلا للمعيشة فى بيت من طابق واحد فى دون ميلز).

ولم أستطع الكتابة لفترة بعد موت أمي. لم تعد الحبكات القصصية القديمة تجذب اهتمامي، والجديدة لن تفيد. لقد حاولت ـــ بدأت فى كتابة رواية تدعى "عاصفة فوق قلعة فورد" ـــ ولكن البطل كان يلعب البلياردو طوال الوقت، والبطلة تجلس على حافة فراشها، وحيدة فى الليل، لا تفعل شيئًا. كان ذلك أقرب ما وصلت إليه على الإطلاق من الواقعية الاجتماعية.

وساهم التفكير فى آرثر فى اكتئابي. قلت لنفسى أننى لم يكن ينبغي أن أسافر أبدًا. تبادلنا قبلة الوداع فى المطار ـــ حسنًا، ليس فى المطار تمامًا، ولكنه كان قد رافقنى إلى المحطة الرئيسية لحافلات شركة الخطوط الجوية البريطانية ـــ وقلت له أننى سوف أعود حالما أستطيع. وكنت أكتب إليه بإخلاص كل أسبوع، وشرحت له أننى لم أستطع العودة بعد لأننى لا أملك المال اللازم لذلك. وكان لفترة زمنية يرد برسائل غريبة، مليئة بأخبار عن نشاطاته المتعلقة بتوزيع المنشورات، وموقعة بـــ "المخلص آرثر" (كنت أنا أوقع "مع حبى وألف قبلة، XXXX") ثم توقفت الرسائل. لم أجرؤ على التفكير فيما حدث. أهناك امرأة أخرى؟ هل حدثت مشكلة فى توزيع المنشورات؟ ربما ببساطة نسى كل شيء عنى، ولكن كيف يستطيع، وعندما سافرت كانت معظم أمتعتى فى شقته؟

حصلت على وظيفة كمندوبة مبيعات لمستحضرات التجميل بإحدى شركات إنتاج تلك المستحضرات فى إيتونز، لبيع مواد تجميل

الرموش. ولكنى كنت أبكى كثيرًا فى الليل حتى تورمت عيناي، ولذلك قاموا بتغيير عملى إلى الباروكات. ليس حتى الجيدة منها، ولكن المصنعة من المواد الاصطناعية. لم يكن عملاً ممتعًا، كما أن السعي غير المجدى من الزبائن بحثًا عن الشباب والجمال أصابنى بالإحباط. وبين الفينة والفينة، عندما لم يكن هناك من يراني، كنت أجرب الباروكات بنفسي، ولكنها كانت فى الأغلب باروكات رمادية. أردت أن أرى كيف سوف أبدو عندما أكبر، فقد شعرت أننى سوف أتقدم سريعًا فى العمر، ولن يحدث لى شيء أثناء ذلك لأنى كنت غير مهتمة بأى شيء أو أى شخص. لقد كنت مهجورة، كنت على قناعة بذلك. وكنت بائسة.

الفصل الثامن عشر

جلست في منفاي على السور الروماني، فوق آلتي الكاتبة المتنقلة في جرابها، وبكيت. توقف المارة، بعضهم قال لي أشياء. كنت أريد آرثر أن يعود، أريده هنا معي. لو شرحت له، كيف يمكن أن يغضب مني؟ لقد أدرت الأمور بشكل سيئ جدًّا.

وقفت، ومسحت وجهي بطرف وشاحي، وبحثت عن كشك لبيع الصحف. واشتريت أول بطاقة بريدية وجدتها، وكتبت على ظهرها: "إنني لم أمت في الحقيقة، كان لابد أن أرحل بعيدًا. احضر بسرعة. XXX. ولم أوقع باسمي أو أضع أي عنوان: فسوف يعرف من المرسل وأين يجدني.

وبعد أن أرسلته شعرت أنني أفضل كثيرًا. كل شيء سيكون على ما يرام. حالما يتسلم آرثر البطاقة فسوف يطير عبر المحيط، وسوف نتعانق، سأخبره بكل شيء. سوف يسامحني، وسوف أسامحه، ونستطيع أن نبدأ من جديد. سيعلم أنني لا أستطيع العودة إلى الجانب الآخر، ولذلك فسوف يغير اسمه، وسوف نواري سويًّا ملابسه ونشتري أخرى جديدة حالما أبيع رواية "الهروب من الحب". ربما يطيل لحيته أو شاربه ــ بصورة جميلة ومنمقة، أو حتى ربما يصبغ شعره.

تذكرت صبغة الشعر. بحثت عن الكلمة المرادفة فى إحدى الصيدليات، وقضيت بعض الوقت بين المواد الخاصة بالشطف والتلوين والغسيل والصباغة. وفى النهاية استقر اختيارى على صبغة شعر "كاريزما"، بلون كستنائى ناعم متوهج، قبلة الخريف، مرسوم عليها خطوط أشعة الشمس بأضواء متألقة. أحب الكثير من الصفات على علب التجميل التى أشتريها، وأشعر أنها مغشوشة إذا لم يكن عليها الكثير من هذه الصفات.

واحتفالاً بميلاد شخصيتى الجديدة (فتاة عاقلة رصينة ودافئة ومخلصة وواثقة، بعيون خضراء ناعسة وعادات متناسقة وشعر كستنائى متوهج)، اشتريت لنفسى "فوتورومانزو"، وهى قصة رومانسية مصورة، وجلست بمقهى فى الهواء الطلق لأقرأها وآكل الآيس كريم. لو كان آرثر هنا لساعدنى على قراءة الفوتورومانزو. كنا نتدرب على الإيطالية بهذه الطريقة، قراءة الحوارات من بالون الحوار المستطيل بصوت مرتفع إلى بعضنا البعض، باحثين عن الكلمات الصعبة فى قاموس الجيب، ونفهم المعانى من الصور الفوتوغرافية غير الملونة. وقد وجد آرثر أن هذه الطريقة سيئة إلى حد ما، ووجدتها أنا ساحرة. كانت القصص كلها عاطفية ملتهبة، ولكن النساء والرجال لم تكن أفواههم تفتح أبدًا، وكانت أطرافهم تتحرك باتساق مثل عارضات الأزياء، ورؤوسهم مستقرة على رقابهم فى إحكام مثل القبعات. كنت أفهم تلك التقاليد، هذا النوع من اللياقة

والذوق. كانت إيطاليا أقرب إلى كندا أكثر مما يبدو للوهلة الأولى. كل ذلك الصراخ وفمك مغلق.

وفى تلك الرواية، كانت الأم هى الحبيبة السرية لخطيب ابنتها فيدانزاتو. قالت: "أنا أحبك"، بوجه جامد "تى آمو". وكانت ترتدى جلبابًا. قال وهو ممسك بكتفيها "لا تيأسي". لم يكن يبدو أنهما يقولان أى شيء أحتاجه بالفعل، مثل "كم ثمن الطماطم؟" وفى المربع التالى كان جلباب المرأة منزلقًا عن كتفيها.

وقع ظل فوقى، فوجئت ونظرت إلى أعلى: ولكنه كان مجرد شخص غريب، أسنان بيضاء، وبذلة مبالغ فى كيها، رباط عنق نايلون، باللونين الأخضر والوردي. كنت أعلم أن المرأة الوحيدة لا يُفترض أن تجلس بمفردها فى البارات. ولكن هذا لم يكن بارًا، وكان الوقت فى منتصف النهار. ربما كانت الفوتورومانزو هى التى اجتذبته. أغلقتها، ولكنه كان قد جلس بالفعل على مائدتي.

سألنى بالإيطالية: "اسمحى لى يا آنسة"، وسألنى سؤالاً، ولم تكن لدى فكرة ماذا يعنى. ابتسمت قليلاً وقلت بالإيطالية جملة كنت أحفظها: "أنا إنجليزية ولا أتحدث الإيطالية"، ولكن ابتسامته اتسعت، قمت على قدمي، وأخذت حقيبة يدى ورفعت الآلة الكاتبة. ابتسم الرجل الواقف خلف الكاونتر (المنضدة الطويلة) وأنا أدفع الفاتورة. رجل بمثل ذلك الحذاء المدبب الرأس ورابطة العنق النايلون الملونة

وردى وأخضر، لقد ذكرنى برجل الخضروات فى السوق، ذى العينين بلون العنب، يداعب الخوخ ويزن الكريب فروت.

فكرت، آرثر، الأفضل لك أن تتسلم الكارت الذى أرسلته لك سريعًا أو أن شيئًا مؤسفًا سوف يحدث.

كان الوقت بعد الظهيرة عندما عدت إلى توريموتو، توجهت إلى مكتب البريد، كما كنت أفعل كل يوم، أملاً فى أخبار جديدة من سام. ولم تكن هناك أية أخبار حتى الآن. "لويزا ديلاكورت"، قلت ذلك كالمعتاد، ولكن فى هذه المرة أدارت المرأة الواقفة خلف الكاونتر جسدها كله مثل قارئة الحظ الشمعية فى المعرض القومى الكندي، التى تخرج لك بطاقة إذا أعطيتها عشرة سنتات. مدت المرأة يدها من خلال فتحة فى النافذة حاملة رسالة بريدية زرقاء.

بالخارج، أمام عينى رجل الشرطة المتسكع، مزقت طرفها وفتحتها، وقرأت كلمة واحدة، وكانت الكلمة التى اتفقنا على أنها إشارة تدل على النجاح. أما إذا كان هناك إخفاق، فقد اتفقنا على كلمة أخرى. كان سام مقتنعًا بأن أجهزة الرقابة تفحص بريده، ليس فقط البريد الذى يتسلمه، ولكن أيضًا الذى يرسله. كان يقول: "ذلك سوف يحوّل انتباه الرقابة، دعهم يحاولون فهم هذه الألغاز".

طويت الرسالة الزرقاء الرفيعة، ووضعتها فى حقيبة يدي. وغمرنى الارتياح، شعرت أننى الآن حرة، لقد انتهى التحقيق بالفعل،

وصدقوا روايات سام ومارلين بأنى تعرضت لحادثة أثناء ركوبى المركب فى البحر. وكنت ميتة رسميًا رغم عدم العثور على الجثة.

كانت شارلوت تتناول الشاى مع السيدة رايرسون، مدبرة المنزل الممتلئة الجسم الودودة، وحتى الآن كانت الشخص الوحيد فى المنزل بأكمله التى يمكن لشارلوت أن تثق فيها. كانت النار تتأجج فى المدفأة باعثة دفءً وأجواءً من التفاؤل. وعلى الرغم من هذا لم تكن شارلوت تشعر بالأمان التام، كانت فى حيرة، هل يجب عليها أن تخبر مسز رايرسون عن ثيابها الممزقة؟ ولكنها قررت ألا تفعل، ليس بعد...

قالت شارلوت وهى تضع الزبد على الكعكة: "سيدة رايرسون، ما هى المتاهة؟"

تكدر وجه السيدة رايرسون وتساءلت: "أية متاهة يا آنسة؟"

"حذرنى توم ألا أقترب منها".

قالت السيدة رايرسون: "وأنا أيضًا لن أفعل إذا كنت مكانك يا آنسة، فهو ليس مكانًا صالحًا، المتاهة، خاصة بالنسبة للفتيات الصغيرات".

سألت شارلوت وهى متحيرة: "ولكن ما هى تلك المتاهة؟"

"إنها واحدة من متاهاتهم يا آنسة، تم غرسها على يد أجداد السيد منذ مئات الأعوام، أثناء حكم الملكة الطيبة "بس"، أو هكذا يقولون". والسيد لا يتحدث عنها أبدًا منذ فُقدت زوجته الأولى هناك، والثانية أيضًا، وكان ذلك فى وضح النهار. البعض يقولون أن المخلوقات الصغيرة ترقص هناك، وأنها لا تحب الدخلاء، ولكن تلك مجرد خرافات. السيدة الأولى قالت ذلك أيضًا، ودخلت فيها فقط لتثبت أنها غير مؤذية، ولكنها لم تخرج منها أبدًا. وقد بحثوا عنها فيما بعد، ولكنهم لم يعثروا على شيء، لا شيء سوى أحد قفازيها، كان من الجلد الأبيض".

كانت شارلوت مندهشة: "أتعنين... أنه كانت هناك أكثر من زوجة للسيد ردموند؟"

أومأت السيدة رايرسون برأسها، وقالت: "مسز ردموند الحالية هى الثالثة، كانت الثانية فتاة جميلة أيضًا، وكان لديها فضول شديد لمعرفة ما حدث للأولى، فدخلت أيضًا إلى هذه المتاهة. وفى هذه المرة سمعوها وهى تصرخ، ولكنهم عندما دخلوا ــ توم الحوذى واثنان من سائقى الخيل ــ كانت قد اختفت. تبخرت فى الحال، كما يمكن أن تقولي. أتعلمين يا آنسة، لقد نمت شجيراتها بشدة".

وارتعشت شارلوت رغمًا عنها، وغمغمت قائلة: "لماذا... ذلك شيء غريب للغاية"، وشعرت برغبة قوية فى زيارة المتاهة، أن

تنظر إليها، حتى من الخارج فقط، فهى لم تكن تعتقد فى القوى الخارقة للطبيعة. وسألت: "وماذا عن مسز ردموند الحالية؟"

أجابت السيدة رايرسون: "إنها لا تقترب من المتاهة على حد علمي. البعض يقول أن المتاهة لا مركز لها، ولذلك يضيعون بداخلها. فهم يدخلونها ثم لا يستطيعون العثور على طريق الخروج. يقول البعض أن مسز ردموند الأولى والثانية لا تزالان بالداخل هناك، تدوران فى دوائر لا مخرج منها". نظرت السيدة رايرسون خلف كتفها، ورغم الدفء فى الحجرة، أحكمت شالها حولها..

انتهت شارلوت من الكعكة، ولعقت أصابعها تتذوقها. وقالت: "لماذا؟ إن ذلك سخف، من سمع من قبل عن متاهة بلا مركز؟" ولكنها كانت تقدح تفكيرها فى الأحداث التي وقعت الليلة قبل الماضية... لقد كانت فى غرفة نومها، وسمعت صوتًا... صوتًا قادمًا من الخارج، على الأرض فى الشرفة... صوت وقع أقدام... ثم، لم تكن مخطئة بالتأكيد، صوت شخص يناديها باسمها. اعترتها قشعريرة، قامت وذهبت إلى النافذة. وهناك، أسفلها، رأت بوضوح فى الضوء الخافت للقمر الذى ظهر توًا من خلف مجموعة سحب كانت تحجبه، شبح شخص واقف يرتدى عباءة قاتمة، لم تتضح معالمه فى الظلام.

بينما كانت شارلوت تحدق فى الظلام، استدار الشبح وابتعد فى خطوات بطيئة منتظمة. من ذلك الذى أراد أن يحيرها؟ حل الغضب

محل الخوف، والفضول: سوف تصل إلى حل لهذا اللغز. أسرعت تنزل على السلم الخلفى الذى كان ينتهى كما كانت تعلم إلى باب جانبى ينفتح على الشرفة الخارجية.

وصلت فى الوقت المناسب لترى الشبح يدلف إلى مدخل واسع فى نهاية الممر الذى يتخلل الحديقة، تبعته شارلوت بسرعة وهى تقفز فوق الدرجات الحجرية، كانت المرجة والأحواض المزروعة بزهور اليزابيث، وخلف ذلك... مدخل المتاهة. اقتحم الشبح ذو العباءة المدخل، واختفى؛ ومن مكان مجهول سمعت ضحكة خافتة.

وقفت شارلوت ساكنة.... وفجأة أصابها الفزع، شعرت أن شيئًا ما يسحبها نحو المتاهة، بصورة لا تستطيع مقاومتها، ضد رغبتها، إلا أنها كانت تعلم أنها لو دخلت المتاهة فإن شيئًا فظيعًا سوف يحدث لها.

وفجأة قبضت يد على ذراعها مما أفزعها فصرخت، رفعت عينيها فرأت وجه ردموند القاتم الغامض.

قال لها ساخرًا: "أليس الوقت متأخرًا قليلاً للتنزه؟ أو ربما تنوين.... لقاء شخص ما، يبدو أنك متأنقة لمثل هذه المناسبة".

احمر وجه شارلوت خجلاً، اكتشفت أنها لم تكن ترتدى سوى قميص نومها.

قالت وهى مرتبكة: "لابد أنى كنت أسير وأنا نائمة، لا أتذكر أنه حدث لى مثل ذلك من قبل".

قال ردموند: "عادة خطرة.."، وأحكم قبضته على ذراعها، لأنها حاولت أن تجذبها "والعادات الخطرة لابد وأن يكون لها ثمن". مال بوجهه نحو وجهها؛ كانت عيناه تلمعان فى ضوء الهلال. "والآن..."

كنت أكتب على الآلة الكاتبة الموضوعة على المنضدة، وعيناى مغلقتان، ولكن عندما توقفت لأفكر كيف ستنجو شارلوت هذه المرة من المأزق (لم يكن فى متناولها كتب مجلدة، ولا شمعدانات، ولا قضبان حديدية لمدفأة تستطيع أن تضربه بأحدها. ربما ركبة سريعة جدًّا أسفل البطن؟ ولكن ذلك كان خارجًا عن الحدود فى رواياتي، يجب أن يكون هناك تدخل من عنصر آخر)، فى هذا الوقت سمعت صوتًا.

كان هناك شخص بالخارج على الممر، سمعت صوت وقع أقدام خافتة، قادمة نحوى. صوت انزلاق حذاء على حصى الممر، ثم توقفت الخطوات.

همست بصوت خافت: "آرثر؟". ولكنه ليس آرثر، لا يمكن أن يكون، ليس بهذه السرعة. وددت أن أصرخ، وأن أندفع إلى الحمام وأغلق الباب خلفى بالمزلاج، وأستطيع أن أنحشر من النافذة الصغيرة

ثم أجرى فوق التل إلى سيارتى هناك، أين وضعت المفاتيح؟ تشكلت وجوه وتحللت فى رأسى... مادا يريدون؟

اكتشفت أنى ظاهرة للعيان بالفعل نتيجة انعكاس الضوء من وراء النافذة. تجمدت فى مكاني، أستمع، ثم أطفأت النور، وربضت خلف المنضدة. هل هو السيد فيتروني، وقد عاد لأى سبب مريب فى منتصف الليل؟ أو هل هو شخص آخر غريب، شخص ما، أو رجل ما، سمع أننى أعيش هنا بمفردي؟ لم أستطع أن أتذكر إن كنت أغلقت الباب بالمزلاج أم لا.

مر وقت طويل وأنا رابضة خلف المنضدة، أستمع لأى صوت، أقدام آتية نحوى، أو أقدام ذاهبة. استطعت سماع صوت الحشرات، وصوت أنين بعيد، وسيارة تصعد نحو أعلى التل إلى الميدان... ولكن كان هذا كل شيء.

وفى النهاية نهضت ونظرت عبر النافذة الأمامية المطلة على الشرفة، ثم من نافذة المطبخ، ثم من نافذة الحمام. فلم أرَ شيئًا أو شخصًا.

قلت لنفسى إنه نوع من توتر الأعصاب. ويجب أن ألاحظ ذلك، صعدت إلى الفراش ومعى قصة الفوتورومانزو الإيطالية لتهدئة نفسي. كنت أستطيع قراءتها بدون استخدام القاموس، تقريبًا، نظرًا لأنى كنت قد تعلمت بالفعل الكثير من الكلمات والجمل، مثل: لست

خائفة منك. ولا أثق بك. أنت تعلم أنى أحبك. لابد أن تخبرنى بالحقيقة. كان يبدو غريبا جدًا. أهناك مشكلة؟ حبنا مستحيل. سوف أكون لك للأبد. إنى خائفة.

الجزء الرابع

الفصل التاسع عشر

"هكذا إذن!"، قاطعتهما فليشيا، "أهذا ما تلهو به عندما أدير لك ظهري. حقا يا ردموند، كنت أتمنى لو كان لديك بعض المراعاة لشعور الآخرين". كانت ترتدى عباءة داكنة ملقاة بإهمال فوق رداء فخم من الحرير البرتقالى البراق، له حافة مخملية زرقاء. وفى التو تأكدت شارلوت أن فليشيا هى التى نادت عليها، وأغوتها للخروج من البيت فى رداء نومها. كانت فليشيا هى التى كتبت "احذري"، بالدم، على مرآة غرفة نومها الحقيرة المشوهة.... ربما كانت مؤامرة بين الاثنين. ولكن فليشيا بدت صادقة، وبدا اندهاشها صادقا. اهتزت قناعة شارلوت وهى تراقبهما وكل منهما يواجه الآخر.

اندفعت فليشيا قائلة: "فى البداية كانت خادمة الطابق العلوي، ثم تلك الفتاة التى استأجرتها لإصلاح الأغلفة الجلدية فى المكتبة، إذا كان لابد أن يكون هذا هو سلوكك، فينبغى أن يكون ذوقك أفضل، وفى المرة القادمة فليكن لديك ذوق لاختيار شخصية تناسب طبقتك الاجتماعية".

قال ردموند متذمرًا: "بماذا تتهميننى أيتها السيدة؟"

وشعرت شارلوت رغمًا عنها بموجة من التعاطف معه. من المؤكد أنه يتصرف هكذا بسبب تعاسته فى زواجه، من المؤكد أنه إذا

كان يعيش حبًّا حقيقيا يتسم بالإخلاص وعدم الأنانية بدلاً من غيرة فليشيا المدمرة ورغبتها فى التملك، فمن المؤكد أن ذلك سيجعله رجلاً مختلفًا، ولكنها قمعت بسرعة هذا التفكير.

"أتهمك بالاستمرار فى سلوكياتك الوقحة مع هذه... هذه ....".

سأل ردموند بنبرة تهديد: "هل لى أن أسأل ماذا تفعلين أنت نفسك بالخارج فى هذا الوقت من الليل؟"

وقبل أن ترد فليشيا، وجدت شارلوت أن غضبها الشخصى يأتى منقذًا لها. قالت: "أرفض أن أقف هنا أكثر من ذلك، قد تصدقاننى أو لا، كلاكما، كما تشاءان...".

ثم استدارت عائدة نحو البيت، وهى تكبح دموعها التى كانت تعرف أنها سوف تنهمر رغمًا عنها بمجرد أن تصل إلى الأمان داخل حجرتها. شعرت بالمذلة والخزي. وخلفها كانت تستطيع أن تسمع فليشيا تضحك، وربما كان ردموند يضحك أيضًا. وشعرت بالكراهية نحو الاثنين.

وبينما كانت تجرى بمحاذاة الشرفة وقع صوت ارتطام على بعد خطوات قليلة منها، إذ سقطت إحدى الأوانى الحجرية الموضوعة للزينة على سور الشرفة، وأخطأتها بسنتيمترات قليلة متفتتة إلى قطع صغيرة. أطلقت شارلوت صيحة مختنقة، ونظرت إلى أعلى فى الظلام، إنها تعلم الآن أن الأمر أكثر من مجرد شك، فقد رأت خيال

شخص يرتدى عباءة سوداء ينطلق مسرعًا، شخص ما كان يحاول قتلها.

كنت قد وضعت الآلة الكاتبة على المنضدة. كانت تعمل بصورة حسنة، ولكن لم يكن هناك حرف **K** فى الحروف الإيطالية، فاستبدلته بحرف **X**، وكانت لوحة المفاتيح مختلفة، فاستدعى الأمر أن أنظر إليها وأنا أكتب. وكان ذلك يشتت ذهني، وبدت مثل شفرة مريخية غريبة، وبدأت بكتابة حروف الـــ **K** باليد، لأن شكل الكلمات بدا غريبًا وبلا معنى.

آرثر، كنت أفكر وعيناى مليئتان بالدموع، أين أنت؟ لماذا لا تأتى وتعثر عليّ؟ فى أية لحظة قد يظهر عند الباب بصورة غير متوقعة. لقد فعلها ذات مرة.

وصل ليلاً، وسط عاصفة ممطرة. قرعت صاحبة البيت باب حجرتى قائلة: "آنسة ديلاكورت، الساعة الآن العاشرة مساء، تعلمين أنه ليس من المفترض أن تستقبلى زوارًا بعد السابعة". كنت راقدة على الفراش أحدق فى سقف الغرفة.

قلت "ليس لدى أى زوار هنا"، وأنا أفتح الباب لأريها أن تلك هى الحقيقة، لم يكن أحد قد زارنى أبدًا.

قالت: "هناك أحدهم بالطابق السفلي، وقد قلت له أنه لا يستطيع أن يدخل. قال إن اسمه آرثر أو شيء من هذا القبيل". قالت ذلك وهى تنزل على السلم فى ثوبها الفضفاض ونعلها البيتي.

ركضت إلى أسفل الدرج الأمامى وأنا أمسك الدرابزين. لا يمكن أن يكون آرثر، لقد فقدت الأمل فيه تمامًا. كانت آخر رسالة له فى الثامن من شهر سبتمبر الماضي، ونحن الآن فى نوفمبر. ولكن بمعجزة ما كان هو، وقد صرفته صاحبة البيت... فتحت الباب الأمامى بعنف، وذهبت أعدو بسرعة وراءه فى الشارع وأنا بروب الحمام. وكان هو على وشك الالتفاف للنزول على السلم.

صرخت: "آرثر"، وأنا ألقى بذراعى حوله من الخلف. كان يرتدى معطف مطر بلاستيكي أصفر برقبة مقلوبة لأعلى حول أذنيه؛ كان رأسه باردًا ومبتلاً، ترنحنا على حافة درجة السلم العليا، ثم تركته واستدار نحوى.

سألني: "أين كنت بحق الجحيم؟"

ولم أستطع أن أطلب منه الدخول حيث كانت صاحبة المنزل لا زالت تراقبنا من أحد أركان البهو العلوي، لذلك جلبت مظلتى وحذائى المطاطى وخرجت معه. وتناولنا القهوة المجروشة بأحد المطاعم الليلية، وبدأنا نحل ألغاز الماضي.

سألته: "لماذا لم تكتب لي؟"

قال: "لقد فعلت، ولكن الرسائل رُدت إلى مرة أخرى". لقد أرسلها على عنوان أبى الذى كان بالطبع قد غادر المكان.

قلت: "ولكنى أرسلت لك عنوانى الجديد حالما انتقلت إليه، ألم يصلك؟"

قال: "لقد عدت إلى هنا منذ منتصف سبتمبر. وكان من المفترض أن يقوم سلوكوم بإرسال بريدى لي، ولكنى لم أتسلم أيًّا منه حتى اليوم".

كم كنت ظالمة إذ ارتبت فيه، ولشدة فرحتى برؤيته شعرت أننا يجب أن نذهب فورًا إلى مكان ما للاحتفال. قلت: "إنه لشيء رائع أنك قد عدت لي".

لم يكن آرثر يعتقد أن ذلك كان رائعًا. كان مكتئبًا تمامًا، وبدا ذلك واضحًا عليه، كل شيء فيه كان يميل إلى أسفل، عيناه، فمه، كتفاه.

سألته: "ماذا بك؟" وأخبرنى ببعض التفاصيل.

لقد تقطعت الحركة إربًا. تحدث بإشارات كئيبة، ولكن لم أتمكن أبدًا من اكتشاف ما إذا كانت قد تحطمت نتيجة قوة من خارجها، أم أنها تحللت ودمرت من الداخل، أو تفسخت نتيجة انهيار المعنويات ونزاعات بين أعضائها... ومهما كان السبب فإن شيئًا ما كان يؤمن به ويعمل من أجله قد فشل، وهذا الفشل قد أغرقه فى حالة من الكآبة

الوجودية. لقد قضى بعض الوقت فى حالة نكد، ثم وافق وهو فى حالة من اليأس على قبول مال من والديه ــ هذا بالتأكيد يوضح كم كانت الأمور سيئة ــ وعاد إلى جامعة تورنتو؛ وكان من المفترض أن يقوم بكتابة بحث حول الفيلسوف الألمانى كانت.

إذن لم يكن عبوره الأطلنطى لمجرد الشوق لرؤيتي، ولكن كان القصور الذاتى وغياب الشعور بالهدف. ولم أهتم بذلك كثيرًا. ما دام هنا، وواجه متاعب كثيرة للعثور علي. لقد سار على الأقل عابرًا ثلاث كتل سكنية فى طقس ممطر، وكان ذلك يعنى إخلاصا منه بشكل أو بآخر.

قضينا بقية الأمسية، وأمسيات أخرى تالية، نناقش ما إذا كان الأجدر أخلاقيًا بالنسبة له أن يبقى فى تورنتو ويذهب إلى الجامعة بالمال الذى كان يعتبره ملوثًا، أم لا. كنت أقول: "إذا كان الأمر يتعلق بغاية نبيلة..."، لم يكن يعنينى ما إذا كان الأمر أخلاقيا أم لا، أردت أن يبقى معي، وكان البديل الذى يعرضه هو رحلة إلى شمال كولومبيا البريطانية للعمل فى أحد مناجم معدن الأسبستوس، كان يرد بأسلوب حزين: "ليس من أجل غاية نبيلة، ما فائدة " كانت " على أية حال؟ ما كل هذا إلا هراء...". ولكنه كان يفتقد قوة الإرادة.

وطوال ذلك الشتاء كرست نفسى لرفع معنويات آرثر. اصطحبته إلى دور السينما، أنصت إلى شكاواه المتكررة من الجامعة،

وكتبت أوراقه على الآلة الكاتبة، كاملة بالحواشي. كنا نأكل الهامبورجر في محلات هارفي، ثم نذهب للمشي في حديقة الملكة. ونركب عربات الأجرة إلى حدائق حيوان ريفرديل، وهو الترفيه الوحيد الذى كنا نستطيعه، إلي جانب دور السينما. لم نكن ننام سويًا إلا لو استطعنا، كان آرثر يقيم في مسكن من النوع الذى لا يسمح له فيه باصطحاب صديقته إلا استراقًا، ومالكة المنزل الذى أقطن به لن تسمح بشيء من ذلك، مهما حاولنا الاستراق.

أحيانًا خلال تلك الليالى كنت أستيقظ لأجد آرثر ملتصقًا بي، وكأن الفراش محيط مليء بأسماك القرش، وأنا طوق النجاة المطاطي. كان فى نومه يائسًا، وكان يتحدث أحيانًا إلى أشخاص غير موجودين، ويجز على أسنانه: ولكن حال يقظته كان فاتر الإحساس، وبطيء الاستجابة، أو جدلى بارد. كان بدون تعصبه السياسى مختلفًا تمامًا عما كان عليه فى إنجلترا. فقد سمح لى بأن أفعل أشياء من أجله، لكنه لم يشارك فيها.

لم يزعجنى شيء من ذلك كثيرًا. كان تحفظه يبدو مفتعلاً، مثل عباءة رمزية، فالأبطال من المفترض أن يكونوا متحفظين. وكانت لامبالاته زائفة، قلت ذلك لنفسي. فى أية لحظة الآن سوف تظهر على السطح أعماقه المخبأة، وسوف يكون آنذاك عطوفًا ويعترف بإخلاصه. وعندئذ سوف أعترف أنا الأخرى ونصبح سعداء. (فيما بعد قررت أن حالة اللامبالاة التى لازمته فى ذلك الوقت ربما لم تكن

زائفة إطلاقًا. وقررت أيضًا أنه من الأفضل تجنب مواقف المكاشفة العاطفية، وأن ما تخبئه الأعماق لابد أن يظل مخبأ، فالمظاهر على الأقل حقيقية بنفس القدر).

فى فصل الربيع طلب آرثر يدى للزواج. كنا نجلس على إحدى دكك حديقة الملكة، نأكل وجبة هامبورجر ونشرب عبوات اللبن المخفوق.

قال آرثر: "لدى فكرة جيدة. ... لماذا لا نتزوج؟"

لم أقل شيئًا، لم أستطع التفكير فى أى سبب يمنع ذلك. ولكن آرثر استطاع، وشرع فى تحليل تلك الأسباب: لم يكن مع أى منا نقود كافية وكنا على الأرجح صغيرين ولا نتمتع بالاستقرار الكافى للقيام بمثل هذا الالتزام الجاد، ولم يكن كل منا يعرف الآخر جيدًا، ولكنه كانت لديه إجابات على كل تلك الأسباب. حيث قال إنه فكر فى ذلك كثيرًا جدًا. الزواج نفسه سوف يمنحنا الاستقرار، ومن خلاله أيضًا سنعرف بعضنا أكثر، وإذا لم نحقق نجاحًا فسنكتسب خبرة على الأقل، ونتعلم منه. والأعظم أهمية أن معيشتنا سويًّا أقل تكلفة من معيشة كل منا بمفرده. وفى تلك الحالة سوف يترك الإقامة بغرفته ويمكننا أن ننتقل سويًّا إلى حجرة أوسع من التى أقطن بها، أو حتى شقة صغيرة. سأحتفظ بوظيفتى بالطبع، وبذلك لا يكون مضطرًا لقبول مال كثير من والديه، فقد كان يفكر فى التحول إلى العلوم

السياسية، والتى قد تعنى عدة سنوات أخرى من الدراسة، وهو لم يكن واثقا من أن والديه سينفقان عليه خلالها.

مضغت بقية الهامبورجر وبلعته وأنا مستغرقة فى التفكير، ثم شربت بقية الحليب المخفوق الذى طلبته. فكرت أن وقت الشجاعة هو الآن أو لن يحين أبدا. كنت أتوق إلى الزواج بآرثر، ولكنى لن أستطيع أن أفعل ذلك حتى يعلم حقيقتى ويقبلنى على ما كنت عليه فى الماضى والحاضر. لابد أن يعرف أننى كذبت عليه وأنى لم أكن أبدًا أقود الهتافات، وأننى كنت أنا نفسى السيدة البدينة فى الصورة. ولابد أيضًا أن أخبره إنى تخليت عن وظيفتى كبائعة باروكات منذ عدة أشهر، وأقوم فى الوقت الحالى بالانتهاء من "الهروب من الحب"، للحصول على عائدات من المتوقع أن أعيش عليها لستة شهور قادمة على الأقل.

قلت: "آرثر، الزواج مسألة جدية. وهناك أشياء قليلة أعتقد أنك يجب أن تعرفها عنى قبل ذلك". كان صوتى يرتعش، فمن المؤكد أن ذلك سيروعه، سوف يكتشف أننى لا أخلاقية، سوف يشعر بالاشمئزاز وسوف يتركك...

قال: "إن كنت تقصدين أنك كنت تعيشين مع رجل آخر عندما قابلتنى فإنى أعرف ذلك بالفعل، ولا يزعجنى ذلك على الإطلاق".

سألته: "كيف عرفت ذلك؟" كنت أعتقد إنى كنت شديدة الحذر. قال بصورة تعبر عن التسامح: "إنك لم تتوقعى بالتأكيد أن أصدق تلك القصة عن رفيقة حجرتك البدينة، أليس كذلك؟" ثم ابتسم وأحاطنى بذراعه وأضاف مسترسلاً: "لقد تبعك سلوكم إلى المنزل، أنا طلبت منه ذلك".

قلت: "آرثر، إنك جاسوس حقير عجوز". كنت مغتبطة لأنه كان غيورًا أو فضوليًّا بما يكفى لأن يفعل ذلك؛ كما أنى رأيت أيضًا أنه كان مسرورًا لأنه توصل إلى ما كنت أخفيه، ولكن كم سيكون الأمر مزعجًا بالنسبة له إذا اكتشف أنه لم يتوصل إلا إلى الطبقة الأولى على السطح. قررت أن أرجىء بوحى بالأسرار إلى وقت لاحق.

الصعوبة الوحيدة التى كانت تواجه إتمام الزفاف أن آرثر كان يرفض إجراءه فى كنيسة، حيث أنه كان رافضًا للدين. وكان يرفض أيضًا أن يتم فى قاعة المدينة، لأنه كان معارضًا للحكومة الحالية. وعندما احتججت على ذلك بأن تلك هى الخيارات الوحيدة أمامنا، قال لابد أن هناك وسيلة ما أخرى. تصفحت الصفحات الصفراء بالصحف تحت عناوين "زفاف" و"عقد قران"، ولكن تلك الأقسام كانت تغطى فقط ثياب وكعك الزفاف. ثم بحثت تحت عناوين "كنائس"، كان هناك قسم صغير تحت عنوان "بين الطوائف الدينية".

قلت: "هل هؤلاء يزوجون أى شخص إلى أى شخص آخر؟ إذا كانوا يفعلون ذلك فلن يكونوا شديدى التزمت". وقام آرثر بالاتصال بالاسم الأول فى القائمة: الكاهن إ. ب. ريفيلي.

قال لى وهو يخرج من كابينة الهاتف: "كل شيء معد. يمكننا إتمام الزواج فى بيته وسوف يحضر الشهود ولن يستغرق الأمر سوى عشر دقائق". وقال: "إنهم يحبون إجراء مراسم قليلة ليس بها شيء ديني".

كان ذلك حسنًا بالنسبة لي، فلم أكن أريد أن يتم الزواج دون أى مراسم، فلن أشعر إنى قد تزوجت بدونها. "وماذا قلت له؟" "قلت لا مانع طالما كانت قصيرة".

قال لى آرثر أيضًا أن ذلك سوف يتكلف خمسة عشر دولارًا فقط، وهذا من حسن الحظ حيث لم يكن لدينا نقود كثيرة. كنت ممزقة بين أن أطلب منه أن يرجيء الزفاف ـــ يجب أن أفكر فى عذر ما، ولكن فى الحقيقة كنت بذلك أستطيع إنهاء "الهروب من الحب"، وأشترى رداء زفاف جيد ـــ وبين أن أندفع إلى اللاطائفيين فورًا، قبل أن يكتشف آرثر الحقيقة. طغى الخوف على الرغبة فى الزهو، واشتريت ثوبًا قطنيًا أبيض عليه تطريز بالنايلون من أحد المحلات الرخيصة. سيكون مثيرًا للإحباط بعض الشيء، ولكنى أستطيع الصمود أمام إحباط ثوب الزفاف القطنى الأبيض الرخيص، بينما لن

أصمد أمام فكرة عدم وجود زفاف من أصله. كنت مروعة من احتمال أن أنكشف فى اللحظات الأخيرة كمخادعة وكاذبة ومحتالة. بدأت وأنا تحت ضغط هذا التوتر فى أكل كميات إضافية من الفطائر الإنجليزية المغطاة بالزبد، وأرغفة الخبز المحلاة بالعسل وقطع الموز وبقايا الكعكات من محلات كرسج. ولم تكن هذه التورطات مفهومة بالنسبة لآرثر. كنت أزداد وزناً: كان الشيء الوحيد الذى أنقذنى من الانتفاخ مثل جثة غارقة هو موعد الزفاف نفسه، وكنت قد اكتسبت بالضبط ثلاثة عشر رطلاً مع حلول الموعد. واستطعت بالكاد إغلاق زمام الرداء المنزلق (سوستته).

لم يحضر زفافنا شخص نعرفه، لسبب بسيط هو أننا لم نكن نعرف أحدًا. لم يكن والدا آرثر فى الحسبان، كان آرثر قد كتب لهما رسالة حادة صريحة تقول إننا على علاقة حميمة منذ عام، لذلك لم يكن لهما أن يظنا زواجه كخضوع للمؤسسة الدينية. وبالطبع أعلنا إدانتهما لنا، وقطعا الإمدادات المالية عن آرثر. فكرت فى دعوة أبى ولكنه ربما يكشف أكثر مما أريد البوح به لآرثر عن الماضي. أرسلت إليه بطاقة بريدية فيما بعد، وأرسل لى محمصة لإعداد الكعك. لم يكن آرثر يحب أيًّا من طلبة الفلسفة، ولم يكن لى أصدقاء ملائمون من أى من زملائى بائعى الباروكات، وهكذا لن نتلقى حتى أية هدايا بمناسبة الزفاف، ولذا خرجت واشتريت لنفسى غلاية حساء

وزوج من قفازات الأفران، وبنفس الحماسْ أداة لإخلاء الكريز والزيتون من البذور الداخلية ـــ حتى أشعر بأننى عروس فعلاً.

فى يوم الزفاف أخذنى آرثر من منزلى حيث ذهبنا سويًا إلى مترو الأنفاق المتجه إلى الشمال، جلسنا على مقاعد جلدية سوداء ونحن متشابكى الأيدي. بدا آرثر خائفًا، انخفض وزنه وبدا شاحبًا مثل نحاس جنائزي. كان انعكاس صورتنا على نوافذ العربة يظهر تجاويف عميقة تحت عينيه. لم أفهم كيف سيتمكن من حملى عبر عتبة الباب. إننا حتى لم يكن لدينا عتبة باب، فلم نكن قد استأجرنا شقة بعد، لأننى لا زال لدى أسبوعين مدفوعين مقدمًا من أجرة حجرتي. وقال آرثر أنه لا يوجد ما يستدعى تبديد المال.

خرجنا من النفق وانتقلنا إلى حافلة. ولم يظهر اسم المكان الذى سنتوجه إليه على مقدمتها إلا بعد أن تحركت. سألت آرثر: "أين يسكن ذلك الرجل؟". مد لى يده بقصاصة الورق التى كتب عليها العنوان وقال لي. إنها فى برايسايد بارك.

بدأت أتصبب عرقًا. مرت الحافلة على المحطة التى تعودت أن أنزل فيها، على جانب الشارع لمحت منزل أمي. لابد أن وجهى كان ممتقعًا، لأن آرثر عندما نظر ناحيتى ضغط على يدى لإعادة الطمأنينة إلى نفسي، وقال: "هل أنت على ما يرام؟"

قلت وأنا أضحك ضحكة مختنقة: "أظن أننى عصبية قليلاً".

نزلنا من الحافلة، ومشينا بموازاة الرصيف إلى المنطقة الداخلية شديدة الرطوبة من منتزه برايسايد مارين على إحدى مجموعات البيوت من طراز تيودور المرتبة المحترمة، التى كنت أتردد عليها كثيرًا إبان فترة مراهقتى البدينة. كان ذعرى يزداد. من المؤكد أن الكاهن سيكون شخصًا أعرفه. شخص كنت أذهب إلى المدرسة مع ابنته. شخص سوف يتعرف عليَّ على الرغم من تغير شكلي، ولن يكون قادرًا على كبح نفسه، سوف يصرخ عندما يرى تحولي ويحكى قصصًا هزلية عن حجمى ووزنى السابقين، وسيعرف آرثر ــ فى يوم زفافنا بالذات! ــ كم كنت أخدعه. سوف يعرف أننى لم أكن أذهب بصورة مستمرة للعب كرة السلة، ولم أحظ بالمركز الثالث فى مهرجان قوس قزح لمسابقة الرقص. كانت أشجار القيقب مثقلة بأوراقها الخضراء المتدلية، وكان الهواء شديد الرطوبة، محملاً بعوادم السيارات التى كانت تتدفق من الطريق العام القريب. كست الرطوبة شفاهنا العليا، وكنت أشعر بالعرق يصبب تحت ذراعى ملطخًا نقاء ثوبى الأبيض.

قلت وأنا أميل لأستند إليه: "أعتقد أنى أصبت بضربة شمس".

قال آرثر مفكرًا: "لكنك لم تتعرضى للشمس. .... هذا هو المنزل، أمامنا هناك، سوف ندخل ويمكنك عندئذ تناول كوب من الماء". كان يشعر بالغبطة بشكل ما لأننى منفعلة هكذا، وكأن ذلك تمويهًا يغطى على انفعاله هو نفسه.

ساعدنى آرثر على عبور الممر الأسمنتى للعقار رقم ٥٢، وضغط على الجرس. كانت هناك لافتة صغيرة بحروف منمقة على الباب تقول "قصر الفردوس"، قرأتها بدون فهم. كنت أحاول أن أقرر إن كنت سأتظاهر بالإغماء أم لا، حتى إذا كان هناك إفشاء لأسرارى أستطيع أن أخرج بكرامتي، فى عربة إسعاف. كان هناك رسم سيلويت لطائر الفلامنجو على الباب الألمنيوم.

فتحت الباب امرأة صغيرة الحجم ترتدى قفازات وردية، وحذاء بكعب مرتفع، ورداء حريريًّا وقبعة وجميعها وردية اللون، والقبعة مزينة بكرانيش زرقاء. كانت هناك دائرة مكتملة من اللون الأحمر على كل من وجنتيها، وكان حاجباها الرفيعان على شكل قوسين مرسومين مثيرين للدهشة.

قال آرثر: "جئنا من أجل الكاهن إ. بى. ريفيلي".

قالت المرأة العجوز بصوت مثل سقسقة الطير: "أوه، ما أجمل هذا الثوب. إنى أعشق حفلات الزفاف، إننى الشاهدة، اسمى مسز سيمونز. دائمًا ما يدعوننى كشاهدة". ثم قالت موجهة كلامها للبيت بصورة عامة: "ها هى العروس قد أقبلت".

دلفنا إلى الداخل، كنت قد بدأت أستعيد عافيتي: من المؤكد أنه ليس هنا أحد أعرفه. حمدت الله وتنفست رائحة مواد التنجيد ودهان الأثاث.

قالت السيدة سيمونز: "يتم إجراء المراسم فى القاعة. إنها مراسم بهيجة، أنا متأكدة أنها ستسركما". وتبعناها فوجدنا أنفسنا فيما يشبه الكهف.

كانت غرفة المعيشة النموذجية فى برايسايد، القسم الأفقر، تطل عليه غرفة طعام مفتوحة من الجانب الآخر على المطبخ؛ لكن الحوائط لم تكن تحتوى على المناظر الطبيعية التقليدية (غدير فى الشتاء، أو ممر المدينة الضيق فى الخريف)، ولكن كان معلقًا عليها العديد من المراوح المصنوعة من ريش الطاووس، وبعض قطع التطريز داخل إطارات مزخرفة، وصورة راقصة باليه مضاءة من الخلف ومزينة بأغصان من أوراق شجر مجففة، وصورة زيتية لامرأة من هنود أمريكا الشمالية تبتسم بمرح، وصورة بالصدف ــ زهور فى أوانى زهور ــ صنعت بتلات كل منها من نوع مختلف من الأصداف، وعدد من الصور الفوتوغرافية الباهتة أيضًا داخل إطارات، وعلى الجزء الأسفل لكل منها توقيع. كانت الأريكة والمقاعد البسيطة المنسجمة معها مكسوة بقماش قطيفة برقوقى اللون، وهناك منصة قدمين صغيرة متسقة، وجميعها مغطاة بمفارش منسوجة من الصوف. وكان رف المدفأة مزدحمًا بأشياء مثل تماثيل بوذا وتماثيل آلهة هندية، وكلب صينىٍ وحافظات سجائر نحاسية متعددة وبومة محشوة تحت جرس زجاجي.

قالت السيدة سيمونز بهمس منفعل: "لقد حضر الكاهن". ومن خلفنا جاء صوت شخص يجر قدميه. التفت نحوه، ثم انهرت جالسة على مقعد برقوقى اللون ذى مسندين، فهناك عند مدخل الباب ــ مرتدية عباءتها البيضاء الطويلة بشريط أرجوانى وتميل على عكاز ذى رأس فضية ومحاطة بهالة من الويسكى الاسكتلندى ــ كانت ليدا سبروت.

نظرت إلى وجهى مباشرة، وأستطيع أن أؤكد أنها عرفت تمامًا من أكون. صدر منى أنين خافت، وأغلقت عيني.

صاحت السيدة سيمونز: "تلك عصبية الزفاف"، وانتزعت يدى وبدأت تحك رسغى قائلة: "لقد تعرضت للإغماء ثلاث مرات أثناء زفافي. احضروا أملاح الاستنشاق".

قلت وأنا أفتح عينيّ: "إننى على ما يرام". ولم تقل ليدا سبروت أى شيء، ربما لن تبوح بسري.

قال لى آرثر: "هل أنت بخير؟" أومأت برأسي، فقال لليدا سبروت: "جئنا من أجل كاهن يدعى إ. بى. ريفيلي".

قالت: "أنا إ. بى. ريفيلي... إيونيس بى ريفيلي"، وابتسمت كأنها اعتادت أن تتعرض للارتياب.

سأل آرثر: "هل تتمتعين بالأهلية اللازمة؟"

قالت ليدا: "بالطبع"، وأشارت بيدها إلى شهادة ذات إطار تبدو رسمية معلقة على الحائط، "لن يتركونى أمارس هذا العمل ما لم أكن مؤهلة. والآن، ماذا تريدان؟ لقد تخصصت في الزواج المختلط. أستطيع أن أزوج اليهود والهندوس والكاثوليك وخمسة أنواع من البروتستانت والبوذيين وديانات أخرى، يمكن عمل مراسم لأى دين من هذه الأديان، أو ما أنا متخصصة فيه".

قلت لآرثر: "ربما الأفضل أن نحصل على تلك الخصوصية". كنت أريد أن ينتهى الأمر بأسرع ما يمكن، حتى أستطيع أن أترك المكان.

قالت ليدا: "ذلك ما أفضله أنا نفسي.... ولكن أولاً، الصورة.." ثم ذهبت نحو الحائط، ونادت "هارى!" وانتهزت الفرصة للنظر فى الشهادة التى كان مكتوبًا عليها: "إيونيس بى. ريفيلي"، صحيح تمامًا. كنت مشوشة: إما أنها كانت حقيقة ليدا سبروت، وفى هذه الحالة تكون المراسم باطلة، أو ربما كانت حقيقة إيونيس بى ريفيلي؛ وإذا كان هذا هو اسمها، فلماذا استخدمت اسمًا آخر فى الكنيسة الأردنية؟ ولكنى كنت أعتقد أن الرجال الذين يغيرون أسماءهم من المحتمل أن يكونوا شواذًا أو مجرمين أو جواسيس فى حالة تخفى أو سحرة أو مشعوذين. فى حين أن النساء يغيرن أسماءهن فقط بسبب الزواج. وبجانب الشهادة، كانت هناك صورة فوتوغرافية لليدا، كانت أصغر

سنًا مما هى عليه الآن، تصافح ماكينزى كنج (رئيس وزراء كندا من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٦). ولاحظت أن عليها توقيعًا.

كانت السيدة سيمونز تحاول أن تجعل آرثر يضع إكليلاً من الزهور البلاستيكية حول رقبته ولكنها فشلت، فوضعت واحدًا حول رقبتي، ودخل رجل يرتدى حلة رمادية ومعه كاميرا بولارويد. كان السيد ستيوارت، الوسيط الزائر. قال: "ابتسما..." وهو يغمض إحدى عينيه وينظر من خلال محدد الرؤية. وهو نفسه ابتسم ابتسامة عريضة.

قال آرثر: "انتظر، هذا ليس....."، ولكنه كان قد التقط الصورة، ونزعت السيدة سيمونز الإكليل من حول رقبتي.

وقالت بحماس شديد: "عندما يقرع الجرس عليكما أن تقفا فى انتباه، تبدين فاتنة يا عزيزتي".

قال لى آرثر بصوت منخفض: "كانت تبدو لا غبار عليها على الهاتف".

سألته: "إلى من كنت تتحدث؟ لقد قلت إنه كان رجلاً".

قال آرثر: "اعتقدت أنه كذلك".

قرع الجرس، وتقدمت ليدا إلى الأمام، مرتدية ثوبًا مختلفًا، أرجوانيًا مزينًا بقطيفة حمراء.. تعرفت على بقايا ستائر ومنبر الوعظ

فى الكنيسة الأردنية: لابد أنهم مروا بأوقات صعبة. وبمساعدة السيد ستيوارت، صعدت إلى كرسى القدمين الموجود قبالة المدفأة.

رنَّمت: "آرثر إدوارد فوستر... جوان إليزابث ديلاكورت... تقدما".

ثم بدأت فى نوبة من السعال ونحن نقترب منها، متشابكى الأيدي.

قالت: "اركعا على الركبتين"، وهى تمد ذراعيها أمامها وكأنها علي وشك النزول من على كرسى القدمين. وفعلنا ذلك.

قالت بشيء من التوتر: "لا، لا، كل منكما على جانب، كيف أربط بينكما وأنتما بالفعل ملتصقين". وقفنا وجثونا ثانية، ووضعت ليدا يدين ترتعشان قليلاً فوق رأسينا.

قالت: "من أجل سعادة حقيقية، لابد وأن تباشرا الحياة بإحساس من التوفير. توفير للحياة، من أجل أحبائنا، هؤلاء الذين لا يزالون معنا، وأيضًا من أجل أولئك الذين رحلوا قبلنا. تذكرا إن كل ما نعمل وكل ما فى قلوبنا مراقب ومسجل، وفى يوم ما سوف يخرج إلى النور. تجنبا الخداع والبهتان، تعاملا مع حياتكما كدفتر يوميات تكتبانه وكل منكما يعلم أن حبيبه سوف يقرأه يومًا ما، إذا لم يكن هنا على هذا الجانب، إذن ففى الجانب الآخر، حيث ستحدث كل المصالحات النهائية. وأهم شيء، لابد أن يحب كل منكما الآخر على

ما هو عليه من عيوب، ويتسامح على ما يفتقده من مزايا. إن هالة جميلة تحيط بكما يا أطفالي، يجب أن تعملا على حمايتها".

انخفض صوتها لدرجة التمتمة؛ أعتقد أنها كانت تصلي. تمايلت على نحو خطير، وتمنيت ألا تسقط من فوق المنصة.

قالت السيدة سيمونز: "آمين".

قالت ليدا: "يمكنكما النهوض"، وسألت عن خاتمينا ــ كنت قد أصررت على شراء خاتمين، وقد جلبناهما من محل رهانات ــ ثم لفت الخاتمين ثلاث مرات حول تمثال بوذا، ولكن ربما كان ذلك حول البومة المحشوة، فلم أكن أستطيع الرؤية جيدًا من حيث أقف. ثم قالت: "من أجل الحكمة، ومن أجل المحبة، من أجل السكينة....". وأعطت آرثر خاتمي وأعطتني خاتمه.

وقالت: "والآن، امسكا الخاتمين في اليد اليسرى، وليضع كل منكما يده اليمنى فوق صدر الآخر، وعندما أعد ثلاثة، اضغطا".

وقالت السيدة سيمونز: "إن لرقم ثلاثة سر باطني، ورقم أربعة كذلك، ولكن....". في هذه اللحظة تذكرتها، كانت إحدى الزائرات المنتظمات بالكنيسة الأردنية. أضافت: "اسمي يزيد على خمسة، ويدخل ذلك في إطار معاني الأعداد"... قال السيد ستيوارت: "هناك قصة سمعتها مؤخرًا ستكون ملائمة لهذه المناسبة، كانت هناك يرقتان سائرتان في طريق الحياة، إحداهما متفائلة، والأخرى متشائمة...".

قاطعته ليدا سبروت بحدة: "هاري، ليس الآن"... كانت المراسم تكاد تخرج من يدها. طلبت منا أن يضع كل منا الخاتم فى يد الآخر، وباستعجال أعلنت أننا "زوج وزوجة"، ونزلت بمجهود من فوق الكرسي.

وصاحت مسز سيمونز: "والآن، الهدايا..!" وأسرعت من الغرفة، قامت ليدا بعمل وثيقة، والتى كان المفترض أن يوقعها كل منا.

قال مستر ستيوارت: "هناك شخص يقف خلفك". كانت عيناه تبرقان بينما بدا أنه يتحدث مع نفسه. "إنها سيدة شابة، وهى تعيسة، ترتدى قفازًا أبيض... إنها تحاول الوصول إليك...".

قالت ليدا: "هاري، اذهب وساعد موريل فى إحضار الهدايا".

قلت: "الواقع أننا لا نريد هدايا"، ووافق آرثر على ذلك، لكن ليدا سبروت قالت: "الزواج لا يكون زواجًا بدون هدايا". وكانت مسز سيمونز الوردية تسرع قادمة بالفعل من الصالة مع عدة عبوات مغلفة فى ورق أبيض. شكرناهم، لقد شعرنا كلانا ببعض الارتباك لأن هؤلاء الناس الطيبين، والعجائز المثيرين للشفقة، قد تجشموا كل هذا التعب، بينما كنا فى أعماقنا غير شاعرين بالامتنان الواجب. أعطانا مستر ستيوارت الصورة البولارويد، والتى كانت تظهر

وجهينا مجهدين، بينما ظهرت الأريكة بلون أحمر مائل إلى البني، كلون الدم المتجلط.

قالت ليدا سبروت: "والآن، لدى شيء أريد أن أقوله لكل من العروس والعريس، كل على حدة". تبعتها إلى المطبخ. أغلقت الباب، وجلسنا إلى منضدة المطبخ، والتى كانت منضدة عادية مغطاة بقماش عليه بقع زيت. صبت لنفسها جرعة من زجاجة نصف فارغة، ثم نظرت إلى وابتسمت. كانت إحدى عينيها لا تبدو مركزة جيدًا، ربما كانت تكاد تفقد بصرها.

قالت: "حسنًا، إننى مسرورة برؤيتك مرة أخرى. لقد تغيرت، لكنى لا أنسى وجهًا أبدًا. كيف حال عمتك؟"

قلت: "لقد ماتت، ألم تعلمي؟"

قالت: "نعم، نعم". وهى تلوح بأحد ذراعيها فاقدة الصبر، "بالطبع، لكن لابد أنها لا تزال معك".

قلت: "لا، لا أظن ذلك".

بدا على ليدا سبروت خيبة الأمل. قالت: "أرى أنك لم تأخذى بنصيحتي، هذا من سوء الحظ. إن لديك قوى عظيمة، قلت لك ذلك من قبل، لكنك كنت تخشين تطويرها". أمسكت بيدي، وحدقت فيها لحظات، ثم تركتها. قالت: "أستطيع أن أقول لك الكثير من الهراء، والذى لا يهمك كما لا تهمك الحقيقة، لكنى كنت أحب عمتك، ولهذا

فلن أفعل. إنك لا تختارين الموهبة، بل هى التى تختارك. وإذا أنكرتها سوف تستغلك على أية حال، ولكن ربما بطريقة غير لطيفة. لقد استخدمت موهبتي، طالما كانت عندي. ربما تظنين أننى امرأة عجوز غبية أو دجالة، لقد اعتدت على ذلك. لكن أحيانًا كنت أجد الحقيقة فأقولها، ولا خطأ عندما يحدث ذلك، عندما لم تكن لدى الحقيقة، كنت أقول لهم ما يريدون سماعه. وما كان ينبغى أن أفعل هذا. ربما تعتقدين أن ذلك غير مؤذٍ، لكن هذا غير صحيح". وتوقفت، محدقة فى أصابعها، والتى كان من الواضح أنها تعانى من التهاب المفاصل. فجأة وجدت نفسى أصدقها. وأردت أن أسألها كل الأسئلة التى كنت أرجئها حتى ألقاها: تستطيع أن تقول لى عن أمي... لكن إيمانى بهت مرة أخرى: ألم تلمح توًّا إلى أن الكنيسة الأردنية كانت نوعًا من الاحتيال، وأن عمليات الكشف الملهم كان نوعًا من التمثيل.

قالت: "الناس يؤمنون بك، يثقون بك. هذا يمكن أن يكون خطيرًا، خاصة لو حاولت استغلاله. كل شيء يصل إليك إن آجلاً أو عاجلاً. يجب أن تتوقفى عن الرثاء لنفسك". كانت تنظر إلى بحدة بعينها الوحيدة التى ترى جيدًا، وقد أمالت رأسها إلى جانب، مثل طائر. وبدا أنها تتوقع إجابة ما.

قلت بغباوة: "أشكرك".

قالت بتوتر: "لا تقولى ما لا تعنين، إنك تفعلين الكثير من ذلك بالفعل. وهذا هو حقًا كل ما أريد أن أقوله لك، إلا... نعم، يجب أن تحاولى الكتابة الأتوماتيكية. الآن أرسلى لى زوجك".

لم أكن أريد أن يكون آرثر معها وحده. لو كانت بهذه الفظاظة معي، فماذا يمكن أن تقول له؟

قلت: "إنك لن تقولى له، أليس كذلك؟"

قالت بحدة: "أقول له ماذا؟"

كان من الصعب أن أجد الكلمات المناسبة: "ماذا كنت"، كنت أعنى : على ماذا كانت هيئتي.

قالت ليدا: "ماذا تقصدين؟ لقد كنت فتاة ممتازة وكاملة المعاني، على ما أذكر".

قلت: "لا، أقصد.... شكلي، أننى كنت.. أنت تعرفين". لم أستطع أن أقول كلمة "بدينة"، لم أكن أستخدم هذه الكلمة فيما يختص بنفسى إلا فى رأسي.

فهمت ما أقصده، لكن ذلك أثار اهتمامها: "هل هذا كل شيء؟، بالنسبة لى إنه الشكل المثالي. لكن لا داعى للقلق، لن أتحدث عن ماضيك، ولكن ينبغى أن أقول أن هناك مآسى فى الحياة أكثر من مجرد أن يكون الإنسان زائد الوزن قليلا. وأتوقع منك ألا تتحدثى عن

ماضي أيضًا. ليدا سبروت مدينة ببعض المال هنا وهناك". وضحكت بمرح، ثم بدأت تسعل. وخرجت لأدخل آرثر.

بعد خمس دقائق خرج من المطبخ، وبينما كنا نغادر المكان، سارت مسز سيمونز خلفنا من الصالة ونزولا على الدرجات وطوال الممشى، ملقية حفنات من الأرز علينا وتزقزق بمرح. وقالت: "حظ طيب"، وهي تُلوّح بيدها في قفازها الوردي.

سرنا إلى محطة الأتوبيس، حاملين عبوات الهدايا. لم يقل آرثر شيئًا، كان وجهه متجهمًا.

قلت: "ماذا حدث؟" ترى هل أخبرته ليدا سبروت عنّي رغم كل شيء؟

قال: "العجوز الدجالة انتزعت مني خمسين دولارًا، على التليفون قالت خمسة عشر".

عندما عدنا إلى غرفتي المستأجرة، فتحنا العلب ذات الغلاف الأبيض. كانت تحتوي على وعاء بلاستيكيًّا للعصائر ومعه أكواب، وكتاب ثمنه ثمانية وتسعون سنتًا عن طهي الوجبات الصحية. وصورة مطبوعة لليدا، تصافح ماكنزي كنج، وبعض المنشورات الحكومية حول الخميرة وفوائدها الصحية والاستخدام الصحيح لها. قال آرثر: "لابد أنها تخرج بأرباح كبيرة".

فكرت أنه من المؤكد أننا سوف نضطر للقيام بكل هذا مرة أخرى فى قاعة مجلس المدينة؛ لا يمكن أن تكون هذه المراسم وكرسى القدمين والبومة المحشوة قانونية. سألته: "هل تعتقد أننا حقًا متزوجين؟"

قال آرثر: "أشك فى ذلك". ولكن الغريب أننا كنا متزوجين بالفعل.

الفصل العشرون

بعد أربعة سنوات، في ١٩٦٨، ذهبنا لقضاء شهر العسل. وكان ذلك تجسيد انفصاليي مدينة كويبك الكندية عند آرثر[١]، ومن ثم فقد أصر على الذهاب إلى مدينة كويبك، حيث أثار ارتباك جميع النُدل (من يقومون على خدمة الزبائن) وهو يحاول ممازحتهم بالفرنسية. ورأى معظمهم أنّ ذلك إهانة لهم، ومن كان منهم انفصالى بحق راح يهزأ من طريقته فى النطق، فقد رأى أنها "باريسية" أكثر من اللازم. قضينا الليلة الأولى نراقب جنازة روبرت كنيدى على تليفزيون له إيريال داخلى على هيئة أذن الأرنب فى الموتيل الرخيص الذى كنا ننزل فيه، ولم يكن هذا الجهاز يعمل إلا إذا ظللت ممسكًا بأذنى الأرنب بيد وواضعا يدك الأخرى على الجدار. وقمت أنا بمهمة لمس الجدار باليد، وتولى آرثر مهمة المشاهدة. وعند ذلك الوقت شعرت أننى حقًا متزوجة.

---

(١) Quebec separatist incarnation: تتميز ولاية كويبك بلغتها الفرنسية، والتى دفعت منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى دعوة للانفصال وإقامة دولة مستقلة فى كويبك، ويصر الكويبكيون على أنهم قومية منفصلة، ولا يزالون يطالبون بذلك، وفى السنوات الأخيرة اعترف مجلس العموم بأن أهالى كويبك "قومية ضمن كندا المتحدة".

وأخذ الأمر منى بعض الوقت للتأقلم. فى البداية كانت حياتنا غير مستقرة. لم يكن معنا نقود سوى ما استطعت أن أكسبه بكتابة "أزياء قوطية"، وما أتظاهر بأننى أقوم به من أعمال وضيعة. وعشنا فى بيوت تؤجر بالغرفة بدلاً من الشقق المبهرجة وإن رُخص إيجارها التى سعينا للإقامة فيها فيما بعد. أحيانًا كانت توجد فجوة فى الجدار تُستخدم كمطبخ تغطيها ستارة من الخيزران، أو باب أكورديون من البلاستيك، ولكن في الغالب لم يكن هناك سوى موقد ذى عين واحدة، وكنت أطهو غداء من الخضر فى عبوات بلاستيك من النوع القابل للغلي، أو فى المعلبات ذاتها، وكنا نأكلها ونحن جالسين على حافة السرير محاولين ألا نسقط المزيد من صلصة الطماطم على الملاءات. وبعد تناول الطعام كنت أغسل الأطباق فى التواليت، وأشطفها تحت حنفية الحمام، فهذه الغرف لم يكن لها أحواض فى الغالب. وكان معنى ذلك أنه ونحن نأخذ حمامنا سويا، بينما أضع الصابون على ظهر آرثر، وأضلاعه بارزة مثل أضلاع الموتى فى التماثيل الخشبية من العصور الوسطى، كنا نصاب بالدهشة بسبب ظهور بعض أعواد المعكرون أو البسلة الباقية ، وهى تعوم فى رغوة الصابون فوق مياه حوض الحمام، كما لو كانت شظايا متناثرة هاربة من بحر سرجاسو. وشعرت أنها أضافت لمسة ترحيب من مناطق المدار الاستوائى لتلك الحمامات التى لولا ذلك لكانت قطبية، لكن آرثر لم يعجبه ذلك، فقد كان عنده خوف مرضى وعقدة من الجراثيم.

وشكوت كثيرًا من عدم لياقة هذه الحياة الارتجالية التى لا تزيد كثيرًا عن الحياة داخل حقيبة سفر. وبعد سنتين على هذا الوضع، وعندما أصبح آرثر مدرسًا مساعدًا فى العلوم السياسية، وأصبح له راتب متواضع، ضعفت صحته وحصلنا على شقة حقيقية، وكانت فى حى من الأحياء الفقيرة المزدحمة، وأصبح منذ ذلك الوقت مطليًا بطلاء أبيض على الموضة وله لمبات إنارة أشبه بلمبات الأتوبيس ــ ولكن على الأقل كان بها مطبخ كامل بالإضافة إلى الصراصير. ثم اكتشفت ما أصابنى بالرعب وهو أن آرثر كان ينتظر منى أن أطبخ، أطبخ بشكل حقيقي، من مواد أولية خام مثل الدقيق والدهن. ولم أكن قد طبخت أبدًا فى حياتي. كانت أمى تطبخ، وكنت أنا آكل، كانت هذه هى القواعد الحياتية فى بيتنا؛ ولم تكن تسمح لى حتى بدخول المطبخ وهى تطبخ، خشية أن أكسر شيئًا، أو أدس أصبعى المحمل بالجراثيم فى الصلصة، أو أن أدوس بقدمى على الأرض بقوة زائدة فتسقط الكعكة على الأرض. ولم أدرس فى المدرسة الثانوية مادة اقتصاديات المنزل، وبدلاً منها درست ممارسات الأعمال والمشاريع التجارية. ولكنى لم أكن لأرفض تعلم الطهي، مع أنه فى حسابات الفتيات الأخريات كان فى معظمه يدور حول التغذية؛ لكنى كنت أرتعد من فكرة الخياطة. كيف يمكن أن أجلس هكذا، أخيط خيمة هائلة لنفسي، بينما تعمل الأخريات فى تنوراتهن وقمصانهن التى فصلها الترزى بأناقة.

ولكن من أجل خاطر آرثر يمكن أن أجرب أى شيء، رغم أن الطهى لم يكن بالبساطة التى ظننتها. كنت أجد أن بعض الأشياء الأساسية مثل الزبد أو الملح تنفد دون أن أنتبه، وأجرى إلى الدكان القريب، ولم يكن هناك أطباق نظيفة كافية أبدًا، حيث أننى كنت أكره غسيلها؛ لكن آرثر لم يكن يحب الأكل فى المطاعم. وبدا أنه يفضل طهيى الذى لا يؤكل: فالشوربة السويسرية تتحول إلى سائل عديم اللون ونوع من اللبان بسبب الحرارة الزائدة، والبيض المسلوق مكسور وتخرج منه أشياء أشبه بالأغشية المخاطية، والدجاج المقلى يسيل منه الدم عند قطعه؛ والخبز لا ينتفخ، بل يرقد مثل الرمال المتحركة فى الوعاء؛ وفطائر المقلاة لم تنضج من الوسط؛ إضافة إلى الفطائر المطاطية. ونادرًا ما كنت أبكى بسبب هذه النتائج الفاشلة، فبالنسبة لى لم تكن فشلاً وإنما نجاحًا، كانت انتصارات سرية على فكرة الطعام نفسها. كنت أريد أن أثبت أننى لا أهتم حقًّا بها.

من حين لآخر كنت أهمل صنع أى طعام على الإطلاق، لأننى كنت أنسى الأمر تمامًا. وكنت أتجول أحيانًا فى المطبخ فى منتصف الليل لأجد آرثر يحضر لنفسه ساندويتش من زبد البندق فيغمرنى الإحساس بالذنب عندما يمر بخاطرى أننى السبب فى تجويعه. لكن رغم أنه كان ينتقد طهيي، كان يأكله دائمًا، ويكره غيابه. وكانت عدم القدرة على التنبؤ بما سيصير إليه ما أقوم بطهيه يُعدّ تسلية بالنسبة له؛ كان الأمر أشبه بالطفرات أو نوعًا من المقامرة، كما كان ذلك

يشعره بالأمان أيضًا. كانت نظرته إلى العالم تظهر كوارث مفاجئة على خلفية من دمار كامن، وكان طهيى لا يصنع أى شيء لمقاومة هذه النظرة. بينما الأمر بالنسبة لى أن هذه الأشكال التى لا تؤكل تمثل شيئًا مختلفًا تمامًا. كل وجبة كانت أزمة، ولكنها أزمة يمكن أن يظهر لها حل مريح، بإضافة شيء... بعض الفلفل، بعض الفانيليا... كنت فى داخلى متفائلة، وأتوق إلى النهايات السعيدة.

واستغرق الأمر بعض الوقت لأتحقق من أن آرثر يستمتع بهزائمي، كانت تبهجه كثيرًا. كان يحب سماع صوت التحطم عندما تقع منى صينية ساخنة على الأرض، لأننى نسيت أن ألبس قفاز الفرن؛ كان يحب أن يسمعنى أسب وألعن فى المطبخ؛ وعندما أخرج بوجه يتصبب منه العرق.وملابسى غير مرتبة بعد إحدى معاركي، كان يحيينى بابتسامة و نكتة ظريفة، أو ربما حتى بقبلة، وهى التى كانت فى هذا الموقف تعوضنى عن الطاقة التى بذلتها فى عمل الطعام. كانت مشاعر الإحباط والغضب صادقة عندي، لكننى لم أكن طاهية غاية فى السوء. كان فشلى نوعًا من التمثيل، وجمهورى هو آرثر الذى يدفعنى تصفيقه للاستمرار فى الأداء.

كان كل ذلك لا غبار عليه بالنسبة لي. أن أكون طاهية سيئة أسهل كثيرًا من تعلم أن أكون طباخة ماهرة، ولم تنهك الضوضاء الزائدة ولا الجعجعة من قوى الإبداع عندي. كان خطئى هو فى التفكير بأن هذه التوقعات من جانب آرثر كانت تنحصر فى الطهي.

لكنها كانت تبدو كذلك فى البداية فقط، لأننى كما رأى لم أحاول أى شيء آخر.

ولم يكن آرثر مخادعًا: فما يقوله كان يطابق ما يفكر فيه. ولكن المشكلة أن الاثنين كانا مختلفين عما كان يشعر به. وعلى مدى سنوات كنت أريد أن أتحول إلى ما يدور بخلد آرثر عنى، أو ما يرى أننى ينبغى أن أكون عليه. كانت لديه خطط كثيرة لي، طموحات، طرق يمكن أن أستخدم بها ذكائى بشكل أفضل، وهناك يمكن أن أكون، راقدة فى الفراش فى الصباح غير قادرة على الحركة، بينما هو قد استيقظ ويصنع لنفسه قهوة داكنة، ويسعى خلف أحد أهدافه. وكانت هذه هى مشكلتي، هذا ما قاله، أننى ليس لى أهداف. ولسوء الحظ لم يكن بمقدورى أن أرى لهذه الكلمة معنى إلا فيما يتصل بأهداف الكرة، تلك اللعبة التى لم أكن أستمتع بها كثيرًا.

لكن آرثر لم يكن دائمًا مبكرًا فى الاستيقاظ. كانت لديه لحظات كآبة أيضًا. بعد أن تبددت أوهامه بخصوص جماعة مناهضة القنبلة الذرية، ظل بعيدًا عن السياسة لفترة، ولكن سرعان ما عاد إلى المعمعة. وهذه المرة كانت الحقوق المدنية: ذهب إلى الولايات المتحدة، وكاد يقتل. ولكن بعد ذلك اختفى هذا الموضوع، ودخل فى مساعدة اللاجئين الهاربين من الخدمة العسكرية فى الولايات المتحدة اعتراضًا على الحرب فى فيتنام، وثورة الطلبة، وافتتانه بماوتسى تونج. كل حالة من هذه الحالات كانت تتطلب قراءة مكثفة، ليس فقط

لآرثر، ولكن من جانبى أنا أيضًا. وقد بذلت مجهودا حقيقيا، لكنى كنت دائمًا متأخرة عن اللحاق به، ربما لأننى كنت أجد قراءة النظريات عملية صعبة جدًّا. وعندما أكون قد توصلت إلى تعديل آرائى مع آرثر، يكون هو قد غير رأيه إلى اتجاه آخر بالفعل. ثم يكون على أن أسلم مرة أخرى، وأتحسن، ويطلب منى أن أرى النور الجديد مرة أخرى. يقول لي: "إليك، اقرئى هذا الكتاب"، وأعرف أن الدورة الجديدة قد بدأت.

المشكلة أن آرثر كان حسن النية، كان طيبًا أكثر من اللازم، وكان يريد كل شخص أن يكون طيبًا مثله. وعندما يكتشف أنهم ليسوا كذلك، وأنهم ليسوا جميعًا يحترقون بلهيب التطهير الذى يحترق به، وأن بعضهم مغرور، والبعض لهم مآرب شخصية ويسعون إلى النفوذ، كان يشعر بالغضب. كان سجين ضميره.

وذات مرة فكرت أن آرثر كان وحيد العقل، وحيد القلب، وحيد الجسم؛ أما أنا فعلى العكس، كنت مجموعة مؤسفة من الأكاذيب والأعذار، وكل منها كاملة فى نفسها لكنها تحوّل الأخريات إلى أشياء لا قيمة لها. لكنى سرعان ما اكتشفت أن آرثر متعدد كما أنى متعددة. والفارق هو أن شخصياتى المتعددة متزامنة، أما شخصيات آرثر المتعددة فمرتبة فى خط متصل. وعند ذروة تورطه فى أى من تلك القضايا، كان يمكن أن يسهر إلى السادسة صباحًا، قد لا ينام إطلاقًا، قد يندفع بلا هدى يجمع أشياء ويلقى خطبًا ويحمل لافتات. لكن عندما

يكون فى حالة معنوية متدنية قد لا يستطيع حتى أن يقوم من الفراش، قد يجلس فى مقعد طول اليوم، غارقًا فى الدخان وينظر من النافذة، يتفرج على التليفزيون أو يحل الكلمات المتقاطعة أو لعبة الصورة المقطعة. ولم أكن موجودة كنوع من الشكل المنفصل بالنسبة له إلا فقط فى حالة أن تكون معنوياته فى طريق الصعود أو الهبوط؛ وإلا فأنا مجرد نوع من الفقاعة المغذية. لم نكن نمارس الحب إلا فى الفترات المتوسطة. فعندما يكون قد وصل إلى قمة الحالة المعنوية لا يكون لديه وقت، وعندما يكون فى قاعها لا تكون لديه طاقة.

أعجبت بنقاء ضميره، بل وحسدته عليه، رغم حالات المراجعات التى كانت تمر به: عندما يكون آرثر فى طريقه إلى الهبوط المعنوي، وقد تبددت أوهامه وأحاطت به سحابات الهلاك، كان يكتب رسائل إلى كل الناس الذين عمل معهم خلال تلك الفترة، يتهمهم بالخيانة والنذالة، وكنت أنا التى أتلقى المكالمات التليفونية منهم، يشعرون بالغضب أو الحيرة، أو الأسى، وقد أقول: "حسنًا، أنت تعرف آرثر، فى الفترة الأخيرة يشعر بأنه ليس على ما يرام، يشعر بخيبة الأمل".

كنت أتمنى لو يقوم هو بالشرح بنفسه، لكنه متخصص فى الكمائن. لم يكن يتشاجر أبدًا مع الناس، لم يكن يرفع صوته مع أحد. كان يقرر فقط، بعملية تقييم معتمة، معقدة، أنّ هؤلاء الأشخاص غير جديرين، ولكن عدم الجدارة هذه كانت متأصلة فيهم. وما أن يصل

إلى هذا الحكم، يكون قد قرر الأمر. لا محاكمة، لا مراجعة. قلت له ذات مرة إننى أعتقد أنه يتصرف بطريقة تجعل أحكامه على الناس شديدة القسوة، لكن الأمر ضايقه، ولم أصر عليه. ولكن فى داخلى كنت أخشى أن يطبق على نفس هذا النوع من التقييم.

كثيرًا ما تمنيت أن يجد آرثر جماعة ما يمكن أن تستمر فى حمل عبء ثقته الكبير. لم يكن الأمر يتوقف على أننى أريد له أن يكون سعيدًا. بل كان هناك سببان آخران يحملاننى على هذا الأمل. أحدهما هو أن اكتئابه كان يتسبب فى تعاستي، لأنه كان يشعرنى بأننى غير كافية. لأننى كنت أعرف أن حب المرأة الصالحة ينبغى أن يحفظ الرجل من مثل هذه الحالات. لكن فى تلك الأوقات لم أكن قادرة على إسعاده، مهما كان طهيى سيئًا. ولهذا فأنا لست امرأة صالحة.

والأمر الآخر هو أننى لا أستطيع كتابة قصص "أزياء القوطية" عندما يكون آرثر مكتئبًا. فقد كان يبقى فى البيت معظم الوقت، وعندما يكون متوقفًا عن فعل أى شيء فهو يريدنى ألا أفعل شيئًا أيضًا. فإذا دخلت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب يفتحه، ويقف عند فتحة الباب ينظر إليّ مؤنبًا ويقول إنه مصاب بصداع، أو قد يريدنى أن أساعده فى حل كلماته المتقاطعة. كان من الصعب للغاية أن أركز على صدر بطلتى الفاتن أو فم بطلى الرفيع، مع هذا الجو. وقد

أضطر إلى التظاهر بأننى سأخرج بحثًا عن عمل، ومن حين لآخر أحصل على عمل بالفعل، كنوع من الدفاع عن النفس.

لم تصبح كتابتى بالنسبة لى شيء أكبر من مجرد طريقة لكسب معيشتى إلا بعد الزواج. كنت دائمًا أشعر بخبثى فى هذا الصدد كما لو كنت أكتسب شيئا دون أن يكشفنى أحد، لكن الآن أصبحت الكتابة أمرًا هامًا. وما كان هاما فى الواقع لم يكن الكتب فى حد ذاتها، والتى استمرت كما هى فى الغالب. وإنما حقيقة أننى كنت شخصين فى آن واحد، بمجموعتين من أوراق التعريف، وحسابين بنكيين، ومجموعتين من الناس يعتقدون بوجودي. كنت جوان فوستر، لا شك فى هذا، فالناس ينادوننى باسمى وأنا أمتلك من الوثائق الأصلية ما يثبت هذا. لكننى كنت أيضًا لويزا ك. ديلاكورت.

وطالما كان بمقدورى قضاء قدر معين من الوقت كل أسبوع فى شخصية لويزا، فلا مشكلة، كنت مستمعة صبورة، ومتحملة، ودافئة، ومتعاطفة. ولكن إذا انقطعت ولم أستطع العمل فى الكتاب الحالى من "أزياء القوطية"، فربما أصبح وضيعة ومثيرة للتوتر، وأشرب كثيرًا وأبدأ فى البكاء.

وهكذا استمر بنا الحال من عام لعام، ودوائر جنون آرثر تتغير مع دوائري، وكان الأمر لا غبار عليه حقًا، فقد كنت أحبه. كل فترة أقترح أنه ربما حان الوقت لأن نستقر فى مكان ما، مكان أكثر

ديمومة، وأن ننجب أطفالاً. لكن آرثر كان يقول إنه لم يكن مستعدًا، وأن لديه عملاً يؤديه، وكان لابد أن أعترف بأننى أنا نفسى كانت مشاعرى مختلطة. كنت أريد أطفالا، لكن ماذا لو أنجبت طفلاً وأصبح مثلي؟ والأسوأ من هذا، ماذا لو اكتشفت أننى مثل أمي؟

كل هذا الوقت كنت أحمل أمى حول عنقى كما لو كانت طائرًا عفنًا. كنت أحلم بها كثيرًا، أمى ذات الرؤوس الثلاثة، خطرة وباردة. أحيانًا كنت أراها جالسة أمام تسريحتها، أحيانًا كانت تبكى. لم تكن أبدًا تضحك أو تبتسم.

وفى أسوأ الأحلام لم أكن أراها على الإطلاق. كنت أرى نفسى مختبئة خلف باب، أو أقف أمام باب، لم يكن واضحًا أيهما. كان الباب أبيض، كما لو كان باب حمام أو ربما باب دولاب مطبخ. وربما أكون محبوسة داخله، أو خارجه، لكن على الجانب الآخر من الباب أسمع أصواتًا، أحيانًا هناك أصوات كثيرة، أحيانًا صوتان فقط؛ وكانت هذه الأصوات تتحدث عنى، تناقشني، وبينما أسمع، أكتشف أن هناك شيئًا سيئًا جدًا على وشك الوقوع. كنت أشعر باليأس، وأننى لا أستطيع فعل شيء. وفى الحلم قد أذهب إلى أقصى ركن من المهجع وأحشر نفسى فيه، وأضغط بذراعى على الجدران، وأضرب كعبى فى الأرض. هكذا لن يستطيعوا أن يخرجوني. ثم قد أسمع صوت الخطوات، تأتى صاعدة السلالم وتسير عبر الردهة.

كان آرثر يهزنى ليوقظنى كنت أقول: "ماذا هناك؟" فيرد: "لقد كنت تغطين".

أغطّ ؟ يا لها من مهانة. الصراخ قد يكون مقبولاً، أما الغطيط... أقول له: "كنت أعانى من كابوس". لكن أرثر لم يستطع أن يفهم لماذا يمكن أن أعانى من كوابيس. من المؤكد أنه لم يحدث لى أى شيء مرعب هكذا، كنت فتاة عادية أنعم بكل المميزات. كان يقول لى أننى جميلة، وذكية، لماذا لم أستطع أن أصنع من نفسى شيئًا؟ كان يجب أن أحاول أن أكون رائدة من نوع ما.

ما فشل فى أن يفهمه هو أن الناس ليسوا إلا نوعين: البدين والنحيف. وعندما أنظر إلى نفسى فى المرآة، لم أكن أرى ما يراه آرثر. كان الإطار الخارجى لجسمى فيما مضى لا يزال يحيط بي، كما لو كان ضباب، أو قمر وهمي، أو صورة دامبو الفيل الطائر وقد فرضت أى منها صورتها على صورتى فرضا. كنت أريد أن أنسى الماضي، لكن الماضى رفض أن ينساني؛ كان ينتظر حتى أنام فيهاجمنى ويحاصرني.

الفصل الحادى والعشرون

عندما توقفت عن التفكير فى الأمر، شعرت أن زواجنا أكثر سعادة من الكثيرين. حتى أننى أصبحت معتدة به إلى حد ما. فى رأيى، معظم النساء يرتكبن خطأ أساسيًا: فهن يتوقعن من أزواجهن أن يفهموهن، ويقضين كثيرًا من الوقت الثمين فى محاولة شرح أنفسهن، فى تقديم مشاعرهن وردود أفعالهن، حبهن وغضبهن وحساسياتهن، مطالبهن وما ينقصهن، كما لو كان مجرد شرح هذه الأشياء يمكن أن تكون له نتائج. كان أصدقاء آرثر فى الغالب متزوجين من نساء من هذا النوع، وكنت أعرف أن هؤلاء النسوة يروننى شخصية لا طعم لها ولا لون، وغبية إلى حد ما. أما هن أنفسهن فكن يخرجن من أزمة إلى أخرى، مع سيل من التعليقات التى تقال بنغمة عالية، على مجموعة من النهايات العصبية، والسجائر، والصدق الضائع، وما يمكن تسميته بالتذمر المستمر. ولأننى لم أكن أفعل هذا، كان أصدقاء آرثر يحسدونه إلى حد ما، ويدلون لى بأسرارهم فى المطبخ! كانوا محاصرين ومجهدين؛ زوجاتهم لديهن لمسة من قوامة وصلاحية الذات الحادة المألوفة لى عن أمي.

لكنى لم أكن أريد آرثر أن يفهمني: لقد بذلت جهودا كبيرة لمنع هذا. رغم أننى كنت أحيانًا أشعر بالإغراء، قاومت نزوة الاعتراف. كان مزاج آرثر اسبرطي، وكانت حياتى المبكرة ودواخل نفسى قد

تروق له كثيرًا. سيكون الأمر كما لو كنت تطلب قطعة لحم وتفاحًا ببقرة مذبوحة كاملة. أظن أنه ارتاب فى ذلك، من المؤكد أنه لاحظ محاولاتى القليلة المترددة لكشف الذات.

والزوجات الأخريات أيضًا كن يردن أزواجهن أن يكونوا على قدر الحياة الخيالية التى يعشنها، والتى فيما عدا الأزياء والعادات لم تكن مختلفة كثيرًا عن حياتي. لم يكونوا يعبرون عن الأمر بنفس هذه الطريقة، لكنى أستطيع أن أؤكد من توقعاتهن. لقد كن يردن رجالهن أن يكونوا أقوياء، شهوانيين، عطوفين، ومنفعلين، بشفاه جشعة، ولكن أيضًا رقيقة ومبجلة. كن يردن رجالاً ملفوفين بعباءات غامضة ينقذونهن من الشرفات، ولكن أيضًا يردن علاقات ذات معانٍ عميقة، وصراحة وانفتاح كاملين. (كنت أقول لهن فى سرى أن بطل "الزهرة القرمزية" لم يكن لديه وقت لعلاقات ذات معانٍ عميقة.[1]) كن يردن لذة جنسية متكررة، كن يردن الأرض أن تتحرك، لكنهن أردن أيضًا من يساعدهن فى غسيل الأطباق.

كنت أشعر بأن طريقتى كانت أكثر إقناعًا. قلت لنفسى أن هناك نوعين من الحب؛ وكان آرثر رائعًا بالنسبة لنوع واحد منهما، لكن لماذا نطلب كل شيء من شخص واحد؟ لقد تخليت عن توقع أن

---

[1] الزهرة القرمزية، مسرحية (١٩٠٣) ثم رواية (١٩٠٥) للكاتبة الإنجليزية البارونة إيموسكا أوركيزى، تدور حول فظائع الثورة الفرنسية وظهور بطل إنجليزى يحاول إنقاذ المحكوم عليهم بالإعدام بالمقصلة.

يكون هو الغريب المعقد ذا العباءة، الملفوف بخطر غامض. لا يستطيع أن يكون هذا: كنت أعيش معه، والغرباء ذوى العباءات لا يتركون جواربهم على الأرض أو يدخلون أصابعهم فى آذانهم، أو يتغرغرون فى الصباح لقتل الجراثيم. لقد حافظت على آرثر فى شقتنا وتركت الغرباء فى قلاعهم وقصورهم حيث مكانهم الطبيعي. كنت أشعر أن ذلك حكمة منى، وأنه من المؤكد أتاح لى أن أكون أكثر سموًّا فى الخارج من زوجات أصدقاء آرثر. لكننى فزت عليهن: ففيما يختص بالخيال، كنت محترفة، بينما كن هنّ مجرد هاويات.

ومع ذلك، كلما مر الوقت، كلما شعرت بأن شيئًا ما ينقصني. فكرت أنني ليس لدى روح، أننى أهيم بلا هدف، أغنى برعونة، مثل عروس البحر الصغيرة فى قصة أندرسون. لكى يكون لديك روح لابد أن تعاني، لابد أن تتخلى عن شيء ما؛ أم أن الأمر كان لكى يكون لديك ساقان وقدمان؟ لم أستطع أن أتذكر. لقد أصبحت راقصة، لكن بلا لسان. ثم هناك تلك الفتاة مويرا شيرر، فى قصة "الحذاء الأحمر"، لم تستطع أى منهما أن تسر أميرها الوسيم، وكلتاهما ماتت. كنت جيدة فى المقارنة. أخطاءهما كانت أنهما تريدان الرقص على الملأ، بينما أنا كنت أرقص رقصتى خلف الأبواب المغلقة. كان هذا أكثر أمانًا... ولكن...!

وصحيح أننى كانت لى حياتان، لكن فى أيام الأجازات كنت أشعر بأن كلا منهما ليست حقيقية بالكامل. فمع آرثر لم أكن أقوم بأى دور سوى دور البيت، لم أكن فى الواقع أقوم بعمل. وكانت أزيائى القوطية مجرد ورق، قلاع ورقية، أزياء ورقية، دُمى ورقية، هى فى النهاية جامدة وخالية من الحياة مثلها فى ذلك مثل تلك الدمى ذات العيون البيضاء التى كنت ألبسها وأخلع عنها ملابسها فى منزل أمي. اكتسبت سمعة بأننى غائبة العقل، وهى صفة وجدها أصدقاء آرثر عزيزة. وسرعان ما كانت متوقعة منى، وأضفتها إلى ذخيرة نقائصي.

قالت لى إحدى الزوجات: "إنك تعتذرين كثيرًا!" وبدأت أتساءل عن ذلك فى نفسي. كان هذا صحيحًا، فقد كنت أعتذر فعلاً. ولكن، لماذا كنت أشعر أنه يجب أن أُعذر؟ لماذا كنت أريد أن يُعفى عنى؟ ومن أى شيء؟ فى المدرسة الثانوية كان يمكن ألا تلعبى الكرة، إذا كانت لديك الدورة الشهرية أو تعانين من ألم فى البطن يمكن استثناؤك من لعب الكرة، وكنت أفضل عملاً إضافيًا. والآن أردت أن يتم الاعتراف بي، لكنى كنت أخشى ذلك. إذا حاولت الجمع بين أجزاء حياتى المنفصلة (مثل اليورانيوم، مثل البلاتونيوم، تبدو معادن لا ضرر منها للعين المجردة، لكنها مشحونة بقوى قاتلة)، من المؤكد أن يحدث انفجار. وبدلاً من ذلك كنت أهيم، وأظل "محلك سر".

كنا في سبتمبر، كان آرثر في إحدى نوبات حالات استرخائه وهبوطه المفاجئ، وقد انتهى لتوه من كتابة كومة من الرسائل يشجب فيها كل من كان على علاقة بحركة الإصلاح المنهجي؛ "افتديني بالحب"، كان هو العنوان الذى أعمل عليه. ومع وجود آرثر في الشقة كان من الصعب أن أغمض عيني وأطوف في عالم الظلال؛ كذلك، لم يعد التتابع القديم من المطاردة والهروب من الاغتصاب أو القتل، يجذب اهتمامي كما كان يحدث ذات يوم. كنت بحاجة إلى شيء جديد، منعطف جديد: فهناك منافسة أكبر الآن. لم تعد "الأزياء القوطية" ينظر إليها كمجرد هراء، ولكنها أصبحت هراء يجلب النقود، وشعرت أنني في خطر أن تزدحم الأعمال على رأسي. ومن مسح الأعمال المنافسة، كما كنت أفعل كل أسبوع بنهم، في سوق النجاحات الجديدة، كان يمكن أن أرى أن الغموض المكتنف بالأسرار هو آخر صيحة. لم يعد يكفي أن يكون البطل ملتفًا بالعباءة، كان لابد أن يمتلك قدرات سحرية أيضًا. ذهبت إلى المكتبة المركزية، وقرأت عن القرن السابع عشر. كنت بحاجة إلى شعيرة أو طقس، نوع من المراسم، شيء يبدو شريرًا ومشئومًا، ولكنه مزخرف ومزين.

عندما استيقظت بنيلوبي، وجدت نفسها معصوبة العينين، لم تستطع تحريك يد أو قدم. كانا قد ربطاها في مقعد. وكان الاثنان يتهامسان معًا في الجانب المقابل من الغرفة.

حاولت جاهدة أن تلتقط كلماتهما، لمعرفتها بأن حياتها وحياة بيرسى ربما تتوقف على ذلك.

"أقول لك أننا نستطيع استخدامها للوصول إلى معلومات"، كانت إستيل تقول ذلك، كانت رائعة الجمال، بها دم غجري.

غمغم فرانسوا: "من الأفضل أن نتخلص منها، لقد رأت أكثر من اللازم".

قالت إستيل:" نعم، نعم، ولكن دعنا نستفيد منها أولاً. إنك لا تمسك كل يوم بشخص يمتلك كل هذه القوى رغم عدم قدرته على تطويرها".

قال فرانسوا من بين أسنانه: "أنت حرة، طالما أنك ستسمحين لى أن أكون حرا أنا الآخر وأفعل ما أريد بعد ذلك". وانسابت عيناه البراقتان على جسد بنيلوبى المرتعش المغلوب على أمره. "صه .. لقد استيقظت".

أقبلت إستيل، وهى تتحرك بجمال وحشى غير مروض. أسنانها البيضاء الصغيرة تبرق فى الجو المعتم، وألقت بشعرها الأحمر الطويل المشعث إلى الخلف. وقالت بصوت ينطوى على مودة زائفة: "حسنا يا صغيرتي، لقد استيقظت. والآن سوف تؤدين لنا خدمة صغيرة، هه ؟ ".

قالت بنيلوبى: "لن أفعل شيئًا لكم، أنا أعرف حقيقتكم".

ضحكت إستيل قائلة: "يا لك من شجاعة أيتها الصغيرة، لكنك لن تستطيعى أن تتولى أمر نفسك، اشربى هذا". وهنا دفعت عنوة ببعض السائل من قنينة غريبة بين أسنان بنيلوبى. ثم أزالت العصابة من على عينيها، ووضعت مائدة صغيرة عليها مرآة أمامها، وأشعلت شمعة، ووضعتها أمام المرآة.

شعرت بنيلوبى بهالة من الشر تتجمع فى الغرفة؛ وراحت تتكاثف حولها. ورغمًا عنها، شعرت بأن نظراتها تنجذب إلى لهب الشمعة؛ وعقلها يتشتت، مذهولة بلا إرادة كفراشة تنجذب إلى النار، واختفت تأملاتها الخاصة... وغاصت فى المرآة، أكثر فأكثر؛ وبدا أنها تسير على الجانب الآخر من الزجاج، فى أرض الظلال. أمامها أصوات تغمغم فى الضباب.

جاءها صوت إستيل من مسافة بعيدة: "لا تخشى شيئًا، اخبرينا بما ترينه، اخبرينا بما تسمعينه".

كانت أصابعى تدق على الآلة الكاتبة وعيناى مغلقتان، كالعادة، ولكن عند هذه النقطة فتحتهما. لقد وصلت إلى جدار خال: لم تكن لدى أى فكرة عما سوف تراه أو تسمعه بنيلوبى بعد ذلك. فكرت فى ذلك لحوالى نصف ساعة، بدون أى نتيجة. لابد أن أحاول تمثيل المشهد. كانت هذه عادة قديمة لدىّ: عندما أصل إلى نقطة معقدة لا

تتحرك فيها الأحداث، أحاول محاكاة المشهد بقدر الإمكان ، مثلما يفعل المخرج فى المسرح.

كان الأمر يتسم بالمخاطرة، حيث أن آرثر كان يشاهد التليفزيون فى الغرفة المجاورة. كما أننى لم أكن أعتقد أنّ لدينا أى شمع فى الشقة. ذهبت إلى المطبخ، وفتشت فى الأدراج، ووجدت عقب شمعة قصير مغطى بالأتربة كان قد اختفى ذات مرة مع طبق بلى من كثرة حكّه وألقيته بعيدا عنى فى لحظة غضب شديد. ألصقت الشمعة فى طبق، وأحضرت الكبريت، وعدت إلى غرفة النوم، وأغلقت بابها. كان آرثر يظن أننى أكتب مقالاً حول علم الاجتماع الخاص بالخزف للمنهج الجامعى الإضافى الذى ادعيت أننى كنت أدرسه.

أوقدت عقب الشمعة، ووضعته أمام مرآة تسريحتى (كنت قد اشتريت تسريحة ثلاثية الجوانب، مثل تسريحة أمي.) وما أن جلست أمام المرآة حتى تذكرت تجربتى السابقة مع *الكتابة التلقائية*، عندما كنت فى المدرسة الثانوية. فى ذلك الوقت، كنت أسيرة نشاطى وحيويتي. لممت شعرى إلى الخلف وشبكته بدبوس، تحسبا لأى ظرف طارئ بسبب وجود الشمعة بالقرب من وجهي. لم أكن أتوقع الحصول على أية رسائل، ولكن ركزت فقط فى إعداد المشهد فى كتابي، لكنى شعرت أننى كان يجب أن أضع قلم حبر أو قلم رصاص بالقرب منى.

بنيلوبى، بالطبع، كانت وسيطًا طبيعيًا، كان من السهل تنويمها مغناطيسيا، كما أنها تناولت سائلاً ما من قنينة غريبة اعتقدت أنه سوف يساعدها. لذا ذهبت إلى المطبخ مرة أخرى، وصببت لنفسى بعض الويسكى الاسكتلندى والماء، وشربته. ثم أجلست نفسى أمام المرآة وحاولت التركيز. ربما تتسلم بنيلوبى رسالة من سير بيرسي، يقول لها فيها أنه فى خطر. ربما ينبغى أن ترسل هى رسالة... هل كانت مستقبلة أم مرسلة؟ سوف تفلس شركة تليفونات "بل" لو أفلحت هذه الوسيلة...

كان تركيزى يتشتت. قلت لنفسى بإصرار: "أنت بنيلوبى".

حدقت فى الشمعة فى المرآة، شمعة المرآة. كان هناك أكثر من شمعة، كانت هناك ثلاث شمعات، وعرفت أننى لو حركت جانبى المرآة ناحيتى فسوف يكون هناك عدد لانهائى من الشموع، يمتد فى خط إلى آخر ما أستطيع أن أرى... وبدت الغرفة مظلمة جدًا، أكثر إظلامًا من ذى قبل؛ وكانت الشمعة شديدة التوهج، كنت أمسك بها فى يدى وأسير فى ممر، كنت أنزل، وانعطفت عند ركن، كنت ذاهبة للبحث عن شخص ما، كنت أريد أن أجد شخصًا ما.

كانت هناك حركة على حافة المرآة. شهقت واستدرت. من المؤكد أنه كان هناك شخص ما يقف خلفي. لكن لم يكن هناك أحد. كنت متيقظة تمامًا الآن، واستطعت أن أسمع صوتا خافتا من

التليفزيون فى الغرفة المجاورة، وصوت المعلق: "يقذف الكرة... ويحرز هدفا! ضربة ركنية.. ربما كان اللاعب عائدا من تسلل... هذه إعادة للقطة....".

نظرت لأسفل إلى الورقة. وجدت مكتوبا عليها، بخط رديء كالخربشة من المؤكد أنه ليس خطي، كلمة واحدة:

" قوس "

نفخت فى الشمعة وأطفأتها، وفتحت الضوء العلوى للغرفة. قوس. ما معنى ذلك بحق الجحيم؟ أحضرت المعجم الذى أبحث فيه عن مترادفات كلمات أستخدمها كثيرًا، مثل "يرتعش": فعل : يهتز، ينتفض، يقشعر، يرتجف، يرتعد (خوفًا)، وبحثت عن كلمة قوس.

قوس: اسم: والجمع أقواس والقوس: النبل ترمى به، والقوس: برج فى السماء، وبالضم: صومعة الراهب، والقوس: المنحنى، المنعطف، والأقوس : من هو منحنى الظهر. والقوس فى البناء: القنطرة، والعقدة والقوس. وقوس السفينة: مقدمتها، وقوس الساق: قصبته، وقوس قزح: الخط المنعطف فى السماء على شكل القوس.

قوس: فعل: قوّس وتقوّس: أى انحنى، وقاس الشيء بغيره يقوس قوسًا مثل يقيس قيسًا وقياسًا. ويتقوس: يستدير كالقوس، وتقوس البناء أى صار قوسى الشكل مثل القنطرة، وتقوس أمام

عظيم: أى انحنى تحية، واحترامًا وتسليمًا، وتذللاً، أو وضاعة ونفاقًا وهزيمة[1].

وفكرت: يا لها من كلمة غبية، لم يكن من الممكن أن تساعد بنيلوبى وإستيل. ولكننى حينئذ شعرت بوقع ما حدث. لقد كتبت كلمة بالفعل، دون وعى بأننى فعلت. وليس هذا فقط، فقد رأيت شخصًا ما فى المرآة، أو على الأصح فى الغرفة، يقف خلفي. كنت متأكدة من هذا. وعاد إلى ذاكرتى كل شيء قالته لى ليدا سبروت؛ كان هذا صحيحًا، كنت مقتنعة أن هذا صحيح وأن هناك من لديه رسالة لي. أردت أن أدخل فى ذلك الممر المعتم اللامع مرة أخرى، أردت أن أرى ماذا يوجد فى الجانب الآخر. ...

ومن ناحية أخرى، لم أكن أريد. كان الأمر مخيفًا جدًّا. كما كان مثيرًا للسخرية: ماذا كنت أفعل بهذه اللعبة السخيفة من الشموع والمرايا، مثل أحد مساعدى ليدا سبروت الروحانيين الثمانيين؟ كنت أريد رسالة لبنيلوبى، حقيقة، لم أكن مضطرة للمخاطرة بوضع نفسى على النار لأحصل على واحدة.

ذهبت إلى المطبخ، وصببت لنفسى كأسًا آخر.

---

(١) استعنت بترجمة هذا الجزء بالمعاجم العربية، واتخذت المعانى العربية لكلمة قوس، ويختلف الأمر هنا عن المعاني المقصودة من كلمة bow الإنجليزية ومترادفاتها، وبالطبع حاولت بقدر الإمكان أن أقترب من المعنى الذى أرادته الكاتبة.

هكذا بدأت المسألة. فازت المرآة، وسيطرت الرغبة فى المعرفة والاكتشاف. وضعت بنيلوبى جانبًا، وتركتها جالسة فى مقعدها ذاك: سأرى ما يكون من أمرها فيما بعد. الكلمة لم تكن لها، وإنما كانت لي، وأنا أردت أن أكتشف ماذا تعنى. فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى أقرب مخزن واشتريت ستة أزواج من شموع المائدة، وفى ذلك المساء، عندما كان آرثر يشاهد مباراة كرة قدم، عدت ثانية إلى المرآة.

لم تختلف التجربة كثيرًا عن أول مرة، وظلت نفس الشيء على مدى الأشهر الثلاثة أو ما يقرب من ذلك التى استمررت فيها مع هذه التجربة. هناك إحساس بالذهاب فى ممر ضيق يقودنى نزولاً، ولأننى كنت أثق بأننى لو استطعت أن أنعطف عند الركن التالى أو الذى يليه ــ فهذه الرحلات أصبحت أطول ــ فقد ينتهى الأمر، الحقيقة أو الكلمة أو الشخص الذى كان ملكًا لي، والذى كان بانتظاري. شيء واحد تغير: الشعور بأن أحدًا كان يقف خلفى لم يتكرر مرة أخرى. وعندما كنت أفيق من الغشية ــ أظن يمكن أن أطلق عليها ذلك ــ أجد عادة كلمة، أحيانًا عدة كلمات، وأحيانًا جملة، على الدفتر الموضوع أمامي، رغم أنه حدث مرتين أن لم أجد شيئًا إلا بعض الشخبطة. كنت أحدق فى هذه الكلمات، أحاول أن أفهم مغزاها، وقد أنظر فى المعجم، وفى معظم الأحيان، كنت أجد كلمات يمكن أن أكمل بها:

من تلك الواقفة فى السفينة

من تلك الذاهبة الراحلة

تحت قوس السماء، تحت قوس الأرض

تحت قوس الأسهم

فى قارب الموت، لماذا تغنى

تنحني، تركع

تحت القوة المهيمنة

دموعها داكنة

دموعها متقاطرة

دموعها هى الموت الذى تخشين

تحت الماء، تحت مطر السماء

تسقط دموعها، وإذا هى ورود داكنة

لم أكن متأكدة ماذا يعنى ذلك على الإطلاق، كما لم أستطع أبدًا أن أصل إلى نهاية الممر.

على أية حال، أصبحت الكلمات التى جمعتها بهذه الطريقة تتزايد غرابة، بل وتوحى بتهديد: "حديد"، "عنق"، "سكين"، "قلب". فى

البداية كانت العبارات تتركز حول نفس الشخصية، نفس المرأة. وبعد قليل كنت تقريبًا أستطيع أن أراها: كانت تسكن تحت الأرض فى مكان ما، أو داخل شيء، كهف، أو بناية ضخمة، وأحيانا كانت فى قارب. كانت قوية وذات نفوذ هائل، تقريبا تشبه إلهة، لكنها كانت قوة تعيسة وغير سعيدة. هذه المرأة حيرتني. لم تكن تشبه أى شخص آخر تخيلته طوال حياتي، ومن المؤكد أنها لم يكن لها أى علاقة بي. لم أكن أنا مثل ذلك على الإطلاق، كنت سعيدة. سعيدة وغير حاذقة.

ثم بدأ يظهر شخص آخر، رجل. كان هناك شيء ما يحدث بين الاثنين؛ رسائل حب خفية مُشفّرة تتكون على الصفحات، مبهمة، ومخيفة. كان هذا الرجل شرًا، شعرت بذلك، لكن كان من الصعب التأكد من ذلك. فأحيانًا كان يبدو طيبا، كانت له أشكال تنكر متعددة. وأحيانًا كانت هناك ممرات تبدو كما لو كانت قد جاءت من مكان آخر، وبعض الخُطب والعظات المملة المبتذلة عن معنى الحياة.

احتفظت بكل الكلمات، وبالأجزاء الأطول التى استنبطتها من هذه الكلمات، فى ملف عليه عنوان "وصفات". كنت أحيانًا أخبىء ملاحظاتى للأزياء القوطية فى نفس هذا الملف، رغم أننى كنت أحتفظ بالمخطوطات نفسها فى درج ملابسى الداخلية.

بين هذه الجلسات، بالنهار، عندما كنت أغسل الأطباق أو أسير فى ممرات السوبرماركت، كانت تأتينى لحظات من الشك المفاجئ

فى هذا النشاط. ما الذى كنت أفعله، لماذا كنت أفعله؟ لو كنت أقوم بتنويم نفسى مغناطيسيًّا بهذه الطريقة، ألا يجب أن يكون ذلك من أجل هدف طيب، مثل التخلى عن الكحوليات؟ هل أصبحت مصابة فقط (ربما) بحالة خفيفة من الجنون ؟ ماذا يمكن أن يظن آرثر لو اكتشف ما بي؟

لا أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لو استمررت فى ذلك، لكنى أجبرت على التوقف. ذهبت إلى المرآة ذات مساء، ولم أستطع أن أخرج طيفى منها مرة أخرى. كنت أسير فى الممر، والشمعة فى يدى كالعادة، لكن ضوء الشمعة انطفأ. أظن أن ضوء الشمعة انطفأ بالفعل وهذا هو السبب فى أننى لم أستطع الخروج، وظللت محبوسة وسط الظلام، غير قادرة على الحركة. وفقدت كل إحساس بالاتجاه؛ كنت أخشى حتى أن أستدير، لأنى خشيت أن ينتهى الحال بأن أدخل إلى أعمق من ذلك. شعرت وكأننى كنت أختنق.

ولا أعرف كم مضى من الوقت؛ بدت وكأنها قرون؛ لكن حينئذ كان آرثر هناك يهزنى بعنف، وبدا غاضبًا.

"جوان، ماذا تفعلين؟ ماذا حدث لك؟"

عدت إلى غرفة نومي. كنت ممتنة جدًّا حتى أننى ألقيت بذراعى حول آرثر وبدأت أبكى. قلت له: "لقد مررت بأسوأ التجارب رعبًا".

"ماذا؟ لقد وجدتك هنا والأضواء مطفأة، تحدقين فى المرآة. ماذا حدث؟"

لم أستطع أن أخبره. قلت: "رأيت شخصًا خارج النافذة، رجلاً. كان ينظر إلى الداخل".

اندفع آرثر إلى النافذة لينظر، وبسرعة نظرت إلى الورقة. لم يكن هناك أى شيء عليها على الإطلاق، ولا علامة، ولا خربشة. أقسمت أننى سوف أتوقف عن هذا الغباء حالاً وفورًا. كانت ليدا سبروت قد قالت أنك بحاجة للتدريب، وأنا الآن مستعدة لتصديقها. فى اليوم التالى ألقيت كل ما تبقى لدى من شموع وعدت إلى بنيلوبى وسير بيرسى سومرفيل. كنت أريد أن أنسى كل شيء عن هذه المغامرة الصغيرة فيما وراء الطبيعة، وقلت لنفسى إننى لم ينقطع ما بينى وبين المبهمات المكتنفة بالأسرار، وألغيت مشهد المرآة لبنيلوبى: لابد أن تعالج أمر الاغتصاب والقتل مثل كل الآخرين.

لكننى بقيت مع مجموعة الأوراق. بعد بضعة أسابيع أخرجتها وفحصتها بعناية. وبدا لى أنها جيدة كمجموعة من الكتب المشابهة لها التى رأيتها فى محلات بيع الكتب، فكرت أنه ربما تجد أحد دور النشر التى تنشر الكتابات التجريبية فيها ما يثير الاهتمام. ومن ثم قمت بكتابتها على الآلة الكاتبة، وأرسلتها إلى دار نشر "بلاك ويدو".

وجاءنى ما اعتبرته رسالة وقحة إلى حد ما، وذلك ضمن أول بريد يصلنى تقريبًا بعد إرسالها :

عزيزتى مسز فوستر:

بكل صراحة، ذكرتنا مجموعة أوراقك هذه بالنزاع الذى حدث بين خليل جبران ورود ماكوين. ورغم أن بعض القطع ليست بدون ذوق أدبي، لسوء الحظ المجموعة كلها غير متسقة فى نغمتها ولا تصل إلى حل. ربما يمكنك أن تبدئى بتقديمها للمجلات الأدبية. أو يمكنك أن تجربى مع مورتون آند سترجس؛ فقد يكون هذا هو النوع الذى يتناولونه.

أشعرنى هذا بالاكتئاب لبعض الوقت. ربما كانوا على حق، ربما لم تكن هناك ثمة فائدة من أى نوع فى هذه الأوراق. لا أظن أنه قد يفيد إذا قلت أن تلك القطع أمليت عن طريق قوى خارجة عن إرادتي، ولماذا أريد نشرها على أى حال؟ من أظن نفسي؟ كانت أمى تسألنى "من تظنين نفسك؟"، لكنها لم تكن تنتظر الإجابة أبدًا.

لكن كان لدىّ الحق أن أحاول مع المكان الآخر. تمالكت أعصابي، وأرسلت الأوراق إلى مورتون وسترجس. ولم أكن مُهيأة على الإطلاق لما حدث بعد ذلك.

حدثت المقابلة الحاسمة فى بار أحد الفنادق. لم أكن قد ذهبت إلى مثل هذا المكان من قبل: كان من الأماكن التى لا يمكن أن يذهب

إليها آرثر أبدًا، لأنه كان باهظ الأسعار من ناحية، كما كان من الواضح أنه للرأسماليين. ورغمًا عنى، أعجبت بالمكان.

كان هناك ثلاثة رجال فى اللقاء: جون مورتون، المالك الأصلى للشركة، و كان مميز فى مظهره، ودوج سترجس، شريكه والمسئول عن الترويج للكتب، والذى دهشت لأنه كان أمريكى الجنسية؛ و كولين هاربر ، الشاب الشاحب الوجه، المنهك العينين الذى قُدم لى على أنه المحرر،. قال سترجس عنه بحماس: "وهو شاعر أيضًا".

طلبوا ثلاثتهم مارتيني. وكنت أريد أن أطلب ويسكى مزدوج، لكنى لم أرد أن أبدو خارج إطار السيدة المهذبة، ليس الآن... سوف يكتشفون ذلك فيما بعد، ومن ثم فقد طلبت مشروبًا خفيفًا.

نظر لى جون مورتون نظرة عطوفة، وقد ضغط على أطراف أصابعه، وقال: "حسنًا".

وقال سترجس: "نعم، حقًا. حسنًا، يحسن أن تبدأ أنت يا كولن".

قال كولن وقد بدا غير سعيد: "لقد فكرنا أنها ـــ آه ـــ أشياء تذكرك بأحداث معينة فى حياتك – وهى نوع من الخلطة بين خليل جبران ورود ماكوين".

قلت: "أوه، أهى بهذا السوء؟ هل تعتقد ذلك ؟"

قال سترجس : "سوء؟ هل تقول سوء ؟ هل تعرف كم نسخة تباع لهذين الاسمين، إنهما مثل الإنجيل، يا عزيزي". كان يرتدى بذلة لها سترة ياقتها سفاري.

قلت: "هل تعنى أنك تريد نشرها؟"

قال سترجس: "إنها ديناميت"، ثم قال: "أليست هى سيدة صغيرة عظيمة؟ سيكون لكتابها غلافًا عظيمًا. أربعة ألوان، أعمال تخصنا. هل تلعبين الجيتار؟"

قلت مندهشة: "لا، لماذا؟"

قال سترجس: "ظننت أننا يمكن أن نصنع منك نوعًا من ليونارد كوهين "[١].

بدا على الاثنين الآخرين بعض الحرج بما قاله. قال مورتون: "طبعًا، سوف يحتاج الكتاب لبعض الحذف والإعداد للطبع ، ما يُسمى بالتحرير".

قال كولن: "نعم، ربما نحذف الأشياء الأكثر ...، حسنا ..."

قال سترجس: "القليل يمكن حذفه، هنا وهناك، أعنى، هناك بعض ما لا أفهمه جيدًا: مثلاً، من هو الرجل ذو الأسنان الجليدية المدلاة الذى يحمل زهور النرجس ؟"

---

[١] ليونارد كوهين Leonard Cohen: شاعر وروائى ومغنى كندى.

قال كولن: " يمكنك أن تقولى أننى معجب بهذا. إنه، تعرفين، إنه اتجاه يونج... [١]".

"لكن هذا الجزء حول طريق الحياة، حسناً....."

قال سترجس: "إن هذا يعجبني، إنه واضح، هذا شيء يمكنك أن تخوض فيه بالفعل".

قال مورتون: "حسنا، أيها السادة، هذه مجرد تفاصيل. يمكننا أن نرتب ونوضح ونزيل غموض كل ذلك فيما بعد. من الواضح أن هذا الكتاب به شيء يعجب كل إنسان. يا عزيزتي"، قال هذا وهو يلتفت نحوى "سوف يسعدنا جدًّا أن ننشر كتابك، هل لديك عنوان له؟"
قلت: "ليس بعد، لم أفكر كثيرًا فى ذلك، أظن أننى لم أكن أفكر بأنه يمكن أن ينشر على الإطلاق. لا أعرف الكثير عن هذه الأشياء".
قال سترجس: "ما رأيك فى هذا الجزء، هنا"، وهو يقلب فى المخطوطة بإبهام يده. " تستطيعين أن تقولى أن "هذا الجزء لفت نظرى بالأمس، فى القسم الخامس:

تجلس على العرش الحديدي

هى واحدة وثلاثة

(١) نسبة إلى كارل يونج Carl Jung (١٨٧٥-١٩٦١)، عالم النفس السويسرى الشهير، ومؤسس علم النفس التحليلي.

السيدة الغامضة الشريرة السيدة ذات اللون الذهبى الأحمر

العرافة الملهمة المشدوهة

هى عرافة الدم التي

لابد أن تطاع إلى الأبد

لقد اختفى جناحاها الزجاجيان

إنها تطفو على صفحة النهر

وتغنى أغنيتها الأخيرة

وما إلى ذلك.."

قال مورتون: "نعم، هذا كلام رنان. إنه يذكرنى بشيء".

قال سترجس: " ما أعنيه هو ، هذا هو العنوان، 'العرافة'. هذا هو، أننى ماهر فى التقاط العناوين. وحركة النساء، والجو المكتنف بالأسرار، كل هذا".

قلت: "لا أريد أن أنشر هذا الكتاب ما لم يكن جيدًا جدا بالفعل. كنت أتناول كأسى الثالث، وكنت قد بدأت أشعر ببعض المهانة، كما بدأت أتساءل فى نفسى أيضا وماذا عن آرثر. ماذا سوف يظن فى ذلك، هذه التعاسة والتوهج فى نفس الوقت، و... كنت قد بدأت أشعر

الآن، تلك العلاقة من الحب المدنس إلى حد ما، بين امرأة فى قارب ورجل فى عباءة، ذى أسنان جليدية مدلاة وعينين من نار؟

قال سترجس: "حسناً، لا تشغلى رأسك الصغير الجميل عن خير الأمور. نحن الذين سوف ننشغل بذلك، هذا هو عملنا، أليس كذلك؟ أعرف الطريقة السليمة للتعامل مع مثل هذا النص. أعنى، هناك الكثير من الأشياء الجيدة، ولكن هذا رائع!"

الفصل الثانى والعشرون

قلت: "آرثر، هناك كتاب ينشر لي". قلت هذا بينما كان آرثر يشاهد أخبار الحادية عشرة مساء على قناة سى بى سى، وأنا آمل أنه لن يسمعنى جيدًا. لكنه سمعني.

"ماذا؟ كتاب؟ أنتِ؟"

قلت: "نعم".

بدا على آرثر حالة من الفزع، وخفض من حجم صوت الأنباء، وقال: "ما موضوعه؟"

"حسنًا، إنه نوع من، يمكنك أن تقول، أنه عن أدوار كل من الرجل والمرأة فى مجتمعنا". قلت ذلك وأنا قلقة ومرتبكة؛ كنت أفكر فى *القسم الرابع عشر*، الذى يحتوى على العناق بين *الفتاة الحديدية*، الناعمة من الخارج ولكنها مليئة بالأشواك، والرجل الذى يرتدى البذلة المطاطية المنتفخة. لكنى كنت أحاول أن أفكر فى شيء يمكن أن يجده محترمًا، وبدا هذا لا غبار عليه،إذ أنه توقف عن العبوس.

قال: "هذا جيد، لقد قلت لك دائمًا أنك لديك المقدرة. يمكن أن أشرف عليه إذا أحببت، وأراجعه لك".

قلت: "أشكرك يا آرثر، لكنه تم تحريره بالفعل". وكان هذا صحيحًا: اضطر كولين هاربر المسكين أن يراجع المخطوطة عدة مرات، يشطب على أشياء ويكتب "حذف" فى الهوامش. وقد حاول أن يكون لبقًا، لكن من الواضح أن الكتاب أحرجه. واستخدم كلمة "ميلودرامى" مرتين، ومرة قال "عقلية قوطية"، هذه العبارة أثارت رعبي، وهو يعلم هذا. لكن ذلك كان مجرد مصادفة. قلت لآرثر: "إنه يطبع الآن بالفعل،" وأضفت فى محاولة للتأثير عليه: "وهم يريدون منى الظهور فى التليفزيون".

ظهر الضيق على آرثر مرة أخرى، كما كنت أعلم أنه سيحدث. "لماذا لم تخبرينى من قبل؟"

غمغمت: "لقد كنت مشغولاً للغاية، لم أرد أن أربكك وأجعلك تشعر بالقلق". وكان هذا صحيحًا، حيث أن آرثر كان قد قابل مجموعة جديدة من الناس وكان ينتهج طريقًا ونجمه يصعد فى دائرة نشاط جديدة.

قال: "حسنًا، هذا رائع، لابد أن أقرأه. لابد أن نخرج لنحتفل، وهناك بعض الناس الذين كنت أريد أن تقابليهم على أية حال".

كانت فكرة آرثر عن الخروج للاحتفال هى الذهاب" *لحدائق "يونج لوك"* فى سبادينا. قال آرثر: "هكذا كان مطعم ساى وو، قبل أن يصبح شهيرًا" كان يعنى أنه كان رخيصًا. أكلنا هناك مرة من قبل،

وكان الطعام جيدًا؛ ولكن بالنسبة لى كان لابد أن يتضمن الاحتفال مشروبات على أقل تقدير، وشموع إذا كان ذلك ممكنًا. ولكن *حدائق يونج لوك لم يكن* لديها ترخيص ببيع الخمور.

لكن آرثر كان يشعر أنه فى حالة حساسية عالية، لذلك لم أقترح أى شيء آخر. سرنا إلى سبادينا، ثم ركبنا الحافلة. كان آرثر لا يزال يرفض أن يكون لدينا سيارة؛ قال إن هذا تبديد. كنت أعرف أنه على حق من الناحية الأخلاقية؛ وكان دائمًا على حق من هذه الناحية، لكن ذلك بدأ يشكل نوعا من التوتر.

قال لى آرثر أن الناس الذين سنلتقى بهم هم دون ومارلين بوجه. كان آرثر ودون يقومان بالتدريس فى نفس القسم من الجامعة، ويتشاركان فى نفس الآراء. وأخبرنى آرثر أنه يحترم عقلية دون، وأنه كان ماهرًا فى احترام عقليات الآخرين، فى البداية، ولكنه كان يتمكن بعد ذلك دائمًا من العثور على بعض العيوب، ركن صغير من العفن الجاف. كنت أقول له: "لا يوجد إنسان كامل". وتتزايد رغبتى فى أن أضيف: ولا حتى أنت.

سرنا إلى حدائق يونج لوك، حيث كان المكان مزدحمًا كالعادة. كان هناك اثنان يجلسان عند الجدار البعيد، أشارا لنا بالتحية، وشققنا طريقنا بين الموائد للوصول إليهما.

قال آرثر: "جوان، هذا جون بوجه وزوجته مارلين، وفجأة شعرت بالغثيان. كنت أعرف مارلين، كنت أذهب إلى جماعة مرشدات براونى معها.

لم تتغير كثيرًا، كانت لا تزال أكثر نحافة منى بكثير، وكانت ترتدى سترة وبنطلون مبتذلين من القماش القطنى الأزرق المتين، وزهرة مطرزة على جيب السترة، وكان لها شعر أشقر خفيف، ينساب بإهمال على كتفيها، ونظارات مستديرة ذات إطار فضي. كانت نحيفة وبارزة العضلات، وتضع خواتم فضية مكتنزة فى أصابع يدها اليسرى الأربع جميعًا، كما لو كانت السلاح ذا الشريط أو السلسلة المعدنية التى يلبسها من يلاكم بها فى يده من خلال فتحات بها يدخل فيها أصابعه. واستطعت أن أخمن أنها طارت لتصبح ضمن المرشدات الصغيرات، حيث غطت أكمامها بالشارات، وذهبت لتأخذ دروسًا فى الرقص العصري، والعلاج على طريقة جشتالت، والكاراتيه، ودروسًا فى النجارة. ابتسمت لي، ببرود وثقة. أما أنا، بالطبع، فكنت أرتدى أشياء إضافية : شال، وقلادة متدلية يمكن أن أُخنق بها بسهولة، وكوفية. وكان شعرى بحاجة إلى الغسيل، وكانت أظافر يدى قذرة، وشعرت أن رباط حذائى غير مربوط، رغم أن حذائى لم يكن به رباط أصلاً.

نبتت حُشوّات من الدهن على فخذى وكتفيّ، وانتفخت بطنى وأصبحت كالقرعة الضخمة، وقفز من جمجمتى غطاء رأس

المرشدات الصوفى البني، وكسا السروال خاصرتى اللتان أصابهما الرعب ووقف شعرى هلعًا، وانتفخت الدموع خلف عينيّ. هكذا انفجر الماضى الهاجع النائم ليدخل حياتى الرتيبة مثل لقاء بين فيروس وحنجرة مجهدة.

قالت مارلين: "سعيدة بلقائك".

قلت: "معذرة، لابد أن أذهب إلى الحمام".

واتجهت إلى حمام السيدات، تتبعنى نظراتهم المليئة بالدهشة. وما أن وصلت هناك حتى أغلقت على نفسى فى إحدى الكبائن، جلست، لا حول لى ولا قوة وأشعر بالإشفاق على نفسي، وأخذت أشخّر وأتمخط. بعض الاحتفال. مارلين معذّبتي، التى ربطتنى بحبل فى جسر وتركتنى هناك، قربانًا حيًّا، لوحش الغربان؛ مارلين الفضولية المُحققة العبقرية. وقعت مرة أخرى فى فخ كوابيس طفولتي، حيث كنت أركض على الدوام خلف الأخريات، الغافلات عنى كثيرات النسيان أو المزدريات لي، ويداى ممدودتان، أستجدى كلمة إطراء. لم تكن قد تذكرتنى وعرفتنى بعد، ولكن عندما تذكرتني، عرفت ما سوف يحدث: سوف تبتسم ابتسامة مغرورة، من أجل نفسها السابقة، أما أنا فسوف يقهرنى العار، إلا أننى لم أفعل أى شيء يجلب العار؛ وإنما هى التى فعلت ذلك. لماذا إذن أشعر أنا بالذنب، ولماذا

تفلت هى بحريَّة؟ إنها حريَّة القوى؛ أما ذنبى فهو ذنب الخاسرين، الذين يمكن فضحهم، الذين يسقطون. كنت أكرهها.

لم أستطع أن أظل فى الحمام طوال الليل. مسحت وجهى بمنديل ورقى رطب وأصلحت ماكياجي. لابد لى من أن أصمد وألا أستسلم وأن أواجه الصعاب.

عندما عدت إلى المائدة، كانوا يأكلون سمكة مشوية كاملة بطريقة الحلوـ المر، كاملة بعينين بارزتين محمصتين. لم يلحظوا عودتى تقريبًا: كانوا منهمكين فى مناقشة حول الإمبريالية الثقافية للولايات المتحدة. وكان هناك رجل آخر قد انضم إليهم، له عينان حزينتان، وشعر رملى آخذ فى الصلع. عرفت أن اسمه سام، رغم أن أحدًا لم يتعب نفسه بتقديمى إليه.

جلست وسمعت وهم يتبادلون أفكارهم ذهابًا وإيابًا ككرة البنج بُنج، يحرزون أهدافًا مختلفة، كانوا يقررون مستقبل البلاد. هل ينبغى أن تكون قومية بطعم اشتراكي، أو اشتراكية بطعم قومي؟ ويبدو أن دون كان لديه كل الإحصائيات، وكان آرثر لديه الحماس. وبدا أن سام صاحب النظريات؛ ظهر أنه تلقى تعليمًا دينيًّا خاصًّا بأحبار اليهود. ونطقت مارلين بالأحكام. فكرت أن آراءها تدور حول استقامة النفس. لقد كانت تتميز باستقامة النفس أكثر حتى من آرثر. كان لديها كل أسباب التفوق، لقد عملت مرة فى مصنع، وهو ما جعل

الآخرين جميعًا يعجبون بها أيما إعجاب. لم يقل أحد شيئًا لي؛ شعرت أن آرثر قد يكون قد ذكر لهم كتابي، لكن ربما كان يحمي نفسه بذلك. لم يكن يريد أن يتحدث عنه بأى حال قبل أن يقرأه؛ فلم يكن يثق بي. والوحيد فى منضدة الطعام الذى كان لدىّ أمل فى التواصل معه هو السمكة المشوية، والتى تم اختصارها الآن إلى مجرد عمود فقرى ورأس.

قلت محاولة أن أبدو مرحة: "هيا نطلب بعض كعكات الحظ، إننى أحبها، ألا تحبونها؟" طلب آرثر بعضا منها، بطريقة توحى بأنه يتساهل مع طفلة مدللة، ونظرت لى مارلين نظرة ازدراء.

قررت أن أحدثها بصراحة وجها لوجه. فقد أعرف أنا أيضًا أسوأ ما فيها، الآن. قلت: "أظن أننا ذهبنا إلى نفس جماعة المرشدات"

قالت ضاحكة: "أوه، المرشدات؟ الجميع يذهبن إلى المرشدات".

قلت: "كنت أنا أقوم بدور القزم".

قالت: "لا أستطيع أن أتذكر بالفعل ما كنت أقوم به، لا أستطيع أن أتذكر الكثير عنه على الإطلاق. كنا نختبئ فى غرفة المعاطف بعد ذلك، ونتصل تليفونيًّا بالناس من تليفون الكنيسة، وعندما كانوا يردون كنا نقول: "هل ثلاجتك شغالة؟" وعندما كانوا يردون علينا، كنا

نقول لهم " هل ثلاجتكم تعمل ؟ " وعندما يقولون،: نعم"، "إذن الأحسن أن توقفها"، هذا كل ما أذكره تقريبا".

يمكننى تذكر هذه اللعبة جيدًا، حيث أنهن لم يسمحوا لى بمشاركتهن فيها أبدًا. وأدهشنى إلى أى مدى كنت لا أزال أكره ذلك. لكننى كنت أكره أكثر حقيقة أنها لم تعرفني، بدا أنه منتهى الظلم أن مثل هذه التجربة المهينة لى لم تترك أى أثر عليها على الإطلاق.

جاءت كعكات الحظ. وتجاهل دون وآرثر كعكتيهما، لكن الباقون منا فتحوها. كان حظى يقول "حب جديد أمامك"، وكان حظ سام يعد بثروة، وكان حظ مارلين يقول "الأفضل دائمًا أن تكون على سجيتك".

قال سام: "من الواضح أن حظى غير مناسب لى على الإطلاق".

قالت مارلين: "لا أعرف، لقد كنت دائمًا تميل نظريًا إلى الرأسمالية". يبدوا أنهما كانا يعرفان بعضهما أكثر مما كنت أظن.

قلت: "وأنا أيضًا حظى غير مناسب". كنت أشعر أن حظ مارلين كان يناسبني. "الأفضل دائمًا أن تكون على سجيتك"، همس الصوت الخفيض بداخلي. لكن أى صوت، أى صوت؟ وإذا كان من المحتم على أن أبدأ، كم ستكون هذه الأصوات جذابة.

قال آرثر عندما عدنا إلى الشقة: "ماذا جرى لك؟"

قلت: "لا أعرف، وبصراحة، لم أذهب من أجل مارلين".

قال آرثر: "لكنها أعجبت بك كثيرًا، قالت لى ذلك وأنت فى الحمام".

قلت: "أول مرة؟"

قال: "لا، أظن فى ثالث مرة".

شكرًا لكبائن الحمام، الأماكن الوحيدة الباقية لمن يرغب فى عزلة تأمل ودعاء. ما الذى كنت أدعو من أجله؟ لقد دعوت من كل قلبى أن تسقط مارلين فى حفرة.

أثناء الأسبوع التالي، انتقلت مارلين ودون عمليًا للإقامة معنا، وسام فى أعقابهما. وأصبحت مارلين المثال الأفلاطونى لآرثر. ليس فقط لأن لها عقلاً يحترمه، ولكنها أيضًا طاهية ماهرة، وغالبًا نباتية. كان دون ومارلين لهما طفلان صغيران، ورغم حقيقة أن آرثر هو الذى زين غرفة نومنا بكل وسيلة معروفة لتنظيم النسل، وأنه كان يحثنى على تناول "الحبة"، ويعلن نوبة نكد عندما أتقيأ بسببها، ويتغير لونه كل مرة تتأخر فيها دورتي، إلا أننى الآن أتلقى لومًا صامتًا لعدم وجود أطفال.

كانت مارلين مديرة تحرير مجلة "ريسرجنس"، وهى مجلة كندية قومية صغيرة تنتمى للجناح اليساري، وكان دون هو رئيس تحريرها، وسام مساعد رئيس التحرير. وسرعان ما أصبح آرثر

مساهمًا فى التحرير، وكتب مقالاً عبارة عن بحث دقيق حول النباتات ذات الفروع، وقرأته مارلين، بذقن غارقة فى الدخان (عيبها الوحيد)، تومئ مفكرة، وتقول أشياء مثل "هذه نقطة هامة تطرقت إليها أنت هنا"، بينما يشع آرثر سعادة. إلهة الشعر والفن حضرتها، فكرت وأنا أشعر بالغضب؛ لم تحاول أبدًا مساعدتى لعمل القهوة، كنت أقوم بكل العمل، وكان آرثر يقول هذا أقل ما يمكننى فعله، وقررت أن أفعل أقل ما يمكننى فعله.

شعرت بالغيرة من مارلين، ولكن ليس بالطريقة العادية. لم يدر بذهنى أن آرثر يمكن أن يفكر أبدًا فى وضع يده على ردفها النحيل العظمى، كما لا يمكن لأى كاثوليكى مؤمن أن يفكر فى تحسس العذراء. وسرعان ما وضح لى أن مارلين كانت على علاقة بسام، دون علم من دون. وقررت ألا أخبر أحدًا، ليس بعد. وفورًا شعرت بأننى فى حالة طيبة أكثر؛ اشتريت كعكات، وقدمتها مع القهوة، وبدأت أجلس فى جلسات التحرير. وأصبحت أتعامل بود مع سام على وجه الخصوص، استطعت أن أدرك أنه واقع تحت ضغوط كبيرة. رغم أنه كان مشابهًا لآرثر فى جانب من شخصيته، فى إخلاصه وصدقه، وكان جانبه المخيف أقل إرهابًا ولا يظهر إلا فى المطبخ بينما يساعد فى عمل القهوة. كنت أحب حقيقة أنه يساعد فى ذلك، وأنه تعوزه اللياقة أكثر منى.

أثناء ذلك وصلت بروفات كتابى "العرافة" من الناشر، وقمت بتصحيحها، بإدراك وفهم أكبر. وعند القراءة، بدا الكتاب غريبا جدًا. والواقع أنه فيما عدا الأسلوب، بدا أقرب كثيرًا إلى أحد أزيائى القوطية النموذجية، ولكن قوطى معكوس، كان مقلوبًا رأسًا على عقب بشكل ما. كانت هناك المعاناة، البطل فى قناع الشرير، والشرير فى قناع بطل، الانطلاقات، الموت يلوح فى الأفق، الشعور بأننى سجينة، لكن لم تكن هناك نهاية سعيدة، ولا حب حقيقي. وشعرت بعدم الارتياح عندما تعرفت على هذا التشابه الجزئي. ربما كان ينبغى أن آخذه إلى طبيب نفسى وليس إلى ناشر؛ ولكننى تذكرت حينئذ الطبيب النفسى الذى أرسلتنى أمى إليه، لم يكن ذا فائدة كبيرة، ولا أظن أحدًا يمكن أن يفهم *"الكتابة التلقائية"*. ربما لم يكن ينبغى لى استخدام اسمى نفسه، أو بالأحرى اسم آرثر؛ ثم ما كنت مضطرة أن أريه الكتاب. وأخذ ندمى على ذلك يشتد. لم يكن قد أشار إلى الكتاب منذ أخبرته به فى أول مرة، ولا أنا ذكرته. رغم أننى تضايقت من عدم اهتمامه هذا، ورحبت بالفرصة لتأجيل يوم الحساب. لن يحب آرثر الكتاب، كنت متأكدة من هذا، ولن يعجب به أحد أيضًا.

طلبت مستر سترجس، من مورتون وسترجس تليفونيا. وقلت "لقد غيرت رأيي، لا أريد نشر الكتاب".

قال سترجس: "ماذا؟ ما السبب؟"

قلت: "لا أستطيع الشرح، إنه أمر شخصي".

قال سترجس: "انظري، لقد وقعت عقدًا، طبعًا تذكرين".

فكرت أننى وقعت عقدًا نعم، ولكن ليس بدمى. قلت: "ألا يمكن أن نلغى الموضوع كله؟"

قال: "إننا فى مرحلة الإنتاج، لماذا لا نلتقى لنشرب شيئًا ونناقش الأمر؟"

ربت على ظهري، بلطف، وقال لى أن كل شيء سيكون على ما يرام، وسمحت لنفسى أن أصدقه. بعد ذلك بدأ يجرى اتصالات خاصة بي، ليحافظ على ارتفاع روحى المعنوية.

فى إحدى هذه الاتصالات، قال: "لقد بدأت المحركات تدور". ثم مرة أخرى: "لقد وضعنا إعلانًا فى نقطتين هامتين". أو، "سوف نرسلك في جولة، خارج كندا". هذه الأخيرة جعلتنى أفكر فى الملكة، تقف على مؤخرة رصيف قطار، تلوح. هل سوف أضطر إلى فعل ذلك؟ كذلك فكرت فى مستر بينات، الذى قد يأتى إلى موقف سيارات لوبلو فى بعض أيام السبت. كانت له أطراف عادية، رجلان وذراعان، ويرتدى حذاءين برقبة وقفازين بيضاوين، لكن جسمه كان مثل بندقة هائلة الحجم؛ قد يرقص بطريقة عمياء متثاقلة، بينما تبيع الفتيات المنتظرات كتب التلوين وأكياس البندق. كنت أحبه عندما كنت طفلة، ولكن فجأة رأيت ما معنى أن تكون البندقة: خرقاء،

سافرة، وخانقة. ربما لم يكن ينبغى أن أوقع هذا العقد، بهذا الإهمال، بهذا الحمق، بعد الكأس الخامسة. وكلما اقترب موعد النشر، كنت أستيقظ كل صباح وبداخلى هاجس ينذر بشر، حتى أتذكر.

ومع ذلك، تأكدت عندما أرسلوا لى النسخ التمهيدية من الكتاب. كان يبدو ككتاب حقيقي، وكانت صورتى على الغلاف الخلفي، مثل مؤلفة حقيقية. لويزا ك. ديلاكورت لم تضع صورتها على الغلاف الخلفى أبدًا. وأصابنى توجس عندما قرأت ما كتب على الغلاف الخلفي: "الحب العصرى ومعركة الجنس، مشرحة بحد قاطع وصراحة صادمة". كنت أظن موضوع الكتاب غير ذلك، بالتحديد؛ لكن سترجس أكد لى أنه يعرف ما يفعل. قال: "أنت كتبته، اتركى أمر بيعه لنا". وأخبرنى أيضًا بابتهاج أنه "وضع" أهم عرض صحفى للكتاب.

قلت: "ما معنى ذلك؟"

"عملنا حسابنا أن يذهب الكتاب إلى شخص سوف يعجب به".

سألت: "أليس هذا نوعًا من الغش؟" ضحك سترجس: "شيء لا يُصدق"، ثم قال "ولكن ابقى كما أنت".

انفجارات مجهولة فى المشهد الأدبى مثل انفجار المذنب، كان هذا عنوان العرض الأول، فى جريدة تورنتو ستار. قصصته بمقص المطبخ، ولصقته فى كتاب الملصقات الجديد الذى اشتريته من مكتبة

كريج. كنت قد بدأت أشعر بأننى أفضل. وأسماه ناقد الكتاب فى جريدة "ذا جلوب " (الكرة الأرضية) "غامض"، و"غريب"، فى نفس الفقرة. بحثت عن هذه الكلمات فى المعجم. قد لا تكون سيئة جدًا على أية حال.

(لكننى لم أتوقف عن التأمل فى طبيعة المذنبات. كتل من الحطام الكونى لها شعر أحمر طويل وأذيال هائلة، يكتشفها الفلكيون، الذين يطلقون عليها أسماؤهم، فهى تُسمى أحينا " هاربنجر " (أى نُذر) كوارث أو " بورتنت " (أى نُذُر أيضا) حرب قادمة.

الفصل الثالث والعشرون

أعطيت آرثر نسخة من الكتاب، وكتبت على مقدمتها: إلى آرثر، XXXX، مع كل حبي، جوان. لكنه لم يقل كلمة واحدة عنه، وكنت أخشى أن أسأله عن رأيه. أصبح سلوكه متباعدًا عني، وبدأ يقضى الكثير من الوقت فى الجامعة، أو هكذا قال. كنت أضبطه يرمينى بنظرات قاسية بينما يظن أننى لا أنتبه إلى ما يفعل، لم أستطع أن أفهم هذا. كنت أنتظر منه أن يقول لى أن الكتاب بورجوازى أو لا طعم له أو مبهم أو تعمية و غموض، ولكنه بدلاً من ذلك كان يتصرف وكأننى ارتكبت ذنبًا لا يمكن غفرانه، ولا يمكن ذكره.

شكوت إلى سام، الذى كان قد اعتاد فى ذلك الوقت أن يمر لتناول كأس أو اثنين من البيرة فى المساء. كان يعرف أننى أعرف الكثير عن مارلين، ومن ثَمَ فكان يستطيع الشكوى لي.

قال: "أننى فى أزمة موحلة، مارلين جعلتنى تحت رحمتها. أمسكتنى من اليد التى توجعني، وهى تلويها، تريد أن تخبر دون. وتظن أننا يجب أن نكون صادقين ومنفتحين. هذا لا غبار عليه نظريًا، ولكن... تريد أن تنتقل للحياة معي، بأطفالها وكل شيء. هذا يمكن أن يثير جنونى أيضًا"، قال هذا، مع لحظة شعور بالتقوى، "هل تتصورين ما سوف يحدث بالنسبة لجريدة ريسيرجنس؟ سوف تنهار".

قلت: "هذا شيء سيء للغاية، أنا لدى مشكلة".

قال سام: "أنت لديك مشكلة؟ لكنك لم تكن لديك أى مشاكل أبدًا". قلت: "هذه المرة لدىّ مشكلة. إنها تخص آرثر وكتابي. أعنى، لم يقل لى حتى أنه سيء، وقد تغير سلوكه تمامًا. فهو يتصرف ليس فقط وكأن الكتاب لا وجود له، ولكن فى نفس الوقت يبدو أنه يشعر بأنه جرحه. هل الكتاب فظيع جدًا فعلاً؟"

قال سام: "أنا عن نفسى لستُ خبيرًا باللغة، ولكنى وجدته كتابًا جيدًا بالفعل، ورأيت أن فيه الكثير من الصدق. لقد أحسست بكل هذا الشيء المسمى بالزواج، ليس الأمر هو كيف كان يمكن لآرثر أن يتأثر به، ولكن أى شخص آخر لا يمكن أن يرى ذلك الجانب، أليس كذلك؟"

قلت: "يا إلهي، هل تظن أن هذا الكتاب عن آرثر؟"

قال سام: "نعم، وآرثر يظن ذلك أيضًا، ولهذا يشعر بأنه يجرحه، أليس كذلك؟"

قلت: "لا، إطلاقًا".

"من هو الشخص الآخر إذن؟"، أراد سام أن يعرف. "لو اكتشف أنه شخص آخر، فسوف يكون هذا أسوأ، تعرفين هذا".

"سام، هذا ليس شخصًا محددًا. ليس لى عشيق سرى، حقيقة، لا يوجد. كل هذا نوع من التخيلات".

قال سام: "أنت فى مشكلة كبيرة، وهو لن يصدق هذا أبدًا".

كان هذا هو ما أخشاه. "ربما يمكنك أن تتحدث معه".

قال سام: "سأحاول، لكن لا أظن أن هذا يفيد. ماذا يفترض أن أقول له؟"

قلت: "لا أعرف". لابد أن سام قال شيئًا رغم ذلك، لأن موقف آرثر تعدل بعض الشيء بعد ذلك. وقد استمر ينظر لى وكأننى وشيت به إلى النازيين، لكنه سيتقبل الأمر بروح رياضية ولا يشير إليه. والشيء الوحيد الذى قاله هو: "عندما تكتبين كتابك القادم، سوف يكون من الأفضل أن أراه أولاً".

قلت: "لن أكتب أية كتب أخرى". كنت أعمل بكل طاقتى فى "افتدينى بالحب"، لكن لم يكن من الضرورى أن يعرف شيئًا عن هذا.

كانت هناك أشياء أخرى تقلقني. كانت خطة معركة سترجس جارى تنفيذها على قدم وساق، وكان أول برنامج تليفزيونى سأظهر فيه على الأبواب. بعد ذلك، كان مورتون وسترجس يجهزان لإقامة حفلة لي. كنت فى حالة عصبية شديدة، وضعت الكثير من مزيل رائحة العرق، وارتديت ثوبًا أحمرا طويلاً، وحاولت أن أتذكر ما جاء فى كتيب *العمة "لو"* عن الإتيكيت أو آداب المعاشرة حول الأيدى

كثيرة العرق. فكرت فى بودرة الطلق المُعطّر للتجميل (تالكوم). رششت بعضها على يداي، وأخذت تاكسى إلى محطة التليفزيون. كان سترجس قد قال لي،" فقط كونى كما أنت." فى المقابلة.

كان الشخص الذى يجرى المقابلة شابًا شديد الانفعال، كان يمزح مع الفنيين بينما كانوا يضعون الميكروفون حول رقبتي. ابتلعت ريقى عدة مرات. شعرت كأننى السيد بينات، كبيرة الحجم ومزعجة. بدأت الأضواء القوية المسلطة والتفت الشاب المنفعل نحوى.

"أهلاً بكم فى برنامج "دائرة الضوء المسائية"، معنا اليوم جوان فوستر، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا حاليًّا، *العرافة*. اخبرينى يا مسز فوستر ــ أو تفضلين أن أناديك مس فوستر؟"

كنت آخذ جرعة من الماء، ووضعتها بسرعة حتى أنها انسكبت. وتظاهرنا نحن الاثنين أن الماء لا يجرى عبر المنضدة وإلى حذاء مقدم البرنامج. قلت: "أيهما، كما يعجبك".

"أوه، إذن أنت لست عضو فى حركة تحرير المرأة".

قلت: "حسنًا، لا. أعنى أننى أتفق مع بعض الأفكار، ولكن...."

"مسز فوستر، هل تريدين أن تقولى إنك امرأة سعيدة فى الزواج؟"

قلت: "نعم، لقد تزوجت منذ سنوات".

"حسنًا، هذا غريب. لأننى قرأت كتابك، وبالنسبة لى بدا أنه كتاب مليء بالغضب. بدا كتابًا غاضبًا جدًا، وإذا كنت زوجك، من المؤكد أننى لن أحبه. ما رأيك فى هذا؟"

قلت بصدق: "هذا الكتاب ليس عن زواجي". ابتسم الشاب ابتسامة متكلفة، وقال: "ليس عن زواجك، إذن يمكنك أن تخبرينى ما الذى ألهمك بكتابته".

وحتى هذه النقطة كنت أقول الحقيقة. ما كان يجب أن أفعل، ولكن ما أن بدأت لم أستطع التوقف. قلت: "حسنًا، كنت أحاول إجراء بعض التجارب الخاصة *بالكتابة التلقائية*. أنت تعرف، تجلس أمام مرآة، ومعك قلم وورقة، وشمعة موقدة، ثم... حسنًا، هذه الكلمات كانت نوعًا من الإلهام. أعنى، كنت أجدها مكتوبة، دون أن أقوم بها بنفسي، إن كنت تفهم ما أعنى. وبعد ذلك... حسنًا، هذا هو كيف حدث الأمر". وشعرت بأننى بلهاء للغاية. وأردت جرعة أخرى من الماء، لكن لم يكن هناك ماء لأننى كنت قد سكبته كله.

هنا أصبح من يحاورنى مرتبكاً. نظر لى نظرة تقول بوضوح، إنك تتظاهرين أمامى بأشياء غريبة. ثم قال مازحا " أتعنين أن هذه القصائد أمليت عليك بواسطة يد روحية؟" .قلت: "نعم، شيء من هذا القبيل. يمكنك أن تجرب ذلك بنفسك عندما تعود إلى البيت".

قال: "حسنًا، أشكرك جدًا لوجودك معنا هذا المساء. كانت هذه الحسناء جوان فوستر، أو كان يجب أن أقول مسز فوستر ـ أوه، سوف تعاقبنى على هذه الغلطة! ـ مس جوان فوستر، مؤلفة *العرافة*. ومعكم بارى فينكل، "نقطة الضوء المسائية".

فى الحفلة، أمسك سترجس بمرفقي، وحركنى ناحية الغرفة كما لو كنت عربة سوبرماركت يدفعها بسهولة.

قلت له: "أننى آسفة فيما يخص هذا اللقاء، ما كان ينبغى أن أقول ذلك".

صاح: "ماذا تقصدين؟ لقد كان مثيرا وممتازا. كيف كوّنت هذه الفكرة ؟ لقد استطعت بالفعل أن توقفيه عند حده ".

قلت: "لم أقصد ذلك..". لا فائدة من إخباره بأن ما قلته كان هو الحقيقة.

كان هناك الكثير من الناس فى الحفلة، وأنا لست ممن يسهل عليهم تذكر الأسماء بصعوبة. قمت بعمل ملحوظة فى عقلى ألا أشرب كثيرًا، فقد شعرت أننى لو شربت لظهرت بصورة ركيكة للغاية يومها، لابد أن أظل هادئة.

عندما ترك سترجس مرفقى أخيرًا، عدت متراجعة إلى الجدار. كنت أختبئ من كُتاب المقالات فى الصحف، الذين رأوا البرنامج التليفزيونى ويريدون أن يتحدثوا عن الظواهر النفسية. شعرت أننى

أكاد أبكى. ما فائدة أن تكونى أميرة ليوم واحد إن كنت لا تزالين تشعرين بأنك ضفدعة؟ وتتصرفين كضفدعة أيضًا. سوف يشعر آرثر بالمهانة. ما قلته، من أوله لآخره، كان أبعد ما يكون عن خط الحفلة. ليس أنه كان لديه حفلة. كانت هذه حفلة، حفلة من نوع ما. أنهيت كأس الويسكى المزدوج وذهبت لإحضار كأس أخرى. وبينما كنت آخذ مشروبى من البار، جاء رجل إلى جوارى وقال: "هل أنت العرافة؟"

قلت: "هذا عنوان كتابي".

قال: "عنوان رهيب، وكتاب رهيب، إنه من مخلفات القرن التاسع عشر، أظن أنه مزيج من رود مكوين وخليل جبران". قلت: "هذا ما فكر الناشر فيه أيضا".

قال: "أظن أنك ناجحة من ناحية النشر، ما هو شعورك عندما تجمعين بين نشر ناجح وكتابة رديئة؟"

كنت قد بدأت أشعر بالغضب. قلت: "لماذا لا تنشر وتكتشف بنفسك؟"

قال بابتسامة عريضة "هاي! أعصابك. إن شَعرك بديع على أى حال، إياك أن تقصيه".

هذه المرة نظرتُ إليه. كان أحمر الشعر هو الآخر، وله شارب أنيق ولحية، كان الشارب مدهونا بشمع التجميل وملتويًا إلى

أعلى عند أطرافه، واللحية مدببة. كان يرتدى عباءة سوداء طويلة وحذاء مرتفع الرقبة، ويحمل عصا ذات رأس ذهبية، ويرتدى قفازًا أبيض، وقبعة موشاة بأشواك الشيهم (حيوان شائك من القوارض يشبه الفأر) .

قلت: "قبعتك لطيفة".

قال: "أشكرك، جعلت فتاة تصنعها لي. فتاة أعرفها. وقد صنعت قفازًا يناسبها، لكننى ظللت ألتصق بالأشياء : أشخاص فى طوابير الخبز ، وكلاب ميتة، وجوارب النايلون، أشياء كهذه. وهذا ردائى الرسمى المعتاد. لماذا لا تأتين معى إلى البيت؟ مجرد اقتراح"

قلت: "لا استطيع، أشكرك على أية حال".

لم يبد عليه أنه قد خاب رجاؤه. "حسنًا، على الأقل يمكنك حضور عرضي". وأعطانى دعوة، ملطخة قليلاً. "الافتتاح الليلة. إنه على بعد عمارتين من هنا؛ هذا هو ما جعلنى أندفع بقوة لحضور هذه الحفلة، فقد تعبت من حضور حفلاتى أنا".

قلت: "حسنًا". بدا لى أنه ليس ثمة ما يسوء فى ذلك. كنت أشعر بينى وبين نفسى أن هناك من يطريني: لقد مضى وقت طويل منذ أن راودنى شخص ما عن نفسي. كما أننى وجدته جذابًا. هو أو الرداء الذى كان يلبسه، لم أكن متأكدة أيهما. كما أننى أردت الهرب من كُتاب الأعمدة الصحفية.

كان الافتتاح فى صالة عرض صغيرة للآثار الفنية. كانت المحاكاة الهزلية بالكاريكاتير للعرض، وحتى العرض ذاته يسميان "سكوُشت"، قال ونحن نعبر شارع يونج: "إنه نوع من التلاعب بالألفاظ والتركيب بين كلمتين، " سكوْ (بمعنى: زوجة هندية من أمريكا الشمالية) ــ وسكوشت (فعل ماضى بمعنى: أخرسها ومنعها من الكلام باستخدام ألفاظا نابية)، هل وصل المعنى؟ "

قلت: "أظن ذلك". كنت أفحص الدعوة وأتأملها، فى ضوء نافذة أحد المحلات. كانت تقول: " بوركيوباين الملكى (أي: الشيهم " حيوان شائك من القوارض يشبه الفأر " الملكي)، سيد الشكل الواقعى المادى الملموس- فى إبداعه". وكانت هناك صورة له بكامل ملابسه، محاطًا بلقطة كاميرا لشيهم ميت، مأخوذة من تحته لذا تبدو أسنانه الأمامية الطويلة ظاهرة فى الصورة.

قلت: "ما هو اسمك الحقيقي؟"

قال: "هذا هو اسمى الحقيقي". وبدا عليه بعض الضيق. "أننى بسبيلى إلى تغييره بشكل قانوني."

قلت: " أوه، ما الذى جعلك تختار هذا الاسم بالذات ؟ "

قال: "حسنًا، إننى مع الملكية، أنا معجب جدا بالملكة. شعرت أننى ينبغى أن يكون لى اسم يعكس هذا الإعجاب بها. مثلما تقولين :

البريد الملكى أو الشرطة الملكية الكندية. كما أننى فكرت أن هذا الاسم سهل التذكر".

"وماذا عن البوركيوباين؟"

قال: "كنت دائمًا أرى أنه من الخطأ اتخاذ القندس (حيوان من القوارض ثمين الفرو يعيش على الأرض وفى الماء) رمزًا قوميًّا. أعنى أن القندس حيوان بليد، وأقرب للغاية إلى روح القرن التاسع عشر؛ مع كل تلك الصناعة. وتعرفين ماذا يجعله هدفًا للصيد؟ استخدام جلده فى صناعة القبعات، ثم يقطعون رؤوسهم من أجل صناعة العطور. أعنى، أى مصير هذا. أما الشيهم، فهو يفعل ما يحب، وجسده مغطى بالأشواك الحادة فلا يحاول الاعتداء عليه أحد. كما أن له أذواقًا غريبة، أعنى، إن القندس يمضغ الأشجار، أما الشيهم فيمضغ مقاعد التواليت".

قلت: "كنت أظن أنه سهل القتل، مجرد أن يُضرب بعصا".

قال: "هذه مجرد إشاعة ودعاية".

عندما وصلنا كان هناك عدد من الناس يغادرون المكان؛ وفى الخارج، كان أعضاء جمعية حماية الحيوان يرفعون لافتات تقول "انقذوا حيواناتنا". كان العرض نفسه يتكون من مجموعة من الثلاجات ذات أبواب وأسطح زجاجية، مثل الصناديق المثلجة لعرض الآيس كريم والعصير المجمد فى السوبر ماركت، وداخل تلك

الثلاجات كان هناك عدد من الحيوانات الميتة، كلها كما هو واضح كانت ضحية حوادث سيارات. وتم تجميدها بطريقة التجميد السريع بنفس الوضع الذى اكتشفت عليه، وقد تم لصق بطاقة صغيرة بنفس طريقة بطاقات الأعمال الفنية، التى يكتب عليها اسم اللوحة، حجمها، ونوع الخامة ــ ١٢٥×٨٠ سم، أكريليك، لكن هذه البطاقة كان عليها فصيلة الحيوان، والموقع الذى وجد فيه، ووصف للإصابة: راكون (حيوان أمريكى ثديى)، وجرو، كسر فى العمود الفقري، نزيف داخلي؛ قطة منزلية، وُجدت فى طريق رسل هيل، تهشم فى الحوض. وكان هناك حيوان الظربان الأمريكي، وعدة كلاب، وظبى صغير، وشيهم، بالإضافة إلى القطط العادية والقنافذ والسناجيب. بل كان هناك أيضًا ثعبان، مُثّلت جثته لدرجة تجعل من الصعب التعرف عليه.

سأل بوركيوباين الملكى بعد أن أنهينا الجولة: "ما رأيك فى هذا؟"

قلت: "حسنًا، لا أعرف... أظن أننى لا أعرف الكثير عن الفن".

قال بوركيوباين الملكى ببعض الضيق: "إنه ليس فنًا، إنه شعر".

"شعر 'إبد..ادى'، أنا رجل سيد الشكل الواقعى المادى - فى إبداعه. لقد أعدت 'الإبداع' إلى أصله 'المادي'".

"لا أعرف الكثير عن هذا أيضًا".

قال: "هذا واضح من الأشياء التى رأيتها، أستطيع أن أكتب هذه الأشياء بأصابع قدمي. السبب الوحيد فى شهرتك هذه هو أن أشيائك عتيقة وقديمة، إنهم يشترونها لأنهم لا يعيشون الحاضر بعد. مرآة المنظر الخلفي، كما يسميها مكلوهان [١]. إن الشعر الحديث هو شعر'الأشياء'. وبنفس الطريقة، لم يفعل أحد مثل هذا من قبل". نظر بوركيوباين الملكى باكتئاب نحو الباب الأمامى للمعرض، حيث كان يخرج مجموعة مضطربة من حاضرى ليلة الافتتاح بوجوه شاحبة، وقال: "هل تفهمين هذا؟"

قلت بذكاء: "هل بعت أى شيء؟"

قال: "لا، لكنى سأبيع. كان يجب أن أذهب بهذا المعرض إلى الولايات المتحدة، الناس هنا شديدو الحذر، وليس لديهم نية لانتهاز الفرص، ولهذا اضطر ألكسندر جراهام بل للذهاب إلى الجنوب".

---

[١] مارشال مكلوهان Marshall McLuhan (١٩١١-١٩٨٠)، كان فيلسوفًا وباحثًا كنديًا، وأستاذًا للأدب الإنجليزي والنقد الأدبى ونظرية الاتصالات. ويعتبر من أهم الشخصيات المؤثرة فى حقل دراسة نظرية وسائل الإعلام، اهتم بدراسة الفلكلور والآداب الشفهية

قلت متبرعةً: "هذا ما يقوله زوجي".

نظر بوركيوباين الملكى إلىّ باهتمام جديد. وقال: "أنت متزوجة ؟ لم أكن أعرف هذا. إن لك أجمل مرفقين مثيرين للغريزة الجنسية رأيتهما فى حياتى. إننى أفكر أن أقوم بعمل معرض حول المرافق، إنه جزء من الجسم لا يهتم به أحد".

سألته: "ومن أين ستحصل عليها؟"

قال: "إنها موجودة حول المرء فى كل مكان". وأمسكنى من مرفقي. "هيا نخرج من هنا".

خرجنا عابرين مجموعة المتظاهرين من جمعية حماية الحيوان خارج الباب الأمامي، غمغم قائلاً: "لم يفهموا المقصود، فأنا لا أسحق الحيوانات، أنا أعيد تدويرها، ما الخطأ فى ذلك؟"

كان بوركيوباين الملكى وهو لا يزال ممسكًا بمرفقي، فسألته: "إلى أين نذهب؟"

قال: "إلى منزلي".

قلت متفادية: "إننى جائعة".

فذهبنا إلى مطعم زومز فى شارع بلور، حيث تناولت "زوم بيرجر" مع الإضافات، وتناول هو"ميلك شيك شيكولاتة". ودفعت

الحساب ـــ لم يكن معه أى نقود ـــ ورحنا نتجادل حول الذهاب إلى منزله.

قلت "لكننى متزوجة"، قلت ذلك وأنا أمضغ الزوم بيرجر بإمعان. لقد جمدنى آرثر، فبالنسبة له قد يرى أننى مجرد حبة لفت. وفى الفترة الأخيرة كنت أجد نفسى منجذبة إلى رجال غير مناسبين إطلاقًا: معلق على الأنباء، سائق الأتوبيس، عامل إصلاح الآلة الكاتبة. ففى خيالاتى لم أكن أهتم بالمكانة أو الملبس، كنت أذهب مباشرة إلى ثقيل التنفس. لابد أن الأشياء كانت سيئة.

قال بوركيوباين الملكي: "لا عليك، أنا أفضل النساء المتزوجات".

قلت: "لكن زوجى قد لا يفضل ذلك".

"لا ضرورة لأن يعرف، هل هذا ضروري؟"

"سوف يعرف، فلديه حدس". ولم يكن هذا صحيحًا؛ ما كان يضايقنى حقيقة هو: حتى لو عرف آرثر، فهل يهتم؟ وماذا لو لم يكن يهتم، ماذا إذن؟ "سوف يظن أنك منحط، سوف يفكر أنك كنت اختيارًا سيئًا لأيديولوجيتى".

"يمكنه أن يأخذ أيديولوجيتك، أنا سأقبل بالباقي، أليس هذا عدلاً؟ تعالي، دعينى أطير بك. إنك النوع الذى يعجبني، أنا متأكد".

انتهيت من "الزوم بيرجر"، وقلت: "هذا مستحيل".

قال: "كما تشائين، إنك تكسبين واحدا، وتخسرين واحدًا. ومع ذلك فهناك شيء يفوتك".

قلت: "ليست لديّ الطاقة".

قال إنه سيوصلنى إلى البيت، وسرنا فى شارع بلور، باتجاه الغرب إلى شارع بيوت الطوب الأحمر القديمة ذات الثلاثة طوابق، ذات الشرفات والجمالونات، حيث كنا نعيش أنا وآرثر فى ذلك الوقت، مؤقتًا كما هو الحال دائمًا. وبدا أن بوركيوباين الملكى قد نسى عرضه الجنسى لى بالفعل. كان يشعر بالقلق على نجاح معرضه. "آخر معرض لي، لم يكتب عنه سوى مرة واحدة. قال العجوز العفن أنه كان محاولة غير ناجحة وذلك كى يثير الاشمئزاز. لم يعد من الممكن حتى أن تصدمى البورجوازيين؛ يمكنك أن تقومى بعرض قدمين مستأصلتين ليتيم وهناك من سيطلب منك أن يوقع عليهما".

عبرنا المتحف، واستاد الجامعة، وواصلنا السير غربًا، عبر منطقة من الدكاكين الصغيرة القديمة الحقيرة التى كان يتم تحويلها إلى بوتيكات، وعبرنا مشروع تجارى لبيع الجمالون بالجملة. وفى شارع برونسويك اتجهنا نحو الشمال، ولكن بعد بضعة بيوت، وقف

بوركيوباين الملكى وصرخ. لقد وجد كلبًا ميتًا، كبير الحجم، وبدا أنه من كلاب الإسكيمو.

"ساعدينى لنضعه فى الكيس". فقد كان قد أخرج كيس قمامة بلاستيك أخضر اللون من تحت عباءته، وبسرعة كتب الموقع فى مفكرة يحملها لهذا الغرض، ثم رفع الكلب من مؤخرته وقمت أنا بإدخال الكيس حوله، ولم يكن الكيس كبيرًا بما يكفى وكانت رأس الكلب خارجة من قمته ولسانه يتدلى من فمه.

قلت: "حسنًا، تصبح على خير. من حسن الصدف أن التقيت بك".

قال: "لحظة واحدة، لا يمكننى أن أعود بهذا الشيء وحدي".

قلت: "أنا لن أحمل هذا"، كان الدم لم يجف بعد.

"إذن امسكى عصاي".

رفع الكلب وأخفاه تحت عباءته. وهربناه فى تاكسي، انتهى الأمر بأن دفعت أنا أجرته، وذهبنا إلى عرين بوركيوباين الملكي. كان فى مستودع بوسط المدينة، والذى تم تحويله إلى استوديوهات للفنانين. قال: "أنا الوحيد الذى يعيش هنا، لا أستطيع أن أفعل غير هذا. الآخرون لديهم بيوت حقيقية".

صعدنا فى المصعد الصناعى الثقيل إلى الطابق الثالث. لم يكن لدى بوركيوباين الكثير من الأثاث، لكن كان لديه ثلاجة كبيرة، أخذ الكلب إليها فى الحال، وأدخله فيها. ثم ربط الأطراف حتى تتجمد الجثة على الشكل الذى وجدناها عليه.

وبينما كان يفعل هذا، كنت أستكشف. كان معظم المكان فارغا، سريره موجود فى أحد الأركان، وعلى الأرض يوجد فراش، لا ملاءات؛ وفوقه بضعة سجاجيد بالية من جلد الغنم، وفوقها علقت ظُلّة رثة مصنوعة من قطيفة حمراء مُزيّنة بشُرّابات، وكان لديه منضدة للعب الورق ولها مقعدين؛ وعلى كل من المنضدة والمقعدين كانت أطباق وأكواب مستعملة، وعلى الجدار كانت هناك صورة فوتوغرافية مكبرة له، فى زى رسمي، يحمل فأرًا ميتًا من ذيله، وإلى جوار هذه الصورة الرسمية لوجهى الملكة والأمير فيليب، يرتديان زيهما الرسمى ونياشينهما والتاجين، فى إطار ذهبى من النوع الذى كان موجودًا فى مكتب ناظر المدرسة الثانوية. وعند الجدار المقابل يوجد ركن مطبخ، دون أى من تجهيزات السباكة. وتوجد فيه مجموعة سن الحيوانات المحشوة، بعضها لعب، مثل الدببة والنمور والأرانب، وبعضها حيوانات حقيقية، محشوة بشكل جيد ومنصوبة على قوائم، أغلبها طيور: آكل السمك، بومة، أبو زريق، ثم كان هناك بضعة سناجب من أنواع مختلفة، محشوة بشكل سيئ للغاية.

الغرز مرئية، وليس لها خرزات فى العيون، وتبدو طويلة وبدينة، كما لو كانت نوعًا من السجق، أرجلها جامدة ومستقيمة كالعصا.

قال بوركيوباين: "لقد حاولت التحنيط فى البداية، لكننى لم أكن ماهرًا فيه إطلاقًا. التجميد أفضل كثيرًا، فبهذه الطريقة لن تصاب الحيوانات بالعتة".

كان قد خلع عباءته، وعندما التفت نحوه،رأيته وهو يخلع قميصه أيضًا. لقد ترك الكلب الميت بقع حمراء ظهرت وهو يفك الأزرار ؛ وظهر صدره، وكان مغطى بشعر أسمر محمر.

وبرقت عيناه الخضراوتان كعينى حيوان الوشق، وسار نحوي، وهو يدمدم برقة وهدوء. كان ظهر ركبتاى قد أضعفتهما الشهوة، وشعرت بوخز خفيف غريب فى مرفقيّ.

قلت،" حسنا، أحسب أنه من الأفضل أن أذهب الآن." ولم يرد بشيء." تُشغّل المصعد ؟"

وبعد ذلك بدقيقة " لأجل المسيح، اغسل يديك. "

"كنت أريد دائما أن أعرف ما هو طعم مضاجعة امرأة لها معجبين،" قال بوركيوباين متأملا. كان راقدا على فراشه يراقبنى وأنا أمسح دم الكلب الميت من على بطنى بركن من قميصه كنت قد غمسته فى ماء المرحاض. لم يكن عنده حوضا للغسيل.

قلت له بشيء من الحدة، "حسنا. ما هو طعمه ؟"

قال، " إن لك مؤخرة جميلة، ولكنها لا تختلف كثيرا عن مؤخرة أي امرأة أخرى. "

قلت له،" وماذا كنت تتوقع؟ ثلاثة أرداف، تسع حلمات، أحسست أنني كالبلهاء إذ أردت أن أنظف دم الكلب من على جسدي، أحسست أني كنت أنتهك حرمة إحدى طقوسه المقدسة، كنت أشعره بالإحباط. لم أرقَ لمستوى المناسبة. وكنت أشعر بالفعل بالذنب نحو آرثر.

قال: "ليس الأمر ما هو موجود، إنه ما تفعلين به".

ولم يقل ما إذا كان ما فعلته معه يرقى إلى مقاييسه أم لا، وفي تلك اللحظة لم أكن لأهتم بشيء. لم أكن أريد إلا العودة إلى البيت.

الفصل الرابع والعشرون

كانت هذه بداية حياتي المزدوجة. ولكن، ألم تكن حياتي دائمًا مزدوجة؟ كان هناك دائمًا ذلك التوأم الوهمي الذي لازمني كظلي، نحيفة بينما أنا بدينة، بدينة عندما أكون نحيفة، أنا نفسي في صورة نيجاتيف فضّية، بأسنان قاتمة وحدقتين بيضاوين لامعتين تبرقان في ضوء الشمس الأسود لذلك العالم الآخر. بينما كنت أراقب، وأنا حبيسة في اللحم البشري الحقيقي، الغبار الباعث على الضجر ومنافض لا تفرغ أبدًا من رماد الحياة اليومية، لم تكن الأرض هي ما أرادته أبدًا، أبدًا تلك التوأم الطائشة. ولكنها ليست حتى توأم، لأنني كنت أكثر من اثنين، كنت ثلاثة، كنت متعددة، والآن يمكنني أن أرى أنه كان هناك أكثر من حياة واحدة في الطريق، كان هناك الكثير. لقد فتح بوركيوباين الملكي باب حيز زمني للبعد الخامس، وتخفى بذكاء في مصعد الشحن، وانغمست إحدى أوجه ذاتي بتهور هناك.

أما الأوجه الأخرى فلا، سألني: "متى يمكن أن أراك مرة أخرى؟"

قلت: "قريبًا جدا. ومع ذلك لا تتصل بي، سوف أتصل أنا بك، اتفقنا ؟"

قال: "إنني لا أتقدم بطلب عمل، تعرفين هذا".

"أعرف، أرجو أن تفهم". وقبّلته متمنية له نوما هادئا. كنت قد بدأت بالفعل أشعر أننى لا أستطيع رؤيته مرة أخري. سوف يكون هذا أمرا بالغ الخطورة.

عندما عدت إلى الشقة لم يكن آرثر هناك، رغم أن الساعة كانت حوالى الثانية عشرة. ألقيت نفسى على الفراش، ودسست رأسى تحت الوسادة، وبدأت أبكى. شعرت أننى دمرت حياتى مرة أخرى. سوف أتوب، سوف أقلب صفحة من حياتى وأتجه لصفحة نقية جديدة، لن أتصل ببوركيوباين الملكي. ماذا أفعل لأعوض آرثر عما حدث؟ ربما يمكننى أن أكتب أزياء قوطية، واحدة له فقط، أضع رسالته فى شكل يمكن للناس أن يفهموه. كنت أعرف أن لا أحد يقرأ "ريسيرجنس" سوى محرريها، وبعض أساتذة الجامعة، وكل الجماعات الراديكالية المنافسة التى تحرر مجلاتها الخاصة وتخصص ثلث مساحة كل عدد من أعداد مجلاتها فى مهاجمة بعضها البعض. لكن كتبى أنا يقرؤها على الأقل مائة ألف من الناس، وبينهم الأمهات فى هذه الأمة. " رعب فى كاسا لوما" ، هكذا سأضع عنوانها، سوف أدخل فى شرور المنتمين إلى الاتجاه المحافظ، واستشهاد لويس ريل(١)، وفظائع الاستعمار الإنجليزى والأمريكى على السواء، ونضال العمال، *وإضراب "وينيبج" العام....*

---

(١) لويس ريل (١٨٤٤–١٨٨٥)، سياسى كندى، مؤسس مقاطعة مانيتوبا، وقائد لحركتين من حركات المقاومة. =

ولكن هذا لن يفيد مطلقا. فلكى يقدرنى آرثر سأضطر لكشف هوية لويزا ك.، وأنا أعرف أننى لا أستطيع ذلك. مهما كان قدر ما أفعل، فمن المؤكد أن آرثر سوف يحتقرني. لا يمكن أن أكون ما يريد، لا يمكن أن أكون مارلين.

كانت الساعة الثانية صباحًا عندما عاد آرثر.

سألته وأنا أتنشق: "أين كنت؟"

قال آرثر: "عند مارلين"، ووقع قلبي، لقد ذهب بحثًا عن السلوى، و....

سألته بصوت واهن: "هل السيد دون هناك؟"

واتضح أن مارلين أخبرت دون عن علاقتها بسام، وضربها دون فى عينها. ودعت مارلين جميع العاملين فى "ريسيرجنس"، ومن ضمنهم سام. وقد جاءوا إلى بيت مارلين، ودارت مناقشة حامية عما إذا كان ما فعله دون مبررًا. والذين رأوا أنه مبرر قالوا أن العمال غالبًا ما يضربون زوجاتهم فى العين، فهى طريقة سهلة ومباشرة للتعبير عن مشاعرك. أما من عارضوا ذلك فقالوا أنها تنقص من قدر المرأة. وكانت مارلين قد أعلنت أنها سوف تنتقل من الإقامة مع دون، وقال سام أنها لا يمكن أن تأتى لتعيش معه، وبدأ جدل آخر.

= تعرض للنفى ثم الاعتقال والإعدام. وهو يحظى باحترام وتعظيم كبيرين بين الكنديين من متحدثى اللغة الفرنسية.

قال البعض أنه نذل لأنه لا يدع مارلين تنتقل للعيش معه، وشعر الآخرون أنه لو لم يكن يريدها بالفعل فمن حقه أن يقول ذلك. وفى وسط كل هذا، عاد دون، والذى كان بالخارج يسكر فى حانة جروسمان، عاد وطلب منهم جميعًا أن يذهبوا إلى الجحيم خارج بيته.

بينى وبين نفسى شعرت بالسرور لهذا الصخب. بعد ذلك، لا يمكن لآرثر أن يعتبر مارلين المثال الذى كان يراه من قبل، كما بردت جوانحى بعض الشيء.

قلت، باهتمام زائف: "وماذا عن مارلين؟ هل كانت بخير؟"

قال آرثر بتثاقل: "إنها بالخارج، جالسة على السلم. لقد فكرت أنه ينبغى أن أتشاور معك أولاً، فلا يمكن أن أتركها هناك معه فى هذه الحالة".

لم يقل أى شيء عن لقاء التليفزيون، وشكرت الله لهذا. ربما لم يشاهده، فمن الممكن أن يشعر بأنه إهانة بشعة له. وتمنيت ألا يخبره أحد عنه.

نامت مارلين على الكنبة تلك الليلة، والليلة التالية، وما تلاها. وبدا أنها انتقلت للعيش معنا. ولم أستطع أن أفعل شيئًا بهذا الخصوص، لأنها... ألم تكن هى فى أزمة، ألم تكن لاجئة سياسية؟ كانت هذه وجهة نظرها فى الأمر، وكذلك آرثر.

أثناء النهار كانت تتفاوض على التليفون مع دون، والغريب... مع سام أيضًا. وبين تلك المكالمات كانت تجلس إلى مائدة مطبخي، تدخن وتشرب قهوتي، وتسألني ماذا تفعل، لم تعد نظيفة ومرتبة؛ كانت عيناها محاطتان بهالات داكنة، وشعرها متشعث، وأظافرها بالية من كثرة قضمها. هل تستمر في مقابلة سام؟ هل تعود إلى دون؟ دون أخذ الأطفال، مؤقتًا، وبمجرد أن تحصل على مكان لنفسها سوف تأخذهم منه حتى لو اضطرت للذهاب إلى المحكمة لتأخذهم.

وتهيبت من أن أسألها متى سوف تحصل على مكان لنفسها. قلت: "لا أعرف، من منهما تحبين؟" فكرت أنني بدوت بهذه الكلمات كما لو كنت مديرة البيت الودودة في "أزيائي القوطية"، لكن، ماذا كان يُفترض أقول غير ذلك ؟

قالت مارلين متنهدة: "الحب؟ ليس الحب هو الموضوع. الموضوع هو من منهما قادر على إقامة علاقة مساواة، الموضوع هو، من منهما أقل استغلالاً".

قلت: "حسنًا، إذا أردت رأيي فهو سام". فقد كان سام صديقي، أما دون فلا، ومن ثم فكنت أعطي صوتي لصديقي. لكن من ناحية أخرى، لم أكن أحب مارلين كثيرًا، ومن ثم فلماذا أريدها أن تكون لصديقي؟ لذا فقد أضفت: "لكن أنا متأكدة أن دون ممتاز جدًّا أيضًا".

قالت مارلين: "سام خنزير". عندما ظهرت حركة تحرير المرأة، تجاهلتها مارلين لأنها حركة بورجوازية؛ أما الآن فقد انضمت إليها. قالت لي: "المسألة بحاجة إلى تجربة شخصية لكى تفتح عينيك حقًا". ظلت توحى بأننى لم أعانِ بما يكفي، وهذه أيضًا كانت إحدى نقائصي. كنت أعرف أن ذلك لا ينبغى أن يجعلنى أتخذ موقفًا دفاعيًا، ولكن هذا ما فعلته.

عندما كانت مارلين تخرج لزيارة سام، كان دون يأتى أحيانًا ليتشاور معي. قلت: "حسنًا، ربما الأفضل لك أن تنتقل إلى مدينة أخرى. هذا ما كنت أفعله لو كنت فى وضعه.

قال دون: "سيكون ذلك نوعًا من الهروب، إنها زوجتي. وأنا أريدها أن ترجع".

ثم، فى المساء، عندما تذهب مارلين لرؤية أولادها، كان سام يأتى وأقدم له مشروبًا. وأحيانًا يقول: "يا إلهي، أكاد أجن. إننى أحبها، ولكنى فقط لا أريد أن أعيش معها طول الوقت. أقول لها أنه يمكننا أن نقضى وقتًا "مهمًا" معًا، وقتًا متميزًا، أفضل كثيرًا لو عشنا فى بيتين منفصلين. ولا أفهم لماذا لا يمكن لكل منا أن تكون له علاقات أخرى، طالما أن علاقتنا هى العلاقة الرئيسية، لكنها لا تستطيع أن تعى ذلك. أنا لست من النوع الغيور".

ومع كل من يأتى ومن يذهب، كنت أشعر أننى أعيش فى محطة قطار. كان آرثر نادرًا ما يكون موجودًا، حيث أن مارلين ودون استقالا من "ريسيرجنس"، وكان هو نفسه يحاول أن يحافظ على استمرارها. كانت مارلين فى حالة اضطراب شديد بحيث لا يمكن أن تساعد فى شيء من الطهى أو التنظيف، ولم يكن يمكن أن تساعد فى أى شيء من باقى جوانب حياتى أيضًا. وبازدياد، وأخذت أحلم فى يقظتى بشكل متزايد ببوركيوباين الملكي. لم أتصل به بعد، لكن كنت أعلم أننى قد أستسلم فى أى لحظة الآن. بحثت فى الصحف عن أى كتابات حول معرضه، ووجدت واحدًا فى ملحق السبت الترفيهي. كان يقول: "إنه تعليق قوى ونافذ حول العصر الذى نعيش فيه".

سألت مارلين: "ما رأيك فى الذهاب إلى معرض فني؟" كان العرض لا يزال قائمًا، ولن يضر إذا سرت فقط إليه.

قالت: "تلك القمامة البورجوازية، المغرور؟ لا شكرًا".

سألتها: "أوه، هل رأيته؟"

"لا، لكنى قرأت المقال الصحفي. يمكن الحكم على أساسه".

وفى نفس ذلك الوقت، كان هناك عملى الأدبي. فى اليوم التالى للمقابلة التليفزيونية، بدأت المكالمات التليفونية، كانت معظمها من أناس يصدقوننى ويريدون أن يعرفوا كيف يتصلون بذلك الجانب

الآخر، رغم أن بعض المكالمات كانت من أشخاص كارهين يعتقدون أننى كنت أسخر من المذيع الذى أجرى المقابلة، أو من الروحانيات، أو من كليهما. اعتقد البعض أننى أستطيع أن أعرف المستقبل وأرادوا منى التنبؤ بمستقبلهم، ولم يسألنى أحد عن أكسير الحب أو مزيل البثرة، لكنى شعرت أن الأمر قد يصل إلى ذلك.

ثم كانت الرسائل، والتى كان مورتون وسترجس يحولونها إلى، وكان معظمها من أشخاص يريدون المساعدة لنشر أعمالهم. فى البداية حاولت الرد عليهم، لكن سرعان ما اكتشفت أن هؤلاء الناس لا يريدون تدمير خيالاتهم. وعندما شرحت أننى ليس لى علاقات هائلة فى عالم النشر، كانوا يغضبون إذا قلت أننى ليس لى نفوذ. وغمرنى إحساس بالذنب لأننى لم أستطع أن أكون على قدر توقعاتهم، ومن ثم بعد قليل بدأت ألقى بالرسائل دون رد، وبعد ذلك حتى دون أن أقرأها، ثم بدأ الناس يصلون إلى الشقة، ويطلبون معرفة لماذا لا أرد على رسائلهم.

وكانت هناك مقالات جديدة تظهر كل أسبوع، بعناوين من نوع: "خداع *العرافة*"، و"*العرافة*: خديعة أم وهم؟" وبسبب ذلك اللقاء التليفزيونى الفاجع، الذى جعل الصحف ــ كاتبة تدعى إلهامًا روحيًا ــ وصف المقابلات الأخرى التى خططها سترجس لم يتركوا الموضوع فى حاله. ولم يكن من المفيد لى أن أقول أننى لا أريد أن أتكلم فى ذلك؛ فكل ما فعلته هو إشعال حب الاستطلاع لديهم.

وقد يقولون: "سمعت أن *العرافة* كتبت بيد أرواح من عالم آخر، شيء أشبه بكتاب المورمون[1]".

وأقول: "ليس تمامًا". ثم أحاول تغيير الموضوع، بأمل أن أرثر لا يشاهد التليفزيون. أحيانًا يكونون مهتمين بجدية، وهذا أسوأ. "إذن تعتقدين أن هناك حياة بعد الموت؟"

"لا أعرف، أعتقد أنه ليس ثمة من يعرف هذا في الواقع، أليس كذلك؟"

بعد تلك اللقاءات كنت أتصل بسترجس، باكية، وأرجو منه أن يعفيني من اللقاء التالي. أحيانًا كان يعزز ثقتي المتراخية بنفسي: أنا عظيمة، ما أفعله جيد وحسن، المبيعات رائعة. وأحيانًا يتظاهر بأنه متضايق، ويقول أننا تفاهمنا عندما وقعنا العقد بأنني سأقوم بعدد معين من اللقاءات التليفزيونية، هل نسيت؟

شعرت بأنني مرئية جدا. ولكن كان الأمر كما لو أن شخصية لها اسمي تخرج هناك في العالم الحقيقي، تمثلني، تقول أشياء لم أقلها أبدًا ولكنها تظهر في الصحف، وتفعل أشياء عليّ أنا تحمل نتائجها:

---

(١) كتاب المورمون: Book of Mormon: نص يعتبر مقدسًا لدى أتباع "كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة"، يعتمد الكتاب على الرؤية الملائكية التي نزلت على نبي مؤرخ هو مورمون، والكتاب يدعي أن قسمًا من اليهود هاجروا من القدس إلى الأمريكتين في القرن الرابع الميلادي، حيث انحدر منهم الهنود الحمر.

توأمتي القائمة، انعكاس مرآة بيت الملاهي الخاص بي. كانت أطول مني، وأجمل مني، وأكثر خطورة وتهديدًا. كانت تريد قتلي واحتلال مكاني، وعندما تفعل هذا لن يلاحظ أحد الفرق لأن وسائل الإعلام مشتركة في المؤامرة، فقد كانوا يساعدونها.

ولم يكن هذا كل شيء. فقد أصبحت الآن شخصية عامة، وأرعبتني فكرة أنه إن آجلاً أو عاجلاً سوف يكتشف شخص ما حقيقتي، ويتتبع نفسي السابقة، ويخرجني من تحت التراب. عادت أحلامي القديمة عن السيدة البدينة، إلا أنها هذه المرة كانت تسير عبر فستانها الضيق، في تنورة راقصة الباليه الوردية، وسوف تقع، بحركة بطيئة، تنقلب مرة ومرة على الطريق... أو سوف تكون ترقص على خشبة المسرح في زيها الحريمي وشبشبها الأحمر، لكنها لن تكون رقصة على الإطلاق، ستكون نوعًا من التعري، سوف تبدأ في خلع ملابسها، وأنا أراقب، غير قادرة على إيقافها. ولكن لن يطلق أحد صفارة، ولن يصيح أحد "اخلعيه يا جميلة". حاولت أن أغلق تلك الخيالات الخارجة عن إرادتي، لكني لم أستطع، كان لابد أن أتفرج عليها حتى النهاية.

ذات مساء بعد ذهاب سام، جلست إلى مائدة المطبخ، أشرب ويسكي. كانت مارلين بالخارج تقابل محاميًا؛ وتركت أطباق إفطارها على المنضدة، كومة من قشر البرتقال، وطبق مملوء إلى منتصفه من مقرمشات الأرز المغمورة في الماء. لقد تقهقرت عادات الأكل

الصحية لديها إلى القاع. وكذلك أنا. اكتشفت أننى منهارة عصبيًا، وأننى كذلك منذ بعض الوقت. كان بيتى أشبه بأرض المعسكر تتناثر عليها قمامة الآخرين، قمامتهم المادية والعاطفية؛ لم يكن آرثر موجودًا أبدًا، وهو أمر لم أكن ألومه عليه؛ فلم أكن مخلصة له لكنى لم أكن أملك الشجاعة لأن أخبره، ولا لأن أفعلها ثانية، كما كنت أتمنى. لم تكن قوة الإرادة هى التى تبعدنى عن بوركيوباين الملكي، ولكن الجبن. كنت غير كفء، كنت مهملة، جوفاء، خديعة، وهم. كانت الدموع تجرى على وجهي، حتى بللت المنضدة المليئة بالفتات.

قلت لنفسي، "تمالكى نفسك. لابد أن تخرجي" عادت مارلين من عند محاميها، أسنانها مطبقة، عيناها تومضان؛ عادة كانت زياراتها إلى محاميها لها هذا التأثير عليها. جلست وأشعلت سيجارة. قالت: "لقد أصبح هذا الوغد تحت يدى".

لم أكن واثقة أيهما تقصد، لكنى لم أكن مهتمة. قلت: "مارلين، عندى فكرة رائعة. هذا المكان صغير جدًّا على ثلاثتنا حقيقة".

قالت: "عندك حق، إنه مزدحم إلى حد ما. سوف أنتقل من هنا بمجرد أن أجد مكانًا لنفسي".

قلت: "لا، نحن سوف ننتقل من هنا. لقد اتفقنا تقريبًا. سوف اذهب أنا وآرثر طوال الصيف ويمكنك البقاء هنا. هذا سيساعدك على ترتيب الأشياء".

لم يكن آرثر متحمسًا عندما قلت له. فى البداية قال أننا لا نستطيع أن نتحمل التكلفة، لكننى قلت له أن عمتى ماتت وتركت لى بعض النقود.

قال آرثر: "كنت أظن أن عمتك ماتت منذ وقت طويل".

قلت: "تلك كانت عمتى "لو"، هذه عمتى ديردر، ولم تكن علاقتنا جيدة جدًّا، لكنى أظن أنها لم يكن لها غيرى ليرثها". والحقيقة هو أننى كنت قد بعت *الحب فديتي*، بثمن معقول. كانت حياتى فوضى هائلة، لكن لويزا ك. كانت على ما يرام.

تساءل آرثر: "وماذا عن المجلة؟ لا يمكننى أن ألقى بها".

قلت له: "إنك بحاجة إلى راحة، مارلين سوف تتولاها مرة أخرى، إنها بحاجة إلى شيء يشغلها بعيدًا عما هى فيه".

قلت لسترجس أن أمى فى النزع الأخير بسبب السرطان، وأننى لابد أن أذهب إلى ساسكاتشوان لأعتنى بها.

قال وهو محزون: "وماذا عن كل تلك اللقاءات التليفزيونية، وعن الرحلة حول كندا؟"

قلت: "أجّلها، سأقوم بها بعد عودتي".

"هل يمكن على الأقل أن تقومى باللقاء فى ريجينا؟"

قلت: "أمى تموت، هل تذكر؟" واضطر أن يرضخ.

كان سام هو الذى اقترح إيطاليا، وأعطانا عنوان السيد فيترونى، كان قد أخذه من أحد الأصدقاء. كان آرثر يريد الذهاب إلى كوبا، لكننا لم نستطع الحصول على الفيزا فى الوقت المناسب.

أخذنا طائرة إلى روما، واستأجرنا سيارة فيات حمراء، وذهبنا بها إلى تِرِّيمونتو. كنت أقوم بالتوجيه، باستخدام تعليمات صديق سام وخريطة. وحدث أن عصا ناقل التروس خرجت عدة مرات، لكن آرثر دائمًا ما كان يلقى مشاكل مع السيارات. انتقلنا إلى الشقة، وهناك كنا، بعيدًا عن كل الآخرين، مستعدين لإعادة ترتيب حياتنا.

أظن أننى كنت آمل فى نوع من المصالحة، أو على الأقل فى عودة إلى ما كان عليه الحال قبل *العرافة*، وقد حدث هذا بشكل ما. اختفت خيالات السيدة البدينة التى تعذبني. وبعيدًا عن جماعة "ريسيرجنس"، كان آرثر ألطف، وأكثر استغراقًا فى التأمل. كنت أصنع القهوة فى الصباح وأناولها له من نافذة المطبخ، ثم نجلس بين قطع الزجاج المكسور فى الشرفة، نشرب القهوة ونتدرب على ما نعرفه من اللغة الإيطالية، أو نحدق فقط عبر الوادي. ذهبنا للسير على التلال التى تعلو المدينة، وأعجبنا المنظر. كان آرثر يريد أن يقوم ببعض العمل الحقلي، كما كان يسميه، فيما يختص بنظام ملكية الأرض، لكن لغته الإيطالية لم تكن تساعده، فتخلى عن المشروع. ومن وقت لآخر كان يجلس على كتابة مقال لمجلة "ريسيرجنس"،

حول صعوبة عمل أفلام سينمائية فى كندا، لكنه بدا فاقدًا لحماسه. ومارسنا الحب كثيرًا، وزرنا الأطلال.

فى أحد الأيام ذهبنا إلى تيفولي. اشترينا بعض قراطيس الآيس كريم، ثم ذهبنا لرؤية حدائق الكاردينال، ذات التماثيل الباكية الشهيرة. ونزلنا على صف سلالم طويل محاط بتماثيل لأبى الهول، والمياه تنبثق من أفواهها، وتجولنا من غار إلى غار. وفى النهاية وصلنا إلى ديانا التى عاشت فى مدينة إفسوس غرب تركيا حاليا، هكذا جاء فى الكتاب الدليل، وكان يرتفع وسط بركة مياه. كان لها وجه يتّسم بالوقار والصفاء، جاثم أعلى جسد منحوت على شكل كومة من العنب. كانت مكسوة بأثداء (جمع كلمة: ثدى) من عنقها إلى كاحلها، كما لو كانت مصابة بحالة من حالات داء "العُليق": أثداء صغيرة أعلاها وأسفلها، وأثداء كبيرة حول منتصف الجسد. وكانت الحلمات مزودة بأنابيب يندفع منها الماء، لكن العديد منها كان لا يعمل.

وقفت ألعق مخروط الآيس كريم، أشاهد تمثال الإلهة ببرود. ذات يوم كان يمكن أن أراها صورة من ذاتي، لكن ليس أكثر من ذلك على الإطلاق. قدرتى على العطاء كانت محدودة، ولم أكن ممن لا يُستنفدون أو تُنهك قواهم. لم أكن ذات وقار وصفاء، لم أكن كذلك فى الواقع. كنت أريد أشياء، لنفسي.

الفصل الخامس والعشرون

بمجرد عودتنا من إيطاليا تقريبًا، اتصلت ببوركيوباين الملكي. لم يظهر دهشة، قال: "ما الذى أخرك كل هذا؟"

قلت بنوع من الالتباس: "كنت بعيدة، حاولت أن أتصل بك قبل أن أرحل لكنك لم تكن موجودًا".

التقينا فى كشك لبيع السجق فى الدور الأرضى من بناية سيمبسون. وشرح بوركيوباين الملكى أنه أكثر فقرًا من المعتاد وأن هذا هو أرخص مكان فى المدينة يمكن تناول طعام منتصف اليوم فيه، حيث يمكن الحصول على قطعتين من السجق ومشروب برتقال بدولار واحد. ووجدت رداءه الخارجى يبدو أكثر تنافرًا فى هذا المكان، وانخفضت إلى حد ما الخيالات الجنسية التى كانت تراودنى عنه. ومع ذلك، كان هناك فيه ثمة شيء "بيروني". تذكرت أن بيرون كان يحتفظ بدب كحيوان أليف فى بيته، وكان يستخدم جمجمة لشرب النبيذ.

واقترض منى ثمن تذكرة مترو الأنفاق، وذهبنا إلى بيته. قلت ونحن فى مصعد الشحن: "لابد أن أشرح شيئًا فى البداية، لابد أن نخفف ونقلل من هذا". قلت له أن آرثر هام جدًا بالنسبة لي، وأننى لم أكن أريد أن أفعل شيئًا قد يجرحه.

قال بوركيوباين الملكى أن الأمر يوافقه، وأنه كلما كانت الأمور قليلة وخفيفة كلما كان ذلك أفضل.

فى البداية كانت الأمور خفيفة جدًّا. وأخيرًا كان هناك من ينطلق ويرقص الفالس معي، ورقصنا فى قاعة الرقص فى مستودعه، هو يرتدى قبعته ولا شيء آخر، وأنا ملتفة بشريط الزينة لمفرش منضدة،على موسيقى مانتوفانى الوترية التى اشترينا اسطوانة لها من محل يدعى "المدنيون المقعدون". واشترينا جهازًا لتشغيلها من نفس المكان بعشرة دولارات. وعندما كنا نتوقف عن رقص الفال أو الجماع كنا أحيانًا نطوف بمحلات بيع الأشياء القديمة، نبحث فيها عن أزياء قديمة، القفازات ذات الأزرار الثمانية، الساتان (نسيج حريري) الأسود ماركة الأرملة الطروب، وأزياء نسائية رسمية تعود إلى الخمسينيات. كان يريد شراء غمد سيف، لكن لم نعثر على ذلك أبدًا. ولكننا وجدنا محلاً فى الحى الصينى يبيع حذاء برقبة تغلق بأزرار، يعود صنعه لعام ١٩٠٥. ولم يجد من يشتريه لأن فردتيه كانتا من نوع واحد (للقدم اليمنى أو اليسرى)، وكان لابد أن أجلس على الإفريز وأترك بوركيوباين الملكى يحاول حشر قدمى فى كل فردة منهما، وواحدة لونها أبيض سكري، والثانية رمادى لؤلؤي. شعرت كأننى أخت سندريللا القبيحة. والزوج الوحيد الذى استطعت الحصول عليه كان ذا رقبة سوداء، ومقدمته من حديد، يشبه حذاء الغسالة،

ولكن حتى هذا كان مرغوبًا. اشتريته، وفيما بعد اشتريت زوجًا من الجوارب الشبكية لتناسبه.

واكتشفت بسرعة أن اهتمامى الخاص بتفاهات القرن التاسع عشر كان لا يقارن بما لدى بوركيوباين الملكى من هاجس فيما يختص بالنفايات الثقافية. بينما كنت أحب الفضيات القديمة وعلب النشوق، كان يهوى زجاجات الكوكاكولا الخضراء، وكتب كابتن مارفل الفكاهية القديمة، وأفلام ميكى ماوس، و"الكتب القليلة الكبيرة"، والعرائس الورقية لنجوم السينما منذ العشرينيات. ولم يكن معه نقود كافية، ومن ثم لم يستطع شراء كل ما يريد، لكنه كان كتالوجًا متحركا لكل شيء سريع الزوال، كل ما لا أهمية له وكل ما ينبغى التخلص منه. كل شيء، بالنسبة له، كان طرازًا، لا شيء يعبر عن محتوى. وإلى جانبه شعرت أننى عميقة إلى حد ما.

ولسوء الحظ كان الحذاء ذى الرقبة والكعب الأسود يسبب آلامًا مبرحة لقدمى إذا ارتديته لما يزيد عن نصف ساعة، لكنه كان يكفى لرقصتين فالس جيدتين. وعندما نتعب كنا نذهب إلى محل كنتاكى للدجاج المشوى على الناصية، ونطلب سلة دجاج وعلبتين كوكا كولا، ونأكل هذا فى المستودع. كان بوركيوباين الملكى يريد أن يحفظ عظام الدجاج، ويغليها، ويلصقها بالصمغ والأسلاك ويصنع منها تمثال يمكن أن يطلق عليه "مشويات كنتاكى لجوان فوستر"، وأراد أن يعرض ذلك فى معرضه التالى. قال إنها كانت فكرة رائعة.

الحذاء الأسود يمكن تسميته "رقصات فوستر مقاس ٣٠ "، وأن يغطي اسطوانة مانتوفإني بكتلة من شعر رأسي، ويسميها "موسيقى فوستر ذات الشعر". وإذا استطاع أن يأخذ سروال تحتى من طقم نهاية الأسبوع لملابسي الداخلية يمكنه حينئذ...

قلت: "هذا خيال مبدع، لكنى لا أظن أنها فكرة جيدة".

قال، وبدا أنه شعر بالإساءة: "لم لا؟"

"سوف يكتشف آرثر".

قال: "آرثر، دائمًا آرثر".

كان قد بدأ يكره آرثر. وقد أصاب هدفًا عندما روى لي عن المرأتين الأخريين اللتين يعرفهما. كانتا كلتاهما متزوجتين، واحدة من طبيب نفسي، والأخرى من أستاذ كيمياء. وقال كلتاهما كانتا تتميزان بالغباء الشديد وليستا جذابتين. وزوجة أستاذ الكيمياء اعتادت أن تترك بعض المخبوزات له بجوار مصعد الشحن، دون أن تخبره، كنا نرقد على الحشية المتهرئة، ونأكل فطيرة القرع الندية والخبز المسطح عالي البروتين (كانت مهووسة بالطعام الصحي) بينما يتحدث بوركيوباين الملكي عن نقائصها. وبدأت أتساءل ما إذا كان يفعل نفس الشيء مع كل منهما، بخصوصي. كان هذا يعنيني، لكني لم أستطع أن أتحمل.

سألته: "لماذا تستمر في لقائهما إن كانتا مملتان لهذه الدرجة؟"

قال بضيق: "لابد أن أفعل شيئًا عندما لا تكونين هنا". ها هو قد قرر أنني المسئولة عن وجودهما في حياته.

ومن حين لآخر كان ينتابني شعور بالذنب نحو آرثر فأطهو وجبات جيدة من أجله، والتي كانت تفشل فشلاً ذريعًا مخزيا يفوق فشلي في تلك الوجبات التي كنت أطهوها في العادة. ولعبت في رأسي فكرة أن أخبره، أجرب معه بعض الانفتاح والصدق كما فعلت مع مارلين؛ ولكنني كنت أعود فأفكر أن ذلك لم يصنع لها أي معجزات، وأنا كنت متأكدة أنها لن تفعل الكثير لي أيضًا. كنت أخشى أن يضحك آرثر، ويحتقرني كخائنة للقضية، أو يطردني. لم أكن أريد هذا: فلا أزال أحبه، كنت متأكدة من هذا. قلت لآرثر في إحدى الليالي وهو يشق طريقه إلى قطعة من لحم الخنزير التي وضعتها تحت الغلاية ثم نسيت كل شيء عنها: "ربما يجب أن يكون لنا زواجًا منفتحًا". لكنه حتى لم يجب، وربما كان السبب أن فمه كان مليئًا، وكان هذا أبعد ما وصلت إليه.

عندما عدنا من إيطاليا، كانت مارلين قد غادرت الشقة، لقد عادت إلى دون. قالا أنهما "قد حلا المشكلة"، لكنها كانت لا تزال على علاقة بسام. ولم يكن يفترض أن يعرف أحد، لكن سام بالطبع أخبرني في الحال.

قلت: "وما شعورك نحو ذلك؟"

قال: "لقد عدنا من حيث بدأنا، ولكن بلا فائدة جنيناها".

كان هذا هو ما بدا عليه وضعنا أنا وآرثر أيضا. وفكرت أن المشكلة معى أننى مررت بتجارب لا جدال فى ذلك، لكنى لا يبدو أننى تعلمت شيئًا من التجربة.

عاد آرثر إلى عمله فى التدريس، وعادت جماعة "ريسيرجنس" لسابق عهدها مرة أخرى، وهو الأمر الذى كان يجب أن يسعده. لكنه لم يكن سعيدًا، كما رأيت. ذات مرة بذلت مجهودًا كبيرًا لإبهاجه، لكننى كنت قد بدأت أكره تلك الهالة الرمادية التى انبعثت منه دائمًا، كما لو كانت هالة معكوسة. فى بعض الأيام كنت أشعر أن تلك التعاسة بسببى، لأننى كنت أهمله. لكن فى معظم الأحوال كنت أغالب هذا الشعور. ربما كان موهوبا فى خلق التعاسة فقط، كما أن هناك آخرين موهوبين فى كسب المال، أو ربما كان يحاول تدمير نفسه ليثبت لى أننى كنت مدمرة، كان قد بدأ يتهمنى بأننى لا أهتم بعمله بالقدر الكافي.

كان بوركيوباين الملكى ملاذًا جيدًا للهروب من هذا الجو المنزلى الكئيب. لم تكن له أية مطالب؛ ومعه كان كل شيء سهلاً. بدأت أفقد الحذر، وبدأت أطلبه من الشقة عندما يكون آرثر بالخارج، ثم عندما يكون آرثر فى الغرفة الأخرى. وكان عملى قد تأثر أيضًا: فقد فقدت الاهتمام بالأزياء القوطية تمامًا. فلأى شيء أحتاجها الآن؟

وعندما ذهبت أخيرًا فى جولتى عبر كندا التى أعدها لى سترجس، جاء بوركيوباين الملكى معي، وقضينا وقتًا ممتعًا نتسلل خلاله إلى غرف الموتيلات. أحيانا كنا نرتدى زى سائحين عجوزين، اشتريناهما من متجر "المدنيين المقعدين"، وندخل إلى الفندق لنأخذ غرفة تحت أسماء منتحلة. وفى تورنتو بدأت الذهاب إلى الحفلات، ليس معه بالضبط، ولكن قبله أو بعده بخمس دقائق. وقد نجعل أناسًا آخرين يقدمون كلا منا إلى الآخر. كانت هذه ألعابًا صبيانية، لكنها كانت تشعرنا بالراحة والانطلاق.

فى إحدى هذه الحفلات التقيت بفريزر بوتشانان. جاء ناحيتي، وهو يحمل زجاجة بيده، ووقف يبتسم ابتسامة متكلفة بينما كنت أسأل بوركيوباين الملكى ماذا يعمل من أجل الكسب.

أجابني: "أنا حانوتي". ووجدنا ذلك مضحكًا.

قال فريزر بوتشانان وهو يمد يده: "مسز فوستر، اسمحى لي، اسمى فريزر بوتشانان. ربما سمعت عنى". كان رجلاً قصيرًا، يرتدى ملابس أنيقة، سترة من النسيج الصوفى الخشن وسويتر بياقة تشبه السلحفاة، وشعر لحية قصير على خدّيه من الواضح أنه يعتبر تربيته له نوع من الجرأة، إذ أنه كان يلف رأسه كثيرًا ليعطيك فرصة لمشاهدة صورته الجانبية.

قلت: "يؤسفنى أننى لم أسمع عنك". وابتسمت له، كنت أشعر بأننى على ما يرام. "هذا بوركيوباين الملكي، الشاعر الإبد–ادى".

قال فريزر بوتشانان: "أعرف"، وهو ينظر إلى بنظرة ودودة وغريبة. "أنا أعرف... أعماله. لكن حقيقة، يا مسز فوستر، أنا مهتم بك أكثر". واقترب منى بخطوة جانبية، حاشرًا نفسه بينى وبين بوركيوباين الملكي. انحنيت إلى الخلف قليلاً. قال فيما يشبه الهمس: "اخبريني، كيف لم أرَ أيًّا من أعمالك منشورًا قبل *العرافة*؟ معظم الشعراء، أو ينبغى أن أقول الشاعرات، يمرون بفترة... آه، بفترة يكتسبون فيها الخبرة كمبتدئين، فى مجلات صغيرة وما إلى ذلك. وأنا أتابع ذلك جيدًا، لكنى لم أرَ أى شيء لك".

سألت: "هل أنت صحفي؟"

قال: "لا، لا. أنا نفسى أكتب بعض الشعر". كانت لهجته توحى بأنه قد كبر الآن على ذلك. "يمكن أن تقولى أننى مراقب مهتم، محب...." وأضاف مع ابتسامة متكلفة، "للفنون".

قلت: "حسنًا، أظن أننى لم أفكر أبدًا أن أيًّا من مؤلفاتى كانت جيدة بما يكفى للنشر، لم أرسل أيًّا منها لدار نشر". وضحكت ضحكة كنت آمل أن تنم عن التواضع، ونظرت من فوق كتفه إلى بوركيوباين الملكى، أملاً فى النجدة. كان فخذ فريزر بوتشانان يستند طوال الوقت قليلاً على فخذى.

قال: "ثم قفزت فجأة فى كامل التشكيل، مثلما قفزت أثينا من رأس زيوس، أو ربما من رأس جون مورتون. من المؤكد أن هذا الرجل يمتلك حاسة شم جيدة للمواهب الشابة".

لم أستطع أن أحدد كُنه ما كان يلمح له، لكن كان هناك إيعاز غير سار فى ثناياه. ضحكت مرة أخرى وقلت له أننى ذاهبة لآتى بمشروب آخر. وطاف بذهنى أننى رأيته من قبل، فى صف أمامى للمتفرجين فى أحد مقابلات التليفزيون، يكتب ملاحظات فى دفتر صغير، فى عدد من لقاءات الحوارات، فى عدد من العروض خارج المدينة، فى استقبال أحد الفنادق.

سألت بوركيوباين الملكى فيما بعد، ونحن نستريح متعبين على وسادته: "من ذلك الرجل القصير الغريب؟ ماذا يفعل؟"

قال: "إنه يعرف كل الناس، كان يعمل فى قناة سى بى سى، أظن أن الجميع بدأوا كذلك. ثم أسس مجلة أدبية اسمها "الرفض"؛ وكانت فكرتها نشر الأعمال التى رفضتها المجلات الأدبية الأخرى فقط، وكلما كثر عدد مرات رفض المجلات الأدبية لها، كلما ازدادت بهجة العاملين فى مجلته، إضافة إلى قصاصات الرفض. كان بسبيله لإعطاء جائزة لأفضل رفض، قال أن هذا فن فى حد ذاته، لكن المجلة فشلت لأن أحدًا لم يرد أن يعترف بأن أعماله رُفضت، وقد نشر هو نفسه الكثير من أعماله فى العدد الأول، وأظن أنه إنجليزي.

وهو يذهب إلى كل الحفلات، ويذهب إلى كل حفلة يستطيع دخولها. واعتاد أن يتجول قائلاً "هالو، أنا فريزر بوتشانان، شاعر مونتريال، أظن أنه عاش بعض الوقت فى مونتريال".

"لكن كيف عرفته؟"

"قال بوركيوباين الملكي: "لقد أعطيت بعض أعمالى لمجلة "الرفض"، كان هذا عندما كنت لا أزال أكتب الشعر بالكلمات. ورفضها، فهو يكره أعمالي، ويعتقد أنها خارجة أكثر من اللازم".

قلت: "أظن أنه كان يتبعنى فى أماكن متعددة". ما فكرت فيه كان أسوأ من ذلك، فقد كان يتتبعنا نحن الاثنين.

قال بوركيوباين الملكي: "إنه شخص عجيب، لديه ذلك الهوس بالمشهورين، ويقول أنه يكتب تاريخًا لعصرنا".

فى ذلك المساء أخذت تاكسى مبكرًا إلى المنزل، كنت أعانى من شك فى نفسى مرة أخرى، وكانت الصعوبة تكمن فى أننى وجدت أن كل شخصية من شخصياتى طبيعية تمامًا وملائمة، لكن فقط فى وقتها. عندما أكون مع آرثر كان بوركيوباين الملكى يبدو لى كحلم يقظة من أحد خيالاتى التى يصعب تصديقها، مع نوع من الواقع العبثى كنت أحاول أن أخرجه من قصصى. لكن عندما كنت مع بوركيوباين الملكي، كان يبدو مجسمًا وجديرًا بالتصديق، كل شيء يفعله ويقوله له معنى بطريقته، بينما كان آرثر يتحول إلى شيء غير

حقيقي؛ كان يخبو إلى مجرد شبح غير مادي، صورة ممسوحة تركتها على أحد الرفوف منذ زمن بعيد. هل أنا أسيئ إليه؟ هل أنا غير مخلصة؟ كيف يمكنك أن تسيء إلى صورة؟

وعندما كنت أسير إلى الشقة فى ذلك المساء، كنت لا أزال أفكر فى هذا. وكان حشد "ريسيرجنس" موجودين هناك بكامل قوتهم؛ كان هناك شيء مثير يحدث. الوحيد الذى ألقى التحية لى هو سام، كانوا مأسورين بأحد منظمى النقابة، واحد حقيقى، كان جالسًا عند الركن، وكان يدعوهم "يا أولاد". كان يقول: "إذا أردتم يا أولاد أن تتورطوا، لا مانع، لكن إذا أراد العمال أن يبصقوا على رجال البوليس، فليبصقوا على رجال البوليس، فالأمر يختص بوظائفهم. أما أنتم يا أولاد فيمكن أن تذهبوا إلى السجن، ليس لديكم وظائف ثابتة، ويمكنكم أن تضيعوا بعض الوقت، أما بالنسبة لهم فالأمر مختلف".

بدأ دون يجادل قائلاً أن هذا بالضبط هو السبب أنهم هم وليس العمال الذين يجب أن يفعلوها، لكن منظم النقابة لوح بيده مقاطعًا: "لا، لا. أعرف أن قصدكم طيب يا أولاد. لكن صدقوني، أحيانًا يكون النوع الخطأ من المساعدة أسوأ من عدم المساعدة على الإطلاق".

سألت سام: "ما الذى يجرى؟"

قال: "إنه إضراب فى مصنع للحشايا. المشكلة أن معظم العمال برتغاليون، ولا يقتنعون بخطنا السياسي، فالقومية الكندية لا معنى لها

عندهم. أتعرفين؟ ليس الأمر أننا لا نستطيع أن نوصلها لهم، لكننا لا نزال نبحث عن مترجم".

"من الذى بصق على شرطي؟"

قال سام: "آرثر". واكتشفت من نظرته التى يعتد بها بنفسه، والتى تتسم رغم ذلك بالتهذيب، أنه فعل ذلك بالفعل. ولسبب ما ضايقنى هذا.

لو لم أكن قادمة من لحظات من عند بوركيوباين الملكي، لما قلت أى شيء؛ لكنه كان يعتقد أن السياسة مملة، خاصة القومية الكندية. كان يقول: "الفن عالمي، والأمر لا يزيد على أنهم يحاولون جذب الانتباه".

وعندما كنت مع آرثر، كنت أومن بعدالة قضيته، قضاياه، كل قضية منها، فكيف يمكننى أن أعيش معه ما لم أفعل ذلك؟ لكن بوركيوباين الملكى فرّغ هذه القضايا من مضمونها. كان الأمر هو نفس معركة "الفرسان" و"ذوى الرؤوس الحمراء"[1]، الحزبين البريطانيين منذ القرن السابع عشر، تتكرر مرة أخرى.

---

[1] أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابع عشر، أطلق اسم "ذوى الرءوس الحمراء" كلقب ساخر على مؤيدى البرلمان، بينما أطلق اسم "الفرسان" كنوع من السخرية أيضًا على الجناح الملكى المؤيد للملك تشارلز الأول.

قلت لآرثر: "بحق السماء، إنك تسعى بحرارة لأن يقبض عليك، ولكن هل سيحل هذا شيئاً؟ لن يحل أى شيء. إنك لا تعيش فى عالم الواقع، لن يكون انضمامك إلى أى نوع من الأحزاب السياسية مفتاحًا لتخرج وتغير الأشياء حقًا، وبدلا من ذلك تجلسون وتتجادلون وكل منكم يهاجم الآخر. إنكم مثل الأخوة بليموث[1]، كل ما يهمكم هو توكيد طهارتكم الثورية بطرد أى أحد آخر. ثم تخرجون وتقومون بحركة لا جدوى منها ولا معنى، مثل البصق على أحد رجال الشرطة".

لم ينبس أحد ببنت شفة، أصيبوا جميعًا بالذهول. كنت آخر من يتوقعون منه مثل هذه الخطبة المسهبة العنيفة، ودعونا نفكر فى الأمر، فمن أنا لأتكلم؟ وأنا نفسى لم أكن أفعل شيء لإنقاذ العالم.

قالت مارلين، بصوت بارد بالتكتيكات التى ترسمها: "جوان عندها حق، لكن دعونا نسمع أى نوع من التصرف المفيد وذى المعنى الذى تقترح علينا أن نفعله بدلاً من ذلك".

---

(١) الأخوة بليموث: حركة أصولية مسيحية إنجيلية بروتستانتية تأسست فى دبلن فى أواخر العشرينات من القرن الثامن عشر، وأعضاء هذه الحركة كانوا يتمسكون بصرامة بمبادئ تقوم على الإنجيل.

قلت: "أوه، لا أعرف". وبسرعة بدأت أتراجع وأعتذر: "أقصد أنه ليس من شأنى حقًا على أية حال، لا أعرف الكثير عن السياسة. ربما يمكنكم أن تفجروا جسر السلام أو شيء كهذا".

وأرعبنى أنهم كانوا يأخذون كلامى بجدية.

فى المساء التالى وصل إلى الشقة وفد صغير. مارلين، دون، سام، واثنان من شباب "ريسيرجينايتس". قالت مارلين: "لقد حصلنا عليه فى السيارة". سألت: "حصلتم على أى شيء؟" كنت قد غسلت شعرى من لحظات، ولم أكن أتوقعهم. وكان آرثر بالخارج يقوم بتدريس الحصة المسائية عن الأدب الكندى، وكان قد امتنع عن الكلام معى طوال ذلك اليوم تقريبا، وبالطبع كان ذلك الأمر يشقيني.

قالت: "الديناميت"، كانت فى غاية الانفعال. "أبى يعمل فى البناء، وكان من السهل أن نسرق بعضه، بالإضافة إلى المفجِّر وبعض أسلاك التفجير".

قلت،" "ديناميت؟ ماذا تفعلون بالديناميت؟"

قالت: "لقد تناقشنا حول فكرتك، وقررنا أنها ليست فكرة سيئة. سوف نفجر "جسر السلام" كنوع من التلميح، وهو أفضل شيء نفجره، بسبب الاسم".

قلت: "انتظرى لحظة، قد تتسببون فى إيذاء أحد المارة". قال دون بسرعة "تقول مارلين إننا سنفعل ذلك بالليل، لن نفجره تمامًا على أية حال، إنه مجرد رمز. تلميح، كما قلت لنا".

أرادونى أن أخبئ الديناميت لهم، وقد فكروا حتى فى الخطة. أرادوا منى أن أشترى سيارة مستعملة، تحت اسم منتحل، باستخدام عنوان مزور، شقة أحد العاملين الجدد فى "ريسيرجينايتس"، والذى كان سوف يرحل لشهرين على أى حال، ثم علىّ أن أضع الديناميت فى صندوق السيارة وأحرك السيارة من مكانها كل يوم، من شارع لآخر، من ساحة وقوف سيارات لأخرى.

قلت ببطء: "السيارة المستعملة تكلف نقودًا".

قالت مارلين: "انظري، إنها فكرتك. وأقل ما يمكنك فعله هو أن تساعدينا، بالإضافة إلى ذلك، يمكنك الحصول على واحدة رخيصة بحوالى مائتين".

"لماذا أنا؟"

قالت مارلين: "أنهم لن يرتابوا فيك أبدًا. لا يبدو عليك أنك ممن ينفذون عمليات بالديناميت".

سألت: "وإلى متى سيستمر ذلك؟"

"فقط حتى نستطيع رسم الخطة جيدًا، ثم سنأخذ السيارة".

قلت: "حسنًا، سوف أفعل ذلك. أين الديناميت؟"

قال دون: "ها هو"، وناولني صندوقًا من الكرتون.

لم تكن لدى أى نية لتنفيذ خطتهم. فى اليوم التالى أخذت تاكسى إلى بيت بوركيوباين الملكى ودسست الصندوق في القبو، كان هناك الكثير من العلب والصناديق على أية حال، وقلت له إنه كان تمثالاً قبيحًا جاءنى كهدية زواج، ولا أستطيع أن أتحمله فى البيت أكثر من ذلك.

وقلت: "الأفضل ألا تفتحه، لأسباب عاطفية".

الفصل السادس والعشرون

لم يستطع بوركيوباين الملكى أن يقبل بما هو جيد بشكل مرضٍ فقط. كان هذا أحد الأشياء التى أحببتها فيه: لم يكن يقتنع بما هو جيد بشكل مُرض، كان يقتنع بكل ما هو تام مُطلق ويكون مفاجئا وعنيفا .

قال: "من أين جئت بالديناميت؟". كنا ممدين على حشيته، كان دائمًا يحتفظ بالأسئلة الخطيرة إلى وقت لاحق.

قلت: "لقد طلبت منك ألا تفتح ذلك الصندوق".

"أتمزحين، تعرفين أننى كنت سأفتحه، تعرفين أننى أحب التماثيل القبيحة، من أين جئت به؟"

قلت: "هذا الديناميت لا يخصني، إنه يخص أشخاصًا آخرين".

قال مفكرًا: "لم أر أبدًا أيًا من هذا الشيء وهو ينفجر، ومع هذا كنت دائمًا أحب "عيد الملكة فيكتوريا"، فهو العيد المفضل عندى، هو وعشية عيد جميع القديسين".

قلت: "إن كنت تفكر فى تفجير أى شيء.. عليك أن تنسَى.. سوف تضعنى فى ورطة كبيرة إذا اكتشفوا أنه ينقص شيئًا".

قال: "نستطيع أن نستبدله... بديناميت آخر".

قلت: "لا"، كنت أتذكر ذلك الوقت الذى كاد فيه أن يتسبب فى أن يصعقنا التيار الكهربائي. كان قد سمع من أحد أصدقائه، فنان آخر، أنه إذا جئت بأحد أسلاك أضواء شجرة الكريسماس، ووصلتها بالكهرباء، وفككت إحدى اللمبات، ثم لصقت إصبعك فى المقبس لحظة القذف، فإنك وشريكتك ستشعران بأعظم لذة لهزة الجماع فى العالم. وشملت وصفة صديقه أيضًا تناول بضعة سجائر محشوة بالحشيش، لكن بوركيوباين الملكى كان قد تخلى عن المخدرات، وقال إنها "فكرة غبية. إن فريد أستير لم يدخن المخدرات، أليس كذلك؟" وقضى أيامًا يحاول أن يقنعنى بفعل ذلك، والذى أسماه "فن إذا تم الفعل"، ولفظ "إذا" يرمز إلى عنصر الفرصة.

بل إنه اشترى سلكًا قديمًا لأضواء شجرة الكريسماس. قلت له: "أننى أرفض أن أحول نفسى إلى محمصة خبز كهربائية لإرضاء إحدى نزواتك المجنونة"، ومن ثم خبأ الأضواء تحت الحشية، وقام بتوصيلها بالقابس قبل زيارتى التالية مباشرة. كان يخطط لإدخال إصبعه فى المقبض خلسة دون أن أعرف فى اللحظة الحاسمة، لكن ما كدنا نبدأ حتى بدأت كتل من الدخان تخرج بطريقة لولبية من تحت الحشية، وخشيت أن يحدث شيء مشابه مع الديناميت.

وكالعادة، كلما قاومت أكثر، كلما شعر بإثارة أكبر. قام من فوق الحشية وبدأ يمشى الهوينى فى الحجرة، ووضع قبعته الفرو على رأسه، قبعة جديدة، ملحق بها حاشية يمكن طيها بحيث تغطى الأذنين

يستخدمها البوليس الكندى الذى يمتطى الجياد. قال: "هيا، سوف يكون هذا شيئا رائعًا! لن نفجر أى شيء، سوف نفجر الديناميت وحده فقط، فى الليل فى مكان ما، ونتفرج عليه وهو ينفجر. واو، سيكون هذا رائعًا. سيكون مثل ‘حدث أو مناسبة عظيمة’، وسنكون نحن وحدنا المتفرجين، سيكون بكامله لنا وحدنا. إنها الفرصة الوحيدة التى ستحصلين عليها طوال عمرك، كيف يمكنك أن تتركى مثل هذه التجربة تفلت منك ؟".

قلت: "بسهولة، لا أحب ضوضاء عالية بلا معنى".

قال: "إذن فأنت مع الرجل غير المناسب". وبدأ فى لعق أذني.

" تشاك (أى توقف عن فعل ذلك)، كن عاقلاً".

عبس وقال : "عاقلاً؟ لو كنت عاقلاً لما أحببتني. فالآخرون جميعًا عقلاء". وأخذ قبعته الفرو، وألقاها عبر الغرفة. "ولا تنادينى باسم " تشاك " ثانية ". (كنت قد اكتشفت مؤخرا أن اسمه الحقيقى هو تشاك بروورار، بل أنه كان لديه وظيفة أيضًا: فقد كان فنان يعمل نصف ساعات العمل اليومى فى الإعلانات التجارية، ومتخصص فى التصميم والنشر. أخبرنى بهذا فى سرية بالغة، كما لو كانت معلومات تسيء إلى سمعته).

بعد خمسة أيام كنا نسير عبر هاى بارك، نبحث عن مكان مناسب. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكان ذلك فى منتصف

مارس؛ كان لا يزال ثمة جليد فى البرك، وثلج تحت الأشجار، وكان ذلك فى أواخر الربيع. كان بوركيوباين الملكى يرتدى أحد معاطفه المصنوعة من الفراء وقبعة الفراء وقلب الحاشية الملحقة بها فغطت أذنيه. وتحت معطفه كان يحمل الديناميت فى الصندوق، مع الفتيل والمفجر. وقال أنه اكتشف كيف يشغله. لكنى لم أصدقه، كما أننى لم أكن أثق فى دوافعه.

قلت: "لن أستمر فى السير معك إن كنت ستفجر أى أشخاص".

"قلت لك لن أفعل".

"أو أى حيوانات، أو أى بيوت، أو أية أشجار".

قال فاقدًا الصبر: "إنك لا تفهمين بعد، ليس الهدف هو تفجير أى شيء، الهدف هو تفجير الديناميت فقط. إنه فعل مجرد".

قلت: "أنا لا أومن بالأفعال المجردة".

قال بمكر: "إذن لا داعى لأن تأتى معي"، لكنى شعرت أننى إن لم أذهب فقد ينكث بوعده ويفجر شيئًا ذا أهمية، مثل أحد المستودعات أو النصب التذكارى لتشوفسكى[1] عند ضفة البحيرة، وهو أمر كان قد ذكره بشكل عارض.

---

(١) سير كازمير تشوفسكى Sir Casimir Gzowski (١٨١٣-١٨٩٨)، مهندس شهير من أصل بولندي، أنشأ وطور العديد من الطرق ومجارى المياه والقنوات،=

بعد فحص عدة أماكن محتملة، استقر على أرض مفتوحة ممتدة بالقرب من بركة متوسطة الحجم. ولم يكن هناك فيما يبدو أية مبان قريبة، كما كان المكان بعيدًا جدًّا عن الطريق، ومن ثم فقد وافقت عليه. وانحنيت مرتعشة وسط ثلة من الشجيرات، بينما كان يتعامل مع الديناميت، يصل الغطاء البلاستيكى، ويفرد السلك.

سألت: "هل نحن بعيدين بما فيه الكفاية؟"

قال: "نعم، بالتأكيد". ورغم ذلك فعندما أطلق الشرارة، صدر صوت دوى انفجار هائل، ونزل علينا حمام من كتل الطمي وبضعة أحجار صغيرة.

صاح بوركيوباين الملكي: "هاه! هل رأيت هذا!"

لم أر أى شيء، فقد أغلقت عينى وغطيتهما بيدى فى قفازهما. قلت بإعجاب: "كان هذا بديعا".

قال: "بديعًا؟ أهذا كل ما يمكنك قوله؟ لقد كان مهولاً، رائعًا، إنه أفضل "فن إذا تم الفعل" قمت به على الإطلاق!" وجذبنى داخل معطفه الفرو، وبدأ يفك الأزرار.

= والموانئ والجسور، كما أنشأ العديد من السكك الحديدية فى الولايات المتحدة وكندا، وأقيم هذا النصب التذكارى له فى حديقة باسمه فى تورنتو.

اعترضت قائلة: "لابد أن نذهب من هنا، لابد أن أحدًا قد سمع، وسوف يأتى البوليس، إنهم يقومون بدوريات حراسة على هذه الحديقة.

"أرجوك"، كان يتوسل، ولم أستطع الرفض، كان من الواضح أن الأمر شديد الأهمية له. قمنا بجماع مرجفى مثل مرسمة الزلزال. وظللنا نستمع لأصوات صفارات إنذار عربات المطافئ والإسعاف، التى لم تصل أبدًا.

قال: "إنك نادرة، واحدة فى المليون، لا أحد آخر يمكن أن يفعل هذا. أظن أننى أحبك". كان ينبغى أن أشعر بالسخرية لهذا، لكنى لم أفعل. ولابد أن أعترف أنى قبلته بامتنان لما قاله.

كان يشعر ببعض خيبة الأمل لأن الانفجار لم يُنشر خبر عنه فى الصفحة الأولي. مر يوم كامل دون أن يأتى أى ذكر لأى شيء فى الصحف، ولكن فى اليوم التالى وجد فقرة مكتوبة فى ركن غير ملحوظ من جريدة "ستار".

انفجار غامض فى هاى بارك

تحيرت الشرطة أمام انفجار صغير يوم الأربعاء، من الواضح أنه نتج عن تفجير ديناميت. ولم يصب أحد، رغم أن نظام الصرف فى مطعم الحديقة القريب قد أصيب بخلل مؤقت، ولم يكن هناك أى سبب واضح للانفجار؛ وربما كان المقصود تخريب الممتلكات العامة.

هذا التقرير أثار افتتان بوركيوباين الملكي، وقرأه لي بصوت مرتفع عدة مرات. صرخ: "لا سبب واضح، مذهل!" وأخذ الجريدة إلى محل تصوير لتكبيرها، ووضعها في إطار منحوت اشتراه من محل "المدنيين المقعدين"، وعلقه بجوار لوحة الملكة.

ولعدة أسابيع بعد الانفجار، كانت مارلين ودون والباقون يظنون أنني أنقل الديناميت حول المدينة في سيارة شيفورليه زرقاء موديل ١٩٦٨. وفي ذلك الحين كانوا يتجادلون حول الحركة التي سيقومون بها. ليس كيف يفعلونها، فلم يصلوا أبدًا في المناقشة إلى ذلك، ولم يصلوا حتى إلى مناقشة الخرائط والإستراتيجية، كانوا واقفين عند مستوى النظرية المجردة: هل يفجرون الشيء الذي يجب تفجيره فعلاً؟ سوف يكون هذا عملاً قوميًّا حقيقيا، ولكن هل يكون عملاً قوميًّا بما فيه الكفاية؟ وإن كان كذلك، هل سيخدم الشعب؟ قال دون مجادلاً إنه لابد من بعض التصرفات الحاسمة، وإلا فسوف يحاصرونهم جيش العدو. بعض الأفكار التي كانوا يظنون أنها أفكارهم وحدهم كانت قد بدأت تظهر في مقالات صحفية، وأظهر استفتاء لإحدى الصحف حركة في نفس الاتجاه. ونظروا إلى هذه التطورات بحذر: فالثورة تخرج إلى أيدٍ أخرى.

لم أكن يضايقني نقل الديناميت التخيلي حول المدينة، لقد أعطاني هذا فرصة ممتازة لترك الشقة في أي وقت أشاء. "هذا وقت نقل الديناميت"، أقول بابتهاج، ولا يستطيع آرثر أن يقول الكثير.

والواقع أنه كان حتى فخورًا بى . قال سام: "لابد أن تعترفوا أنها باسلة". كانوا يشعرون أننى رابطة الجأش.

كنت معظم الوقت أذهب إلى بوركيوباين الملكي. لكن كان هناك شيء ما يتغير. كان مفرش المنضدة المزركش بشريط زينى الذى رقصت الفالس معه وأنا ألتف به عاد ليصبح مفرش منضدة مزركش عادي، وبه تمزق؛ والحذاء الأسود المدبب لم يعد يساوى الألم الذى كان يسببه. والموتيلات أصبحت موتيلات، وما كانت تعنيه لى حينئذ هو العمل الشاق والارتباك والإحراج. كان سترجس يرسلنى إلى رحلات أخرى، إلى سادبيرى، ووندسور، وكان ذلك يكلفنى أكثر وأكثر كى أصل لأماكن المقابلات.

بعد ذلك كنت أعود إلى الموتيل، وأغسل ثيابى الداخلية فى حوض الحمام، وأعصرها فى الفوط وأعلقها. فى الصباح لا تكون أبدًا جافة جيدًا، لكنى كنت ألبسها على أى حال، وأنا أشعر باللمسة الباردة الرطبة المتسخة على جلدي. كان ذلك يبدو وكأننى أرتدى ملابس مستعملة. بينما يجلس بوركيوباين الملكى على حافة الفراش، أبيض ونحيفًا مثل جذر نباتي، ويطرح أسئلة عليّ.

"كيف يبدو؟"

"من؟"

"تعرفين، آرثر، كم من المرات..."

"تشاك، ليس هذا من شأنك".

قال: "إنه شأني". لم يعلق على الاسم، كان قد أصبح أقل شبهًا ببوركيوباين الملكى وأكثر شبهًا بتشاك. "أنا لا أسألك عن تلك الأشياء بالنسبة لصديقاتك الأخريات".

قال متجهم الوجه: "لقد تخلصت منهن، لم يعد إلا أنت".

"إذن من يترك لك فطائر القرع؟"

قال: "أمي"، وكنت أعلم أن هذه كذبة.

كان يعيش دائمًا فى سيرته الذاتية غير المكتوبة، لكنه الآن بدأ يرى الحاضر وكأنه الماضى بالفعل، مغلف فى نوع من الحنين الرقيق. كل مطعم أكلنا فيه ترك علامة ونظرة إلى الخلف؛ كان يتكلم عن أشياء فعلناها فى الأسبوع السابق وكأنها كانت لقطات فى نوع من ألبوم ذكريات قديم. كل حركة من حركاتى كانت تسكن وكأنها صورة وأنا أقوم بها، كل قبلة يتم تحنيطها، كما لو كان يدخر الأشياء للزمن. شعرت كأننى شيء من المقتنيات التى يجمعها. قلت له أكثر من مرة: "أنا لم أمت بعد، فلماذا تنظر إلى بهذه الطريقة؟"

كانت هذه إحدى حالاته المزاجية، وفى حالة أخرى كان يصبح عدائيًا نحوى بشكل صريح. بدأ يبدى اهتمامًا مرضيًّا، ليس بإحدى قصاصات جرائده، التى لم تكن كثيرة، ولكن بقصاصات الصحف الخاصة بي؛ فقد يقطعها من الصحيفة، ويستخدمها فى السخرية منى.

"يقول هنا أنك تحدٍّ للأنا الذكرية".

قلت: "أليس هذا سخيفًا؟"

قال: "لكنك تحدٍّ للأنا الذكرية".

قلت: "أوه، كن منطقيا. من الذى تحديته فى حياتي؟"

"إنه يقول هنا أنك تهديد".

قلت: "ماذا تعنى بحق الشيطان؟" كنت أشعر أننى أتعامل بلطف شديد طوال المساء.

"إنك تدوسين على 'أنا' كل الناس دون أن تعرفى أنك تفعلين ذلك. إنك خرقاء عاطفيًّا".

قلت: "إذا كنا سنتناقش فى هذا الموضوع، هل يمكن أن تلبس ملابسك؟" كانت شفتى السفلى ترتعش.

قال: "هل ترين ما أعنيه؟ إنك تقولين لى ماذا أفعل، إنك تهديد".

قلت: "أنا لست تهديدًا".

قال: "إن لم تكونى تهديدًا، فلماذا تصرخين؟"

بدأت أبكى. وضع ذراعيه حولي، ووضعت ذراعى حوله ودموعى تسيل كاليتيمة، كالبصلة، كجرعة من شراب مسكر رشوا

ملحا عليه. قال: "أنا آسف، وأنا ليس لى غرور ذكرى على أى حال، ربما يكون لى "أنا" حيوان الومبت". (حيوان استرالى شبيه بالدب الصغير)

قلت وأنا أشهق: "كنت أظن أننا سنهوّن من الأمر ونجعله خفيفاً"

قال: "إنه خفيف، إنه خفيف. انتظرى حتى يصبح ثقيلاً. أنا فقط مكتئب لأنها تمطر وليس معى أية نقود".

قلت وأنا أمسح أنفي: "هيا نخرج ونتناول بعضا من مشويات دجاج كنتاكى ". لكنه لم يكن جائعًا.

بعد ظهر أحد الأيام الممطرة، عندما وصلت إلى مستودعه، كان ينتظرنى فى كامل ملابسه واضعًا عباءته وربطة عنق لم أرها أبدًا من قبل، إحدى مخلفات محل "المدنيين المقعدين"، وعليها رسم لعروس بحر. أمسكنى من وسطى ولف بى على الأرض؛ كانت عيناه تبرقان.

قلت: "ماذا هنالك؟، ماذا حدث لك؟"

قال: "مفاجأة"، وقادنى نحو الفراش: وعليه كانت قبعة بيضاء رائعة تعود إلى الخمسينيات، بها ريش وخمار.

قلت: "من أين لك هذا الشيء؟" وأنا أتعجب أى خيال جديد قد استولى عليه. الخمسينيات لم تكن أبدًا فترته الزمنية المفضلة.

قال: "إنها قبعة الخروج لك، حصلت عليها من فندق سالي، بتسعة وثمانين سنتًا".

"ولكن ما الغرض منها؟"

قال: "للخروج، طبعًا"، لا يزال مبتهجًا، "ظننت أننا يمكن، كما تعرفين، أن نذهب بعيدًا سويًا. نفر".

قلت: "لابد أنك مجنون، أين نذهب؟"

"ما رأيك فى الذهاب إلى بافالو؟"

بدأت أضحك، ثم رأيت أنه جاد فيما يقول. قلت: "هذا لطف منك، لكنك تعلم أننى لا أستطيع".

أرادنى أن أترك آرثر وأنتقل للإقامة معه. هذا هو ما كان يعنيه، وأخيرًا اعترف به. جلسنا متجاورين على الفراش، نحدق فى الأرض.

قال: "أريد أن أعيش حياة طبيعية معك".

قلت: "لا أظن أننا نستطيع. أنا طباخة مرعبة، أفسد الأشياء"

"أريد أن أستيقظ فى الصباح وأتناول طعام الإفطار معك وأقرأ جريدة جلوب آند ميل".

قلت: "يمكننى أن أحضر عند الإفطار، إفطار متأخر".

"أريد أن أمشط شعرك".

بدأت أتنشق. قلت له ذات مرة أن آرثر يحب أن يمشط شعري، أو كان قد اعتاد أن يفعل ذلك.

"ما الذى لديه وليس عندي؟"

لم أكن أعرف. لكننى لم أكن أريده أن يفسد شيئًا، لم أكن أريده أن يصبح رماديًا وذا أبعاد متعددة ومعقدًا مثل الآخرين. هل كان كل هيثكليف هو لينتون فى حالة تنكر؟ ما الذى كنت أريده؟ المغامرة أم الأمان؟ وأيًا منهما كان يقدم لى ماذا؟ ربما لم يكن أى منهما يقدم لى أيًا من هذين الشيئين، إنهما كلاهما كانا يريدان منى أن أقدم أشياء، ومرة أخرى كانت لدى نقيصة. رقد بوركيوباين الملكى ورأسه مستندة على بطني، منتظرًا إجابة.

قلت: "لا أعرف. ليس هذا هو الأمر".

جلس ثانية. "هذه هى المشكلة معك. ليس لديك دوافع. ألا تعرفين كم أن هذا خطير؟ إنك أشبه بحافلة مدرسة خرجت عن تحكم سائقها".

قلت: "أنا لا أقصد أن أكون كذلك". ولكى أعوضه، اشتريت له زجاجة حبوب فيتامين من النوع الذى يؤخذ واحدة فى اليوم، وزوجًا من الجوارب وأزلت الأتربة عن حيواناته المحشوة. وحتى أعطيته ثعلبي، ذلك الذى كان لعمتى "لو"، وكانت له قيمة حقيقية لدىّ. وكان يمكن أن يبتهج به يومًا، لكنه ألقى نظرة إليه بشق الأنفس.

قال: "على الأقل يمكنك أن تخبريه عنا، أحيانًا أفكر أنك خجلة منى".

لكننى شطبت على هذا، قلت: "لا أستطيع، هذا سيدمر كل شيء. إننى أحبك".

قال بأسى: "أنت تخشين أن تجربى حظك معي. أستطيع أن أرى هذا. أنا لست ذا قيمة كبيرة الآن، أعترف بهذا، ولكن فكرى فى احتمالات المستقبل!"

قلت: "أحبك كما أنت"، لكنه لم يصدقني. ولم يكن الأمر أننى لم أكن أحبه. كنت أحبه بطريقة خاصة، لكنى كنت أعرف أننى لا أستطيع الحياة معه. فبالنسبة له كان الواقع والخيال نفس الشيء، وهو ما يعنى بالنسبة له أنه لا يوجد واقع. أما بالنسبة لى فمعناه أنه لا يوجد خيال، ونتيجة لهذا فلا مهرب.

فى المرة التالية بمجرد أن خرجت من مصعد الشحن، كان هناك كمين بانتظاري. كان بوركيوباين الملكى هناك، لكنه لم يعد

بوركيوباين الملكي. لقد قص شعره قصيرًا، وحلق لحيته. كان يقف في وسط الدور، بدون عباءة، بدون عصا، بدون قفاز، مجرد بنطلون جينز وتي شيرت مكتوب عليها "هوندا". كان مجرد تشاك بريور؛ هل كان دائمًا موجودًا تحت لحيته؟ بدا وكأنه قد نُهب.

قلت، بما هو أقرب إلى الصرخة: "يا إلهي، لماذا فعلت هذا؟"

قالت تشاك: "لقد قتلته. لقد انتهيت منه، لم يعد موجودًا".

بدأت أبكي. قال: "آه، لقد نسيت هذه". وانتزع صورة الملكة ممزقًا إياها، ثم الإعلان الملصق عن الديناميت الخاص به، ورمى بهما على الكومة التي صنعها من أشيائه.

قلت بغباء: "وماذا عن حيواناتك؟"

قال: "سأتخلص منها. لا فائدة منها لي الآن".

كنت أحدق في ذقنه؛ لم أكن قد رأيتها أبدًا من قبل. وقال: "الآن هل تنتقلين للعيش معي؟ لا داعي لأن نسكن هنا، يمكننا أن نحصل على بيت".

كان هذا مرعبًا. كان يظن أنه بتحويل نفسه إلى شيء أقرب إلى آرثر يمكن أن يكون له مكان آرثر؛ لكنه بفعله هذا قتل الجزء الذي كنت أحبه فيه، ولم أعرف كيف أعزي الجزء الباقي. بدون لحيته، كانت له ذقن محاسب صغير.

كرهت نفسى لهذا التفكير. شعرت كما لو كنت وحشًا، وحشا كبيرًا نهابًا، وضحلاً لا سبيل إلى إصلاحه. كيف أمكننى أن أفكر فى لحيته فى وقت كهذا؟ رميت ذراعى حوله. ولم أستطع أن أفعل ما يريد، فكل هذا خطأ.

قال: "أعرف أنك لن تفعلي"، وهو يفك ذراعى من حوله. "حسنًا، أظن أن هناك شيئًا واحد يمكن فعله. ما رأيك فى أن ننتحر سويًّا؟ أو ربما يمكن أن أطلق عليك النار ثم أقفز من فوق مركز تورنتو الدومينيان وجسدك بين ذراعيّ". واستطاع أن يبتسم ابتسامة مفتعلة، لكنه لم يستطع أن يخدعني، لقد كان جادًّا تمامًا.

الفصل السابع والعشرون

نزل مصعد الشحن بتثاقل. وتخيلت بوركيوباين الملكى يقفز السلالم نهبًا، وهو يخلع ثيابه، حتى يواجهنى فى الطابق الأرضى عاريًا تمامًا. لكن عندما انفتح الباب لم يكن هناك. جريت عابرة ثلاث نواصى حتى محل كنتاكى، ودلفت هناك، وطلبت وجبة عائلية. ثم أخذت تاكسى وعدت إلى البيت. سوف أقول كل شيء، سوف أبكى. سوف يسامحني، ولن أفعلها ثانية أبدًا، لو فقط يعفو عنى آرثر ويأخذنى إلى الأمان مرة أخرى.

تسلقت السلالم إلى الشقة، ودفعت الباب بقوة وأنا أفتحه، وكنت أتنفس بصعوبة، كنت مستعدة للمشهد. لن يكون مجرد مشهد اعتراف، بل سيكون مشهد اتهام أيضا: لماذا دفعنى آرثر إلى ذلك، ماذا كان ينوى أن يفعل حيال هذا، ألا يجب أن نناقش علاقتنا لنعرف أين الخطأ؟ ولسبب معقد، وربما سادى ، خاص به، سمح لى أن أصبح متورطة مع شخص مجنون بالقتل مولع به، وقد حان الوقت ليعرف ذلك. لم أكن أطلب الكثير، كنت أريد أن أشعر بالحب.أردت فقط بعض الاعتبار الآدمي. هل كان هذا رهيبًا وشاقا؟ هل كان بهذه الاستحالة؟ هل كنت نوع ما من سلالة مُدجّنة التى يحدث تغيرا مفاجئا فى أحوالها؟

كان آرثر يشاهد التليفزيون. ظهره فى اتجاهي، ومؤخرة عنقه عارية مُعرضة للهجوم. لاحظت أنه بحاجة لقص شعره، وآلمتنى هذه الملاحظة.كان يبدو كطفل، كله بمعتقداته وأمانته. ماذا كنت أفعل؟

قلت: "آرثر، هناك شيء لابد أن أناقشه معك". قال، دون أن يستدير: "هل يمكنك الانتظار حتى ينتهى البرنامج؟" جلست على الأرض إلى جوار مقعده، وفتحت عبوة كنتاكى العائلية. وقدمتها له وأنا صامتة. "كيف يمكنك أن تأكلى هذا النفاية الأمريكية ؟"، قال هذا لكنه أخذ قطعة صدر وبدأ يمضغ. كان يشاهد البطولات الأوليمبية لزوجى سلسلة حركات التزلج؛ كان فى الماضى لا يشاهد إلا الأخبار، أما الآن فهو يشاهد أى شيء يجده، المواقف الكوميدية، مباريات الهوكى، مسلسلات بوليسية، محاورات. كان جهاز التليفزيون به ثنية رأسية عند الجزء الأسفل من الشاشة، ومن ثم فكان الناس فى برامج الحوار لهم أربع أيادٍ، مثل تماثيل الأرباب الهنود، وكانت مشاهد المطاردة فى المسلسلات البوليسية تبدو مقلوبة، بها مجموعتان من رجال الشرطة ومجموعتان من اللصوص؛ لكن آرثر ما كان ليحضر من يصلحه بسبب التكلفة. قال أنه يعرف شخصًا يستطيع إصلاحه.

المتزلجان الأستراليان، يرتديان زيًّا بأكمام بيضاء طويلة، الفتاة فى صدار داكن مُغطى للخصر، تنزلق إلى الخلف حول الحلقة بسرعة مذهلة، ومتزامنان تمامًا. كان لكل منهما أربعة أرجل. استدار

المتزلجان وطارت الفتاة في الهواء وتقلبت، من أعلى لأسفل، برأسين، بينما أمسك بها الرجل بذراع واحدة. ثم نزلت ــ قال المعلق: "قدمها اليمنى لمست" ــ ووقع كلاهما، متكاثرين عددا على الشاشة وهما يقعان على الثلج، وقاما واستمرا في عرض حركاتهم الروتينية، لكنه لم يكن في نفس الجودة. ووقع المتزلجان الكنديان أيضا، رغم أنهما كانا جريئين في البداية.

و تزلجت *السيدة البدينة* على الجليد. لم أستطع أن أتمالك نفسي. كانت تلك لحظة من أهم لحظات حياتي، كان يجب أن أكون قادرة على إبعادها، لكنها خرجت في زى تزلج وردى، وقد زيّنت رأسها بزغب البجعة. وكان معها أنحف رجل في العالم. ابتسمت للجمهور، ولم يرد أحد الابتسامة، لم يصدقوا ما يرونه لأنها كانت تلف حول الحلبة بروعة استثنائية، تلف بشكل لولبي مثل لعبة النحلة على قدمها الصغيرة، ثم رفعها الرجل النحيف وألقاها وطفت، عاليا، وبقيت مُعلقة لحظات... كان سرها أنها كانت خفيفة جدًّا رغم كبر حجمها هذا، كانت مجوفة مثل بالون الهليوم، كان يجب أن يقيدوها في سريرها وإلا لانجرفت مبتعدة، وأمضت الليل بطوله تبذل جهدا خارقا مع الحبال التي قيدتها ...

فكرت أن أتكلم أثناء الإعلانات، وأخبره أن هناك شيء لابد أن أقوله له، لكن آرثر كان ينقّب في العبوة العائلية بحثًا عن قطعة غير مستهلكة، كانت أصابعه مغطاة بالدهون، وكانت على ذقنه قطعة

صغيرة من الدجاج، مسحتها برقة. تلك كانت لحظة تخلى فيها عن دفاعاته: لماذا أنتهكها أنا؟ إن آرثر بحاجة إلى كرامته.

إحدى بطلات التزلج الشهيرات كانت تمدح السمن الصناعي، بشكل غير مقنع، عيناها منومتان مغناطيسيًا متعلقتان بالكروت التى توضح للمُشاهد ما تقول. وانتهت فترة الإعلانات وعادت المنافسة. كانت المرأة البدينة لا تزال هناك، تقفز نحو السقف. انطلق الفريق الأمريكى مسرعًا عبر قاع الشاشة كما لو كان أم أربعة وأربعين، لكن لم ينتبه إليه أحد، فقد صرف انتباههم البالون الوردى الضخم الذى كان يتمايل بذوق رديء فوق رؤوسهم.... رفست المرأة البدينة حذاء التزلج بضعف؛ فأمكن ذلك من رؤية فخذيها وردفها الضخم . وبدا ذلك نوعًا من الإهانة. " إنهم يذهبون الآن للبندقية المُخصصة لقذف رمح صيد الحيتان المربوط على حبل"، سمعت المعلق يقول. سيضربونها بالبندقية بدم بارد، ويفجرونها رغم أنها انفجرت حقيقة الآن فى غناء الغناء ...

فكرت، *لماذا أفعل ذلك؟ ومن يفعل ذلك بي؟* قلت لآرثر "أننى ذاهبة إلى الفراش". لم أستطع أن أفعل شيئًا، لم أستطع حتى التفكير بشكل مستقيم؛ فى أية لحظة يمكن أن يأتى بوركيوباين الملكى يطرق الباب، أو يصرخ برسالة مرعبة على التليفون، اللحظة التى سبقت قفزه، وأصبت بحالة من الشلل، لم يكن هناك ما أستطيع فعله. لم يكن أمامى إلا أن أنتظر الفأس أن تقع، ولأننى أعرفه، قد لا تكون حتى

فأسا، سيكون ديك رومى مطاط من محل الهدايا الفكاهية؛ هذا أو انفجار ضخم. لم يكن لديه إحساس بالنسبية. روسيا كسبت اللقب، مرة أخرى.

فى الصباح التالى تلقيت أول مكالمة تليفونية. لم يكن هناك صوت، لا شيء، رغم أننى قلت "هالو" ثلاث مرات. مجرد بعض التنفس ثم صوت تكة الإغلاق. عرفت أنه لابد أن يكون هو، لكننى دهشت من قلة ما لديه من إبداع. التليفون الثانى جاء فى السادسة، والثالث فى التاسعة. وفى اليوم التالى وصلتنى رسالة منه، أو شعرت أنها لابد أن تكون منه. كانت مجرد ورقة بها كلمة " موت " تحمل منجل محفورة فى قالب خشبى صغير، وتعليق تحته يقول: هل ترقصين معى هذا الفالس؟ كانت الحروف والكلمات مقطوعة من الصفحات الصفراء وملصقة؛ وكانت كلمة "موت" من إحدى المجلات، جعّدتها وألقيتها فى القمامة. ما أسرع ما قام إلى العمل، لكنى لم أكن أنوى أن أجعله يرى أنه نال منى.

كنت فى الواقع أتوقع رسالة بدون توقيع إلى آرثر. بدأت أراقب بريده، رغم أن ذلك اضطرنى للاستيقاظ مبكرة، ونزول السلالم فى الوقت المناسب لكى آخذ البريد وقت مجيئه من صندوق البريد. كنت أتأمل المظاريف، وإذا كانت المحتويات غير ظاهرة أحتفظ بها لفتحها بالبخار فيما بعد. ظللت أفعل ذلك خمسة أيام، لكن

لم يحدث شيء. واستمرت المكالمات التليفونية. لم أكن أعرف ما إذا كان آرثر قد تلقى أيًا منها، ولو كان هذا قد حدث، فإنه لم يشر إليها.

كل شيء كان يعتمد على ما إذا كان بوركيوباين الملكى يريد أن أعود إليه ـــ فلو كان كذلك فلن يخبر آرثر ـــ أو ما إذا كان يريد قتلي، وهو أمر ارتبت فيه، أو ما إذا كان يرغب فقط فى الانتقام. فكرت أن أكلمه تليفونيا لأسأله؛ فقد يخبرنى بالحقيقة لو جاءت المكالمة فى الوقت المناسب. ما كان ينبغى أن أعطيه تلك السلطة، السلطة لتدمير حياتي؛ فلم تكن حياتى قد دمرت بالكامل بعد، لم يزل هناك ما يمكن إنقاذه. ألمحت لآرثر أن انتقالنا إلى مدينة أخرى يمكن أن يكون تغييرًا لطيفًا.

فى اليوم السادس وصلتنى رسالة أخرى. كان العنوان مكتوبًا بحروف آلية؛ ولم يكن عليها طابع، لابد أنه قد تم تسليمها باليد. وداخلها كانت رسالة أخرى تقول "افتحى الباب". انتظرت نصف ساعة وفتحته. وعلى السلم المؤدى إلى الباب كان يوجد حيوان شيهم (بوركوباين) ميت وقد غرز فيه سهم. وورقة مثبتة إلى السهم تقول:

جوان

قلت: "يا إلهي، بحق الله". إذا كان صاحب البيت أو آرثر قد وجدها قبلي لارتفعت الأصوات أو على الأقل لأقيمت محكمة تفتيش لي. كان لابد أن أتخلص منه بسرعة، كان حيوانًا كبيرًا مثخنا

بالجراح، وكان قد بدأ يتعفن بالفعل. جذبته إلى جانب الشرفة وخبأته بين نباتات الكوبية التى تشبه أكواب الماء، على أمل ألا يكون أحد من الجيران قد شاهد شيئًا. ثم صعدت السلالم، وأحضرت كيس قمامة أخضر، ووضعت الشيهم فيه، واستطعت أن أصل به إلى صندوق القمامة خلف البيت. وتصورت رويال بوركوباين يقوم بفك تجميد كل حيواناته، واحدًا بعد الآخر، ويتركها على عتبة دارى. كان لديه عدد كبير منها، وقد يستمر الأمر أسابيع.

شعرت أنه تجاوز الحدود كثيرًا. فى المساء خرجت وطلبته من أحد التليفونات العمومية، عندما أجاب على التليفون قلت "تشاك، هل هذا أنت؟". قال: "من هذه؟ ميرنا؟"

قلت: "أنت تعرف جيدًا أنها ليست ميرنا، أيًا كانت هذه الميرنا، أنا جوان، وأريدك أن تعرف أن ما يحدث ليس هزليا بالمرة".

قال: "ماذا تعنين؟" وبدت دهشته حقيقية بالفعل.

قلت: "أنت تعرف، رسائلك الصغيرة. أظنك تعتقد أنك ذكى جدًا، تقص الحروف من الصفحات الصفراء وكأننى لن أعرف أنه أنت".

قال: "لا، لم أفعل. أعنى، أية رسائل؟ لم أرسل لك أية رسائل".

"وماذا عن 'الشيء' الذى تركته على عتبة بابى هذا الصباح؟ هل المفترض أنه ليس أحد حيواناتك الممزقة الثمينة؟"

قال: "عم تتحدثين؟ لابد أنك مجنونة. لم أفعل شيئًا".

"وعليك أن تتوقف عن طلب التليفون والتنفس على السماعة الأخرى، أيضًا".

"أقسم بالله إننى لم أطلبك مرة واحدة، هل كان هناك من يطلبك؟"

شعرت بالهزيمة. إذا كان يكذب، فإن ذلك يعنى أنه سوف يستمر. وإن لم يكن، فمن الذى يفعل هذا؟ قلت: "تشاك، كن صادقًا".

قال ببرود: "أظن أننى طلبت منك ألا تنادينى بهذا الاسم، لم أفعل شيئًا لك. لماذا أفعل؟ لقد قلت لى أن الأمر قد انتهى. حسنًا، كنت مجنونًا فى تلك اللحظة، لكنى فكرت فى الأمر، وإذا قلت أن الأمر انتهى يكون قد انتهي. أنت تعرفينني، شيء موجود اليوم، وذاهب غدًا. ما كان سهل المنال فسهل الفقدان، لماذا أضايق نفسي؟"

أثر كلامه بهذا الهدوء على كبريائي. قلت: "أهذا كل ما كنت أعنيه لك؟"

"أنظري، أنت التى تراجعت، وليس أنا. إذا كنت لا تريدين العيش معي، فماذا تتوقعين منى؟ أحشر رأسى فى الفرن؟"

قلت: "ربما كنت مخطئة. ربما ينبغى أن نتحدث فى الأمر".

قال: "لماذا إطالة الألم، بالإضافة إلى أننى لست وحدي".

ثم أغلق السماعة. ضربت التليفون بعنف، وحاولت استرجاع النقود من الآلة؛ شعرت أننى ينبغى ن أسترجع قطعة نقودي.أنه مدين لى بها. ولكن تلك الآلة السوداء لم تشف غليلي.

أسرعت بالعودة إلى الشقة، أغلقت على نفسى غرفة النوم، وأخرجت الآلة الكتابة الخاصة بي، وأغلقت عيني. رجل غامض فى عباءة، هذا هو ما كنت بحاجة إليه. طوال الوقت الذى كنت فيه مع بوركيوباين الملكى لم أكتب كلمة. أكان هذا هو السبب فى أن مخلوقاتى بدت أكثر واقعية من العادة، أقرب لي، مشحونة بطاقة أكبر مما أمنحها؟

لكن لا فائدة؛ لم أستطع إيقاف الزمن، لم أستطع إنهاء شيء.

فى تلك الليلة كانت مكالمة أخرى، وفى اليوم التالى كانت الرسالة التالية: احضرى إلى صالة الجنازات، ومعها صورة عنكبوت ملصق بها. وفى اليوم التالى كان على عتبة الباب جثة لطائر أبو زريق، وفى تلك الليلة خيل لى أننى سمعت شخصًا يتسلق المدخنة.

بدأت أتردد قبل أن أرد على التليفون. فكرت فى شراء صفارة حادة، من النوع الذى يفترض استخدامه فى تليفونات المشاهد المرسومة. ومرة صرخت فى التليفون "كفي!" قبل أن أكتشف أنه كان سام فقط. لم أكن خائفة بالضبط؛ فلم أزل أفكر فى الأمر كمزحة مطولة وانتقامية، وأن بوركيوباين الملكى ــ فقد كنت لا أزال مقتنعة

أنه هو ـــ ربما يفكر فى أن ذلك عمل فني. ربما كان يلتقط لى صورًا وأنا أفتح الباب وأجد تذكاراته الصغيرة ذوات الروائح، ربما يمكن أن يضع الصور فى معرض. فكرت فى الذهاب إلى مستودعه ومحاولة أن أجعله يعقل...

رن التليفون. فتركته يرن ثلاث مرات، ثم رفعت السماعة، مستعدة لسماع صوت التنفس، وربما ضحكة تحمل رنة تهديد. قلت: "هالو".

جاء صوت رجل، غليظ وغريب إلى حد ما: "هل أنت جوان ديلاكورت؟"

قلت بشكل آلي: "نعم"، قبل أن يكون لدى الوقت للتفكير عن هذا الاستخدام لاسمى وأنا فتاة، فقد كان الجميع يسموننى جوان فوستر الآن.

"جوان، على الأقل وجدتك".

قلت: "من هذا؟"

رد الصوت بحياء: "ألا يمكنك التخمين؟". هنا بدا لى صوتًا مألوفًا، "هذا صديقك مافيس"، وضحكة مفتعلة.

قلت: "بول، أوه، يا ربى".

قال بول دون تأثر بدهشتي: "لقد قرأت عنك فى الصحف، وتعرفت على الصورة، رغم أنها ليست جميلة مثلك. وشعرت بسعادة كبيرة لنجاحك، أنت لست بحاجة للاستمرار فى كتابة القصص القوطية، فأنت كاتبة حقيقية، وقرأت كتابك. إنه كتاب واعد، أظن، بالنسبة لكتاب أول، من كتابة امرأة".

خلفى كنت أسمع آرثر قادمًا إلى الباب. كان لابد أن أنهى المكالمة، لكنى لم أرد جرح مشاعره، قلت: "بول، لابد أن أراك. أود أن أرك".

قال بول: "هذا ما أرغب فيه أنا أيضًا، أعرف مطعمًا جيدًا..."

قابلته فى اليوم التالى على موعد وجبة منتصف اليوم. كان المطعم اسمه "زردو"، ولم يكن من المعتاد قبلاً وجود مطاعم فى تورنتو باسم مثل زردو، لكن الآن هناك الكثير منها. فكرت وأنا أدفع بابه أن هذه طبيعة بول، اختيار مطعم له اسم يشبه نوعًا من مساحيق الغسيل. كان مكانًا ضيقًا مظلمًا بمناضد مغطاة بمفارش ذات مربعات ومصابيح على شكل القناديل، وكانت الجدران محاطة بخط من عناقيد العنب الصناعية. وفى خلفية المكان كان يوجد باب خلفى مغطى بورق حائط على شكل قوالب طوب، معلق مع أطباق نحاسية... اتجه النادل نحوى، قصير وحيوى الحركة، وتحت ذراعه بطاقات قائمة الطعام.

قلت لا إراديًا: "جوان..". أعرف هذا الوجه ذا الشارب القصير مهما تغير المكان...

قال: "معذرة يا سيدتي، اسمى زردو."

كان بول يسير بالفعل ناحيتي. قبل يدى بطريقة رسمية، وقادنى بكآبة رقيقة نحو المنضدة. وعندما جلسنا لم يتكلم، لكنه حدق فى وجهى بنظرة لوم من خلف نظارته، والتى لاحظت الآن فقط أنها كانت ملونة بلون خفيف: بنفسجى فاتح.

قلت: "هذه الوجبة كانوا يسمونها 'اقضم قضمة'". لم أقل أننى كنت أجلس على آلة النقود، لكن كانت هناك بديلتى تجلس خلف الآلة، امرأة ثقيلة شعرها معقوص على شكل كعكة، ترتدى ثوبًا أسود يظهر مرفقيها المرجرجين، ولكن لم يكن يكشف عن صدرها. أحد احتمالات المستقبل السابقة لي، بلحمها؛ لا شك أنها مسز زردو. وفى تلك اللحظة شعرت بأننى أحسدها.

قال بول: "جوان، لماذا هربت منى؟" كان قد تناول زهرة بلاستيك من المزهرية، وراح يلفها بين أصابعه، من الواضح أنه لا يدرك أنها ليست حقيقية. أى كلام مناسب يمكننى قوله؟

قلت: "كان ذلك لصالح الجميع".

قال بحزن: "لا يا جوان، لم يكن كذلك. تعلمين أننى أحببتك. وأننى تمنيت الزواج بك، بعد أن تكبرى وتصبحى فى سن مناسبة؛

كنت أخطط لهذا، كان ينبغى أن أخبرك. إلا أنك هربت منى، وتسببت فى تعاستي". قال هذا، غير أننى لم أصدقه تمامًا. لاحظت بذلته، التى كانت بكل تأكيد أغلى ثمنًا مما كان يستطيعه؛ كما أنه يبدو واثقًا من نفسه، وهو أمر جديد بالنسبة له. الأسلوب المرير الأرستقراطى المبتذل يختفى تحت بعض الضباب؛ وقد تغطى بطبقة من رجل الأعمال الناجح.

ظهر زردو حاملاً قائمة النبيذ. كان يعامل بول باحترام، وقام الأخير بتحديد الطلب بمنتهى الثقة. ثم أخرج علبة جولواز، وقدم لى واحدة، وأدخل واحدة فى مبسم سيجارته ، كان يبدو جديدًا وغالى الثمن.

قال بول، ونحن نشرب حساء الليمون: "أننى مسرور لأننى اكتشفت مكانك. الآن علينا أن نفكر فيما نفعله، فأنا أرى أنك تزوجت".

قلت لأغير الموضوع: "بول، هل تعيش هنا الآن؟ هل انتقلت إلى كندا؟"

قال: "لا، لكننى آتى هنا كثيرًا. فى عمل. لم أعد أعمل مع البنك منذ ست سنوات، فلى عمل آخر، أنا ..." تردد ".. مستورد".

سألته: "ماذا تستورد؟"

قال بغموض: "أشياء كثيرة، منحوتات خشبية، أطقم الشطرنج وعلب للسجائر، من تشيكوسلوفاكيا؛ ثياب من الهند، وهى منتشرة الآن، ومن المكسيك. من المفيد أن يكون لديك معرفة بلغات كثيرة. أنا لا أتحدث كل هذه اللغات بنفسي، لكن يمكن للمرء دائمًا أن يتصرف". لم يكن يريد أن يتكلم فى الموضوع حقًا. وتذكرت المسدس. أكان ذلك انتفاخ خفيف تحت ذراعه، هل من الممكن أن يكون حاملاً لمسدس كتف؟ وتعاقبت على ذهنى صور، للهيروين، الأفيون، الأسلحة الذرية، المجوهرات وأسرار الدولة.

قال: "لقد أخرجت والدتى من بولندا، لكنها ماتت".

تحدثنا عن ذلك، وعن ابنته، ونحن نأكل "المسقعة".

قال عندما وصلنا إلى 'البقلاوة': "قرأت فى الصحيفة أن زوجك من بعض أنواع الشيوعيين. جوان، كيف يمكنك أن تتزوجى من مثل هذا الرجل؟ لقد أخبرتك بحقيقتهم".

قلت: "إنه ليس شيوعيًا بالضبط، من الصعب أن أشرح، فالمسألة مختلفة هنا. هذا إلى جانب أن ذلك لا يعنى شيئًا هنا، إنه أمر محترم، نوعًا. فهم لا يفعلون أى شيء، فقط يعقدون الاجتماعات ويتحدثون كثيرًا، نوع من التصوف الفكري".

قال بول باكتئاب: "الكلام خطير. كل هذه الأشياء تبدأ بالكلام. إنهم ماهرون فى الكلام، وهم مثل الجيزويت (اليسوعيين). أيتها المسكينة، بهذا استطاع أن يجعلك تتزوجين منه. غسل لك مخك".

قلت: "لا، لم يكن الأمر كذلك". لكن بول كان مقتنعا بما يقول.

قال: "أستطيع أن أرى أنك فى غاية التعاسة".

كان هذا حقيقيا، ولم أنكره. والواقع أننى كنت أستمتع بالإحساس بأن كل هذا التعاطف يهدهدني، مثل ملابس خارجة من المجفف دافئة. فكرت أن بول سيكون غاضبًا منى، لكنه كان لطيفًا جدًّا. شربت زجاجة أخرى من النبيذ، وطلب بول براندي.

قال وهو يربت على يدي: "يمكنك أن تثقى بي، لقد كنت طفلة، ولم تكونى تعقلين. والآن أنت امرأة، ستتركين هذا الرجل، ستحصلين على طلاق، وسنكون سعداء".

قلت: "بول، لا أستطيع تركه..". طفا أمامى فى موجة من الحنين. أهذا هو حبى القديم، منقذي؟ امتلأت عيناى بالدموع، وكذلك أنفي. تمسكت بمفرش المائدة، فى أى لحظة الآن سوف أنفجر فى البكاء.

أطبق بول فكيه. قال: "سوف يتركك. أعرف أنكما هكذا. إن قلت له أنك تحبيننى سوف.... لكن لى أصدقاء. إن كان ضروريًا سوف أخطفك".

قلت: "لا، بول، لا يمكنك أن تفعل هذا، فهو أمر خطير. بالإضافة إلى أن الناس هنا لا ينجزون أمورهم بهذه الطريقة".

ربت بول على يدي، وقال: "لا تقلقي، أعرف ما أفعله، سوف أنتظر، ثم.. فى اللحظة المناسبة، سأضرب ضربتي". ولمعت عيناه، كان هذا نوعًا من التحدي، وهو يريد الفوز.

لم أستطع أن أقول له أننى لا أريد أن أُخطف؛ فسوف يكون ذلك قاسيًا، ومؤلمًا له أيضًا. قلت: "حسنًا، من المهم ألا تخبر أحدًا أنك رأيتني. ولا ينبغى أن تكالمنى على التليفون يا بول، هل طلبتنى قبلاً، دون أن ترد؟"

قال: "ربما حدث ذلك مرة، ظننت أن النمرة غلط". إذن فلم يكن هو.

قمنا لنغادر المكان. أخذ بول ذراعي. سألته، متذكرة: "هل ما زلت تكتب 'مافيس كويلبس'؟ أظن أنك لم تعد بحاجة إلى ذلك".

قال بول: "أننى مستمر فى كتابتها، كنوع من التسلية. إنها مريحة للعقل، بعد يوم من العمل الشاق". وتوقف لحظة، باحثًا فى أحد جيوبه الداخلية، وقال: "إليك، لقد جئتك بهدية. إنك عزيزة، وأنا وحدى فى حياتي، لا أحد يهتم. لكنى أعرف أنك ستحبين ذلك".

وأعطانى الكتاب. كان عنوانه *"ممرضة من القطب الشمالي"*. بقلم مافيس كويلب. كانت الممرضة ذات الذقن الوردية تبتسم ابتسامة ساحرة وقد أحاطتها سترتها العسكرية بهالة.

قلت: "أوه، بول. أشكرك كثيرًا". الغريب أننى تأثرت بحق؛ كان الأمر يشبه نهاية فيلم عن الحيتان، لقد كان حزينًا جدًّا، وشديد الثقة، وشديد اليأس، وكان العزاء مستحيلاً. ألقيت ذراعى حول رقبته وانفجرت فى البكاء.

ها أنا قد فعلت، طاف هذا بخاطرى وأنا أنشج بالبكاء على كتفه، كان لابد أن أنحنى قليلاً لأفعل هذا. وكان يضع لوسيون حلاقة من نوع "هاى كاراتيه"، وهو ما جعلنى أبكى أكثر. كيف استطعت أن أخرج من ذلك؟ لقد كنت مشجعة أكثر من اللازم، مرة أخرى.

الفصل الثامن والعشرين

أراد بول أن يضعني في تاكسي. كان جزءًا من خياله وفكره أن أغادر في تاكسي، لكني قلت له أنني أريد أن أسير، ولذا ركب هو بنفسه التاكسي. وراقبته وهو يبتعد، شمالاً في شارع الكنيسة وسط حركة المرور المزدحمة بالسيارات، ثم بدأت أسير نحو البيت.

كانت عيناى لا تزالان متورمتين وكنت أشعر بالخدر والاكتئاب. كانت رغبة بول في إنقاذى تنم عن شهامة، ولكن شهامة عقيمة، كما أن كل أنواع الشهامة حينئذ كانت تبدو لي عقيمة. بالإضافة إلى أننى لم أكن أريده أن ينقذني، ولكن لم يكن لدى الشجاعة لإخباره بذلك. يمكن أن أقوم بكى ملابسه الداخلية وآكل كافياره وأنا متجهمة، في مخبأ وضيع، وأتظاهر بالسعادة والامتنان؛ ويمكن أن أهرب مرة أخرى، تاركة إياه محطمًا، وربما هذه المرة يكون حاقدًا، تواقًا للانتقام. كنت أظن في يوم من الأيام أننى واقعة في حبه، ربما كنت.

"هناك سحر في الحب والابتسامة. استخدميهما كل يوم، في كل ما تفعلين، وانظرى أية أشياء رائعة سوف تحدث"، كانت "البومة البنية" تقول ذلك عادة بمرح، وهي تقرأ من كتابها الصغير. وكنت أصدق هذا الشعار، كنت أصدق أن غياب الأشياء الرائعة كان بسبب

فشلي الشخصي، وبسبب حبي الناقص. والآن بدا لي أنه يمكن وضع اسم نوع من أنواع تلميع قطع الأثاث بدلاً من كلمة "حب" في هذه الحكمة، دون أن ينتقص ذلك من معناها. الحب مجرد أداة، الابتسامة أداة أخرى، كلاهما مجرد أدوات لإحراز أهداف معينة. لا سحر هناك، مجرد كيماويات. شعرت أنني لم أحب أحدًا أبدًا في الحقيقة، لا بول، ولا تشاك بوركيوباين الملكي، ولا حتى آرثر. كنت أُلمّعهم بحبي، وأتوقع منهم أن يلمعوا، أن يلمعوا جيدًا حتى أتمكن من رؤية صورتي منعكسة، محسَّنة، وبراقة.

في تلك اللحظة بدا لي من المستحيل أن يستطيع أحد أن يحب أحدًا حقًّا، أو إن استطاعوا، فلا يمكن لشيء أن يستمر أو يأتي منه أي خير. الحب هو السعي وراء الظلال، وأنا كنت ظلاً لبول، محكوم عليّ بالهرب أمامه، أزول سريعًا كسحابة. فكرت، سحابة ما، قدمي تؤلمني بالفعل. من المحتمل أنه لم يكن يريدني على الإطلاق، وإنما يريد مغامرة اختطافي مما تخيل أنه عرين شيوعيين خطرين، مسلحين حتى أسنانهم بأدوات امتصاص العقول وكلام مرتكبي المجازر، وأنا في وسطهم مقيدة اليدين والقدمين بقيد رطانتهم، وما أن يحصل على فلن يعلم على الإطلاق ماذا يفعل بي، فهو لم يستطع أن يعيش معي قبلاً، ولا يستطيع أن يحتمل الفوضى، والسنوات لم تصنع مني سيدة منظمة أبدًا. لم أكن أشبه شبحي.

عندما وصلت إلى البيت كانت هناك رسالة أخرى بلا اسم، شيء عن الأكفان، لكنى لم أنظر إليها إلا لمامًا. صعدت السلالم إلى الشقة، ببطء؛ كانت إحدى قدمى بها بثرة تؤلمني. كنت أتمنى أن يكون آرثر هناك لكى أتمكن من الشعور بالارتياح مع شخص مألوف؛ لكنه لم يكن، وتذكرت أنه قال أن لديه لقاء. كانت الشقة فارغة ومهجورة، وشعرت أنها كذلك دائمًا بدونه. الأفضل أن أعتادها؛ فى أى يوم الآن يمكن أن يتعب بوركيوباين الملكى من لعبته، ويزيد من تصعيدها.

ذهبت إلى الحمام، وفتحت الصنبور لأملأ حوض الاستحمام بماء دافئ، وأضفت بعض الصابون السائل، ودخلت فيه ومعى "مافيس كويلب". لقد كان الحمام دائمًا ملجئى، كان هو الغرفة الوحيدة فى المنزل، فى كل المنازل، التى أستطيع أن أغلق بابها. أغطس فى الحوض مثل حيوان الفظ الشبيه بالفقمة البحرية التى تطلق بخارًا، بينما أمى تحمحم بصوت متحفظ خارج الباب، وقد تنازعتها مشاعر الجسد الذى رفضت أن تعترف بأنها تمتلكه، وعدم استعدادها لأن تكون صريحة مباشرة.

"جوان، ماذا تفعلين بالداخل؟"

وقفة طويلة. "آخذ حمامًا".

"أنت بالداخل منذ ساعة. وقد يريد الآخرون استخدام الحمام أيضًا، لابد أن تكونى أكثر مراعاة لمشاعر الآخرين".

غطيت نفسى بفقاعات الصابون، وغمرت نفسى فى "ممرضة من القطب الشمالي". لماذا تركت شارون مستشفاها المريح فى إنجلترا لتأتى إلى الشمال حيث لا قناعات وحيث الطبيب الوسيم يهزأ بها كلما أوقعت مشرطًا؟ أسرعت فوق الجليد فى الزحافة التى هربت فيها، يطاردها الطبيب الحقود على قدميه. *قفي، أيتها الصغيرة الغبية. لا أستطيع، لا أعرف كيف*. أعرف ما سوف يحدث، فأنا معتادة على طراز بول فى الكتابة... عندما رآها الطبيب وقد وقعت رأسًا على عقب، ومغطاة بالفراء، هنا فقط سوف يكتشف كم يحبها، وبعد ذلك سوف يحاول اكتساب حبها. ربما تحدث له حادثة، أو تحدث لها هي، أحد الأمرين. ثلج نقى، جليد نقى، قبلة عفيفة.

كنت أشتاق إلى بساطة العالم، حيث السعادة ممكنة، والجراح مجرد جراح شعائرية. لماذا حُبست عن تلك الجنة البيضاء المستحيلة حيث الحب نهائى كالموت، ونفيت إلى هذا المكان حيث تغير كل شيء وتبدل؟

رن جرس التليفون، لكنى تركته يرن. لم أكن أنوى الخروج من حوض الاستحمام وبل الأرض لأستمع إلى تنفس شخص ما؛ قد أظل هنا مع شارون ودكتور هنتر. *لمس ذقنها، وهو يزيح خصلة من*

شعرها. وقال لها بجفاء أنها ينبغى أن تعقص شعرها إلى الخلف دائمًا: ألا تذكر ما تدربت عليه؟ شعر معقوص على شكل كعكة جذابة، خصائل الشعر وجدائله، صور موجودة دائمًا فى كتب بول، كما عند ميلتون. *احمرت وجنتا شارون، واستدارت لتخفى خجلها.*

بعد ثلاثة أرباع ساعة، والهليكوبتر التى تحمل الإسكيمو المنقذين تهبط وتكاد تلمس الأرض (فى أية لحظة الآن، الإعلان، الاحتضان)، كانت المياه قد بدأت تبرد لثانى مرة فى الحمام، ظننت أننى سمعت شخصًا فى الغرفة الأخرى. استمعت، مع الحرص ألا أصدر أى همسة: كانت هناك خطوات أكيدة، تعبر الغرفة الرئيسية وتتجه إلى غرفة نومي.

تجمدت فى حوض الحمام؛ واعترانى خوف شديد. وللحظة رقدت مثل لوح من الثلج؛ تمر مناظر المغتصبين حاملى الخناجر، ولمحة من أسنانهم يخر منها الدم، وصور لصوص المنازل، وجنونهم الناتج عن إدمانهم المخدرات، وقاتلين، صور منحرفين يمكن أن يقطعونى إربًا ويتركون قطعًا مختارة منى فى كل صفيحة قمامة فى المدينة. ولم تكن ثمة نافذة للحمام. ربما إذا بقيت هادئة قد يأخذ ما يستطيع أن يجده، وهو ليس بالكثير، ويترك البيت مثلما دخله. كنت أستطيع أن أقسم أننى وضعت الشبكة على النافذة التى تفتح على المدفأة، وأنه لا يمكن أن يكون دخل عن طريق الباب، فالباب يصدر صوتًا عاليًا وكان يمكن أن أسمعه.

ببطء خرجت من حوض الاستحمام. ولم أجذب مانع الصرف، لئلا يصدرَ صوت المياه وهي تنصرف. وفردت حصيرة الحمام، ثم ركعت عليها ووضعت عيني على فتحة المفتاح. في البداية لم أستطع رؤية شيء. الزائر الغامض كان بعيدًا عن مجال الرؤية في غرفة النوم. انتظرت، وعبر أمام الباب. كان وجهه ينظر في الاتجاه الآخر، لكنه كان قصيرًا وبدا مألوف الهيئة.

لابد أنه بول، هذا مؤكد. لم أتوقعه بهذه السرعة. كانت هناك أصوات تفتيش، وبعض الغمغمة: ماذا يفعل؟ كان المفترض أن يبحث عني، لا أن يفتش في دولابي. شعرت كأنني سوف أناديه: "أوه، بحق السماء يا بول، أنا هنا". لففت نفسي في فوطة حمام؛ لابد أن أخرج وأتحدث إليه حديثًا جادًا، أعتذر إليه، أخبره أنني آسفة لكنه أخطأ فهمي، فأنا سعيدة مع زوجي والماضي ليس إلا ماضي. بعد ذلك لن يمكنه أن يحملني بعيدًا. ثم نصبح أصدقاء قدامى.

فتحت الباب، وتقدمت بقدمي عارية إلى غرفة النوم، قائلة: "بول... أريدَ أن...".

التفت الرجل، ولم يكن بول. كان هو فريزر بوتشانان، بالسترة التويد ذات الرقع الجلدية وسويتر من طراز رقبة السلحفاة، بالإضافة إلى زوج من القفازات السوداء. كان يفتش في أدراج مكتبي، وكان

من الواضح من طريقته المدققة أنها لم تكن المرة الأولى التى يفعل فيها ذلك.

صرخت فيه: "ماذا تفعل هنا؟"

لقد فاجأته، لكنه استعاد ثباته بسرعة. كشف عن أسنانه بابتسامة صفراء جانبية.

قال بهدوء شديد: "أننى أجرى بحثًا". واضح أنها لم تكن المرة الأولى التى ضبط فيها.

قلت: "يمكننى أن أجعل الشرطة تقبض عليك". لا يمكن أن أكون قد بدوت فى كامل مهابتي: فقد كنت أمسك بالمنشفة من وراء ظهري.

"الواقع أننى أعرف عنك أكثر كثيرًا مما تظنين. أعرف أشياء أنا واثق أنك تفضلين أن تظل ... طى الكتمان، بيننا نحن الاثنين فقط".

ما الذى يعرفه؟ ومن الذى يمكن أن يشى إليه؟ فكرت، آرثر. آرثر سوف يعرف. شخصياتى الخفية، حياتى الأخرى، الأمر لا يستحق. لا يمكن أن أترك هذا يحدث.

استطعت أن أصرخ بصوت مكتوم: "ماذا؟ عم تتحدث؟"

"أظن أنك تفهمين ما أقول جيدًا، يا مسز فوستر. أو هل أقول مس ديلاكورت، ميس لويزا ك. ديلاكورت، مؤلفة "تحدى الحب" وغيرها؟"

إذن، لقد وصل إلى درج ملابسى الداخلية.

استمر يقول: "لقد قرأت عددًا من كتبك، رغم أننى لم أكن أعلم فى ذلك الوقت أنها كتبك. إنك لست سيئة، بالنسبة لهذا النوع من الكتابة. لكنها لا تتماشى مع *العرافة*، أليس كذلك؟ لابد أن أفكر أنها صورة مختلفة، ولا أتوقع من جمهورك المغرمين بتحرير المرأة أن يسعدهم عندما يسمعوا الأخبار، رغم أن بعض الناس الذين يمكن أن أفكر فيهم سوف يجدونها مسلية. هذا فضلاً عن *لافتة على جانب التل*. تلك الصور لك لطيفة حقًّا. اخبريني، كيف استطعت أن تفقدى كل هذا الوزن الثقيل؟"

قلت: "ماذا تريد؟"

قال ببرود وثقة: "حسنًا، الأمر يتوقف على ماذا لديك لتقدميه لى فى المقابل، كما يمكن أن نقول".

قلت: "دعنى أرتدى ملابسي، وسوف نتحدث عن ذلك".

قال فريزر بوتشانان: "أننى أفضلك هكذا".

انتابنى الغضب، لكننى كنت خائفة أيضًا. لقد اكتشف على الأقل اثنتين من شخصياتى السرية، وكنت فى حالة تشوش عند هذه النقطة حتى أننى لم أتذكر إذا ما كنت أمتلك غيرهما. وإذا لم أصبح بطلة ثقافية ما كان الأمر يهم كثيرًا، رغم أننى لم أكن أتحمل فكرة أن يعرف آرثر عن حياتى السابقة كعرافة. وإذا أخبر وسائل الإعلام عن حقيقة لويزا ك. ديلاكورت، فإن الفاصل القصير الذى عوملت فيه بجدية يكون قد انتهي. ومهما كان هذا الفاصل تعيسًا، إلا أننى اكتشفت أنه أفضل كثيرًا من عدم معاملتى بجدية. وأفضل أن أعمل راقصة باليه سيئة على أن أكون مُهرجة جيدة.

ارتديت ثوبى المخملى المشمشي، وجمعت شعرى على قمة رأسى مع ترك خصلات قليلة مغرية تتدلى على رقبتي، ووضعت فى أذنى قرطًا ذهبيًا مدلي. ووضعت ماكياج، بل أننى وضعت بعض العطر. لابد من أن أفعل شيئًا بخصوص فريزر بوتشانان، لكننى لم أعرف بعد ماذا يكون. قررت أن أعجبه. وابتسمت له وأنا أدخل غرفة المعيشة. كان يجلس على الأريكة الكبيرة ويداه على ركبتيه، كما لو كان بانتظار طبيب الأسنان.

اقترحت أن نخرج لتناول مشروب، حيث لم تكن ثمة ما يصلح للشرب فى الشقة (كذبة). وافق فورًا، كما ظننت أنه سيفعل. شعر أنه قد كسب الجولة، وأنه ليس ثمة ما يمكن مناقشته سوى الشروط.

كان البار الذى اختاره هو فورث إستيت. كان يأمل أن يرانى كثير من الصحفيين معه. طلبت دوبونيه بالثلج مع قليل من عصير الليمون، وطلب هو ويسكى دوبل. وعرضت أن أدفع الحساب، لكنه لم يوافق على ذلك.

قال لى "أعرف أيضًا مغامرتك الصغيرة مع ذلك الفنان المحتال، أو الشاعر، أو أيًّا كان ما يدعو به نفسه"، قال ذلك وهو يميل عبر المنضدة الأنيقة المستديرة ذات المرآة. "لقد كنت أتبعك فى كل مكان".

شعرت ببرد فى معدتي. كان هذا الأمر هو أقصى ما أخشاه. لقد كنت شديدة الاحتياط؛ هل أخبره تشاك؟ إذا كان يرغب حقًا فى إيذائي، بالطبع كان هذا ما سوف يفعله.

قلت: "الجميع يعرفون هذا. حتى زوجى يعرف هذا"، قلت هذا وأنا أبدى ازدراء كافيًا لإبعاد الأمر كأحد الأمور التى يمكن التفاوض بشأنها. "الرجل أصدر طبعات صحفية بشكل عملي. وباع اثنتين من قوائم الشراء الخاصة بى فى مظروف مغلق إلى إحدى الجامعات؛ وأقسم أنها كانت رسائل حب. كان قد سرقهما من حقيبة يدي. أما كنت تعلم هذا؟" كان بيع نماذج من خط يدى شيئًا يهدد تشاك كثيرًا بفعله ــ كان بحاجة إلى الخبز، كما كان يقول ــ لكن بقدر ما أعلم، لم يفعل ذلك أبدًا.

وقع وجه فريزر بوتشانان كما لو كان طبقة من طين غير جيدة الصناعة: فإذا كان آرثر يعرف بالفعل، فهو لن يجنى شيئًا من التهديد بإخباره.

سألته فى معرض الحديث، لتقليل ارتباكه: "كيف دخلت؟" كنت مهتمة أيضًا: فقد التقيت بالكثير من هواة الفنون الغريبة، لكن لم ألتق بمحترفين أبدًا. "يمكن أن تكون النافذة الواقعة فوق مخرج النار".

قال: "لا، إنها التالية لها. قفزت عبرها".

قلت: "حقًا؟ إنها مسافة بعيدة. وأفترض أنك كنت تطلبنى ثم لا تقول شيئًا".

"حسنًا، كنت أريد أن أتأكد أنك لست هناك، حتى أدخل".

قلت: "نوع من الوقاية".

"نعم، لكن كان لابد أن تكتشفى الأمر إن آجلاً أو عاجلاً".

شرح كيف تتبع اسمى قبل الزواج ـــ والذى لم يظهر أبدًا فى أى لقاء صحفى ـــ بتمشيط سجلات الزواج. وقال: "هل حقًا سبق لك الزواج من شخص يسمى إيونيس ب. ريفيل؟". ثم كان يبحث فى الكتب السنوية للمدارس الثانوية حتى وجدني. ومقابلة اسمى باسم لويزا ك. ديلاكورت كان مجرد تخمين، والذى كان بحاجة لتأكيده بأن يعثر على دليل. وكان بوركيوباين الملكى أسهل، فقد فكر أيضًا أنه

كان فى مأزق، ولكن ما أراحنى أنه اعترف بأن هذا لم يكن صحيحًا. قال باشمئزاز: "لم يعد الزواج كالمعتاد، قبل سنوات قليلة كان ذلك يساوى مبلغًا كبيرًا من المال. ولكن الآن كل شخص يقول كل شيء، حتى يظن المرء أنها منافسة".

سألته عن الحيوانات الميتة، وكذلك عن الرسائل القصيرة. سألنى بدهشة حقيقية: "ولماذا أفعل شيئًا كهذا؟ إن ذلك لن يأتى بفائدة. أنا رجل أعمال".

"حسنًا، إن كنت تتبعنى فى كل مكان، ربما تكون قد رأيت من تركها. تلك القصاصات والأشياء".

قال: "أنا لا أعمل فى النهار يا عزيزتي. فى الليل فقط، أنا رجل ليلي".

وتناولنا شرابًا آخر، ثم رحنا نتحدث فى العمل. سألته: "ماذا تريد من كل ذلك؟"

قال: "ببساطة، المال والنفوذ".

قلت: "حسنًا، ليس لدى الكثير من المال، وليس لدى أى نفوذ".

لكنه رفض أن يصدق ذلك. كان يكره المشهورين، وكان يشعر أنهم انتقصوا منه، فهو يرى أنهم جميعًا، مهما كانت سرعة زوال شهرتهم، لديهم المال والنفوذ. وليس هذا فقط، لا أحد منهم كانت لديه

أية موهبة حقيقية، على الأقل ليس أكثر ممن يليهم، ولهذا فهم يصلون حيث يلقون ما يساعدهم على المغالطة وتزييف الحقائق، وهم يستحقون أن يخسروا بعض أموالهم. وكان يزدرى *العرافة* بشكل خاص، وكذلك ناشر أعمالي، كما كان مقتنعا بأننى استخدمت نفوذى الأنثوى لنشر الكتاب. قال وهو يتناول مشروبه الرابع: "إنه دائمًا ينشر لنساء صغيرات غير معروفات، ذلك الرجل. بصور كبيرة لهن على الغلاف الخلفى للكتاب، فقط الوجه والرقبة، وحتى الردفين. وكلهن لقطة فى وعاء الفضلات، لا موهبة".

قلت: "لابد أن تقوم بكتابة النقد الأدبى".

قال: "ماذا، وأترك مهنتى؟ ألا تأتينى بربح كافٍ". لم يستخدم أبدًا كلمة "الابتزاز"، وكان يشير إلى الآخرين الذين كان يبتزهم، حسب تعبيره، بأنهم زبائنه.

قلت، وعيناى قد اتسعتا بالتقدير: "من أيضًا؟". كنت أعطيه فرصة أن يتعم بما يفعل.

وهنا ارتكب خطأه. أخرج دفتره الأسود، ومن ثم جعلنى أعرف أنه موجود. قال: "طبعًا، لا أستطيع أن أخبرك بتلك الأشياء التى يفضلون ألا يعرفها الناس، كما أننى لن أخبر أحدًا بأسرارك. لكن فقط لأعطيك فكرة...". قرأ سبعة أو ثمانية أسماء، وقد انبهرت بما يكفي. قال: "إليك واحد منهم. قد تظنينه نظيفًا كالصفارة، استغرق

الأمر منى ستة أشهر فى البحث عنه، لكن الأمر كان يستحق، إنه يفضل الصبيان، هذا سره. أظن أنه لا مشكلة إن كنت تحبين هذا النوع من الأشياء. يمكن دائمًا أن تجدى شيئًا إن بحثت عنها بما يكفي. والآن، هيا إلى العمل".

لابد أن أستولى على هذا الدفتر. كان أملى الوحيد هو أن أحتفظ به فى البار فترة كافية حتى يثمل وأسرقها من جيب سترته. وقد لاحظت أى الجيوب يضعه فيه. ولسوء الحظ، كنت أنا نفسى قد بدأت أثمل.

بعد مناقشة طويلة، راحت تبطئ وتصبح أكثر لفًا ودورانًا مع كل مشروب، اتفقنا على عشرين بالمائة من دخلي. وقال أن على أن أرسل إليه صورة من تقارير حسابات حقوق التأليف، وهكذا يعرف أننى لا أغشه. وقال: "فكرى أننى نوع من الوكلاء". كان قد أجرى نفس الترتيب مع العديد من المؤلفين الآخرين.

وبينما نقوم لمغادرة المكان، قال وهو يترنح: "عندك أم عندي؟"

قلت: "عندك طبعًا، هل تذكر إنى متزوجة؟"

كان الأمر أسهل كثيرًا مما ظننت. فقد أوقعت به ونحن نصعد مدخل العمارة التى تقع بها شقته الفاخرة، وحصلت على الدفتر بينما أساعده على الصعود، ودخلت معه إلى المصعد، وانتظرت حتى كاد الباب أن يغلق، ثم انسللت خارجه وجريت من المبنى، ووقعت وأنا

أجرى وتمزق طرف ثوبي، غير أن الأمر لم يكن خطيرًا. قفزت إلى سيارة أجرة، وانتهى الأمر. مبتذلاً كما يحدث فى مسلسلات التليفزيون، تقريبًا.

كان آرثر فى البيت عندما عدت. كنت أسمعه يكتب على الآلة الكاتبة فى غرفة مكتبه، تات ـــ آ ـــ تات ـــ تات. أغلقت على نفسى فى الحمام، وخلعت ثوبى المخملي، ورحت أقرأ دفتر فريزر بوتشانان. كان الكتاب مغلفًا بكعب من الجلد الأسود، ليس عليه اسم أو عنوان، وأطرافه مذهبة، وكانت الكتابة بالداخل صغيرة جدًا، كما لو كانت آثار صرصور. لم أتعب نفسى بالأسرار المدهشة جدًا التى كتبها، لم أستطع مقاومة البحث عن نفسي.

كان الكتاب منظمًا مثل المفكرة اليومية، بالتواريخ. وكانت الملاحظات النافعة أمامها نجمة؛ والباقى كانت ملاحظات متنقلة لبوتشانان.

ج. ف. ـــ المؤلفة "المشهورة" لكتاب *العرافة*. مقابلة فى الحفلة. فنانون مدعوون. المكان بيت حجرى يبدو مبنيًا من قشر البندق. شعرها أحمر، مصبوغ بلا شك. تظاهرت بالغباء، ضحكة جوفاء، نظرت من فوق كتفها كثيرًا. تتفادى الكلام عن الكتاب، لابد أن أنظر فيه. متزوجة من آرثر فوستر، يكتب لمجلة "ريسيرجينايتس"، شخص تافه مغرور.

وفيما بعد:

الدخل التقديري: ؟؟، ليس كثيرًا، لكنه تستطيع الحصول على مال من فوستر. *البحث عن اسمها قبل الزواج.

وفيما بعد:

إنها على علاقة جنسية بـــ ت. ب. وهى علاقة ستكلفها الكثير. أجرة الخطيئة تدفع شهريًّا مع بالغ التقدير والاحترام. *سجلات الفندق. الحصول على صور إن أمكن.

وفيما بعد أيضًا:

لويزا ك. ديلاكورت.

لقد كان منظمًا تمامًا. وتعجبت، ماذا قلت وضايقه؟ هل هى الكراهية التى أقرأها، أم مجرد عبث ساخر من مرتزق جامد الرأس؟ أفترض أن رجلاً قصيرًا سوف يرى الأمر كذلك. هل كانت ضحكتى جوفاء؟ شعرت أنه كان يكرهنى بالفعل. وشعرت بالضيق، كما لو كنا قد قضينا أمسية لطيفة معًا.

ولكن لم يكن ثمة ما يهم، حيث أننى ما دمت حصلت على الدفتر، وأنوى الاحتفاظ به. لا شك أنه سوف يحاول استعادته، وسيكون يائسًا، فهو مصدر عيشه. كما أنه دليل إدانة: فهو بخط يده، وعليه اسمه، والعنوان موجود داخل الغلاف، لم يكن بمقدوره إنكاره.

وأدهشني أن أحدًا لم يحاول سرقته من قبل. لكن، ربما لم يكن قد أخبر أحدا غيرى به.

اخترت صفحة، وقطعتها ووضعتها في ظرف. سوف أرسلها له في الصباح، كما لو كانت أذن ضحية مخطوفة، فقط ليعلم أن الكتاب معي. ووضعت ملحوظة بالداخل أيضًا: لو حدث لي أي شيء فالكتاب في أيدٍ أمينة. كلمة واحدة منك وسوف يذهب إلى الشرطة. وشعرت أنني وضعته في مأزق.

ذهبت إلى الفراش قبل آرثر، لكني رقدت يقظة فترة طويلة بعد أن جاء لينام، محاولة فك التعقيد الذي أصبحت عليه حياتي. في أية لحظة قد ينقض بول علي، وفي يده سيف خيالي، ويقوم بعملية إنقاذ رديئة تدمر حياتي. والآن فريزر بوتشانان ربما يحاول أن يستعيد دفتره، وعلى أن أفكر في مكان جيد أخبئه فيه؛ خزانة في إحدى محطات مترو الأنفاق، أو ربما يمكنني الاستمرار في إرساله بالبريد مرة تلو المرة لنفسي... لا، هذا صعب. ربما أحصل على خزينة ودائع في أحد البنوك.

الحقد يتدفق نحوى، حولي، شخص ما يرسل لي رسائل قصيرة عبثية ولكنها خطرة، ويطلبني ويتنفس؛ فريزر بوتشانان تحسب له بعض تلك المكالمات فقط. هناك من كان يترك حيوانات ميتة على عتبة بابي، وإن لم يكن بوركيوباين الملكي فإنه شخص

يعرف قصتى معه. من الذى يمكن أن يكون قد اكتشف الأمر؟ ربما هناك شخص يترك الحيوانات، وآخر يرسل الرسائل، وثالث يطلب المكالمات... ولكن هذا لم أستطع تصديقه. لابد أن يكون ذلك شخص واحد، ولديه خطة، مؤامرة لها هدف ما...

ثم فجأة عرفت. لقد كان آرثر. كل شيء كان آرثر. لقد اكتشف علاقتى ببوركيوباين الملكي، لابد أنه عرف منذ بعض الوقت. وكان يراقبنى طوال الوقت، دون أن يقول شيئًا؛ إنه من طبعه أن لا يقول شيئًا. لكنه لابد قد توصل إلى قرار بالنسبة لى أخيرًا، بيان، حظ عاثر. كنت لا أستحق، سوف يكون علىّ أن أرحل، وكانت هذه خطته للتخلص منى.

فكرت كيف يمكن أن يكون قد فعل كل هذا. الرسائل الخالية من الاسم سهلة، ويمكن أن أبحث فى الصفحات الصفراء فى الصحف الموجودة فى المنزل لأرى إن كان شيء مقصوصًا منها، ولكنه لن يكون بهذا الإهمال. معظم التليفونات كانت وهو خارج البيت، رغم أنه صحيح أن بعضها كانت وهو موجود. ولكن، كان يمكن أن يجعل أحد أصدقائه يساعده. (من؟) الحيوانات، أى شخص يمكن أن يجد حيوانات ميتة. ووضعها على العتبة هو الأمر الأكثر صعوبة، خاصة حيث أننى كنت أستيقظ قبله فى الفترة الأخيرة، لكنه كان يمكن أن يضعها هناك ليلاً.

إنه هو، لابد أنه هو؛ كان يعمل بهدف ما ولم أكن أريد أن أعرف ما هو على الإطلاق. إن الشرح السهل سوف يكون أنه قد جُن، بطريقة شديدة العمق ولا يسهل اكتشافها. لكن ليس من الضروري أن يكون ذلك هو الأمر. لقد اكتشفت أن كل رجل عرفته في حياتي كانت لديه نفسان: أبي، طبيب وقاتل؛ الرجل صاحب المعطف التويد، منقذي وربما أيضًا مفسد، بوركيوباين الملكي وشخصيته الأخرى، تشاك برووار؛ حتى بول، الذي كنت دائمًا أعتقد بأن له حياة أخرى شريرة لا أستطيع تخللها. لماذا يكون آرثر استثناء؟ كنت أعرف أنه يمر بمراحل مختلفة، لكنني لم تتسرب إلى نفسي الريبة في جانبه الآخر المختلف تمامًا مع شخصيته؛ ليس حتى الآن. وحقيقة أنني تأخرت كثيرًا في اكتشاف ذلك جعله يبدو أكثر تهديدًا.

كان آرثر شخصًا لا أعرفه على الإطلاق، وكان في الفراش إلى جواري. وشعرت الآن بخوف، حتى أن أتحرك؛ ماذا لو استيقظ، وعيناه تبرقان، وحاول أن يصل إلي...؟ وطوال باقي تلك الليلة كنت أستمع إليه يتنفس. وبدا مسالمًا للغاية.

لابد أن أرحل، بأسرع ما يمكن. إن ذهبت ببساطة إلى المطار وأخذت طائرة، فأي شخص يمكن أن يتمكن من تعقبي.

حياتى كانت حشد مختلط، جحر فأر مليء بخيوط متشابكة ونهايات غير واضحة. لم يكن من الممكن أن تكون لى نهاية سعيدة، لكنى أردت نهاية نظيفة. شيء نهائي، مثل المقص. سوف أضطر أن أموت، ولكن لهذا أنا بحاجة لمساعدة. من الذى يمكننى الثقة به؟

الفصل التاسع والعشرون

فى الصباح انتظرت حتى خرج آرثر من البيت؛ ثم اتصلت بسام. قلت له: "لابد أن أراك، الأمر هام".

قال: "ما الذى حدث؟". كانت مارلين قد ردت على التليفون، وبدا أن سام كان لا يزال نائمًا.

"لا أستطيع التحدث على التليفون". كان سام يعتقد تماما أن تليفونه مراقب عن طريق المخابرات المركزية الأمريكية، أو على الأقل عن طريق مخابرات الشرطة الملكية الكندية، وربما كان على حق. كما أننى أردت أن أبدو وكأننى مصابة بجنون الارتياب منذ البداية لإقناعه.

تحول سام إلى شخص مفعم بالنشاط والحيوية، وقال: "هل آتى إليك؟"

قلت: "لا، سوف أقابلك أمام تاى سيتى فى شارع بلور بعد نصف ساعة". كان سام يسكن فى البناء الملحق، وكنت أعرف أنه يستطيع أن يأتى فى الموعد إذا أسرع، وقد أردته أن يأتى بسرعة، فسوف يشعر بأن الأمر أكثر إلحاحًا، وضعت السماعة لأقفل السكة فجأة لمزيد من الغموض.

فكرت جيدًا فى القصة التى سوف أقولها لهما، لأنهما بالطبع سيأتيان معًا؛ فلا مفر من أن مارلين سوف تأتى أيضًا. لم يكن من الممكن بأى حال أن أخبرهما بالحقيقة، كالعادة. فإذا قلت الحقيقة لهما، فسوف يشعران أنهما لا يستطيعان مساعدتي، حيث أن المشاكل الشخصية المجردة، وفقًا للأيديولوجية التى يؤمنان بها، لا يفترض أن تكون ذات أهمية بالغة. لو كنت أستطيع لقاء كل منهما على انفراد لكان الأمر مختلفًا، ولكن معًا فكل منهما شاهد على الآخر ومن المحتمل أن ينقلب إلى اتهامه. كنت بحاجة إلى النذلين المناسبين، اللذين يمكن لهما اضطهادى من أجل قضية يعتبرانها مهمة. شعرت بأننى حقيرة إلى حد ما فى ذلك. سام، مثله فى ذلك مثل معظم أعضاء الجماعة، كان شخصًا صادقًا بشكل جوهري، ولكن بطريقة ملتوية نوعًا؛ بينما كنت أنا ملتوية بشكل جوهري، مع غلاف خارجى من الصدق. لكنى كنت يائسة.

انتظرت بعصبية أمام تاى سيتى، أنظر إلى أربطة العنق فى نافذة العرض وأنظر من حين لآخر من فوق كتفي؛ حتى ظهر سام ومارلين. والواقع أنهما جاءا فى تاكسي، وهو أمر بعث الأمل فى نفسي: فالشيء المعتاد هو أنهما لا يستقلان تاكسى أبدًا.

قلت لهما بصوت خافت، مختلس: "تظاهرا بأنكما طبيعيان. اظهرا أنكما تسيران فى الشارع". سرنا فى الشارع، متجهين إلى

الغرب، وقلت لهما مكان وموعد اللقاء الحقيقي. قلت: "أظن أننى رأيت أحدهم عند الناصية. لا تجعلا أحدا يتبعكما". ثم افترقنا.

فى الثالثة والنصف بعد الظهر التقينا فى روى روجرز، الفرع الواقع فى شارع بلور غرب يونج. وطلبت شراب لبن مخفوق مع البيض. وأخذ سام ساندويتش "روى" مع المشهيات، وطلبت مارلين ساندويتش "ديل إيفانز".

حملنا الصوانى التى تحمل ما طلبناه إلى منضدة مستديرة بجوار النافذة المزودة بلوح من الزجاج حيث نستطيع من خلاله أن نرى خلفية صغيرة تحتوى لوحة إعلانات ضخمة للكوكا كولا، فتاة وفتى يبدوان بصحة وعيون مليئة بالحيوية يتناولان المشروب.

قال سام: "لقد اخترت مكانًا عظيمًا، لن يساور أحد أبدًا الشك فى هذا المكان".

سألت مارلين: "هل تعرف أنك يمكن أن تحصل على رصاص حقيقى بطلبه؟"

قال سام ساخطًا: "حقيقي، رصاص. هناك الكثير منه حولنا أكثر من الصلبان الحقيقية. بالإضافة إلى أن البنادق الحقيقية معبأة ومملوءة منذ سنوات". سكتت مارلين.

فتشت أسفل المنضدة، كما لو كنت أبحث عن ميكروفونات مخبأة، ثم ملت ناحيتهما. قلت: "لقد عرفوا مسألة الديناميت".

لم يقل سام أى شيء. لفت مارلين سيجارة، كانت قد اتجهت إلى السجائر اللف أخيرًا؛ وعندما تشعلها كان التبغ يبدو خارجًا منها ومتوهجًا، لكنها احتفظت بالسيجارةِ فى جانب فمها وهى تتكلم. قالت: "من الذى اكتشف؟ كيف عرفت؟"

قلت: "أنا متأكدة. يمكن أن تكون شرطة أونتاريو المحلية، أو الشرطة الملكية الكندية؛ ربما حتى المخابرات المركزية الأمريكية. على أية حال هو جهة من هذا النوع. عندما ذهبت لتحريك السيارة أول أمس رأيت رجلين يراقبانها. ولم أقترب منها، ولكنى سرت فى طريقى وكأن لا علاقة لى بها. وعندما عدت بالأمس كانا لا يزالان هناك، أو ربما كان رجلان آخران. وفى هذه المرة لم أدخل حتى إلى الشارع، عبرت وسرت من شارع جانبي".

قالت مارلين: "هذا يعنى أنهم لم يصلوا إليك بعد، وإلا ما كانوا أتعبوا أنفسهم فى مراقبة السيارة، بل لكانوا يراقبونك أنت".

قلت: "لم يصلوا لى بعد، هذا صحيح، لكنهم سوف يصلون. سوف يتتبعوننى إلى الشقة؛ فقد أعطيت عنوانها عندما اشتريت السيارة، سوف يعرفون وصفى من البائع. فإذا قبضوا عليّ، فسوف يعرفون اسمى الحقيقي، وسوف يقبضون على آرثر، ثم سيقبضون عليكما".

اهتز سام. كان حلمه بالهروب قد عاد إليه الحياة أخيرًا، ولكنه لم يكن يرتاح إليه. لكن مارلين كانت شديدة التماسك. ضاقت عيناها، جزئيًا بسبب الدخان. قالت: "هل تظنين أنهم الشرطة الملكية؟"

قلت: "لو كنا محظوظين. فلو كانت هي، ربما لن يجدونى أبدًا، وإذا فعلوا على الأقل سنحصل على محاكمة. لكن إن كانت المخابرات المركزية الأمريكية، أو شيئًا أسوأ، فقد ... أنتم تعلمون، يتخلصون منا، وهم دائمًا يجعلون الأمر يبدو وكأنه انتحار، أو حادث".

قال سام: "ما أسوأ هذا. أننى آسف أن أوقعناك فى ذلك. لكن لا يمكن أن تكون المخابرات المركزية الأمريكية، فنحن مجرد بطاطس صغيرة".

قالت مارلين: "أظن أنك مخطئ، إنهم يكرهون المنظمين القوميين، وهم يريدون هذا البلد أن يظل فى أسفل مكان".

قلت: "حسنًا، هناك شيء واحد جيد، الآن هم لا يستطيعون تتبع الخيط لأبعد من تلك الشقة، حتى يكتشفوا من أنا".

قالت مارلين: "الأفضل أن نخرجك من البلاد".

قلت: "نعم". ربما قلت ذلك بسرعة أكثر من اللازم. "لكنى لا أستطيع أن أقفز على طائرة بكل بساطة، فإذا اختفيت، سوف يظلون

يبحثون عنى حتى يجدونى. أظن لابد أن ندبر نوعًا من النهاية النهائية بالنسبة لهم".

قال سام: "ما هى فكرتك؟"

فكرت قليلاً. "حسنًا، أظن أننا سوف نهيئ مسرحًا لموتي؛ وبهذه الطريقة، عندما يبدأون فى البحث، سوف يكتشفون أننى قد مت، وسيكون هذا هو النهاية، فلا يوجد شيء حقيقى هناك يصل بين بقيتكم وبين بالسيارة والديناميت، سوف نتركها هناك حيث هي، وندعهم يتساءلون حولها".

أعجبتهما الفكرة، وبدأنا نناقش الطرق والوسائل. وفكر سام فى خطة لرسم حادث سيارة مزيف، باستخدام جسم مشوه حتى تغيب معالمه. لقد تفرج على الكثير من حلقات الجريمة التليفزيونية.

سألت مارلين: "ومن أين لنا بالجسد؟" وكانت هذه نهاية تلك الفكرة.

وتورد وجه سام. "هاي... ما رأيكما ببرميل من الحامض وفيه أسنانك؟ لا شيء يقارن بالأسنان لمعرفة الإنسان، إنهم يستخدمون هذه الطريقة فى حوادث الطائرات ليعرفوا الضحايا. سوف يظنون أن بقية جسمك قد أكلها الحامض".

سألته: "ومن أين ستأتى بأسناني؟"

قال سام: "سوف يتم انتزاعها كلها بالطبع"، وقد تأثر قليلاً برد الفعلى السلبى على وجهي، "يمكنك أن تحصلى على طاقم أسنان، إنها صحية أكثر على أى حال".

قلت: "لا، سوف يعذبون طبيب الأسنان. وسوف يخبرهم بكل شيء". وتنازلت قليلاً: "ربما أفكر فى سنة واحدة أو اثنتين".

عبس سام: "لو كنت جادة فى ذلك، فيجب فعله بالطريقة الصحيحة".

قلت: "إن ما أنا بحاجة إليه هو شيء نظيف تمامًا. ما رأيكم فى هذا؟" وجذبت قصاصة من صحيفة من داخل حقيبة يدي. كانت عن امرأة غرقت فى بحيرة أونتاريو، بمنتهى البساطة، وبدون ادعاءات. مجرد أنها غاصت مثل الحجر، ولم يتمكنوا من استعادة جسمها أبدًا. لم تبذل أية محاولة للإمساك بطوق النجاة الذى ألقوه لها. قالت الجريدة أنها كانت إحدى المرات الأولي، التى أقيم فيها تحقيق وتم استخراج شهادة وفاة بدون وجود جثة. أحيانًا كنت أقص أشياء كهذه من الصحف، ظنًا منى أنها قد تصلح كأحد عناصر عقدة إحدى القصص. ومن حسن الحظ أننى احتفظت بهذه.

قال سام: "لكن هذا حدث بالفعل".

قلت: "لن يلاحظوا. أتمنى على الأقل ألا يلاحظوا. على أية حال، إنها فرصتى الوحيدة".

وسألت مارلين: "وماذا عن آرثر؟ هل ينبغى أن يعرف؟"

قلت: "بالقطع لا. آرثر لا يعرف أن يمثل دورًا، أنت تعرفين هذا. يا إلهي، سوف تحقق الشرطة معه، هذا أكيد، وإن كان يعرف أننى حية بالفعل فإما أن يبدو مزيفًا جدًّا حتى أنهم سيعرفون أن هناك خطأ ما، أو سيكون شديد الهدوء حتى يظنون أنه فعل ذلك بى بنفسه. لن يستطيع أن يقنع أحدًا. يمكن أن نخبره فيما بعد، بعد أن ينتهى كل شيء. أعرف أن هذا من القسوة، لكنها الطريقة الوحيدة". وقد أكدت على هذه النقطة عدة مرات معهم، فآخر شيء أردته أن يكون آرثر فى أعقابي.

وأخيرًا وافقا. والواقع أنهما شعرا بالفخر لأننى اعتقدت أنهما قادران على القيام بهذا العمل بشكل أكثر إقناعًا بكثير من آرثر. قلت لهما: "فقط لا تبالغا فى الحزن. بعض الأسى، لكن ليس الكثير من الحزن."

وفكرا أننى ينبغى أن أحصل على بعض الوثائق المزيفة للخروج بها من البلاد، لكننى قلت أن صديقًا لى سوف يتولى هذه المهمة، وأنه كلما كانت معرفتهما أقل، كلما كان ذلك أفضل. كنت سعيدة لأننى احتفظت ببطاقة وجواز سفر لويزا ك. ديلاكورت حتى اليوم.

قالت مارلين أنها ينبغى أن تذهب إلى مقابلة، ومن ثم سار سام معى حتى نفق المترو. كان قلقًا بخصوص شيء. وأخيرًا قال: "جوان، هل أنت متأكدة من هؤلاء الرجال؟ هل أنت متأكدة من أنهم يراقبون؟"

"نعم، لماذا؟"

"لأنهم ليسوا بهذه الدرجة من عدم الكفاءة. فإذا كانوا هناك ليومين، ربما قد توصلوا إليك الآن".

قلت: "سام، لست متأكدة بشكل قاطع. ربما كانوا هم، وربما أكون على خطأ. ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد فى رغبتى فى الرحيل".

قال سام: "ما السبب إذن؟"

"هل تعدنى ألا تخبر مارلين؟" ووعدنى. "أننى أتعرض للابتزاز".

قال سام: "لابد أنك تمزحين، لأى شيء؟"

كنت أريد أن أخبره، وكنت على وشك أن أخبره، لكنى فكرت مترددة، وقلت: "ليس لسبب سياسي، إنه أمر شخصي".

لم يصر سام على التفاصيل؛ كان يعلم متى يتراجع. وقال: "أنا أيضًا أتعرض للابتزاز. إنها مارلين، فهى تريد أن تخبر دون عنا".

"سام، هل يجب أن تأتى مارلين؟"

قال: "نعم، إننا بحاجة إلى شاهدين. على أية حال، سوف تكون رائعة فى التعامل مع الشرطة، إنها ماهرة فى الكذب".

قلت: "سام، إن فعلت ذلك من أجلى فهو كرم كبير منك". كنت قد بدأت أرى أنه كان طلبًا كبير الشأن. "إذا وقعت أنت فى أى مشكلة حقيقية، سوف أعود وأدفع كفالتك وأحررك".

ضغط على يدى ليشعرنى بالأمان. وقال: "سوف يمر الأمر بمنتهى الدقة كساعة العمل، سوف ترين".

لم أخبره عن الأشياء الأخرى، الحيوانات الميتة ومكالمات التليفون والرسائل. شعرت أن كل هذا سيكون شديد التعقيد. ولم أشر أيضًا إلى شكوكى بشأن آرثر. فقد كان سام يعرف آرثر لوقت طويل، ولن يكون بمقدوره أن يصدق أنه يمكن أن يقوم بمثل تلك الأشياء. سوف يظن أننى أتخيل.

كان ينبغى أن يقع الحادث فى خلال يومين، بشرط أن يظل الطقس مناسبًا. استخدمت الوقت الباقى لى لعمل بعض الترتيبات. أولاً اشتريت تنورة وبلوزة لكى أرتدى فى الطائرة ملابس لم يرها أحد علىّ من قبل. وذهبت إلى المطار بالمترو والباص واشتريت تذكرة إلى روما، باستخدام هويتى الخاصة باسم لويزا ك. ديلاكورت. وقلت أننى ذاهبة فى رحلة لمدة أربعة أسابيع، واشتريت كوفية وردية

وبعض النظارات القاتمة اللون، وغيرت ملابسى الجديدة في مرحاض السيدات، وغطيت شعري، ثم استأجرت سيارة داتسون حمراء. وقلت أننى سوف أعيدها إلى المطار فى خلال يومين. وذهبت إلى مرحاض السيدات مرة أخرى، وعدت مرة أخرى إلى ملابسى القديمة، وقدت السيارة بعيدًا.

توقفت بالسيارة عند الناصية القريبة من شقتنا، وفحصت لأتأكد من أن آرثر ليس هناك، وأخرجت حقيبة قديمة من الدولاب، ووضعت فيها بعض الأشياء الأساسية، ولففت الحقيبة فى ورق بني، وحملتها كما لو كانت طردًا إلى السيارة، حيث وضعتها فى الصندوق الخلفي.

فى الصباح التالى قلت لآرثر إننى أعانى من صداع وسأظل فى الفراش لبرهة. وسألته أن يأتينى بأسبرين وزجاجة ماء. كنت أظنه سيغادر المنزل بأسرع ما يمكن ــ فهو يكره أن يرانى مريضة ــ لكن لدهشتى لم يغادر، وأحضر لى كوب شاي، وسأل إن كان يستطيع أن يفعل أى شيء. شعرت بتأثر: ربما أخطأت الحكم عليه، ربما ينبغى أن أخبره كل شيء، فليس الأمر متأخرًا جدًّا... لكن ربما كان يمثل بهذه الطريقة لأنه يخمن أننى على وشك فعل شيء. ذكرته بالمقال الذى كان ينبغى أن ينهيه لمجلة ريسيرجينايتس، وأخيرًا خرج.

قفزت من السرير، وارتديت ثوبًا محترمًا، وحشرت بنطلونى الجينز والبلوزة والتى شيرت فى حقيبة يدى المكتظة بالأشياء. بسبب آرثر كنت بالفعل متأخرة ثلاثة أرباع ساعة عن الجدول المرسوم. قدت السيارة المستأجرة نحو الشرق، وسرت عبر المدينة، وعلى شاطئ بحيرة أونتاريو، باحثة عن بقعة أستطيع فيها أن أرسو دون أن أصدم بصخور أو بازدحام من الناس، ووجدت منطقة ممتدة من الشاطئ مكسوة بأشجار قصيرة؛ وبعض المناضد المخصصة للنزهة، والتى كانت خالية، وكان أملى أن تظل خالية؛ وفكرت أنها ستظل كذلك، حيث أنه يوم عادى من أيام الأسبوع فى شهر يونيو، وفصائل النباتات على الطريق لم تزهر تمامًا بعد، سوف أترك السيارة هنا وأعود إليها فيما بعد. الأشجار ستخيفنى عندما أخرج من البحر إلى الشاطئ.

قدت عائدة إلى أقرب تليفون، وكان خارج نطاق الخدمة، فطلبت تاكسي، شارحة أن سيارتى قد تعطلت وأننى متأخرة على موعد فى المدينة. وشرحت المكان وقلت أننى سأكون واقفة بجوار سيارة داتسون حمراء. وقدت السيارة عائدة إلى الشاطئ، وأغلقتها، وحقيبتى فى صندوقها، ومع تذكرتي، والهوية التى باسم لويزا ك. داخل العلبة الموجودة فى اللوحة الأمامية، ودفنت مفاتيح السيارة فى الرمل تحت العجلة اليمنى الأمامية، وعندما جاء التاكسى ركبته إلى فندق رويال يورك، ودخلت من الباب الأمامي، ونزلت إلى الطابق

الأسفل، وغيرت ثيابى ولبست الجينز والتى شيرت، وحشرت الثوب الذى كنت أرتديه داخل حقيبة يدي، وسرت خارجة من الباب الجانبي. كان مرسى المراكب على بُعد بضعة نواصي، وكان سام ومارلين هناك بالفعل.

سألت مارلين: "هل تبعك أحد؟"

قلت: "لا أظن". ورحنا نتدرب على القصة التى سيقولانها لآرثر: لقد التقينا مصادفة فى الشارع، وفى لحظة اندفاع قررنا أن نذهب لركوب مركب شراعى فى الجزيرة، مركب شراعى وليس زورق طويل خفيف، حيث شعرنا أنه من الأسهل الوقوع من مركب شراعي، بينما إن كان زورقا فسوف ينقلب بنا جميعًا فى البحيرة، وقلت لهما أنه لا داعى لأن يبتلا أيضًا.

أخذنا المعدية إلى الجزيرة. كانت مارلين قد أحضرت كاميرا، فقد شعرت أنه لابد أن يكون ثمة تسجيل يظهر أننا سعداء وغير مهمومين، ومن ثم فقد اتخذت وضع التصوير مع سام، ثم مع مارلين، مستندة على درابزين المعدية، وأبتسم وكأنى امرأة مغفلة.

وما أن وصلنا إلى الجزيرة، حتى تجولنا ذاهبين وعائدين لأماكن تأجير القوارب، محاولين أن نقرر أيّها أقل إثارة للريبة. واخترنا المكان الذى يبدو أكثرها إهمالاً، ومنحونا مركبًا شراعيًّا بدون أى مشاكل، خمسة دولارات مقدمة، والباقى عندما نعود. كان

المكان صغيرًا وهادئًا، وقال المراكبى أن هذا المركب من المفترض أنه لشخصين فقط، لكنه سوف يتغاضى عن تلك النقطة ما دمنا لا نخرج بها من الميناء.

قال: "تعرفون كيفية قيادة المركب الشراعي"، وبدا وكأنه يدلى بنوع من التقرير وليس سؤالاً.

قلت بسرعة: "بالطبع". عاد المراكبى داخل سفينته، وتركنا مع المركب.

بدأ سام يفك المركب بنشاط من المرسى. وركبنا جميعًا، وانطلقنا نحو ميناء تورونتو، حيث توجد مراكب شراعية أخرى، أشرعتها البيضاء ترفرف كالأجنحة، تسير بكفاءة بحركة متعرجة ذهابًا وإيابًا.

قلت: "ثم ماذا؟"

قال سام: "ثم ليس علينا إلا أن نرفع الأشرعة". وراح يفك حبالاً مختلفة ويتصارع معها، بهذه الطريقة، ثم بتلك، حتى بدأ شراع يتحرك نحو الصارى.

سألته: "هل تعرف فعلا كيف تُسيّر مركبًا شراعيًا؟"

"أكيد. كنت أفعل ذلك طوال الوقت، فى المخيمات الصيفية".

سألته مارلين: "متى كان ذلك؟"

قال بطريقة دفاعية: "حسنًا، أننى أتذكر الأساسيات، لكن إذا كنت تفضلين أن تتولى أنت المهمة...".

قالت مارلين: "أنا، عن نفسي، لم يسبق لى ركوب مركب شراعى أبدًا". وقالت ذلك بنوع من الازدراء الذى تحتفظ به النساء للرجال الذين يُكشف كذبهم وزيف استعراضهم لخبرة ما. وفى هذا الوقت كنا نتحرك بثبات نحو طريق إحدى معديات الجزيرة.

قلت: "ربما ينبغى أن نعود ونؤجر زورقا طويلاً خفيفاً".

قال سام: "لا نستطيع، لا أعرف الطريقة".

وانتهى الأمر بمارلين تمسك بذراع الدفة، بينما أنا وسام نتدافع لنتفادى عمود قاعدة الشراع، ونحاول السيطرة على الحبال التى كانت تتحكم بطريقة ما فى الأشرعة. ونجحت هذه الطريقة، بعد بعض التعديلات، لكن روحى المعنوية انخفضت. لماذا لفقت ودبرت هذا السيناريو التافه والميلودرامى تماما، والذى قد ينتهى بقتلنا جميعًا بصدق؟ فى ذلك الوقت كنا نتمايل عابرين ميناء تورنتو، وتجاوزنا الممر المرتفع الذى بدا أنهم يبنونه من النفايات المجمعة للتخلص منها أصلا ، ثم خرجنا إلى البحيرة. وبينما كان القارب تحت السيطرة تقريبًا، انحنيت على ظهر القارب، أحدق فى مرآتى المكتزة ومحاولة أن أغطى وجهى بظل العيون من علبة بها *لون أزرق منتصف الليل*. كان الوجه الأزرق اقتراح مارلين: قالت أنه بهذه الطريقة لن يُرى

وجهى الأبيض من الشاطئ. ولهذا السبب أيضًا كنت أرتدى بنطلون جينز وتى شيرت أزرق.

خارج الميناء كانت الرياح أعنف، وكانت هناك أمواج حقيقية. أسرعنا نحو الشرق والريح خلفنا. وكان وجهى الآن أزرق بما يكفي، وكنت ألقى نظرة دقيقة على خط الشاطئ، الذى بدا مختلفًا تمامًا عند رؤيته من داخل المياه، محاولة أن أتذكر أين تركت السيارة.

صحت أقول لسام: "إننا بعيدين جدًّا عن الشاطئ، ألا يمكنك أن ندخل أكثر؟" كمن أستطيع السباحة، لكنى لم أكن سباحة قوية. لم أكن أريد أن أضطر لأن أطفو ميلاً كاملاً على ظهري.

أعطتنى مارلين النظارة المكبرة الخاصة بدون، والتى فكرت أن تحضرها، ذلك التدريب القديم فى المرشدات، لقد أحضرت كل شيء إلا أعلام الإشارة. وفحصت الشاطئ بها، وهناك رأيت الشاطئ الرملى ومناضد النزهة،و، نعم... والسيارة، متراجعة عند مطعم للوجبات السريعة خلفنا.

صِحت أقول لسام مشيرة: "إن المكان هناك خلفنا، كيف نعود هناك؟"

صاح سام، باحثًا عن حبل: " نغير اتجاه السفينة".

"ماذا؟"

صرخ: "لابد أن أمسك بذراع الدّفة"، وبدأ يزحف عائدًا نحونا.

قالت مارلين، بل صرخت: "أوه، يا إلهي، لقد تذكرت شيئًا حالا". حيث أننا ما كنا لنسمع شيئًا فوق صوت الأمواج والرياح، والتى بدأت تبدو مخيفة. كان للأمواج خطوط زبد أبيض عليها وكانت تتناثر على جوانب القارب.

"ماذا؟"

"دون... سوف ينشر هذا فى كل الصحف، وسوف يعرف أننا كنا سويًّا".

صرخت: "قولا له أنكما مجرد صديقين جديدين".

قالت مارلين: "هذا لن ينفع"،وقد سرها أن الشيء الذى أرادت كشفه سوف يظهر تحت الضوء دون تدخل منها؛ وفى غمرة حالة يأسها، أو سرورها، تركت ذراع الدفة. تأرجح القارب، وانهار الشراع، والتفت سام متحاشيًا، وضربنى ذراع التطويل على ظهري، وألقى بى من فوق جانب المركب.

لم أكن مستعدة، وامتلأ فمى بمياه بحيرة أونتاريو غير الصالحة للشرب وأنا أغوص. كانت أكثر بردًا كثيرًا مما توقعت، وكان طعمها يشى بطعم زعانف سمك عفنة وحفاضات أطفال قديمة، طفوت إلى السطح وأنا أكح وألهث.

كان سام قد أسقط الشراع وكان القارب يتمرغ مبتعدًا. كانت مارلين تصرخ: "أوه، يا إلهي"، بصدق بالفعل، كما لو كنت قد وقعت فعلاً من فوق القارب وبسبيلي إلى الغرق. مدت يديها نحوى، وهى تميل بشكل خطر، ونادت: "هنا يا جوان"، لكن سام أمسكها.

لم يكن من الممكن أن أتسلق إلى القارب مرة أخرى ثم أعود إلى القفز ثانية بالطريقة الصحيحة؛ كان يجب أن أواصل من حيث كنت. قمت بعمل غطس ضعيف وحاولت أن أسبح تحت القارب، كما كنا قد خططنا. كان المفترض أن أخرج على الناحية الأخرى، حيث أكون بعيدًا عن الأنظار من الشاطئ فى حالة ما إذا كان أى شخص يراقب ما كان يحدث، وكانت هذه الحركة ضرورية حيث أننى رأيت عائلة جالسة على إحدى مناضد النزهة. وخرجت على الناحية الأخرى فى المحاولة الثانية، لكن مارلين وسام كانا لا يزالان ينظران إلى الجهة التى اختفيت فيها: وبدا أنهما نسيا كل شيء عن الخطة. قطعت المنظار المكبر من على عنقى ــ فقد كان وزنه يدفعنى تحت الماء ــ وحاولت أن أقذفه على القارب، لكنى لم أنجح، وغاص إلى الأبد. ثم تذكرت ثوبي، والذى كان محشورًا فى حقيبة يدي، التى خزنتها بعناية فى مقدمة السفينة صحت: "ثوبي، تذكرا أن تخفياه"، لكنهما ابتعدا عنى فى اتجاه الريح ولم يسمعا، كانا يحاولان استعادة السيطرة على القارب.

بصقت ماء أكثر من البحيرة ثم استلقيت على ظهرى باستقامة بقدر ما استطعت؛ إن كان هناك شيء واحد عرفت كيف أفعله فهو الطفو على سطح الماء. وجهت نفسى نحو الشاطئ ورحت أضرب بقدمى تحت الماء، وكنت آمل أن أكون متجهة بقوة نحو رمل الشاطئ دون أن يعترضنى أى شيء، بمساعدة الأمواج، التى كانت تتكسر من حين لآخر فوق رأسي. كنا نعمل بغير إتقان، لكن ليس بغاية السوء. كان من الممكن أن يبدو عملنا هذا أفضل لو كنت فقط قد غُصت بعيدا عن القارب. حدقت فى السماء الزرقاء فوقى، بسحبها البيضاء المتهادية، وركزت تفكيرى فى الخطوة التالية.

لحسن الحظ وصلت إلى الأرض خارج نطاق نظر من كانوا يجلسون عند مناضد النزهة التى كانت تخفيها مجموعة من الشجيرات. كنت أبعد خمسمائة ياردة فقط عن المكان الذى كان يجب أن أصل إليه. جذبت نفسى على الشاطئ ورقدت هناك، ألتقط أنفاسي، بينما جمّعت الدوامة حولى قشر برتقال، سمك بحرى صغير ميت وكتل بنية مريبة الشكل، تجذبها الأمواج وتدفعها. كان شعرى مليئًا بالرمل وقطع صغيرة من أعشاب البحر. وعندما كنت مستعدة زحفت بقدر ما أستطيع من هدوء على الشاطئ واختفيت خلف الشجيرات. كنت أعرف أن سيارتى على الجانب الآخر منها، لكن العائلة التى تتنزه كانت هناك أيضًا. ولم أكن أريد المخاطرة بالاقتراب جدًّا منهم،

غير أنني استطعت أن أسمع أنين الأطفال وانتحابهم وأصوات الأب الدالة على الضيق والاستهجان.

اختبأت تحت الشجيرات لمدة نصف ساعة على الأقل، يسيل الماء مني وأرتعد وأتفادى اللبلاب السام والأكوام الجافة من مخلفات الإنسان، وورق التواليت الذائب، والحُشوّات المجعدة من ورق لف السندوتشات، وقطع سُجق وزجاجات شراب غازى قديمة، وأتساءل ما إذا كانوا ينوون البقاء طوال اليوم، وإن كان الأمر كذلك فهل تفوتنى الطائرة. أخيرًا سمعت صوت موتور سيارة ووطء العجلات على الحصى.

تركت لهم وقتًا كافيًا ليبتعدوا، ثم سرت إلى السيارة، أخرجت المفاتيح من المكان الذى دفنتها فيه وأخذت حقيبتى من الصندوق الخلفي، وغيرت ملابسى وارتديت التنورة والبلوزة فى المقعد الخلفي، وغطيت شعرى المبلل بالكوفية الوردية. كان وجهى فى مرآة المنظر الخلفى يبدو مدهشًا، غارق بالفعل، تقريبًا. مسحت طلاء الجفون الأزرق بالمناديل الورقية، ثم ألقيتها بين الشجيرات. ولففت بنطلونى الجينز والـ تى شيرت، وكورتهما وحشرتهما فى الكيس البلاستيك الأخضر الذى أحضرته لهذا الغرض؛ ووضعت الكيس فى قاع حقيبة السفر. وبينما قدت مبتعدة لمحت مارلين وسام؛ كانا قد عادا بالمركب، لكن لم يستطيعا أن يستديرا به، وكانا يحاولان الانطلاق نحو كنجستون وقد نشرا كل الأشرعة.

وصلت إلى المطار، وأعدت السيارة المستأجرة، وأخذت الطائرة قبل إقلاعها بعشرين دقيقة. كان الجلوس فى الطائرة فى انتظار الإقلاع هو أسوأ جزء، لم أستطع أن أصدق تمامًا أن أحدًا لا يتبعني، لكنى كنت فى أمان.

الجزء الخامس

الفصل الثلاثون

ما أغلى ثمن الأمان! سألت نفسي. كنت أجلس فى الشرفة بملابسى الداخلية، مغطاة بالفوط، آخذ حمام شمس فى وسط اللامكان. لم يكن "الجانب الآخر" فردوسًا، وإنما كان مجرد حالة انتقال. الآن أعرف لماذا يعود الموتى لمراقبة الأحياء: فالجانب الآخر كان مملاً. فليس هناك من نتحدث معه، وليس هناك ما نفعله.

ربما أكون قد غرقت بالفعل، هكذا فكرت، وأنّ كل هذا، ساعات طويلة فى الطائرة ـ شاهدت خلالها فيلم "ونستون الصغير"، بدون سماعتى الأذن _ والسيارة المستأجرة، والشقة، ورحلتى إلى روما لشراء صبغة شعر، كل ذلك كان نوعًا من المزحة التى أدامت أمدها حالة الحياة بعد الموت. فالروح تبقى لصيقة حول الجسد متعلقة به لفترة ما بعد الموت لأنها تكون قد أصيبت بكدمة، أو ذلك ما يقوله الروحانيون. وفى هذه الحالة، كان ينبغى أن أهيم فى مكان ما بالقرب من السطح الملوث بالزيت لبحيرة أونتاريو، إلى الشرق قليلاً من جزيرة تورنتو، ولا أضع تيارات المياه بعين الاعتبار. أو ربما يكونوا قد أخرجونى من الماء مثلما يُخرج الصياد السمكة منها، ولم يتعرف أحد عليّ، وكنت راقدة فى مشرحة عامة: أو ربما كان قد تم تقطيعى كقطع غيار، وكانت أحداث تلك البانوراما تدور لأن جسدًا آخر حصل على عينيّ. لم تكن حياتى تمر أمامى بكاملها كشريط

السينما كما هو المفروض أن يحدث، لكن ربما يحدث آنفا، فقد كنت دائمًا نبتة مزهرة متأخرة.

تعلمي أن تعيشي حاضرك، خذي الحياة كما هي، هذا هو ما قالوه لك في كتيبات "حسِّن تفكيرك". لكن ماذا إذا كان الحاضر قد مُحي، والحياة المستقبلية مستنقع آسن؟ كنت اشعر كأنني ألقيت وحدى على جزيرة موحشة؛ والدافع لإرسال رسائل، سواء فى زجاجات أو غيرها من الطرق، ينمو كل يوم. *أنا لا أزال حية. محبوسة هنا، لم ألمح سفينة منذ أيام. لقد تعبت من الكلام مع الزهور والحيوانات والنمل،*

أنقذوني من فضلكم. كنت هنا، في مكان جنوبي رائع المنظر، يملأه النسيم وسحر العالم القديم، لكن طوال الوقت كان بلدى مطمورًا في عقلي، مثل طبق معدني أُرجئ التفكير في شأنه من جراء عملية؛ أو بالأحرى، مثل إحدى تلك الكرات الصغيرة التي تلقيها في إناء من الماء فتتمدد وتتحول إلى زهور معدنية متوهجة. إذا تركتها تخرج عن السيطرة وقد تستولى على رأسي. لم يكن هناك معنى للهروب، فقد أحضرتهم جميعًا معي، لا زلت أستطيع سماع أصواتهم، تُهمهمُ مثل غوغاء بعيدة، ولكنها غاضبة. كان الوقت قد تأخر لإعادة ترتيب الأثاث، لهم، ولم أستطع أخراجهم من عقلي.

أين هى الحياة الجديدة التى كنت أنوى الدخول فيها، بسهولة كما لو كنت أعبر نهرًا؟ لم تتحقق، والحياة القديمة استمرت معي، كنت محبوسة فى شرفتى أنتظر أن أتغير. كان ينبغى أن تكون لى هواية معينة، صناعة أغطية الفراش، تربية بعض النباتات، جمع الطوابع. كان ينبغى أن أسترخى وأكون سائحة، سائحة تنتهز الفرصة وتأخذ لقطات، وتجمع المحبين بالأربطة الوردية والأحذية المدببة. أردت أن أرخى العنان لنفسي، أنقعها فى الجو المحيط بي، أرقد على ظهرى وآكل ما ينمو على شجرة الحياة، مهما كان هراء، لكن بشكل ما لم أستطع أن أفعل هذا. كنت أنتظر شيئًا أن يحدث، الانعطافة التالية للأحداث (أو الدائرة؟ أو الحلقة؟). كانت حياتى كلها معلقة على حبكات قصصية.

وتساءلت هل وصلت بطاقتى إلى آرثر بعد. هل سيلحق بي، هل سنبدأ مرة أخرى، هل ستكون هناك بداية جديدة، حياة جديدة؟ أم تُراه لا يزال غاضبًا، هل كان هو حقًا الشخص الذي...؟ ربما لم يكن ينبغى أن أرسل تلك البطاقة أبدًا. ومن ناحية أخرى، ربما يمزقها فقط، ويتجاهل رجائى بالإنقاذ.

أسندت ظهرى على الكرسى وأغلقت عينيّ. كان هناك بائع الخضراوات يقف فى المدخل، ذراعاه مليئتان بـــ ...، الخضروات طبعًا، وماذا غير ذلك؛ قرع صيفى مفرط فى النمو، وخرشوف، وبصل، وطماطم. ابتسم، وجريت ناحيته، عصرنى بين ذراعيه

المغطيين بكُمّين قصيرين بلون زيتوني، كان عصير الطماطم يملأ الأرض، وانزلقنا عليه وتشقلبنا وتكومنا بين القرع المحشور فى الوحل، كان الأمر يشبه ممارسة الحب بالخس، فهو هش وناعم فى نفس الوقت. لكن الأمر لن يكون كذلك، سوف يظهر فى المدخل، وبدلاً من أن أجرى ناحيته سوف أتذكر ملابسى الداخلية المنشورة على ظهر الكرسي. "عذرًا، سوف ألتقط بعض الأشياء". ماذا سيظن بي؟ سوف ألف حول الغرفة، أجمع أشياء، وأخفى أشياء. "هل تتناول كوبًا من الشاي؟" محاولة تفاهم. سوف تبهت ابتسامته. لماذا سألته المجيء على أية حال؟ وبالإضافة إلى ذلك، سوف يخبر كل شخص فى القرية، وسوف يتجمع الرجال ويزحفون حول بيتى بالليل، والأطفال سيقذفوننى بالحجارة.

جلست فى الكرسى البلاستيك وفتحت عينيّ. لا فائدة، كنت عصبية ومتقلبة كذبابة على مقلاة، لم أستطع حتى أن أحلم دون قلق. كنت بحاجة إلى مشروب وكان السينزانو قد فرغ من عندي. والأطفال كانوا يقذفوننى بالطوب بالفعل، بالأمس كادت طوبة أن تصيبني.

قمت وسرت حول الشقة. لا أزال بدون أى عمل روتيني، وبدا لى أنّ فعل أى شيء فى أى وقت أقل معقولية كل يوم. ذهبت إلى المطْبخ، ألتف بالفوط طوال الطريق. كنت جائعة، ولكن لم يكن ثمة ما يؤكل سوى المكرونة المطهية، والتى بدأت تجف بالفعل، وحزمة

مصفرة من البقدونس فى كوب من الماء على حافة النافذة. كان هناك ما يمكن قوله بالنسبة للثلاجات. رغم أنها توحى بوجود بقايا طعام بداخلها، إلا إنها تخلق وهم أن هناك دائمًا يومًا آخر، غد، يمكنك أن تحفظ الأشياء فيها إلى الأبد.... لماذا لم يقم محللو وسائل الإعلام بأى عمل حول الثلاجات؟ من المؤكد أن من يمتلكون ثلاجات لهم إدراك مختلف للحياة عن أولئك الذين لا يمتلكونها. إن البنك بالنسبة للمال، هو الثلاجة بالنسبة للطعام... وبينما تتقاطر هذه الأفكار عبر رأسى بدأت أشعر أن حياتى كلها كانت على الهامش.

لاحظت أن هناك شيء غير طبيعى بالنسبة للنمل. فحصت طبق الماء السكري: لقد نسيت أن أضيف ماء والمحلول أصبح شديد الكثافة. بعض النمل كان يحاول أن يقضم منه برفق عند الحواف، لكن أخريات غامرت بالسير على سطح المحلول ووقعت فى الفخ، مثل تلك النمور ذات الأنياب البارزة فى الفخاخ المحفورة. والآن كانت قد ماتت أو تهز قرون استشعارها بضعف. حاولت أن أنقذ تلك النملة التى كانت لا تزال حية بعود كبريت، أخرجها وأتركها على حافة الطبق؛ لكن لم يكن ذلك مفيدًا فى الغالب، فقد كانت مصمغة بدرجة تدعو إلى اليأس. كنت دائمًا سيئة مع الحيوانات الأليفة. كفي، كتبت بمياه السكّر. افعلى *شيئًا*.

ذهبت إلى الغرفة الرئيسية لأرتدى شيئًا من أثوابى المتسعة. لم أعد بحاجة إلى الكوفية الوردية: فقد صبغت شعرى فى اليوم التالى

لذهابى إلى روما، وهو الآن بنى بلون الطين. لم تعد له تلك الإشراقة الواعدة المتألقة. والواقع أنه بدا بشعًا. لماذا لم أشترى باروكة بدلاً من ذلك؟ كنت أعرف لماذا، كانت حرارتها شديدة، قد تجعل رأسى تغلى لكن باروكة رمادية لطيفة كانت ستبدو ألطف كثيرًا من صبغة الشعر.

سرت صاعدة التل إلى منطقة السوق. كانت تتناثر على الطريق بيانات يدوية ؛ ربما كانت هناك انتخابات، كنت أسمع أصوات شاحنات عالية تتجه نحو المنطقة تقريبًا كل يوم، وتطلق أبواقًا مزعجة وشعارات إعلانية. لكنى كنت خارج ذلك، فقد كنت أجنبية، وكان هناك شيء آخر، شيء غريب. كنت أعبر من خلال طريق تراصت حوله الأعين العدائية، النساء ذوات الأردية السوداء بأرجلهن الشبيهة بالنقانق لم يعدن يلقين علىّ تحية الصباح، بل لم يومئن حتى برؤوسهن، حدقن خلالى أو قلبن أعينهن، إحداهن وضعت يدها على عينى فتاة صغيرة تجلس بجوارها وأشارت بعلامة الصليب. ماذا فعلت؟ أى محظور انتهكته؟

ذهبت إلى المجزر، ودخلت من خلال المداخن البلاستيك الملونة الكثيرة التى تغطى المدخل مثل أعشاب البحر. كان الجزار وزوجته زوجين مريحين، مستديرين كالزلابيا كليهما، ملفوفين فى مرايل بيضاء كبيرة ملطخة بالدم. ولم تكن الصوانى خلف الزجاج فى خزانة العرض مليئة بشكل ملفت للأنظار كتلك الصوانى فى دكاكين

الجزارين فى تورنتو. فما يبيعانه كان قليلاً بالفعل: قطع قليلة صغيرة من اللحم المقطع قطعًا رقيقة، وأحد الأعضاء الداخلية: كبد، قلب، كلية أو اثنتين؛ وثلاثة أو أربعة أشياء بيضاوية بيضاء اللون كنت أشك أنها الخُصية. عادة كان الجزار وزوجته يرفعان، ويعرضان، ويقترحان أشياء مبهمة، وكانا بشوشين طوال الوقت.

لكنهما لم يكونا بشوشين اليوم. عندما رأيانى أدخل جمّدا محياهما وتحولا إلى حالة مراقبة. هل كنت أتخيل هذا، أم أنهما كانا خائفين منى؟ لم يساعدانى فى انتقاء الألفاظ الصحيحة بالطريقة التى يفعلانها عادة، وتناقص حوارى معهما إلى مجرد الإشارة. ورغم أننى اشتريت خمسة قطع صغيرة من اللحم الرقيق، وهى كمية مبالغ فيها، لم يهدئ ذلك منهما. ولم أستطع حتى أن أسألهما ماذا فعلت لأضايقهما أو أخيفهما بهذه الطريقة. لم أكن أعرف الكلمات المناسبة.

ذهبت إلى المخبز، إلى محل البقالة، إلى الخضري، النقود تنزف من كيس نقودى الجريح، والنتيجة واحدة، كان هناك شيء غير طبيعي. هل ارتكبت جريمة ما؟ لم تكن لدى أى شجاعة للسير إلى مكتب البريد، حيث أننى كنت أعرف أن رجل الشرطة سيكون هناك. لكننى لم أفعل شيئًا، قلت لنفسى لابد أن يكون هناك سوء فهم من نوع ما، وسوف يتم جلاءه فيما بعد. سوف أسأل مستر فيترونى عن ذلك.

صحت بشجاعة في مكتب البريد: "ديلاكورت". ولم يكن هناك أى تغير فى لهجة السيدة الجالسة على الكاونتر، حيث إنها لم تكن ودودة أبدًا. مدت لى وهى صامتة مظروفًا ممتلئًا. بنى اللون، خط سام.

بالخارج مزقته لأفتحه. كان مليئًا بقصاصات الصحف، مرتبة بعناية حسب التاريخ، الأقدم أولاً. ومذكرة مطبوعة من سام: "مبروك. لقد أصبحت معبودة الموت". ألقيت نظرة سريعة على القصاصات. الأولى كانت تقول: اشتباه فى الانتحار فى حادث موت المؤلفة، دعوة لإجراء تحقيق. وبدأت من هناك. بعض القصاصات كانت تنشر صورتى الموجودة على الغلاف الخلفى لكتاب *العرافة*، وبعضها ينشر اللقطات التى أخذتها مارلين فى يوم موتى على جانب القارب. كان هناك الكثير من الكلام حول طبيعتى المرضية، عيناى اللتان تبدوان مستسلمتان للقدر، نوبات الاكتئاب التى كانت تعاودنى كما هو واضح (ومع ذلك لا كلمة عن بوركيوباين الملكي، ولا شيء عن لويزا ديلاكورت... وكان فريزر بوتشانان يحتفظ بظهور خفيض). ازدهرت مبيعات كتابي، كل مجنون بسيرة الموت فى البلاد كان يندفع لشراء نسخة.

لقد تم إقحامى فى مستوى تلك السيدات التعيسات، العشرات منهن كما هو واضح، اللائى تم قتلهن بسبب الإفراط فى الكلمات. هنا كنت، فى قاع سفينة الموت حيث تمنيت ذات مرة أن أكون، اسمى

فى مقدم السفينة، أشق طريقى إلى قاع النهر. كثير من المقالات تعتمد على المغزى الأخلاقي: يمكن أن تغنى وترقص، أو أن تكون سعيدًا، ولكن ليس الاثنان معًا. ربما كانوا محقين، يمكن أن تبقى فى برجك العاجى سنوات، تتخذ سبيلاً ملتويًا، تنظر فى المرآة، لكن نظرة واحدة عبر النافذة إلى الحياة الحقيقية وينقلب الحال. اللعنة، القدر المحتوم. بدأت أشعر أنه رغم أننى لم أنتحر، إلا أننى ربما كان ينبغى أن أفعل. لقد جعلوا الأمر يبدو جديرًا بالتصديق.

بعد ذلك كان ما خطر بفكرى هو أننى الآن لا يمكننى العودة أبدًا. ها هم كل أولئك الناس يفيضون بكلمات مثل الزهور التى تلقى على تابوت، ويحصلون أجرهم المعتاد على ذلك، وتبدو عليهم الجدية البالغة. فلو نهضت من بين الأموات، ورقصت عائدة، وأعلنت أن كل ذلك كان خدعة، فماذا كان عساهم فاعلين؟ سيكون وكأنهم قذفوا بالبيض على وجوههم، سوف يكرهوننى إلى الأبد ويجعلون حياتى كابوسًا. النساء يحتقرن لأسباب عكسية، لا شيء يمكن مقارنته بغضب عابدى الموت المخدوعين. سيكون الأمر كما لو عاد جيمس دين إلى الظهور، أكبر بثلاثين عامًا، وبطنه كالقدر، أو ماريلين مونرو تسير فى شارع يونج بشعرها المعقوص، وقد زاد وزنها خمسين رطلاً. كل هؤلاء الذين كانوا يعبرون عن أسفهم ويتذكرون جمالى الباهر سوف يصابون بانزعاج بالغ إذا أصبحت أمامهم حقيقة لها لحم ودم. سوف أضطر إلى البقاء مدفونة بأمان على الجانب

الآخر، ربما إلى الأبد. والواقع أن الموت بدأ يصبح مربحًا جدًّا لبعض الناس حتى أنهم قد يصرعونني ويغرقونني فى ميناء تورنتو فى اللحظة التى أدفع فيها أنفى خارج الماء.

ما الذى أدى إليه موتى النظيف، الهادئ، المخطط جيدًا فى مغامرة بائسة؟ ظهر إلى الضوء دليل ـ أى دليل؟ كيف؟ ـ على أننى لم أقع، ولكنى قفزت. كان ذلك مضحكًا. فقد كنت بالفعل أنوى القفز، ولكن الواقع أننى وقعت، قبل الأوان. ووصل أحد الصحفيين إلى مارلين، التى بالغت. وقالت أنهما ألقيا لى طوق نجاة لكنى لم أحاول الوصول إليه وغصت فى المياه دون أية مقاومة، بالطبع لم يكن هناك أى طوق نجاة، ما كان ينبغى عليها أن تخترع طوق نجاة. لكن من أجرى لقاء مع أبي، ولماذا أخبرهم أننى كنت سباحة ماهرة؟ إنه لم يرنى أسبح فى حياته، لم أكن سباحة سيئة. فقد تعلمت السباحة فى المدرسة الثانوية فى حصص التربية البدنية، كانت إحدى الألعاب التى لم أكرهها، لأننى كنت غالبًا أثناء ممارستها بعيدة عن الرؤية. وكنت قد تفوقت فى الطفو على سطح الماء على ظهري، إضافة إلى سباحة ضربة الصدر. ولم أكن ماهرة جدًّا فى السباحة الطويلة.

إذن ظنوا أننى قفزت متعمدة، ورفضت طوق النجاة، وغصت مع سبق الإصرار، ولم يكن هناك ما يمكننى فعله لأثبت أنهم مخطئون، ومع ذلك فقد تطوع شخص مجهول بالإدلاء بمعلومات

تقول إنه لم يكن من شيمتى أن أنتحر، فقد كنت أحب الحياة. لم يكن من شيمتي، على الإطلاق.

حسناً، فكرت، ربما أننى أردت بالفعل أن أموت، وإلا ما تظاهرت بأننى كذلك. ولكن هذا كان خطأ، لقد تظاهرت بالموت من أجل أن أعيش، من أجل أن تكون لى حياة أخرى. لقد كانوا بعيدين عن الحقيقة، وأغضبنى ذلك.

سرت منحدرة على التل فى عودتي، أحمل كل لفافاتي. أنا أحب الحياة، قالت الصحيفة هذا عن حق، ومن ثم لماذا ظنوا أنى يمكن أن أفعل شيئًا كهذا؟

الفصل الحادى والثلاثون

قررت أن أتجاهل انتحارى، حيث أنه لم يكن هناك ما يمكن أن أفعله بهذا الشأن. وطوال الأيام الثلاثة التالية حاولت أن أعمل. جلست أمام الآلة الكاتبة بعينين مغلقتين، منتظرة أن تتفتح حبكة القصة بدون مجهود خلف عيني، كما لو كانت شريطًا سينمائيًا. لكن شيئًا ما كان يسد السبيل أمامها، ساد حياتى نوع من السكون والركود والتشويش الذهني. كنت قد جعلت شارلوت تنجو بشق الأنفس من عدة مخاطر: مرتين كانت على وشك أن تغتصب، ومرة كادت أن تقتل (زرنيخ فى عصيدة، وتسبب فى قيء حاد). كنت أعرف ما كان يجب أن يحدث. فليشيا، طبعًا، لابد أن تموت؛ فهذا هو مصير الزوجات. حينئذ تصبح شارلوت حرة لأن تصبح زوجة بدورها، لكن أولاً سوف تمر بمعركة أخيرة مع ردموند وتضربه بشيء (شمعدان، عصا نخس، حجر، أى شيء حاد صلب يؤدى المهمة)، فتوقعه ويصاب بحمى وهذيان، وأثناء هذا الهذيان يتطهر بالمعاناة وتظهر تصوراته ورغباته، ويغمغم باسمها. وسوف تمرضه بكمادات باردة وتكتشف كم تحبه بعمق؛ ثم سوف يستيقظ وقد استعاد وعيه الصحيح ويتقدم طالبًا يدها. كان هذا أحد مسارات الأحداث. والآخر يمكن أن يكون محاولة أخيرة للقضاء عليها، وردموند يقوم بالإنقاذ، بعد ذلك

يكشف لها كم يحبها، ومن الممكن أن تصاب هى بالحمى. كانت تلك هى الأهداف المرجُوّة، لكننى كنت أجد صعوبة فى الوصول إليها.

لكن بقي شيء، كانت فليشيا لا تزال على قيد الحياة، وبدا أننى لا أستطيع التخلص منها. كانت تفقد المزيد من جسدها المتألق؛ بدأت دوائر تظهر تحت عينيها، وخطوط بين حاجبيها، وكانت هناك بثرة فى رقبتها، وكانت بشرتها تتحول إلى لون شاحب. أما شارلوت فقد كانت الزهور فى وجنتيها، والربيع فى خطواتها، رغم أنها كانت تخشى السير تحت حواجز الأسقف بسبب الأشياء المتساقطة. كانت حياة الخطر تناسبها؛ وكذلك كانت حاستها السادسة تخبرها بأنها ستُمنح الجائزة، بل الجوائز فى واقع الأمر، فبالإضافة إلى ردموند، سوف تحصل على الزمرد، وفضة العائلة، وصكوك الأرض المحفوظة بعيدًا فى العليّات الموجودة تحت سطح البناية مباشرة، سوف تعيد ترتيب الأثاث وتعطى ثياب فيليشيا إلى جمعية "المدنيين المقعدين"، وسوف تفصل الخدم الأشرار مثل توم الحوذى عن العمل، وتكافئ الطيبين مثل مسز رايرسون، وسوف تلقى بشكل عام بثقلها فى كل مكان. كل ما كان عليها أن تفعله هو أن تحتفظ بجأشها حتى تصبح يدا القاتل حول عنقها بالفعل.

وقفت شارلوت تنظر من نافذة المكتبة. شخصان، رجل وامرأة، كانا يدخلان المتاهة. كانت تحاول أن تعرف من هما؛ وليس السبب أنها كانت متطفلة، ولكن فقط كانت فضولية تحب المعرفة.

كان ذلك جزءًا من جسارتها وإقدامها. سمعت ضجيجًا خلفها، فالتفتت. كان ردموند يقف فى مدخل الباب؛ حاجبه الأيسر يرتفع. والآخر، الأيمن، ظل كما هو، لكن الحاجب الأيسر كان يرتفع بكل تأكيد، محبب، مشتهيًا، بلا هوادة، مما جعل تورد حار يكتسح جسدها، بينما انزلقت العين من تحت حاجبه هذا مثل محارة متجولة فوق وجهها الذى احمر خجلا. هل كان ردموند يحترمها و يقدّرها، أم أن شهوة حيوانية فقط سيطرت عليه ؟ لم تستطع أن تجزم.

فى ذلك الوقت كانت فيلشيا راقدة على أرضية المتاهة المليئة بالشجيرات، كانت تعرف أن المتاهة خطرة، لكن هذه الحقيقة فى حد ذاتها أثارتها، كانت تنورتها مرفوعة حتى خصرها، وكذلك قميصها الداخلي، وكان شالها الرقيق غير مرتب حول رقبتها. كانت تمارس الجنس مع أوترلى، الذى رقد إلى جوارها منهكًا، وكانت يده اليسرى على الجانب الأيمن من صدرها، كما كان أنفه بجوار أذنها، وأذنه فى شعرها الطويل الأحمر. لم يكن ردموند يشك فى شيء، وهو الأمر المتعب. كانت فيليشيا تتمنى لو يشك فى شيء؛ ومن ثم سوف يتأكد من مدى إهماله لها. ورغم أن أوترلى كان متوهجًا ومبدعًا، إلا أنه أيضًا كان أحمق إلى حد ما. تنهدت فيليشيا وجلست، وهى تبعد يد أوترلى، وأنفه، وأذنه.

ثم نطقت بشهقة دهشة. كانت هناك فتحة بين الشجيرات، ومن هذه الفتحة كانت هناك عين ترقبها . وتحت العين كانت ابتسامة أشبه بابتسامة فأر،أخذت تتسع لتصبح ضحكة صامتة.

قال صوت توم الحوذى بتأمل محبور،" أفكر الآن أن سيدى سوف يريد أن يعرف ما حدث."

حدث هذا من قبل، وكانت فيليشيا تعرف أنه يعنى أنها سوف تضطر لرشوته، لكنها لم تعد تشعر بأنها يجب أن تفعل ذلك. كانت تأمل إلى حد ما أن يكتشف ردموند الأمر؛ وبعد ذلك سوف تعرف على الأقل على أى أرض تقف.

فى تلك الليلة جلست أمام منضدتها الفاخرة، تمشط شعرها الجميل الأحمر الذى يصل إلى خصرها، وتنظر إلى صورتها فى المرآة. كانت قد صرفت خادمتها. وكانت حزينة جدًا؛ كانت تشك أن ردموند لم يعد يحبها، فلو كان يحبها، لتركت هذا النوع من الحياة وعادت لتكون زوجة محبة مخلصة. سوف تُصرف شارلوت من طريقها وستتوقف عن علاقاتها بالطبقة الأرستقراطية المجاورة، كانت تسأله كل ليلة "هل تحبني؟"، عندما يدخل الغرفة أخيرا، متأرجحًا إلى حد ما لا شك من تأثير الذهاب والإياب حول شارلوت المراوغة. تمسحت فيه مثل نمر اليغور. لم تكن ترتدى سوى قميص خفيف. ومن الطبيعى أنها هى وردموند كان لهما غرفتان منفصلتان؛ لكن

ردموند لم يكن قد تخلى بعد عن زياراته الليلية لغرفتها، لم يكن بعد شديد الوضوح فى رغبته للتخلص منها، بالإضافة إلى أنه كان يسر بشكل ما بتعذيبها عن طريق الترغيب والمنع.

سألته: "هل تحبني؟"؛ كانت عادة تسأل مرتين، لأن ردموند لم يكن يسمعها فى المرة الأولى، أو كان يتظاهر بأنه لا يسمع. أجابها بصوت يبدو ملولاً إلى حد ما: "طبعًا". كان قميصها مألوفًا له، ولم يعد يؤثر فيه كما كان من قبل. كانت رائحتها هذه الأيام تبدو كرائحة الزهور الذابلة، رائحة تحلل الربيع، وليست تلك الرائحة اللطيفة لتحلل الخريف، وإنما رائحة كرائحة أطراف المستنقعات. كان يفضل رائحة شارلوت المنبعثة من نبات الخُزامى المبتذلة قليلا.

قالت فيليشيا بهيام: "ماذا أفعل من دونك؟"

أجاب ردموند وكأنه يتسلى "سوف ترثين نقودًا كثيرة". كان قد التفت نحو النافذة، رافعًا حاجبه الأيسر لنفسه لانعكاس صورته فى زجاج النافذة. لو كان شخص مغرض يراقبه لقال إنه يتدرب. كان يفكر فى شارلوت، كان يحب أن يجعلها تحمر خجلاً. لقد أصبح متعبًا من تبذير فيليشيا: من هيئتها التى تنتشر مثل الحشائش الغريبة، وشعرها الذى ينتشر مثل النار، وعقلها الذى ينتشر مثل السرطان أو مثل قمل العانة. قال لها أكثر من مرة: "تمالكى نفسك". لكنها لم تستطع تمالك نفسها، كانت تثور عليه كما لو كانت وباء، وتتركه

مبعثرًا. لكن شارلوت الآن، بمشداتها، وأسلوبها الخاص، ووجهها الأبيض الصبوح، وأصابعها الشاحبة... كانت رقتها تسحره وتستحوذ عليه.

أو هكذا تخيلت فليشيا، وهى تعذب نفسها، وتعض شفتها السفلى، تلك الشفة الممتلئة الشهوانية التى أحبها ردموند يومًا بجنون. الليلة كان متأخرًا عن العادة. تنشقت فيليشيا وهى تمسح الدموع بظهر يدها، كانت شديدة الذهول حتى أنها لم تهتم بالتأنق الذى يدعو لاستخدام منديل. ربما يمكنها أن ترى أن الحياة ستكون فى صالح شارلوت، على أية حال، وأنها هى نفسها سوف يتم التخلص منها. انحدرت دمعة على خدها، وقفزت من نهايات شعرها ذبذبات كهربائية صغيرة. فى المرآة كان هناك لهب، كان هناك ماء، كانت تحدق إلى نفسها من تحت سطح نهر. كانت خائفة من الموت. كان كل ما أرادته هو السعادة مع الرجل الذى أحبته. كانت هذه الرغبة المستحيلة الوحيدة التى دمرت حياتها؛ كان يجب أن تستقر عن رضا وقناعة، من أجل أكاذيب معتادة.

فتحت عينىّ، وقمت من أمام الآلة الكاتبة، ودخلت إلى المطبخ لأصنع لنفسى كوبًا من القهوة. كان كل شيء فيه ليس فى مكانه.

كان التعاطف مع فليشيا أمرا غير وارد، فقد كان ضد القواعد، و يفسد الحبكة تمامًا. كانت لدّى الخبرة الكافية لأعرف هذا. إذا كانت

عشيقته وليست زوجته، ربما كان يمكن العفو عنها وإنقاذ حياتها؛ أما كما هو الحال، فلابد أن تموت. في كل كتبي كانت الزوجات إما ينتهين بالجنون أو الموت، أو الاثنين. لكن ماذا فعلت لتستحق هذا؟ كيف يمكنني أن أضحي بها من أجل شارلوت؟ كنت قد بدأت أمل من شارلوت، بفضيلتها التي لم تمس وأساليبها النظيفة. كان ارتداؤها أشبه بارتداء قميص من الوبر الذي يجعلك تشعر برغبة في حك جلدك، كنت أريدها أن تقع في مستنقع من الطين، وأن تصاب بتشنجات الدورة الشهرية، وتعرق وتتجشأ وتخرج رياحًا. حتى ذعرها كان شديد النقاء، كذلك كان قاتلوها المجهولون، وطرقها، ومتاهاتها وأبوابها المحظورة.

فكرت أنه ربما في حياة جديدة، في الحياة القادمة، سأكون أقل تأثرًا بالعباءات وأكثر تأثرا بالثقوب في جواربي، والجلد الميت بجانب أظافري، وروائح الجسم، وآلام المعدة. ربما ينبغي أن أحاول كتابة رواية حقيقية، عن فتاة تعمل في مكتب ولها علاقات جنسية وغرامية مبهرجة وغير مرضية، لكن هذا كان مستحيلاً، إنه ضد طبيعتي. كنت أتشوق للنهايات السعيدة، كنت بحاجة للشعور بالخلاص عندما يكون كل شيء قد تحول إلى الجانب الصحيح ويمكنني أن أنثر المرح مثل الأرز على كل شخصياتي وأصرفها إلى السعادة والنعيم. ردموند هنا يُقبّل شارلوت حتى يدور محجري عينيها

ويعودان إلى رأسها، ثم يمكن أن يتلاشيا كلاهما. متى سوف ينعمان بسعادة كافية؟ متى سوف تكون حياتى خاصة بي؟

لم يكن هناك قهوة، ومن ثم صنعت لنفسى بعض الشاي. ثم جمعت ملابسى الداخلية من الأماكن التى كانت تنمو فيها، تحت المنضدة، وفوق أظهر المقاعد، ووضعتها فى حوض الغسيل. رحت أفركها بقطعة من الصابون الأخضر فى المياه المحمرة، والتى كان لها رائحة خفيفة من صدأ الحديد، ورائحة غاز خفى أيضًا؛ كان الحمام يزداد ركودًا كل يوم. صرف صحى سيء، أحلام سيئة، ربما كان هذا هو السبب فى أننى كنت لا أنام جيدًا.

عصرت الملابس الداخلية، كان ملمسها رمليًّا. لم يكن هناك مشابك، ومن ثم فقد علقتها على حاجز الشرفة. ثم أخذت حمامًا، رغم أن المياه كانت وردية وغير لطيفة مثل دم دافئ. جففت نفسي، وارتديت آخر طاقم نظيف من الملابس الداخلية، ولففت نفسى بالفوط. وصنعت كوبًا آخر من الشاى وخرجت إلى الشرفة. جلست فى المقعد البلاستيك، ورأسى مركون للخلف، وعيناى مغلقتان خلف نظارتى القاتمة، وحاولت أن أفرغ عقلي. وأغسل مخي. ومن الوادى جاء صوت رفيع، صبى يضرب على صحن معدنى لإخافة الطيور. شعرت بأننى مشبعة بالضوء؛ ولمعت بشرتى من داخلها بلون أحمر باهت.

وتحتي، فى أساس البيت، استطعت أن أسمع الملابس التى دفنتها تنمى لنفسها جسدًا. كان يكاد يكتمل؛ كان يحفر لنفسه طريقًا للخروج، مثل أحد حيوانات الخلد، وكان هنا ضخما وأعمى، ببطء وبألم تتسلق التل إلى الشرفة... مخلوق يتكون من كل اللحم الذى كان لحمى أنا فيما مضى والذى لابد أنه ذهب إلى مكان ما. لن يكون له ملامح، سوف يكون ناعمًا كالبطاطس، وباهتًا كالنشا، سوف يبدو مثل فخذ كبير، وقد يكون له وجه مثل ثدى بلا حلمة. كانت تلك *السيدة البدينة*. نهضت فى الهواء ونزلت علىّ وأنا راقدة ممدة فى المقعد. وللحظة رفرفت حولي، مثل طبقة النبات الخارجية، أو مثل محارة هلامية شفافة، هى شبحي، ملاكي؛ ثم استقرت واستغرقتنى وامتصتنى فأصبحت جزءا منها. ولهثت طلبا للهواء كى أتنفس داخل جسدى السابق. متنكرة، ومحجوبة، والفراء الأبيض يخنق أنفى وفمي. ملغية كنت ومطموسة.

الفصل الثاني والثلاثون

كان ردموند يسرع على الشرفة الخارجية. كان الوقت ليلا؛ وكانت الرياح تتنهد من خلال الشجيرات؛ كان ردموند فى حالة حداد. كان مرتاحًا، فى سلام مع نفسه: الآن وقد ماتت فليشيا، غرقت فى حادث أليم عندما فاجأها تزنى مع أخيه غير الشقيق فى قارب على ضفة النهر، ستكون حياته مختلفة تمامًا. هو وشارلوت لديهما خطط سرية للزواج، رغم أنهما سوف يؤجلان إعلان ذلك لبعض الوقت بسبب احتمالات النميمة. حدق هائمًا نحو نافذتها المضيئة. ما أن يتزوجا سوف يعلن تخليه عن وسائله الوحشية والمجنونة القديمة ويستقر. سوف تلعب على البيانو وتقرأ له الصحيفة وهو يرتاح بجوار نار مبهجة، مرتديًا خفًا منزليًّا صنعته له بيديها. وسوف ينجبان أطفالاً، أما الآن وقد مات أخوه، عندما انقلب به القارب فضربه فى رأسه، كان بحاجة إلى ابن ووريث ليخلفه مثل إيرل اوترلى الصالح. كل شيء انتهى بشكل جيد إلى حد ما. الغريب أنهم لم يجدوا جسد فليشيا أبدًا، رغم أنه طلب تمشيط قاع النهر.

تحركت الشجيرات، وخطا شخص ما خارجًا منها، ليقطع عليه الطريق. كانت امرأة بدينة ضخمة ترتدى ثوبًا قطيفة أزرق يقطر ماء، مقطوع على الصدر؛ صدرها يخرج من بين ثيابها مثل قمرين

كاملى الاستدارة. وتتدلى خصلات مبللة من الشعر الأحمر على وجهها المنتفخ مثل قطرات من الدم.

"ردموند، ألا تعرفني؟" قالت المرأة ذلك فى صوت مختنق، واكتشف مع رعبه أنه صوت فليشيا.

قال بنفاق واضح: حسنًا، إننى سعيد بكل تأكيد أنك لم تغرقى برغم كل شيء. لكن أين كنت طوال الشهرين الماضيين؟"

تحاشت سؤاله. قالت برقة: "قبلني، إنك لا تعرف كم اشتقت إليك".

قبلها قبلة سريعة روتينية على جبينها البارد الأبيض. كانت تنبعث من شعرها رائحة أعشاب الماء، والزيت والطعام المتحلل وروائح ميتة. مسح شفتيه خلسة فى كم قميصه، وتجمع الأمل فى صدره مثل قنديل على وشك الذبول: ماذا يفعل الآن؟

لاحظ باشمئزاز أن المرأة التى دعت نفسها باسم فليشيا كانت تفتح أزرار ثوبها؛ كانت أصابعها تتعثر عند الأزرار. وهمست: "هل تذكر عندما كنا فى بداية زواجنا؟ وكنا نتسلل هنا فى الليل، ونتعانق تحت ضوء البدر..." نظرت إليه بلهفة، تحولت ببطء إلى تعبير حزن عميق عندما رأت تعبير الاشمئزاز على وجهه.

قالت فجأة: "أنت لا تريدني". وبدأت تبكى، وجسدها الضخم يهتز نتيجة شهقاتها. ماذا يمكنه أن يفعل؟ "إنك لم تكن تريدنى أن

أعود على الإطلاق"، وبكت. "إنك أسعد حالا بدوني... وأنا بذلت كل هذا الجهد يا آرثر، لكي أخرج من تلك المياه وآتي كل هذه المسافة، فقط لأكون معك مرة أخرى...."

تراجع ردموند، متحيرًا. وسألها: "من هو آرثر؟"

بدأت المرأة تتلاشى كالضباب، كحبر وهمي، كثلج ذائب....

يمكنني سماع خطوات آتية على الطريق الممهد بالحصى، على بعد كبير، كما لو كان من خلال طبقات من وبر القطن. كنت لا أزال نصف نائمة؛ جاهدت لأقوم من المقعد ووقعت كل الفوط. خطفت واحدة، وتراجعت نحو الباب، لكن ذلك كان متأخرًا جدًا، كان مستر فيترونى آتيًا عبر الركن، وعبر الشرفة، وهو يحمل كل أقلامه اللباد؛ تحت ذراعه كان يحمل لفة ورقية بنية.

تراجعت إلى حاجز الشرفة، ممسكة الفوطة أمامي. عينه اتجهت إلى خط الملابس الداخلية المنشورة. انحنى انحناءته الخفيفة.

قال: "أتمنى ألا أكون مزعجًا".

قلت، مبتسمة: "على الإطلاق".

قال: "هل لمبات النور في حالة جيدة؟"

قلت وأنا أومئ: "نعم".

"المياه جارية؟"

أكدت له: "البيت تمام جدًّا، إننى أقضى وقتًا رائعًا، أجازة رائعة. السلام والهدوء رائعين". كنت أتمنى فقط أن يذهب، لكن بدا كما لو كان يريد أن يبيعنى لوحة أخرى. ولن أستطيع أن أقاوم، أعرف هذا.

نظر خلف كتفه، فيما يبدو نوعًا من الخشية، كما لو كان خائفًا من أن يراه أحد. قال: "سوف نتكلم بالداخل". وأضاف عندما رآنى مترددة: "هناك شيء لابد أن أخبرك به".

لم أكن أريد أن أجلس معه إلى المنضدة ملفوفة فى فوطة وملابسى الداخلية؛ بشكل ما كانت بالداخل أسوأ من أن تكون بالشرفة. طلبت منه أن ينتظر، وذهبت إلى الحمام، وارتديت أحد أثوابي.

عندما عدت كان جالسًا على المنضدة، واللفة الورقية على ركبته.

قال: "هل ذهبت إلى روما؟ هل أعجبتك؟"

بدأت أشعر بالسخط. من المؤكد أنه لم يأت ليسألنى عن المزارات السياحية. قلت: "إنها جميلة جدًّا".

"زوجك، هل يحبها أيضًا؟"

قلت: "نعم، أعتقد هذا، لقد أحبها كثيرًا".

قال مستر فيتروني: "إنها مدينة لابد أن يزورها المرء عدة مرات ليعرفها جيدًا، مثل المرأة". وأخرج عبوة من الدخان، وبدأ يلف لنفسه سيجارة. "هل سيأتي قريبًا؟"

قلت بضحكة صادقة: "أتمنى ذلك حقًا".

"أنا أيضًا أتمنى أن يأتي قريبًا. ليس من الجيد لامرأة أن تكون وحدها. الآخرون يتحدثون عن ذلك". وأشعل سيجارته، ونفض بقايا الدخان غير المستخدمة داخل العبوة، وأعادها إلى جيبه. كان يراقبني بإمعان.

قال: "هذا لك"، وأعطاني اللفة الورقية.

كنت أتوقع لوحة أخرى من القطيفة السوداء، لكن عندما فككت الحبل وفتحت الورقة، كانت فيها ثيابي، البنطلون الجينز والـ تي شيرت اللذان دفنتهما بحرص تحت البيت. وكانا مغسولان ومكويان جيدًا.

سألته: "من أين جئت بهما؟" ربما كان يمكنني أن أنكر أنهما لي.

"أبي، رآهما في التراب، تحت هناك حيث ينمو الخرشوف. لقد رأى شخصًا ما يحفر. وهو يعتقد أنه من الخطأ دفن مثل هذه الثياب، فهي ليست قديمة. وهو لا يتحدث الإنجليزية، فطلب مني أن أعيدها إليك، بعد أن غسلتها زوجتي".

قلت: "قل له أننى أشكره كثيرًا، وأشكر زوجتك أيضًا". لم يكن هناك من سبيل يمكننى من الشرح، رغم أنه من الواضح كان يريد شرحًا. انتظر؛ ورحنا ننظر إلى ثيابى المطوية.

قال أخيرًا: "الناس يتحدثون عن ذلك. إنهم لا يفهمون لماذا وضعت ثيابك تحت البيت، وهم يتحدثون عن هذا، وهم لا يعرفون لماذا قصصت شعرك الجميل جدًا، الذى يتذكره الجميع منذ الوقت الذى كنت فيه هنا من قبل، أنت وزوجك؛ وترتدين دائمًا نظارة قاتمة، مثل الخفاش، واتخذت اسمًا آخر. هذه أشياء لا يفهمها أحد. وهم يرسمون علامة..." ـ أشار بإصبعيه ـ "لكى يبعدون العين الشريرة التى لك عن أنفسهم فلا تصيبهم بالمرض أو سوء الحظ الذى أصابك. أنا نفسى لا أصدق هذه الأشياء"، قال ذلك فى لهجة اعتذار، "لكن العجائز..."

إذن فقد عرفوني. بالطبع عرفوني، إنهم يذكرون كل شيء منذ خمسة آلاف عام. ما أغبانى إذ آتى إلى هنا.

واستمر يقول: "وقد سألونى أن أطلب منك الرحيل. إنهم يعتقدون أن حظك السيئ سوف ينتقل لي، زوجتى تقول ذلك."

قلت ضاحكة: "أظن أنهم يعتقدون أننى ساحرة".

لكن مستر فيترونى لم يضحك؛ لقد كان يحذرني، ولم يكن الأمر مضحكًا.

قال بحزن: "سوف يكون من الأفضل لو جاء زوجك أيضًا. وهناك شيء آخر، جاء رجل هذا الصباح. وهو يسأل عنك. وهو لا يعرف الاسم الذى أعطيته لي، لكنه يقول سيدة، طويلة، وبشعر أحمر، وأنا أعرف أنها أنت".

قلت، بسرعة: "ماذا؟ من هو؟"

هز كتفيه، وهو يفحص وجهي: "لا أظن أنه زوجك. كما أنه كان المفروض أن يعرف أين تعيشين". ورأى أننى متضايقة. لو كان محقًا، ولم يكن آرثر، فمن يكون؟

قلت: "كيف يبدو؟ ماذا قلت له؟"

قال ببطء: "أعتقد أننى كان يجب أن أخبرك أولاً. قلت له أنك فى روما، وأنك سوف تعودين بعد يومين. وقلت له، أنه بعد هذا الوقت أستطيع أن أساعده. لكنى أقول له ربما لست أنت السيدة التى يبحث عنها".

قلت: "أشكرك، أشكرك جدًا".

بعد هذا التصرف الكريم، كان لابد أن أقول له شيئًا. انحنيت نحوه وخفضت صوتي، قلت: مستر فيترونى، إننى مختبئة. وهذا السبب فى أننى استخدمت اسمًا آخر وقصصت شعري. لا يفترض أن يعرف أحد مكاني، أظن أن هناك شخصًا يحاول قتلى".

لم تظهر الدهشة على مستر فيترونى. أومأ برأسه، وكأنه يعرف أن مثل هذه الأشياء تحدث كثيرًا. قال: "ماذا فعلت؟"

قلت: "لا شيء. لم أفعل أى شيء على الإطلاق. الأمر شديد التعقيد، لكن لابد أن له علاقة بالنقود". وبدا أنه يصدق هذا، ومن ثم فقد استمررت. "هذا الرجل الذى جاء، قد يكون أحد أصدقائي، أو ربما يكون عدوًا. كيف كان شكله؟"

مد مستر فيترونى يديه. "صعب على أن أقول. كان يركب سيارة حمراء، مثل سيارتك". كان لا يزال يعارض رغباتي، ماذا كان يريد؟ قال: "ربما يجب أن يقبض البوليس على هذا الرجل".

قلت: "هذا طيب جدًا منك، لكن لا أستطيع أن أفعل هذا. فلا أزال غير متأكدة من يكون هذا الرجل، بالإضافة إلى أننى لا أملك دليلاً. كيف كان شكله؟"

قال مستر فيترونى محاولاً المساعدة: "كان يرتدى معطفًا، معطفًا غامق اللون، أمريكي. كان طويلاً، نعم، وهو شاب، ليس عجوزًا".

سألته: "هل كانت له لحية؟"

"لحية لا، شارب، نعم".

لم يكن هناك أى فائدة من كل تلك الأوصاف. وبدا أنه لا يشبه فريزر بوتشانان على أى حال. قال مستر فيترونى: "يقول إنه صحفي، من جريدة، لا أعتقد أنه صحفي. هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أن يقبض عليه؟ يمكن أن نرتب ذلك، يمكننى ترتيب ذلك معهم".

هل كان يطلب رشوة؟ وخطر لى أن هذه الزيارة لم تكن من أجل الصداقة. وإنما كانت نوعًا من التفاوض، ولا شك أن مثل هذا التفاوض جرى مع الرجل. وإذا دفعت، فسوف يساعدني. وإلا فسوف يخبر هذا الرجل كيف يجدني. ولسوء الحظ لم يكن معى نقود كافية. قررت بسرعة أننى ينبغى أن أغادر المكان فى ذلك المساء، سوف أقود السيارة إلى روما.

قلت: "لا، حقًا، سوف أتصرف فى الأمر بطريقتي".

وقفت ومددت يدى إلى مستر فيترونى، قائلة: "أشكرك جدًا، كان كرمًا منك أن تخبرنى بكل هذا".

بدت عليه الحيرة؛ لابد أنه كان يتوقع منى أن أعقد معه اتفاقًا. قال: "أستطيع مساعدتك. هناك بيت، أبعد من هذا، بعيد عن المدينة. يمكنك أن تبقى فيه حتى يرحل هذا الرجل، سوف نحضر لك بعض الطعام".

قلت: "أشكرك، ربما أفعل ذلك".

وبينما يرحل، ربت على كتفي.

قال: "لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام".

في المساء حزمت حقيبتي، وحملتها إلى السيارة. لكن عندما بدأت تشغيلها، كان صهريج البنزين فارغًا. ما أغباني، فكرت وأنا أتذكر أن البنزين كان منخفضا في الصهريج في رحلة العودة من روما، لكن عدت وفكرت: لقد تم إفراغه.

الفصل الثالث والثلاثين

لم يكن ينبغي أبدًا أن أخبره أن لديّ مال. ها أنا أرى كل شيء الآن بوضوح، فالمؤامرة واضحة. لقد كانت متعمدة، منذ البداية. الرجل العجوز صاحب الخرشوف كان جاسوسًا، لقد كان والد مستر فيترونى، وقد أُرسل لمراقبتي، وبمجرد أن رآنى قبل أن أتنكر، أخبرهم فتآمروا عليّ. وإذا وافقت على الاختباء فى البيت المنعزل سوف أصبح سجينة. وسيكون من الغباء أن أذهب إلى أى شخص وأطلب بنزينًا. فسوف يعرفون حينئذ أننى أريد المغادرة. كما أنه لا يبيعه أحد فى المدينة، لابد أن يرسلوا لإحضاره، وهكذا سوف يكون من المؤكد أن يسمع مستر فيترونى بالأمر. وسوف يأتى ويقول لى أننى لا أستطيع الحصول عليه. سوف أتوسل، وسوف يقول: "البنزين سوف يكلفك كثيرًا".

وربما كان الجنود أو الشرطة متواطئين أيضًا، فسوف يساعدونه، ولن يكون هناك أحد ليوقفهم. والواقع أننى قلت له ما معناه أن لا أحد يعرف أين أنا؛ إنها دعوة مفتوحة. وعندما يصل آرثر سوف يخبرونه أننى رحلت، وأنهم لا يعرفون إلى أين ذهبت. وفى ذات الوقت سأكون مربوطة بالحبال ولا حول لي، سوف يطلبون منى أن أرسل طلبًا لنقود، وعندما لا تصل أى نقود، ماذا سيفعلون حينئذ؟ هل سيقتلوننى ويدفنوننى فى مقبرة من الحصى بين أشجار

الزيتون؟ أو هل سيحتفظون بى فى قفص ويزيدون وزنى كما كان يحدث بين القبائل البدائية فى أفريقيا، ولكن بأطباق ضخمة من المكرونة، هل سيجعلوننى أرتدى ملابس داخلية سوداء من الساتان من النوع الذى يعلن عنه على ظهر عبوات الملابس الداخلية، هل سوف يطلبون ثمنا كرسم دخول لرجال من المدينة، هل سأصبح إحدى عاهرات فيللينى، ضخمة الجسم وبشعة الشكل ؟

هذا شيء خطير، قلت لنفسي. *تمالكى نفسك*. ربما كنت أتحول إلى شخصية هستيرية. لم أكن أريد أن أقضى بقية حياتى فى قفص، كعاهرة بدينة، أو كإحدى أسيرات "إلهة الأرض" (أى المرأة التى تجمع ما بين الصفات المادية والشهوانية) التى كان شخص ما يجمع أموال تذاكر الدخول إليها. لابد أن أفكر فى خطة ما. ومع ذلك، كان أمامى يومان، لذا ذهبت إلى الفراش. فلا فائدة من محاولة الهرب فى الظلام الدامس، فإن النتيجة الوحيدة لذلك هى أن أضل الطريق. أو أن يُقبض على: مما لا شك فيه هو أننى كنت تحت المراقبة.

استيقظت فى منتصف الليل. سمعت وقع أقدام خارج نافذتي، تحت فى الشرفة الخارجية. والآن ثمة ضجيج ينم عن خربشة، شخص ما يحاول تسلق التعريشة! هل أغلقت النافذة أم لا ؟ لم أرد أن أقوم من الفراش لأنظر. التصقت بالحائط، محدقة فى النافذة حيث رأيت خط خارجى لرأس، ثم الكتفين يظهران.... وتحت ضوء القمر استطعت أن أرى من القادم، فشعرت بالارتياح.

لم يكن سوى أمي. كانت ترتدى بذلتها البحرية الزرقاء ذات الوسط الضيق ولبادتى الكتفين، وقبعتها وقفازها الأبيضين. كان وجهها به ماكياج كامل، رسمت فمًا أكبر من فمها بطلاء الشفاه، لكن شكل الفم الأصلى كان واضحًا من خلاله. كانت تبكى، بصمت، كانت تضغط وجهها على الزجاج كطفلة، وانحدر مستحضر تجميل الأهداب من عينيها على شكل دموع سوداء.

قلت: "ماذا تريدين؟" لكنها لم ترد. مدت ذراعها لي، كانت تريدنى أن أذهب معها؛ أرادت أن نكون معًا.

بدأت أسير نحو الباب. كانت تبتسم لى الآن، هل كان يمكنها، بوجهها الملطخ، أن ترى أننى أحببتها؟ أحببتها لكن الزجاج كان بيننا، وكان ينبغى أن أعبر من خلاله. كنت أتمنى أن أخفف عنها. معًا سوف ننزل إلى الممر فى الظلام. وسوف أفعل ما تريد.

كان الباب مغلقًا. ظللت أهزه وأهزه حتى انفتح.

كنت واقفة فى الحديقة بثوبى الليلى الممزق، أرتعش فى الرياح. كان الظلام دامسًا، ولم يكن هناك قمر على الإطلاق. أنا مستيقظة الآن؛ أسنانى تصطك، خوفًا وبردًا. عدت إلى الشقة ودخلت فى الفراش.

كانت قريبة جدًّا هذه المرة، كانت على وشك أن تفعلها. إنها لم تتركنى أبدًا فى الواقع، لأننى لم أتركها أبدًا. لقد كانت هى التى تقف

ورائى فى المرآة، كانت هى الشخص الذى ينتظرنى عند كل منعطف، كان صوتها يهمس بالكلمات. كانت هى السيدة التى فى القارب، مركب الموت، السيدة المأساوية ذات الشعر المنسدل والعينين المحزونتين، السيدة فى البرج. لم تستطع أن تتحمل المنظر من النافذة، كانت الحياة لعنة بالنسبة لها. كيف أمكننى أن أتخلى عنها؟ كانت بحاجة إلى حريتها أيضًا؛ كانت هى انعكاس لنفسى لمدة طويلة. ما هى التعويذة الساحرة، ما الذى يمكن أن يطلق سراحها ؟

فكرت، إن كان لشخص ما من الجانب الآخر أن يعود من أجلى، فلماذا لم تكن العمة "لو"؟ كنت أثق بها، كان يمكن أن يدور بيننا حديث جيد، وكانت تقدم لى النصيحة وتقول لى ماذا أفعل. لكنى لم أستطع تخيل العمة "لو" تفعل ذلك. كانت تقول: "يمكنك أن تتصرفى بنفسك"، مهما كان اعتراضى بأننى لا أستطيع، كانت ترفض أن ترى أن حياتى كارثة كما كانت فى الحقيقة.

بينما أمي.... لماذا لابد أن أحلم بأمي، لماذا تنتابنى كوابيس عنها، وأسير فى نومى لألقاها؟ كانت أمى دوامة، فراغ دامس، لن أتمكن أبدًا من إسعادها، ولا إسعاد أى شخص آخر. ربما آن الأوان لأن أتوقف عن المحاولة.

الفصل الرابع والثلاثون

فى الصباح تناولت بضعة أكواب من الشاي، لأعطى نفسى طاقة ولكى أهدأ. كانت الخدعة تنحصر فى أن أكون هادئة بقدر الإمكان. سوف أتصرف وكأن كل شيء عادى، كل شيء تمام، لن أكون متعجلة وسوف أقوم بمشترياتى وأزور مكتب البريد كالعادة، لكى يظنوا أننى متعاونة. وربما حتى سوف أبحث عن مستر فيترونى وأسأله عن البيت، لكى يظنوا أننى أتماشى مع كل شيء، وسوف أنتظر حتى بعد الظهر، عندما يكون الناس موجودين، ثم أخرج بكل بساطة وأسير نازلة من التل، حاملة حقيبة يدي، وليس حقيبة السفر، وأركب أى سيارة متجهة إلى روما. لن أتمكن من أخذ الكثير معي، لكن يمكننى أن أضع الكثير فى حقيبة يدي.

رحت أبحث فى أدراج المكتب، وأقرر ما الذى سأضطر إلى تركه. لففت ثلاثة أزواج من الغيارات الداخلية، لا داعى لأخذ ملابس النوم فهى غير ضرورية؛ دفتر فريزر بوتشانان الأسود مهم. وسأضطر لترك الآلة الكاتبة، لكن روايتى *الهروب من الحب* سوف آخذها معي.

أمسكت بالنص، بنيّة لفه على شكل اسطوانة لتسهيل وضعه فى الحقيبة. ثم جلست وبدأت أتصفحه. ورأيت الآن أين مكمن الخطأ

فى هذا النص، وما الذى ينبغى أن أفعله. لابد أن تدخل شارلوت فى المتاهة، ولا سبيل للخروج منها. كانت تريد أن تدخلها منذ وصولها إلى ردموند جرانج، ولم يستطع أحد أن يقول شيئًا، لا كل حواديت الخدم ذوى الشعور المرفوعة، ولا كل التلميحات الساخرة من فليشيا كانت قادرة على منعها. لكن مشاعرها كانت ملتبسة: هل المتاهة تعنى موتًا معينًا، أو هل تحتوى الإجابة على لغز، إجابة لابد أن تعرفها لكى تعيش؟ والأهم من كل ذلك: هل بقاءُها خارج المتاهة شرط لزواجها من ردموند، أو أن الشرط هو دخولها فيها؟ من الممكن أن تتمكن من كسب حبه بالمخاطرة بحياتها وإتاحة الفرصة له كى ينقذها. سوف يرخى الأيدى من حول عنقها (أيدى من ستكون؟) ويخبرها أنها حمقاء صغيرة، ولكن شجاعة. وسوف تصبح مسز ردموند، الرابعة التى تحمل هذا الاسم.

لا تدخلى فى المتاهة يا شارلوت، قلت لها إنك بذلك تخاطرين بنفسك. كنت دائمًا أخرجك من المشكلة قبل دخولها، لكن الآن لا يمكن الاعتماد علىّ. لكنها لم تلتفت لكلامي، وهى لم تفعل ذلك أبدًا. وقفت، ووضعت تطريزها جانبًا، واستعدت للخروج. قلت لها، لا تقولى أننى لم أحذرك. لكننى لم أستطع التوقف، كان لابد أن أرى كل شيء حتى النهاية، أغلقت عينىّ. ....

كان الوقت ظهرًا عندما دخلت شارلوت إلى المتاهة. أخذت حذرها بربط أحد أطراف كرة من صوف التريكو، كانت قد اقترضتها

من مسز رايرسون بنية إصلاح شالها، وعند المدخل؛ لم تكن تنوى أن تضل طريقها.

كانت جدران المتاهة تتكون من شجيرات شائكة من النوع دائم الخضرة، وقد نمت بشكل زائد يثير الأسى. وبينما تشق شارلوت طريقها خلال الأفرع التى خرجت بلا نظام، والتى كانت تشتبك بثوبها كما لو كانت تطاردها، فكرت أنه من المؤكد أن أحدًا لم يدخل هنا منذ سنوات كثيرة. التفتت إلى اليسار، ثم إلى اليمين، وهى تفك كرة الصوف كلما تقدمت.

بالخارج، كانت السماء ملبدة، وكانت تهب ريح فبراير الباردة؛ لكن هنا، فى حماية الجدران المكونة من أوراق وأفرع النبات الكثيفة، شعرت شارلوت بدفء تام. كانت الشمس قد ظهرت والسماء تتفتح، وبالقرب منها، سمعت غناء طائر. كانت تفقد إحساسها بالوقت؛ وبدا كما لو كانت ساعات مرت وهى تسير على الطريق المبطن بالحصى بين الجدران الخضراء الشائكة. هل كان هذا من صنع خيالها، أو أن المتاهة أصبحت أكثر تهذيبًا، وكأنها لقيت عناية أفضل... وبدأت الزهور تظهر. من المؤكد أن الوقت كان مبكرًا جدًّا بالنسبة للزهور. كان لديها شعور غريب، وكأن عيونًا غير مرئية تراقبها. تذكرت قصص مسز رايرسون عن الكائنات الصغيرة، ثم ضحكت من نفسها لاستسلامها، حتى فى ذاكرتها فقط، للخرافات. لم تكن إلا متاهة

عادية، ولم يكن ثمة شيء غير عادى فيها. من المؤكد أن زوجتى ردموند السابقتين قد لقيتا مصيرهما بطريقة أخرى.

لابد أنها الآن تقترب من مركز المتاهة. التفتت عند ركن آخر، ومن المؤكد أنه كان هناك أمامها، مستطيل مفتوح مفروش بالحصى وحوله إطار من الزهور، كان النرجس البرى مزهرًا بالفعل. ولخيبة أملها، كان المكان فارغًا. حدقت شارلوت حولها باحثة عن حل لغز سمعته السيئة، لكن لم يكن هناك أى شيء. بدأت تسير عائدة من الطريق الذى جاءت منه. فجأة بدا الطريق مخيفًا، أرادت أن تخرج قبل أن يصبح الوقت متأخرًا. لم تكن تريد أن تعرف المزيد، كان من الغباء أن تدخل هنا. بدأت تجرى، لكنها ارتكبت خطأ محاولة لف كرة الصوف التريكو وهى تجرى، وتعثرت بشكل مريع. وبينما وقعت، التفت أصابع حديدية حول عنقها.... حاولت أن تصرخ، جاهدت، برزت عيناها، ونظرت حولها باحثة بيأس عن ردموند.

من خلفها جاءت ضحكة ساخرة ـــ ضحكة فليشيا! وقالت: "لم يكن هناك مكان لكلتينا، لابد لواحدة منا أن تموت".

وبينما كانت شارلوت تفقد وعيها، إذا بفليشيا تُقذف جانبًا صرة من الملابس القديمة، ووجدت شارلوت نفسها تحدق فى عينى ردموند الداكنتين. قال وهو يلهث بشدة: "حبيبتي". رفعتها ذراعان قويتان، وشعرت بشفتيه الدافئتين تضغطان على شفتيها....

هكذا كان يُفترض أن تسير الأمور، هذا هو الشكل الذى كانت تسير به دائمًا، لكن بشكل ما لم تعد الأمور تشعرنى بأنها تسير على الطريق الصحيح. لقد سلكت اتجاه خاطئ فى مكان ما؛ هناك شيء ما، حقيقة ما أو مفتاح ما، تجاهلته. وسوف أضطر أن أمشى الطريق كله من جديد، سوف أضطر لأن أبحث عن موقع مناسب وأجتاز التحركات. فكرت فى حديقة الكاردينال فى تيفولى، بكل ما فيها من تماثيل أبى الهول والنافورات والتمثال ذى الأثداء الكثيرة. هذا يمكن أن ينفع، فلها طرق كثيرة، سوف أخوض فى ذلك بعد الظهر...

لكنى كنت قد نسيت الرجل، وسيارتى وصهريجها الفارغ؛ سأضطر إلى ترك الكتاب إلى ما بعد وأركز على هروبي.

هذه المرة سوف أختفى حقًا، بدون أثر أتركه. لا أحد على الإطلاق سوف يعرف أين أنا، ولا حتى سام، ولا حتى آرثر. هذه المرة سأكون حرة تمامًا؛ لا خيوط تربطنى بالماضي، لا أصابع ناشبة. أستطيع أن أفعل ما أشاء، يمكن أن أصبح مضيفة فى بار، ويمكن أن أعود إلى تورنتو وأعمل فى التدليك، ربما كان هذا ما يجب أن افعله. أو ربما أستطيع أن أذوب فى إيطاليا، وأتزوج بائع خضر: سوف نعيش فى كوخ حجرى صغير، وسوف أنجب أطفالاً ويزيد وزنى، سوف نأكل طعامًا مدخنًا ونغطى أجسادنا بالزيت، سوف نضحك من الموت ونعيش فى الحاضر، وسوف ألف شعرى على شكل كعكة وأربى شاربًا، وستكون عندى مريلة خضراء،

مطبوعة بالزهور. كل شيء سيكون عاديًا، سوف أذهب إلى الكنيسة في أيام الآحاد، وسوف نشرب نبيذًا أحمر، وسوف أصبح خالة، وجدة، كل إنسان سوف يحترمني.

وبشكل ما لم يكن هذا مقنعًا. لماذا كان كل حلم من بنات خيالى يتحول إلى فخ؟ فى هذا الحلم رأيت نفسى أتسلق نافذة، فى مريلتى وكعكتي، مهملة صرخات الأطفال والأحفاد خلفي. فكرت، بل ربما أيضًا أواجهها، أنا كنت فنانة، فنانة هاربة. ربما تكلمت فى وقت ما عن الحب والالتزام، ولكن الحب الحقيقى فى حياتى كان ذلك الذى بين هودينى وحباله وصندوقه المغلق؛ وأنا أدخل إلى قبضة العبودية، ثم أنسل خارجها مرة أخرى. ما الذى فعلته أنا فى حياتى غير ذلك؟

غسلت شعري، وأنا أدندن، كما لو كنت أستعد لسهرة كبيرة. كثير من لونه البنى بهت، ولكنى لم أعد أهتم.

خرجت إلى الشرفة بقدمى العارية المبللة لأجفف شعري. كان هناك نسيم، بعيدًا فى الوادى كنت أسمع طلقات بنادق، لابد أن شخصًا يطلق النار على طائر. كانوا يصطادون أى شيء يتحرك هنا، تقريبًا، كانوا يصنعون فطائر من الطيور المغردة ليأكلوها، كانت الأفواه تلتهم كل الموسيقى. العيون والآذان كانت تبدو أيضًا جائعة، لكن جوعها ليس ظاهرًابوضوح. وفكرت أننى من الآن فصاعدا سوف أرقص لنفسى فقط. همست لنفسي: هل تسمحين لى بهذا الفالس؟

رفعت نفسى على أصابع قدمى الحافية، ورحت ألف وأدور، بتردد فى البداية، وامتلأ الهواء بنقاط صغيرة لامعة. رفعت ذراعى وأرجحتهما فى الوقت المناسب مع الموسيقى الرقيقة، تذكرت الموسيقى، تذكرت كل خطوة وكل لمحة. كان الطريق طويلاً إلى الأرض من هنا؛ كنت أشعر ببعض الدوار، أغلقت عينيّ. نبتت من كتفى أجنحة، وتسلل ذراع حول وسطى ...

اللعنة. لقد رقصت مباشرة فوق الزجاج المكسور، وبقدمى العارية أيضًا. مثل الفراشة. عرجت إلى الغرفة الرئيسية، وأنا أجر قدمى تاركة آثار أقدام دموية وبحثت عن فوطة. غسلت قدمى فى حوض الاستحمام؛ وبدا باطن قدمى وكأنه مفروم. الحذاء الأحمر الحقيقي، القدم معاقبة لرقصها. يمكنك الرقص، أو يمكنك الحصول على حب رجل طيب. لكنك كنت تخشين الرقص، لأن لديك هذا الخوف غير الطبيعى من أنك إذا رقصت سوف تُقطع قدماك ومن ثم لن تكونى قادرة على الرقص، وأخيرًا قهرت خوفك ورقصت، وقطعت قدميك. الرجل الطيب ذهب أيضًا، لأنك أردت الرقص.

لأننى اخترت الحب، أردت الرجل الطيب؛ لماذا لم يكن هذا هو الاختيار المناسب؟ لم أكن أبدًا فتاة راقصة على أى حال. الدب فى الساحة لا يظهر إلا للرقص، حقيقة، فهو على قدميه الخلفيتين يحاول تفادى الأسهم. والآن لم تكن لدى أى أربطة للإسعاف. جلست

على حافة حوض الاستحمام، والدموع تنهمر يأسًا من عينىّ، والدم ينهمر يأسًا من الجروح الصغيرة فى قدمي.

ذهبت إلى الغرفة الأخرى ورقدت على السرير، قدمى مرفوعة على المخدة ليسير الدم فى الاتجاه الآخر. كيف يمكننى الهرب الآن، على قدمى الجريحة؟

الفصل الخامس والثلاثون

بعد حوالى ساعتين قمت. لم تكن قدمى سيئة جدًا كما ظننت، كنت لا أزال قادرة على المشي. مارست المشى ببطء كالعرجاء، ذهابًا وإيابًا عبر الغرفة. في كل خطوة خطوتها كان بعض الألم يسرى فى قدمي. وفكرت، عروس البحر الصغيرة تركب مرة أخرى، عروس البحر الكبيرة تركب ثانية.

سأضطر إلى السير حتى المدينة، أعرج بين قفازات العجائز الجالسات، اللائى يصنعن أبواقًا بأيديهن، ويطلبن من الأطفال إلقاء الحجارة، ويتمنين لى سوء الحظ. ماذا رأت، تلك العيون خلف النوافذ فى الجدران الحجرية؟ وحش أنثوي، أكبر من الحياة، أكبر من معظم أنماط الحياة حولى هنا على أية حال، تسير نازلة التل، شعرها يقف على أطرافه بقوى كهربائية، تنبعث من أصابعها فولتات من طاقة الحقد، عيناها الخضراوتان وراء نظارتها الغامقة السياحية، نظارتها التى تشبه نظارات المافيا، تبرق وتلمع مثل عينى القطة. خذوا الحذر، أيتها النساء اللائى ترتدين جوارب سوداء قديمة وتشكلن مناطيد مراقبة، وإلا فلسوف أشن هجوما عليكن، رغم إشارات عينونكن الشريرة، وصلواتكن المغمغمة إلى القديسين. هل كانوا يعتقدن أننى أطير فى الليل مثل العثة، وأشرب الدم من أقدامهن

الكبيرة؟ لو ارتديت ثوبًا أسود وجوارب سوداء طويلة، فهل أعجبهن عندئذ ؟

وفكرت، ربما لم تسمِّنى أمى على اسم جوان كراوفورد[1] قبل كل شيء، لابد أنها قالت لى ذلك فقط كنوع من التغطية. لقد أسمتنى جوان تيمنًا باسم جوان أوف آرك (جان دارك)، ألم تكن تعرف ماذا يحدث للنساء من أمثالها؟ كانت تُوجّه إليهن تُهمة الشعوذة ،ويربطن بالحبال فى الأوتاد، وكُن يُشعّنّ ضوءً جميلا؛ فالنجم ما هو إلا نقطة من غاز مشتعل. لكننى كنت جبانة، كنت أتمنى ألا أفوز ولا أشتعل، وأجلس فى المدرج المسقوف آكل الفشار وأراقب اللاعبين مع الآخرين. وعندما بدأت تسمعين أصواتًا كنت فى قلب الخطر، خاصة لو كنت صدقتيهم. فرح الإنجليز وهتفوا وجوان تستعر كالبركان، كالصاروخ، مثل بودنج الخوخ. وألقوا الرماد فى النهر؛ لم يتبقَ منها سوى قلبها.

سرت صاعدة التل، وشققت طريقى بين العجائز لابسات السواد على الدرجات، متجاهلة عيونهن العدائية، وسرت عبر الشارع الذى يقود إلى مكتب البريد. كان الشرطيان أو الجنديان فى مكانهما؛ المرأة الضخمة خلف طاولة الاستقبال كانت هناك، أيضًا.

---

(١) Joan Crawford، (١٩٠٥-١٩٧٧)، ممثلة أمريكية اشتهرت منذ أواخر العشرينيات، كانت تمثل دور المرأة العاملة واعتبرتها نساء الطبقة العاملة الأمريكية ممثلة لهن.

كانت تعرف من أنا الآن، لم أكن بحاجة لأن أسأل. سلمتنى مظروفًا بنيًا آخر من مظاريف سام. وكان ملمسه يوحى بأنه يحمل المزيد من قصاصات الصحف، ففتحته.

كانت هناك قصاصات صحف أخرى؛ لكن على قمتها كانت رسالة، على ورق من أوراق مكاتب المحاماة:

عزيزتى مس ديلاكورت:

عميلي، مستر سام سبينسكى، طلب منى أن أرسل لك رفق طى هذا المظروف. وهو يشعر أن هناك شيئًا يمكنك فعله لمساعدته فى مأزقه الحالي. وقد طلب منى ألا أكشف مكان وجودك حتى إخطار آخر.

والتوقيع المكتوب عبارة عن خربشة بخط اليد؛ وتحت منه كانت رسالة عبارة عن قصاصة صحفية تقول:

الشاعرة كانت تخشى الاغتيال في تخلص إرهابي من غير المرغوب فيهم!

جلست على الدكة، ناسية مراعاة أصول اللياقة، إلى جانب شرطي. كان هذا مرعبًا. سام ومارلين تم القبض عليهما بتهمة القتل، لقد اُتهما بقتلى، وهما فى السجن. وللحظة فكرت فى مقدار سرور مارلين؛ لكنها، سوف تغضب جدًّا لأننى السبب وليس إضرابًا ما أو

مظاهرة. ومع ذلك، فالسجن هو السجن. إذا لم يقولا شيئًا بعد، كان هذا واضحًا.

كانت هي تلك العائلة على الشاطئ، التي كانت تقوم بنزهة خلوية. لقد رأوني أندفع في المياه، ورأوني أغطس فيها. وقرأوا القصة في الصحيفة، والمقابلة مع مارلين الذي قالت فيه أنهم ألقوا لي طوق نجاة. ولكن لم يكن هناك ثمة طوق نجاة، وعندما كانت الشرطة تحقق في مكان تأجير القوارب قالوا أنه لم يكن ثمة طوق في القارب. ووجدوا ثوبي، في القارب؛ وهذا جعلهم يرتابون. كان اسم العائلة مورجان. قال مستر مورجان أنه سمع صراخًا (لا يمكن، فقد كنت بعيدة جدًّا، وكانت الرياح شديدة) ونظر حينها ليرى سام ومارلين منحنيان على جانب القارب، بعد أن دفعاني مباشرة من فوقه. كانت هناك صورة لمستر مورجان، وكذلك صورة لي، الصورة الباسمة التي التقطت يوم موتي. وبدا مستر مورجان جادًّا ومسئولاً، كان يعيش أزهى أيام حياته، فأخيرًا أصبح مهمًّا، وكأنه كان يمثل فيلمًا خاصًّا به، من تأليفه وإخراجه.

مسكين سام. فلابد أنه الآن قد أنفق كل ما يملك وأصبح صفر اليدين، وقد اكتسب الآن لقب "القاتل النذل"، وأخذ خازوقًا كبيرًا. استجوبه مخبران، أحدهما يمثل دور الكريم ويقدم له سجائر وقهوة، والآخر استأسد عليه، وكل هذا بسبب غبائي، وجبني. كان لابد أن

أبقى حيث أنا وأواجه الواقع. مسكين سام اللطيف، بنظرياته العنيفة؛ إنه لا يمكن أن يؤذى ذبابة.

تمت الإشارة لى باعتبارى "شخصية هامة" فى مؤامرة غامضة لتفجير ديناميت. من الواضح أن والد مارلين تقدم بمعلومات حول بعض الديناميت المفقود، وانهارت مارلين واعترفت بأنها أخذته. لكنها لم تستطع أن تظهره. أخبرتهم أننى كنت مسئولة عنه؛ وأخبرتهم عن السيارة المستعملة أيضًا، لكنهم لم يستطيعوا أن يجدوها. افترض البوليس أن ما يشيرون إليه باسم "خلية" سام قررت تصفيتى لأننى كنت أعرف أكثر من اللازم، وأتصرف بما يوحى بالخيانة. وأخذوا آرثر لاستجوابه، لكنهم تركوه فيما بعد. كان من الواضح أنه بريء وجاهل بكل شيء.

لابد أن أعود وأنقذهم. يمكننى أن أعود. ربما أستطيع أن أرسل إلى الشرطة جزءًا منى كتذكار، فقط ليعرفوا أننى لا أزال حية. إصبع، أتوجراف(توقيع بخط اليد)، ربما إحدى أسناني؟

قمت من فوق الدكة، وأنا أضع القصاصات فى حقيبة يدي. خرجت واتجهت نحو التل، ثم رأيت مستر فيترونى. كان يجلس على منضدة خارجية للمقهى وكان هناك رجل آخر معه. لم أستطع رؤيته بوضوح، كان ظهره ناحيتي، لكن من المؤكد أن هذا هو الرجل، وقد جاء مبكرًا يومًا.

رآنى مستر فيترونى، كان ينظر ناحيتى مباشرة. أسرعت أعبر الميدان، كنت أهرب تقريبًا. لكنى أبطأت. ونظرت خلفى مرة واحدة، وكان مستر فيترونى يقوم، مصافحًا الرجل. ...

لففت عند الناصية، وبدأت أجرى بقوة. لابد أن *أكون هادئة، لابد أن أكون متمالكة لنفسي، لابد أن أتمالك نفسي.* صرخت قدماى المجروحتان وهما يصطدمان بالحجارة.

الفصل السادس والثلاثون

أخيرًا وصلتُ إلى الشرفة. كانت الشمس تغرب، وكانت الشرفة تتألق بزجاجها الذى تضيئه أشعة الشمس، والذى كان مكسورًا وحادًّا كالنار. وفى النافذة الزجاجية كان انعكاس صورتى يوجد إلى جانبي، الوجه داكن، والشعر يقف على أطرافه حول وجهي، هالة نورانية حمراء.

فتحت الباب ودخلت. لم يكن هناك أحد بالداخل، ليس بعد، كنت لا يزال لدى وقت ... لم أره بوضوح. ربما أستطيع التملص منه. كان على أن أنتظر حتى يكون سائرًا بجوار الشرفة؛ ثم أنسحب إلى الحمام وأغلق الباب بالمزلاج. وبينما يحاول الدخول، يمكننى أن أتسلق على التواليت وأخرج من خلال النافذة الضيقة.

ذهبت إلى الحمام لأنظر إلى النافذة. كانت صغيرة جدًّا، وسوف أنحشر فيها. ولا أريد أن يقبض علىّ ولا أن يرانى أحد ونصفى خارج النافذة، إنها صورة مهينة جدًّا.

ربما يمكننى الاختباء بين الخرشوف. ربما أستطيع الجرى وأنا نازلة من فوق التل، ربما أستطيع أن أختفى ولا يتم العثور علىّ أبدًا. لكن إذا هربت سوف يقبض علىّ بكل بساطة، آجلاً أم عاجلاً، وبدلاً من ذلك سوف أقوم بالدفاع عن نفسى، رفضت العودة. وذهبت إلى

المطبخ، وأخرجت زجاجة السنزانو الفارغة من صفيحة القمامة، وأمسكتها من رقبتها.

ربضت خلف الباب، بعيدًا عن مرأى النافذة، وانتظرت. مر الوقت؛ ولم يحدث شيء. ربما كنت مخطئة، ربما لم يكن هو الرجل المقصود، أو ربما لم يكن هناك رجل على الإطلاق، وقد اخترعه مستر فيترونى ليخيفني. بدأت أشعر بالقلق. وطرأ على ذهنى أننى قضيت كثيرًا من حياتى رابضة خلف أبواب مغلقة، أستمع إلى أصوات على الجانب الآخر.

كان الباب نفسه عاديًا جدًّا. من خلال اللوح الزجاجى فى أعلاه كان يمكننى رؤية قطعة صغيرة من العالم الخارجي: سماء زرقاء، بعض السحب الرمادية بمسحة من اللون الوردي.

كان الوقت فى الظهيرة عندما دخلت المتاهة. كانت قد قررت أن تكتشف سرها أخيرًا. كانت المتاهة مصدر خطر لفترة طويلة. فى مرات كثيرة طلبت من ردموند أن يقوم بإزالتها، لكنه لم يستمع إليها. قال أنها جزء من ميراث وذكريات عائلته لأجيال طويلة. لم يكن يبدو أنه يعنيه أن الكثيرين ضلوا طريقهم فيها.

غيرت اتجاهها عدة مرات دون أى حادث عرضي. كان من الضرورى أن تتذكر الطريق الذى جاءت منه، وحاولت أن تفعل

ذلك، متذكرة بعض التفاصيل الصغيرة، شكل شجيرة، أو لون زهرة. كان المدخل قد فُرش حديثًا بالحصى؛ هنا وهناك كانت زهور البنفسج البرى تتفتح.

فجأة وجدت نفسها فى القطعة المركزية من الأرض. كان هناك مقعد حجرى طويل على أحد الجوانب، وعليه كانت تجلس أربعة نساء. اثنتان منهما يشبهانها كثيرًا، شعر أحمر وعينان خضراوان وأسنان صغيرة بيضاء. والثالثة كانت فى وسط العمر، ترتدى رداء غريبًا ينتهى فى منتصف الطريق إلى ساقيها، وتلف حول عنقها قطعة فرو بلون الفأر. كانت الأخيرة بدينة جدًّا. وترتدى بلوزة ضيقة للغاية، وتنورة قصيرة وردية مغطاة بالترتر. ومن رأسها برز قرنا استشعار شبيهان بقرنى استشعار الفراشة، وزوج من الأجنحة الزائفة بشكل واضح ملصقان إلى ظهرها. دهشت فليشيا لظهور المرأة ذات الرداء الوردى، لكن تربيتها كانت تربية حسنة، فلم تظهر دهشتها.

غمغمت النساء بين أنفسهن. قلن: "لقد كنا بانتظارك"؛ تزحزحت المرأة الأولى، لتفسح لها مكانًا. "استطعنا أن نتنبأ بأن الدور عليك".

سألت: "من أنتن؟"

قالت المرأة متوسطة العمر بحزن وأسى: "إننا زوجات ردموند"، وأضافت البدينة ذات الجناحين: "كلنا".

اعترضت فليشيا: "لابد أن يكون هناك خطأ ما، فأنا نفسى زوجة ردموند".

قالت المرأة الأولى: "أوه، نعم، نعرف هذا. لكن كل رجل له أكثر من زوجة. أحيانًا كلهن فى وقت واحد، أحيانًا واحدة واحدة، أحيانًا تكون له زوجات هو نفسه لا يعرف عنهن شيئًا".

سألت فليشيا: "كيف جئتن إلى هنا؟ لماذا لم تعدن إلى العالم الخارجي؟"

قالت المرأة الأولى: "نعود؟ لقد حاولنا جميعًا أن نعود، كان هذا هو خطأنا". نظرت فليشيا خلفها، وحقيقة، كان الطريق الذى دخلت منه قد نما الآن بأفرع كثيرة؛ ولم تستطع أن تعرف حتى من أين جاءت. لقد وقعت فى مصيدة هذا المكان مع تلك النسوة. ... ألم يكن هناك شيء غريب بالنسبة لهن؟ ألم تكن بشرتهن بيضاء أكثر من المعتاد، ألم تكن عيونهن شديدة الغموض...؟ لاحظت أنها تستطيع أن ترى الخط الغامق لطرف المقعد من خلال أجسادهن الغامضة الشفافة.

قالت المرأة الأولى: "الطريق الوحيد إلى الخارج هو من خلال هذا الباب".

ونظرت إلى باب. كان عند الجانب الآخر من القطعة المغطاة بالحصى، متصل بإطار باب، لكن لا شيء آخر يدعمه. سارت حوله من كل ناحية: كان نفس الشيء من كلتا الناحيتين. كان له سطح بسيط لا شيء فيه، ومقبض باب؛ وهناك مرآة باب زجاجية صغيرة فى أعلاه، ومن خلالها كانت ترى السماء الزرقاء وبعض السحب الرمادية بمسحة من اللون الوردي.

أمسكت مقبض الباب وأدارته. فتح الباب وتأرجح إلى الخارج... هناك، على العتبة، كان ردموند واقفًا بانتظارها. كانت على وشك أن تلقى نفسها بين ذراعيه، باكية بشعور من الراحة والفرج، عندما لاحظت تعبيرًا غريبًا فى عينيه. وهنا عرفت. كان ردموند هو القاتل. كان قاتلاً متنكرًا، كان يريد أن يقتلها كما قتل زوجاته الأخريات... ثم سوف تبقى دائمًا هنا معهن، فى مركز المتاهة... أراد أن يستبدلها بالأخرى، التالية، النحيفة والرائعة.

قالت: "لا تلمسني"، وهى ترجع خطوة إلى الخلف. لقد رفضت أن يقضى عليها. طالما بقيت على هذه الناحية من الباب سوف تكون آمنة. بدأ، بمكر، تحولاته، محاولاً أن يغريها لكى تكون فى متناول يده. نما على وجهه قناع من شاش أبيض، ثم نظارة زجاجها به مسحة من اللون البنفسجى الباهت، ثم لحية حمراء وشارب، تلاشيا، ليظهر بدلاً منه عينان ملتهبتان وأسنان كأطراف الثلج الحادة المتدلية

من الأسقف. ثم اختفت عباءته ووقف ينظر إليها بحزن؛ كان يرتدى سويتر برقبة طراز السلحفاة.

قالت: "آرثر؟". هل يستطيع أبدًا أن يعفو عنها ؟

استعاد ردموند عباءاته الأوبرالية. كان فمه متصلبًا وشهوانيًّا، وعيناه تنمان عن غضب مكبوت. همس: "دعينى آخذك بعيدًا، دعينى أنقذك. سوف نرقص معًا إلى الأبد، دائمًا".

قالت وقد كادت تستسلم: "دائمًا، ... إلى الأبد". كانت فى يوم من الأيام تريد تلك الكلمات، انتظرت طوال حياتها أن يقولها شخص لها.... تصورت نفسها تتهادى ببطء على أرض غرفة الرقص،و ذراع قوية حول وسطها...

قالت: "لا، أعرف من أنت".

وقع اللحم من على وجهه، كاشفًا الجمجمة خلفه؛ خطا نحوها، محاولاً الوصول إلى عنقها...

فتحت عينيّ. كنت أسمع خطوات تأتى على الطريق المفروش بالحصى. كانت خطوات أقدام حقيقية، وكانت قد وصلت إلى الشرفة، وتوقفت خارج الباب. دقت يد على الباب برقة، مرة، مرتين.

كان ما زال لدى فرصة للاختيار. يمكن أن أتظاهر بأننى غير موجودة، ويمكن أن أنتظر ولا أفعل شيئًا، يمكن أن أتنكر بصوت

مختلف وأقول أننى شخصية أخرى. لكن لو أدرت المقبض سوف ينفتح الباب ويتأرجح إلى الخارج، وسوف أضطر لمواجهة الرجل الذى وقف بانتظاري، بانتظار أن يأخذ حياتي.فتحت الباب، كنت أعرف من سيكون.

الفصل السابع والثلاثون

لم أقصد فى الواقع أن أضربه بزجاجة السنزانو. أعني، كنت أقصد ضرب شخص ما، ولكن المسألة لم تكن شخصية، فأنا لم أره أبدًا فى حياتي، كان شخص غريب تمامًا عنى. أظن أن الأمر كله أننى اندفعت مع أفكاري: فقد بدا مثل شخص آخر. ....

ومن المؤكد أننى لم أفكر أننى سوف أصرعه بهذه الطريقة؛ أعتقد أنها حالة من عدم معرفة مدى قوتك. كان شعورى بشعًا عما حدث، خاصة عندما رأيت الدم. لم أستطع أن أتركه هناك ببساطة، ربما أصابه ارتجاج فى المخ، أو نزف حتى الموت، ومن ثم فقد طلبت من مستر فيترونى أن يستدعى طبيبًا. قلت أننى ظننت هذا الرجل كان يحاول اقتحام المنزل. ومن حسن الحظ أنه كان فى حالة غياب عن الوعي، ولم يكن بإمكانه أن يعارضني.

وكان لطيفًا منه أنه رفض أن يرفع دعوى عندما عاد إلى وعيه. فى البداية فكرت أن السبب كان لأنه أراد القصة: فهذه شيم الصحفيين. تكلمت كثيرًا، بالطبع، لكنى كنت أشعر بعصبية. أظن أن كل هذا الكلام سوف يصنع قصة شديدة الغرابة، بعد أن يكتبها؛ والشيء الغريب هو أننى لم أقل أية أكاذيب. حسنًا، ليس الكثير من الأكاذيب. بعض الأسماء وقليل من الأشياء الأخرى، لكن ليس شيئًا رئيسيًا. افترض أننى كان يمكننى رغم كل شيء أن أخرج من

المسألة. كنت أستطيع أن أقول أننى مصابة بفقدان ذاكرة أو شيء كهذا. ... أو كنت أستطيع أن أهرب؛ لن يكون بمقدوره أن يتتبعني. وأدهشنى أننى لم أفعل هذا، حيث أننى كنت دائمًا أرتعد من العثور عليّ أو اكتشافي. لكن بشكل ما لم أستطع أن أهرب بكل بساطة وأتركه وحده فى المستشفى ولا أحد يتكلم معه؛ ليس بعد أن كدت أقتله بطريق الخطأ.

لابد أنها كانت صدمة بالنسبة له أن يستيقظ فى الفراش بسبع غرز. شعرت بالذنب بشدة لهذا. كان معطفه فى حالة بشعة، أيضًا، ولكنى قلت له أنه سوف يعود إلى طبيعته فى أحد محلات التنظيف على الناشف، وعرضت أن أدفع لهذا الغرض لكنه لم يسمح بذلك. أخذت له بدلاً من ذلك بعض الزهور؛ لم أستطع أن أجد أى زهور، ومن ثم فقد كانت شيئًا أصفر، نوع من زهور عباد الشمس. كانت ذابلة بعض الشيء، قلت ربما يمكنه أن يطلب من الممرضة أن تضعها فى إناء به ماء. وبدا عليه السرور.

كانت لمحة طيبة منه أن أقرضنى ثمن تذكرة الطائرة. سوف أعيده إليه عندما أعود إلى تنظيم حياتى مرة أخرى. أول شيء هو إخراج سام ومارلين من السجن، أنا أدين لهما بذلك. كان محامى سام هو الذى أفشى حقيقة أننى لا أزال حية؛ ولا يجب أن أحمل له ضغينة لذلك، كان يؤدى واجبه فقط. وسوف يكون عليّ أن أرى آرثر، رغم أننى لا أتطلع إلى هذا، ولا إلى كل تلك الإيضاحات، وتعبيره عن

الغضب الصامت. بعد أن تنشر القصة سوف يعرف الحقيقة على أية حال. كان يحبنى تحت ادعاءات زائفة، ومن ثم لا ينبغى أن أشعر بأننى مرفوضة عندما يتوقف حبه لي. لا أظن أنه تلقى حتى بطاقتى البريدية حتى الآن، لقد نسيت أن أرسلها بالبريد الجوى.

بعد ذلك، حسنًا، ليست لدى أية خطط محددة. سوف أشعر كبلهاء بكل تلك الدعاية، لكن هذا ليس جديدًا. ربما يقولون أن اختفائى كان نوعًا من الإثارة، خدعة. ... ومع ذلك فلن أكتب المزيد من الأزياء القوطية؛ أظن أنها كانت سيئة بالنسبة لي. لكن ربما سوف أحاول كتابة بعض الخيال العلمي. المستقبل لا يبدو رائعًا بالنسبة لي، وكذلك الماضي، لكنى متأكدة أنه سيكون أفضل بالنسبة لك. لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير فى أننى ينبغى أن أتعلم درسًا من كل هذا، كما كانت أمى تقول فى مثل هذه الأحوال.

أما الآن، فمن الأسهل أن أظل هنا فى روما ــ لقد وجدت فندقًا صغيرًا رخيصًا ــ وأسير إلى المستشفى فى ساعات الزيارة. لم يخبر أحدًا بعد أين مكاني، وقد وعد بأنه لن يفعل لمدة أسبوع. إنه رجل لطيف؛ أنفه ليس جميلاً جدًا، لكنى يجب أن أعترف أن هناك شيئًا جذابًا فى الرجل الملفوف بالضمادات. ... كما أننى بدأت أشعر أنه الشخص الوحيد الذى يعرف شيئًا عنى. ربما لأنني، أبدًا فى حياتي، لم أضرب أحدًا آخر بزجاجة، ومن ثم لم أستطع أبدًا أن أرى هذا الجانب من شخصيتي، ولا وصلت حتى إلى التفكير فيه.

لقد تسبب ما حدث فى الكثير من الفوضى فعلا؛ ولكنني، مع ذلك، فلا أظن أننى سأكون شخصية مُرتبة جدا.

المؤلفة فى سطور:

مارجريت أتوود

ولدت فى ١٨ نوفمبر ١٩٣٩، أوتاوا، أونتاريو، كندا.

خريجة جامعتى تورنتو، ١٩٦١، وهارفارد بكمبريدج، ٦٢-١٩٦٣، ٦٥-١٩٦٧.

رئيسة اتحاد كتاب كندا من مايو ١٩٨١ إلى مايو ١٩٨٢، وأيضًا رئيسة المركز الكندى لنادى القلم الدولي، فى الفترة من ١٩٨٤-١٩٨٦.

حققت كتبها أعلى المبيعات، وحصلت على العديد من الجوائز الأدبية، ومنها جائزة بوكر عام ٢٠٠٠، عن رواية "القاتل الأعمى" The Blind Assassin، وجائزة جيللر عام ١٩٩٦، عن المذنبة Alias Grace، وجائزة رواية العام من مؤسسة المؤلفين الكنديين عام ١٩٩٣ عن روايتها The Robber Bride.

كتبت مارجريت أتوود العديد من الكتب والمقالات، ولها دواوين شعرية، وروايات، وقصص، وكتب ومقالات فى النقد الأدبي، وأعمال للأطفال، وأعمال للتليفزيون.

المترجم فى سطور:

مصطفى عز

من مواليد القاهرة ١٩٥٢

تخرج من كلية الإعلام ــ جامعة القاهرة ١٩٧٦

يعمل مترجمًا باتحاد الإذاعة والتليفزيون منذ عام ١٩٧٧

قام بترجمة العديد من الموضوعات والمقالات والأعمال الأدبية والسياسية والتاريخية، نشر بعضها فى كتب جامعة، وأذيع الكثير منها بالإذاعة.

المراجع فى سطور:

محمد رشدى محمد سالم

من مواليد القاهرة ١٩٤٠م

- تخرج من كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٦٠م.
- عمل مدرسًا للغة الإنجليزية بالمدارس الثانوية المصرية ثم الكلية الحربية المصرية حتى عام ١٩٧٥م.
- أعير للعمل مدرسا فى دولة الكويت، ثم مدرسًا وموجهًا للغة الإنجليزية بدولة الإمارات إلى أن أحيل إلى المعاش عام ٢٠٠٠م.
- حصل على شهادة مترجم قانونى من دولة الإمارات عام ٢٠٠٠م.
- مارس أعمال الترجمة المختلفة منذ عام ١٩٨٥م فى دولة الإمارات، ولا يزال رغم عودته للحياة في مصر.
- فى مصر اشترك فى ترجمة الموسوعة التى ألفها رئيس وزراء ماليزيا السابق د/ محاتير محمد، فترجم المجلد الخامس منها.

التصحيح اللغوى: سوزان عبد العال

الإشـــراف الفنى: حســــــن كامــــل



"خططت لموتى بعناية؛ على عكس حياتى، التى تقلبت من حال إلى حال، على الرغم من محاولاتى الواهية للتحكم فيها. اشتملت حياتى على نزعة إلى الانتشار والترهل، والتزخرف والتزين مثل إطار مرآة مزخرفة بدقة تدعو للتعجب" .

هكذا تبدأ مارجريت آتوود روايتها، بفقرة مليئة بالغموض تجمع فى ثناياها البداية والنهاية، الحزن والسخرية، الصمت والضجيج، الوعى والثبات، وقلة الحيلة، كل ذلك فى وقت واحد.

استطاعت الكاتبة ببراعة أيضًا أن تضفر ثلاثة خطوط مختلفة ومتشعبة لحياة بطلتها، ثم تجمعها فى النهاية بذكاء وأسلوب فنى متميز.

وتمس الكاتبة فى القصة مجموعة من القضايا الاجتماعية المعاصرة والمشكلات التى تمس المرأة الأوروبية والمجتمع الغربى بشكل عام، ساخرة أحيانًا سخرية لاذعة، ولا تخلو من الإثارة المتعلقة بتطور الأحداث، ففى أحيان كثيرة يفاجأ القارئ بما لم يكن يتوقع، مما يضفى على القراءة عنصر التشويق بالإضافة إلى خفة الظل التى تتمتع بها الكاتبة.

تصميم الغلاف: نسرين كنك

الإبداع القصصى